نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني


المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء السادس



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف
الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني
المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء السادس

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية

Dar al-Kotob al-Ilmiyah

بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت
Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut

هاتف و فاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨
Tel & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398

Beirut - lebanon بيروت - لبنان



صلة الباب السابع
في نبذة مما مَنّ الله تعالى به
على أهل الأندلس من توقد الأذهان

وما أحسن قول الوزير ابن عبدون في مطلع رائيته الشهيرة[1]: [البسيط]

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بعد العَيْنِ بالأثرِ ... فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ

وهو القائل: [البسيط]

يا نائمَ الليلِ في فِكْرِ الشباب أَفِقْ ... فَصُبْحُ شيبكَ في أُفْقِ النُّهَى بادي
غَضَّتْ عِنَانَكَ أيدي الدهرِ ناسخةً ... علمًا بجهلٍ وإصلاحًا بإفسادِ
وأسلمتْ للمنايا آلَ مَسْلَمَةٍ ... وعَبَّدَتْ للرزايا آلَ عبّادِ
لقد هوتْ منكَ، خانتها قوادمها، ... بكوكبٍ في سماء المجد وَقَّادِ

ومنها:

ومالك كان يحمي[2] شَولَ قرطبةٍ ... أستغفرُ اللَّهَ، لا، بل شَولَ بغدادِ
شَقَّ العلومَ نطافًا والعُلاَ زَهَرًا ... فبين[3] ما بين روّاد ورُوّاد

(١) البيت من مرثية قالها ابن عبدون في بني الأفطس أصحاب بطليوس في عصر ملوك الطوائف. وقد تقدم في الجزء الأول وسيرد في الجزء السابع.

(٢) أخذ هذا من المثل القائل: «الفَحْلُ يَحْمي شَوْله معقولاً». الشَّول: النُّوْق التي خفَّ لبنُها وارتفع ضَرْعُها، أي أن الحرّ يحتمل الأمر الجليل في حفظ حُرَمه وإن كانت به علّة. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٧٢).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٥): «فبين».

وأين هذه القصيدة في مدحهم من قصيدة الغَضِّ منهم، وهي قول أبي الحسن جعفر بن إبراهيم ابن الحاج اللورقي: [الطويل]

تَعَزَّ عن الدنيا ومعروفِ أَهْلِها   إذا عُدِمَ المعروفُ في آلِ عبادِ
حَلَلْتُ بهمْ ضيفًا ثلاثةَ أشهرٍ   بغيرِ قِرًى ثم ارتحلْتُ بلا زادِ

وهذا يدلّك على أن الشعراء، لم يَسْلَم من لسانهم مَنْ أحسن فضلاً عَمَّنْ أساء، من العظماء والرؤساء، وما أمدح قول أبي محمد بن غانم فيهم: [الكامل]

ومن الغريب غروبُ شمسٍ في الثرى   وضياؤها باقٍ على الآفاقِ

وقال في المطمح في حقّ بني عباد وأوليّتهم ما صورتُهُ[1]: الوزير أبو القاسم محمد بن عباد، هذه بقيةٌ منتماها في لخم، ومرتماها إلى مفخر ضخم، وجَدّهم المنذر بن ماء السماء، ومَطْلعهم في[2] جوّ تلك السماء، وبنو عبّاد ملوك أَنِسَ بهم الدهر، وتنفّس منهم عن أَعْبَقِ الزهر، وعَمروا ربع الملك، وأمروا بالحياة والهلك، ومُعْتَضِدُهم أحد من أقام وأقعد، وتبوّأ كاهِلَ الإرهاب واقتعد، وافترش من عريسَته[3]، وافترس من مكايد فريسته، وزاحم بعَوْد، وهَدَّ كل طَوْد، وأَخْمَل كل ذي زي وشارة، وخَتَل بوحي وإشارة، ومعتمدهم كان أجود الأملاك، وأحد نَيِّرَات تلك الأفلاك، وهو القائل، وقد شغل عن منادمة خواصّ دولته بمنادمة العقائل: [البسيط]

لقد حَنَنْتُ إلى ما اعتدتُ مِنْ كرمٍ   حنينَ أرضٍ إلى مستأخِرِ المطرِ
فهاتها خِلَعًا أُرْضِي السماحَ بها   محفوفةً في أكفِّ الشَّرْبِ بالبِدَرِ[4]

وهو القائل وقد حَنَّ في طَريقه، إلى فريقه: [الطويل]

أدارَ النوى كم طال فيكِ تلدّذي   وكم عُقْتِنِي عن دارِ أَهْيَفَ أَغْيَدِ
حلفتُ به لو قد تَعَرَّضَ دونه   كُماةُ الأعادي في النسيجِ المُسَرَّدِ
لَجَرَّدْتُ للضربِ المهنَّدَ، فانقضى   مُرادي، وعزمًا مثلَ حَدِّ المُهَنَّدِ

---

(١) مطمح الأنفس (ص ١٠).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٢٦): «من جوّ».

(٣) العِرِّيسة، بكسر العين والراء المشددة: مسكن الأسود، لسان العرب (عرس).

(٤) البِدَرُ: جمع بَدْرة وهي كيس توضع فيه النقود. لسان العرب (بدر).

والقاضي أبو القاسم هذا جدّهم، وبه سَفَر مَجْدُهم، وهو الذي اقتنص لهم الملك النافر، واختصّهم منه بالحظّ الوافر، فإنه أخذ الرياسة من أيدي جبابر، وأضحى من ظلالها أعيان أكابر، عندما أناخت بها أطماعُهُم، وأصاخت إليها أسماعهم، وامتدّت إليها من مستحقيها اليد، وأتلعوا أجيادًا زانها الْجَيَد، وفَغَر عليها فمه حتى هجا بيت العبدى، وتصدّى إليها من تحضّر وتَبَدَّى، فاقتعد سَنامها وغاربها، وأبعد عنها عَجَمها وأعاربها، وفاز من الملك بأوفر حِصَّة، وغدتْ سِمَتُه به صفة مختصّة، فيما يمح رسم القضاء، ولم يتّسم بسمة الملك مع ذلك النفوذ والمَضَاء، وما زال يحمي حَوْزته، ويجلو عزّته[1]، حتى حوته الرجام، وخلت منه تلك الآجام، وانتقل الملك إلى ابنه المعتضد، وحلّ منه في روض نُمِّق له ونُضِد، ولم يعمر فيه ولم يدم ولاه، وتسمّى بالمعتضد بالله، وارتمى إلى أبعد غايات الجود بما أناله وأولاه، لولا بطش في اقتضاء النفوس كَدَّرَ ذلك المنهل، وعكر[2] أثناء ذلك صفو العَلِّ والنَّهَل، وما زال للأرواح قابضًا، وللوثوب عليها رابضًا، يخطف أعداءه اختطافَ الطائر من الوَكْر، وينتصف منهم بالدهاء والمكر، إلى أن أفضى الملك إلى ابنه المعتمد، فاكتحل منه طرفُه الرَّمَد، وأحمد مجده، وتقلّد منه أيَّ بأسٍ ونَجْده، ونال به الحقّ مناه، وجَرَّ رسَنَهْ[3]، وأقام في الملك ثلاثًا وعشرين سَنَة، لم تعدم له فيها حسنة ولا سيرة مستحسنة، إلى أن غُلِبَ على سلطانه، وذهب به من أوطانه، فَنُقل، إلى حيث اعْتُقل، وأقام كذلك إلى أن مات، وواراته تربة[4] أغمات، وكان للقاضي جدّه أدب غضّ، ومذهب مبيضّ، ونظم يرتجله كلّ حين، وينفثه[5] أعطر من الرياحين، فمن ذلك قوله يصف النيلوفر: [البسيط]

يا ناظرين لذا النيلوفرِ البهجِ وطيبِ مخبره في الفَوْح والأَرَجِ
كأنه جامُ دُرٍّ في تألّقه قد أحكموا وسطه فَصًّا مِنَ السَّبَجِ[6]

انتهى المقصود منه.

وهو ـ أعني الفتح ـ يشيد قصور الشرف إذا مدح، ويهدم معاقلها إذا هجا وقَدَح.

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٢٧): «غرّته».
(٢) في مطمح الأنفس: «وتصوّر أثناء..».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٧): «وجدّد سناه».
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٢٢٨): «برية أغمات».
(٥) في الطبعة نفسها: «ويبعثه».
(٦) السَّبَجُ: الخرز الأسود. مختار الصحاح (سبج).

ومن أغراضه قوله في «المطمح» في حق الأديب أبي جعفر بن البنّي [1]: رافع رايات القريض، وصاحب آيات التصريح والتعريض، أقام شَرائعه، وأظهر بدائعه، إذا نظم أزرى بالعقود، وأتى بأحسن من رقم البُرود، وكان أليف غلمان، وحليف كفر لا إيمان، ما نطق متشرعًا، ولا رمق متورّعًا، ولا اعتقد حَشْرًا، ولا صدّق بعثًا ولا نَشْرًا، وربما تنسّك مجونًا وفتكًا، وتمسّك باسم التقى وقد هتكه هتكًا، لا يبالي كيف ذهب، ولا بما تمذهب، وكانت له أهاجيُّ جَرَّع بها صابًا[2]، وذَرَّع منها أوصابًا[3]، وقد أثبتّ له ما يرشف[4] ريقًا، ويشرب تحقيقًا، فمن ذلك قوله يتغزل[5]: [الكامل]

من لي بغُرَّةِ فاتنٍ يختالُ في ... حُلَلِ الجمالِ إذا بَدَا وحُلِّيهِ[6]
لو شَبَّ[7] في وضحِ النهار شعاعُها ... ما عاد جُنْحُ الليل بعد مُضِيِّهِ
شَرِقَتْ لآلي[8] الحُسْن حتى خَلَّصَتْ ... ذَهَبِيَّهُ في الخَدِّ من فِضِّيِّهِ
في صفحتيه من الجمال أزاهرٌ ... غُذِيَتْ بوسْمِيِّ الحَيَا ووليِّهِ[9]
سَلَّتْ محاسِنُهُ، لقتل مُحِبِّهِ ... مِنْ سحرِ عينيه، حُسَامَ سَمِيِّهِ

وله فيه[10]: [مجزوء الرمل]

كيف لا يزداد قلبي ... مِنْ جَوى الشَّوْقِ خَبَالا
وإذا قلتُ عَليٌّ ... بَهَرَ الناسَ جمالا
هو كالغُصْنِ وكالبد ... ر قَوامًا[11] واعتدالا

---

(١) مطمح الأنفس (ص ٩١). وله ترجمة في قلائد العقيان (ص ٢٩٥) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٧). وانظر الجزء الخامس من نفح الطيب.
(٢) الصاب: عصارة شجر مرّ. مختار الصحاح (صوب).
(٣) الأوصاب: جمع وَصَب وهو المرض. مختار الصحاح (وصب).
(٤) في طبعة دار صادر: «يرتشف».
(٥) الأبيات أيضًا في القلائد (ص ٢٩٥) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٨).
(٦) في القلائد: «بغرة فاتر.. مشى وحليه». وفي المغرب: «مشى» بدل «بدا».
(٧) هكذا في المصادر، وفي طبعة دار صادر: «لو شمن».
(٨) في القلائد والمغرب: «بماء الحُسْنِ».
(٩) في القلائد والمغرب: «من الحياء أزاهرٌ.. الصِّبا ووليِّه».
(١٠) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٩٦) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٨ ـ ٣٥٩).
(١١) في المغرب: «بهاءً واعتدالا».

أَشْرَقَ البدرُ كمالاً [1] وانثنى الغُصْنُ اختيالا
إنَّ مَنْ رام سُلُوِّي عنه قد رامَ مُحالا
لستُ أسلو عن هواه كان رُشْدًا أو ضلالا
قُلْ لمن قَصَّرَ فيه عَذْلَ نفسي أو أطالا
دون أن تُدْرِكَ هذا تَسْلُبُ[2] الأُفْقَ الهلالا

وكنت بمَيُورقة وقد حلّها مُتَّسما بالعبادة، وهو أسرى إلى الفجور من خيال أبي عُبَادة[3]، وقد لبس أسمالاً، ولَبَّسَ منه أقوالاً وأفعالاً، سجوده هجود، وإقراره باللّه جحود، وكانت له رابطة لم يكن للوزامها مرتبطًا، ولا بسكناها مغتبطًا، سمّاها بالعقيق وسمّى فتى كان يتعشّقه بالحِمَى، وكان لا يتصرّف إلاّ في صفاته، ولا يقف إلاّ بعَرَفَاته، ولا يؤرقه إلاّ جَوَاه، ولا يَشُوقه إلاّ هَوَاه، فإذا بأحد دعاة حبيبه، ورُوَاة تشبيبه، قال له: كنت البارحة بحماه، وذكر له خبرًا وَرَّى به عني وعَمَّاه، فقال[4]: [الوافر]

تَنَفَّسَ بالحمى مطلولُ أرضٍ فأودع نَشْرَهُ نشرًا شمالا[5]
فَصَبَّحَتِ العيونُ إليّ كسلى تجرِّرُ فيه أردانًا خِضالا[6]
أقولُ وقد شممتُ التُّرْبَ مِسْكًا بِنَفْحَتِها يمينًا أو شمالا
نسيمٌ جاء يَبْعَثُ منك طيبًا[7] ويشكو من محبتك اعتلالا

ولما تقرر عند ناصر الدولة من أمره ما تقرر، وتردّد على سمعه انتهاكُه وتكرّر، أخرجه من بلده[8] ونَفاه، وطمس رَسْم فِسْقِهِ وعَفَاه، فأقلع إلى المشرق وهو جار، فلمّا صار من مَيُورقة على ثلاثة مجارٍ[9]، نشأت له ريح صَرَفته عن وجهته، إلى فَقْد مهجته، فلمّا لحق

(١) في القلائد: «سرورًا».
(٢) في القلائد والمغرب: «يَسْلُبُ».
(٣) هو أبو عبادة البحتري الشاعر العباسي المشهور بوصف الخيال وطروقه.
(٤) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٩٦) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٩).
(٥) في القلائد والمغرب: «مطلول روضٍ.. ريحًا شمالا».
(٦) في القلائد: «فصبحت العقيق.. خصالا». وفي المغرب: «العقيق إليَّ كَبْلًا».
(٧) في القلائد والمغرب: «نسيم بات يَجْلُبُ..».
(٨) القول: «من بلده» غير وارد في القلائد.
(٩) في طبعة عبد الحميد: «بحار». وفي المطمح: «جوار».

بميورقة أراد ناصر الدولة إماحته[1]، وأخذ ثار الدين منه وإراحته، ثم آثر صَفْحه، وأخمد ذلك الجمر ولَفْحَه، وأقام أيامًا ينتظر ريحًا علّها تزجيه، ويستهديها لتخلّصه وتنجيه، وفي أثناء بلوته، لم يتجاسر أحد على إتيانه من إخوته، فقال يخاطبهم[2]: [الوافر]

أَحِبَّتَنَا الأُلىٰ عَتَبُوا علينا ... فأقصرنا[3] وقد أزِفَ الوَدَاعُ
لقد كنتم لنا جَذَلًا وأُنْسا ... فهل[4] في العيش بعدكمُ انتفاعُ
أقولُ وقد صَدَرْنا بَعْدَ يوم ... أَشَوْقٌ بالسفينة أم نِزَاعُ
إذا طارتْ بنا حامتْ عليكم ... كأنَّ قلوبنا فيها شِرَاعُ

وله يتغزّل[5]: [الوافر]

بني العربِ الصميمِ، ألَا رعيتُمْ ... مآثِرَكُمْ بآثار السماحِ
رفعتمْ ناركُمْ فعَشَا إليها ... بوَهنٍ[6] فارسُ الحيِّ الوقاح
فهل في القَعْبِ فضلٌ تنضحوه ... به من مخضِ[7] ألبانِ اللقاح
لعلّ الرِّسْلَ شائبة[8] الثنايا ... بشهدٍ مِنْ ندى نَورِ الأقاحِ

وله أيضًا[9]: [الكامل]

وكأنما رشأُ الحمى لَمّا بدا ... لك في مضلعةِ الحديد المعلمِ
غَضَبَ الغمامَ قِسِيَّهُ فأراكها ... مِنْ حُسْنِ معطفه قويمَ الأسهمِ[10]

---

(١) في القلائد: «إباحته».
(٢) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٩٧) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٩)، وتقدمت في الجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.
(٣) في المغرب: «فأَقْصَوْنا».
(٤) في المغرب: «فما في العيش».
(٥) البيتان الأول والثاني فقط في قلائد العقيان (ص ٢٩٧).
(٦) في القلائد: «عشاء فارس».
(٧) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٠): «محض» بالحاء المهملة.
(٨) في الطبعة نفسها: «شابَتْهُ».
(٩) قلائد العقيان (ص ٢٩٧).
(١٠) في القلائد: «غصب الحمام.. فأعارها.. قوام الأسهم».

وله أيضًا[١]: [الطويل]

نـظرتُ إلـيــه فـاتّـقـانِي بـمــقـلةٍ   تــردُّ إلى نحــري صــدورَ رمــاحِ [٢]
حَمَيْتَ الجفـون النـومَ يـا رشـأ الحمى   وأظـلـمتَ أيــامـي وأنــتَ صـبــاحـي

وقـــال[٣]: [البسيط]

قــالـوا تصيبُ طيــورَ الجــوِّ أسهمُــهُ   إذا رمـــاهـا فقلْنـا عنـدنــا[٤] الخَبَـرُ
تَعَلَّمَتْ قـوسـه[٥] من قـوس حـاجبـه   وأيَّـدَ السهـمَ مِنْ ألـحـاظِـهِ الحَـوَرُ
يـروحُ في بُـرْدَةٍ كـالنِّقْسِ حـالكـةٍ   كمــا أضـاء بجُنْـح الليلة القَمَـرُ[٦]
وربـمــا راقَ فـي خـضــراءَ مُـورِقـةٍ   كـمــا تـفَـتَّـحَ فـي أوراقِـهِ الـزَّهَـرُ

وقال في ترجمة أبي الحسن بن لسان[٧]: شاعر سَمْـح، متقلّد بالإحسـان متشح، أمَّ الملوك والرؤساء، ويَمَّم تلك السعادة[٨] القَعْساء، فانتجع مـواقع خيـرهم، واقتطع مـا شاء من مَيْرهم[٩]، وتمادت أيامه إلى هذا الأوان، فجالت بـه في ميدان الهـوان، فكسد نفـاقه، وارتدّت آفاقه، وتوالى عليه حرمانه وإخفـاقه، وأدركتـه وقد خبتـه سنونـه، وانتظرتـه مَنُونـه، ومحاسنه كعهدها في الاتقاد، وبُعدهـا من الانتقاد، وقـد أثبتُّ منها مـا يعذب جَنًى وقِطَافا، ويستعـذب استنزالاً واستلطافًـا، فمن ذلك قـوله يستنجـد الأمير الأجـلّ أبـا إسحٰق ابن أميـر المسلمين: [الكامل]

قُـلْ لـلأميــر ابن الأمير بـل الـذي   أَبْـدًا بـه في المكرمـات وفي النـدى
والمجتنِـي بـالـزَّرْقِ وهي بـنفسـجٌ   وَرْدَ الـجــراحِ مضـعّـفًـا ومـنـضَّـدا

---

(١) قلائد العقيان (ص ٢٩٧).

(٢) في القلائد: «على نحري.. رماحي».

(٣) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٩٧ - ٢٩٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٥٩ - ٣٦٠)، وتقدمت في الجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.

(٤) في القلائد: «عندها».

(٥) في أصول النفح: «قوسها»، والتصويب من قلائد العقيان.

(٦) في القلائد: «يلوح في بردة..». وفي المغرب: «يلوح في بردة.. كما يلوح بجنح..».

(٧) هكذا في مطمح الأنفس (ص ٩٣)، وأغلب الظن أنـه أبـو الحسن علي بن أحمـد بن علي بن فتـح بن لُبّال، وقد مرَّ التعريف بابن لبال والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الخامس.

(٨) في طبعة دار صادر (ص ٢٣١): «تلك العزّة القعساء».

(٩) المَيْرُ: العطاء.

جـاءتـك آمـالُ العُـفـاةِ ظـوامئًـا   فـاجعـلْ لهـا من مـاء جـودك موردا
وآنثـر على المـدّاح سَيْبَـكَ، إنهـم   نثـروا المـدائـح لؤلؤًا وزبـرجـدا
فـالنـاسُ إنْ ظلَمـوا فـأنتَ هـو الحمى   والنـاس إن ضلّوا فـأنت هـو الهـدى

أخبرني وزير السلطان أنّ هذه القطعة لَمّا ارتفعت، اعتنت بجملة الشعراء وشَفَعَتْ، فأنجز لهم الموعود، وأورق لهم ذلك العُود، وكثر اللغط في تعظيمها، واستجادة نَظِيمها، وحصل له بها ذكر، وانصقل له بسببها فكر.

وله من قطعة يصف بها سَيفًا: [الخفيف]

كـلُّ نـهـرٍ تـوَقَّـدَتْ شَفْـرَتَـاه   كـاتّقاد الشهـاب في الظلمـاءِ
فهـو مـاء مـركب[1] فـوق نـارٍ   أو كنـارٍ قـد ركبـتْ فـوق مـاء

وكتب إليَّ معزّيًا عن والدتي: [المتقارب]

على مثله من مصـابٍ وَجَبْ   عـلى من أُصيب بـه المنتجِبْ
وقـلبٍ فَـرُوقٍ ولـبٍّ خَـفـوقٍ   ونـفسٍ تـشـبُّ وهـمٍّ نـصـبْ
فـقـد خشـعتْ للتُّقى هَضْبـةٌ   ذؤابـتـهـا في صميم العَـرَبْ
مِنَ الجـاعـلاتِ محـاريـبَـهـا   هـوادجَـهـا أبـدًا والقَـتَـبْ[2]
من القـائـمـاتِ بظلِّ الدُّجى   ولا مَـنْ تـسـامـرُ إلاَّ الشُّهُـبْ
فكم ركعتْ إثـرهـا في الـدجى   تـنـاجي بـهـا ربّـهـا مِنْ كَـثَـبْ
وكم سكبتْ في أوان[3] السجـود   مـدامـعَ كـالغيثِ لَمَّـا انسكَبْ
وقـد خَـلَّفَـتْ ولـدًا بـاسـلاً   فصيـحًـا إذا مـا قـرا أو خَـطَبْ
يـفـلُّ السـيـوفَ بـأقـلامِـهِ   ويـكسـرُ صُمَّ القَـنَـا بـالقَصَبْ

وكان القائد أبو عمرو عثمان بن يحيىٰ بن إبراهيم أجلّ من جال في خَلَد، واستطال على جَلَد، رشأ يحيىٰ باحتشامه، ويستردّ البدر بلثامه، ويُزْري بالغصن تَثَنِّيه، ويثمر الحسن لو دنت قُطُوفه لمجتنيه، مع لوذعية تخالها جِرْيَالاً، وسجية يختال فيها الفضل اختيالاً، وكان

---

(1) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٢): «قد رُكِّبَتْ فوق...».
(2) القَتَبُ: الرَّحْل والبرذعة.
(3) في طبعة عبد الحميد (ص ١٢): «أواني».

قد بعد عن أُنْسنا بحمص، وانتضى من تلك القُمص، وكان بثغر الأشبونة فسدَّه، ولم ينفرج لنا من الأنس بعده ما يسدّ مسدَّه، إلى أن صدر، فأسرع إلينا وابتدر، فالتقيْنا وبِتْنا ليلة نام عنها الدهر وغَفَل، وقام لنا بما شئنا فيها وتكفل، فبينا نحن نفضّ ختامها، وننفض عنّا غُبارَ الوحشة وقَتَامها، إذا أنا بابن لسان[1] هذا وقد دخل إذنه علينا فأمرناه بالنزول وتلقيناه بالترحيب[2]، وأنزلناه بمكانٍ من المسرَّة رَحِيب، وسقيناه صغارًا وكبارًا، وأريناه إعظامًا وإكبارًا، فلمّا شرب، طرب، وكلّما كرعها، التحف السلوة وتدرّعها، وما زال يشرب أقداحًا، ويُنْشد فينا أمداحًا، ويفدي بنفسه، ويستهدي الاستزادة من أنسه، فهتكْنا الظلام بما أهداه من البديع، واجتلينا محاسنه كالصديع[3]، وانفصلت ليلته عن أتمّ مسرّة، وأعمّ مَبَرة، وارتحل عثمان أعزّه اللّه إلى ثغره، وأقام به برهة من دهره، فمشيت بها إليه مجدّدًا عهدًا، ومتضلّعًا من مؤانسته شهدًا، فكتب ابن لسان هذه القطعة من القصيدة يذهب إلى شكره، ويجتهد في تجديد ذكره: [البسيط]

مـا شـام إنسـانُ إنسـانٍ كـعثمـانِ ... ولا كـبغيتـه مِـنْ حُسْـنِ إحسـانِ
بَـدْرُ السيـادةِ يبـدو في مطالِعِـهِ ... مـن المحـاسنِ محفـوفًـا بشهبـانِ
لـه التمـامُ ومـا بـالأفق من قمـرٍ ... متـمّـمٍ دون أن يُـزْمَى[4] بنقصـان
بـه الشبيبـةُ تـزْهَى من نضـارتهـا ... كـمـا تسـاقَطَ طَـلٌّ فـوق بستـانِ
معصفـرُ الحُسْن لـلأبصـارِ نـاصعُـهُ ... كـأنـه فِضّـةٌ شِيبـتْ بعِقْيـانِ
نُـبِّئْتُ عنـه بـأنبـاء إذا نَفَـحَـتْ ... تعـطّلتْ نفحـاتُ المِسْكِ والبـان
قـامتْ عليـه بـراهينٌ تـصدّقهـا ... كـالشكـل قـام عليـه كـلُّ بـرهـان
قـد زادهـا ابنُ عبيـد اللّه مـن وَضَحٍ ... مـا زادت الشمسُ نـورَ الفجـرِ للرائي
بـاللّه بـلّغـه تـسليـمي إذا بـلغتْ ... تـلك الـركـابُ وعَجِّـلْ غيـر لَيَّـانِ
ولَـيْتَ أنـيَ لـو شـاهـدتُ أُنْسكـمـا ... عـلى كـؤوس وطـاسـاتٍ وكيـزان

---

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٣): «بابن لبال» وهو الأصوب.
(٢) في الطبعة نفسها: «والتقيناه بترحيب».
(٣) الصديع: الصبح، القاموس المحيط (صدع).
(٤) في مطمح الأنفس: «أن يزرى».

فألفظُ[1] الكَلِمَ المنثورَ بينكما كأنما هو من دُرٍّ ومَرْجَانِ
للَّه دَرُّكَ يا ذا الخطتين[2] لقد خططتَ بالمدح فيه كلَّ ديوان
كلا كما البحرُ في جودٍ وفي كرمٍ أو الغَمامَةُ تَسْقِي كلَّ ظمآن[3]
إنْ كان فارسَ هيجاءٍ ومعتركٍ فأنتَ فارسُ إفصاحٍ وتبيان
فاذكرْ أبا نصرٍ المعمورَ مَنْزِلُهُ بالرفد ما شئتَ من مَثْنًى ووُحْدَانِ
قصائدًا لأخي ودٍّ وإن نَزَحَتْ بكَ الركابُ إلى أقصى خراسانِ

وقال في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي[4]: بيت شعر ونَباهة، وأبو بكر مِمَّن انتبه خاطره للبدائع أيَّ انتباهة، وله أدب باهر، ونظم كما سَفَرَتْ أزاهر، وقد أثبتُّ له جمالاً، يبلغ آمالاً، فمن ذلك قوله، وقد اجتمعنا في ليلة لم يضرب لها وعد، ولم يَعْزُبْ عنها سعد، وهو قَعَدِيّ، قد شبَّ عن طَوْق الأنس في النَّدِيِّ، وما قال خلا عمرو ولا عدا[5]، والكهولة قد قبضته، وأقعدته عن ذلك وما أنهضته: [الوافر]

إمامُ النثر والمنظومِ فَتْحُ جميعُ الناسِ ليلٌ وَهْوَ صُبْحُ
له قَلَمٌ جليلٌ لا يجارى يقرُّ بفضله سيفٌ ورمحُ
يباري المزن ما سَحَّتْ سَمَاحًا وإن شَحَّتْ فليس لديه شُحُّ

وكان مرتسمًا في عسكر قُرْطبة، وكان ابن سراج يقوم له بكلِّ ما يبغي تطلُّبه، خيفة من لسانه، ومحافظة على إحسانه، ولَمّا خرج إلى إقليش خرج معه، وجعل يساير من شَيَّعه، فلمّا حصلوا بفَحْص سرادق، وهو موضع توديع المفارق للمفارق، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه، وأنشده في تفرّق الشمل وانصداعه: [الطويل]

هُمُ رحلوا عنّا لأمرٍ لهم عَنَّا فما أحدٌ منهم على أحدٍ حَنَّا
وما رحلوا حتى استفادوا نفوسنا كأنهمُ كانوا أحقَّ بها مِنّا

---

(1) في المطمح: «فألقط».
(2) في المطمح: «الخطبتين».
(3) رواية عجز البيت في المطمح هي:
أو الغمامَةُ فيها ريّ ظمآنِ
(4) مطمح الأنفس (ص ٩٦).
(5) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٤): «وما قال خالي عمرو ولا عدي..». وعمرو: هو عمرو بن عدي، الذي ثار لجذيمة.

فيا ساكني نجدٍ لتبعَدَ داركمْ ... ظننّا بكمْ ظنًّا فأخلفتم الظّنَّا
غدرتم ولم أغدرْ، وخنتم ولم أخنْ ... وقلتم ولم أعتبْ، وجرتم وما جرنا
وأقسمتمُ أن لا تخونون في الهوى ... فقد، وذمام الحب، خنتم وما خُنَّا
تُرى تجمعُ الأيامُ بيني وبينكم ... ويجمعنا دهرٌ نعودُ كما كُنَّا

فلمّا استتمّ إنشاده لحق بالسلطان واعتذر إليه بمريضٍ خَلَّفه، وهو يخاف تلفه، فأذن له بالانصراف، وكتب إلى أبي الحسين بن سراج: [الطويل]

أما والهدايا ما رحلنا ولا حُلْنا ... وإن عَنَّ من دون الترحُّلِ ما عنّا
تركْنَا ثوابَ الغَزْو والقَصْد للعِدَى[1] ... على مضضٍ مِنّا وعُدْنا كما كُنّا
وليس لنا عنكم على البينِ سلوةٌ ... وإن كان أنتمْ عندكمْ سلوةٌ عَنّا

وجمعتنا عشية برَبَضِ الزجالي[2] بقرطبة، ومعنا لُمَّةٌ من الإخوان وهو في جملتهم، مناهض لأعيانهم وجِلّتهم، بفضل أدبه، وكثرة سُحُبه، فجعل يرتجل ويروي، وينشر محاسن الآداب ويطوي، ويمتعنا بتلك الأخبار، ويقطعنا منها جانب اعتبار، ويطلعنا على إقبال الأيام وعلى الإدبار، ثم قال: [الطويل]

أيا ابن عبيد الله يا ابنَ الأكارمِ ... لقد بَخَّلَتْ يُمْناك صَوْبَ الغمائمِ
لك القلمُ الأعلى الذي عطَّل القَنَا ... وفلَّ ظُبَاتِ المرهفاتِ الصوارم
وأخلاقكَ الزُّهْرُ الأزاهرُ بالرُّبا ... ترفُّ بشؤبوب الغيوثِ السواجمِ
بقيتَ لتشييدِ المكارمِ والعُلَى ... تظاهرها بالسالِفِ المتقادِمِ

واجتمع عند أبيه لُمَّةٌ من أهل الأدب، وذوي المنازل والرتب، في عشية غيم أعقب مطرًا، وخطَّ فيها البرقُ أسطرًا، والبَرَدُ يتساقط كدُرٍّ من نظام، ويتراءى كثنايا غادةٍ ذاتِ ابتسام، وهو غلام ما نَضَا بُرْد شبابه، ولا انتضى مُرْهَفَ آدابه، فقال معرِّضًا بهم، ومتعرّضًا لتحقق أدبهم: [المتقارب]

كأنَّ الهواءَ غديرٌ جَمَدْ ... بحيثُ البروقُ تُذيبُ البَرَدْ
خيوطٌ وقد عُقِدَتْ في الهواء ... وراحةُ ريحٍ تحُلُّ العُقَدْ

(١) في مطمح الأنفس: «للعرى». وفي طبعة دار صادر (ص ٢٣٥): «ثواب الفضل والعزّ للعزى».
(٢) في المطمح: «بربض الرحال».

وشرب في دار ابن الأعلم في يوم لم يَرَ الدهر فيه إساءة، وليل نَسَخَ نورُ أُنسه مَساءة، ومعهم جملة من الشعراء، وجماعة من الوزراء، منهم أبناء القَبْطُرْنة فوقع بينهم عتاب وتَعْذَال، وامتهان في ميدان المشاجرة وابتذال، آل به إلى تجريد السيف، وتكدير ما صفا بذلك الْخَيْف، فسَكنوه بالاستنزال، وثَنَوْه عن ذلك النزال.

وقال في المطمح[1] في حقّ أبي بكر يحيىٰ بن بقي القرطبي صاحب الموشحات البديعة: كان نبيل السيرة[2] والنظام، كثير الارتباط في سلكه والانتظام، أحرز خصالاً، وطَرَّز بمحاسنه بُكَرًا وآصالاً، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعد أَمَد، وبنى من المعارف أثبت[3] عَمَد، إلاَّ أنَّ الأيام حرمته، وقطعت حبل رعايته وصَرَمته، فلم تتم له وَطَرًا، ولم تُسْجِمْ عليه الحُظْوَة مَطَرًا، ولا سوّغت[4] من الحرمة نصيبًا، ولا أنزلته مَرْعًى خصيبًا، فصار راكب صَهَوات، وقاطع فَلَوَات، لا يستقرّ يومًا، ولا يستحسن نومًا[5]، مع توهّم لا يُظْفره بأمان، وتقلّب ذهن كالزمان[6]، إلاَّ أنّ يحيىٰ بن علي بن القاسم نزعه من ذلك الطيش، وأقطعه جانبًا من العيش، ورقاه[7] إلى سَمَائه، وسقاه صَيِّبَ[8] نعمائه، وفيّأه ظِلاَله، وبوّأه أثر النعمة يَجُوس خِلاله، فصرّف به أقواله، وشرّف بعواقبه فعاله[9]، وأفرده منها بأنفس دُرّ، وقصده[10] منها بقصائد غُرّ، انتهى المقصود جَلْبُه من ترجمته في المطمح.

وقال في حقّه في القلائد[11]: رافع راية القريض، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض، أقام شَرَائعه، وأظهر رَوَائعه، وصار عَصِيُّه طائعه، إذا نظم أزرى بنظم العقود،

---

(١) لم ترد هذه الترجمة في مطمح الأنفس المطبوع، وهي في وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣). وقد مرّ التعريف بابن بقي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني .

(٢) في وفيات الأعيان: «النثر والنظام».

(٣) في الوفيات: «على أثبت عمد».

(٤) في وفيات الأعيان: «ولا نولته».

(٥) في الوفيات: «قومًا».

(٦) في الوفيات: «كواهي الجمان».

(٧) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٧) ووفيات الأعيان: «وأرقاه».

(٨) في الوفيات: «صوب».

(٩) في الوفيات: «نواله».

(١٠) في الوفيات: «وقلّد لبّته منها بقصائد..».

(١١) قلائد العقيان (ص ٢٧٨). والنص أيضًا في وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٠٣).

وأتى بأحْسَنَ من رَقْم البُرود، وطغىٰ[1] عليه جِرْمَانُه، فما[2] صفا له زمانه، انتهى.

وابن بقي المذكور هو القائل[3] : [الكامل]

بـأبـي غـزالٌ غـازلَتْـهُ مُـقْـلتـي   بين العُـذَيْبِ وبين شَـطَّيْ بـارقِ

الأبيات المذكورة في غير هذا الموضع.

ومن موشحاته قوله[4] :

عبثَ[5] الشـوق بقلبي فـاشتكى   ألـمَ الـوَجْـدِ فَلَبَّـتْ أدْمُـعِـي
أيـهـا الـنـاسُ فـؤادي شَـغِـفُ
وهـو من بَغْـي الهـوى لا يُـنْصِـفُ
كـم أداريـهِ ودَمْـعِـي يَـكِـفُ
أيـهـا الـشـادن، مَـنْ عَـلَّمـكـا   بسهـامِ الـلحظِ قَتْـلَ الـسَّبُـعِ
بَـدْرُ تِمٍّ تحت ليـلٍ أغـطشٍ[6]
طـالـعٌ فـي غصـنِ بَـانٍ منتشي
أَهْـيَـفُ الـقَـدِّ بـخـدٍّ أَرْقَشِ
سـاحِـرُ الـطَّرْفِ وكـم ذا فَتَـكَـا   بقـلوبِ الأسـدِ بـيـن الأضـلعِ
أيُّ ريـمٍ رمْـتُـهُ فـاجـتـنـبـا
وانثنى يهـتـزُّ مِنْ سُـكْـرِ الصِّبَـا
كـقـضـيـبٍ هَـزَّهُ ريـحُ الـصَّبَـا
قلتُ هَبْ لي يـا حبيبي وَصْلَكـا   واطَّـرحْ أسـبـابَ هـجـري وَدَعِ
قـال خـدّي زهـرُهُ مُـذْ فـوّفـا[7]

---

(١) في القلائد والوفيات: «ضفا عليه..». وفي طبعة دار صادر (ص ٢٣٧): «وطفا».
(٢) في القلائد والوفيات: «وما».
(٣) البيت في وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٠٣) والمغرب (جـ ٢ ص ٢١).
(٤) هذه المرشحة تامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات.
(٥) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٧): «غلب الشوق».
(٦) الأغطش: المظلم. القاموس المحيط (غطش).
(٧) فوّف الزهرُ: أزهر. لسان العرب (فوق).

جَـرّدَتْ عينـايَ سَيْفًـا مُـرْهَـفًـا
حـذرًا مـنـه بـأن لا يُـقْـطَفـا
إنَّ مَـنْ رام جَـنَـاه هَـلكـا		فـأزِلْ عنـكَ عُـلالَ الـطَّمَـعِ
ذاب قلبي في هـوى ظبيٍ غـريـرْ
وَجْهُـهُ في الـدَّجْنِ صبـحٌ مستنيـرْ
وفـؤادي بيـن كَـفَّـيْـهِ أسـيـرْ
لـم أجـدْ للصبـر عنـه مسلكًـا		فـانتصـاري بـانسكـابِ الأدْمُـعِ

وقال رحمه اللّه تعالى[1]:

خُـذْ حـديثَ الشـوقِ عن نفسي		وعن الـدَّمْـعِ الـذي هَمَـعَـا[2]
مـا تـرى شـوقـي قـد اتقـدا[3]
وهَـمَـى بـالـدمـع[4] واطـردا
واغـتـدى قـلبـي عـليـك سُـدَى
آهِ مِـنْ مـاءٍ ومـنْ قَـبَسٍ		بين طـرفـي والـحشـا جـمـعـا
بـأبـي ريـمٌ إذا سَـفَـرَا
أطـلعـتْ أزرارُهُ قَـمَـرَا
فـاحـذروه كـلَّمـا نَـظَرَا
فبـألـحـاظِ الـجفـونِ قِـسِـي		أنـا منهـا بعض مَنْ صُـرِعـا
أرتـضـيـه جـارَ أو عَـدَلا
قـد خـلعتُ الـعُـذْرَ والـعَـذَلا
إنـمـا شـوقـي إلـيـه جـلا
كـم وكـم أشـكـو إلـى الـلَّعَسِ		ظـمئـي لـو أنـه نـفـعـا
صـال عـبـدُ الـلَّه بـالـحَـوَرِ

---

(١) الموشحة تامة مكونة من ٦ أقفال و ٥ أبيات.
(٢) هَمَعَ الدمعُ: سال. لسان العرب (همع).
(٣) في طبعة دار صادر (ص ٢٣٨): «وقد وقدا».
(٤) في الطبعة نفسها: «دمعي».

وبِـطَرْفٍ فـاتـرِ الـنَّـظَرِ
حُـكْمُـهُ فـي أنْفُسِ الـبَـشَـرِ
مثـلُ حُكْمِ الصبـح في الـغلس إنْ تـجـلَّى نـورُهُ صـدعـا
شَـبَّـهَـتْـهُ بـالـرَّشـا الأمَـمُ
فـلعـمـري إنـهـمْ ظـلـمـوا
فـتـغـنَّـى مَـنْ بـه الـسَّـقَـمْ
أيْـنَ ظبـي الـقـفـر والكُـنُسِ مـن غـزالٍ فـي الـحشـا رَتَـعَـا

انتهى. وله أيضًا:

مـا ردّنـي لابِسْ ثوبَ الضّـنـا الـدارسْ إلّا قَـمَـرْ
فـي غُـصُـنٍ مـائسْ شـعـاعُـهُ عـاكسْ ضـوءَ الـبَـصَـرْ
أسِـيـرُ كـالـسَّـيْـلِ إلـيـه لا بـاعُ إلّا ودادي[1]
والـطيـفُ فـي خـيـلِ لـهـنَّ إسـراعُ مـع الـرُّقـادِ
يـا كـوكـبَ الـليـلِ إن كـنـتَ تـرتـاعُ فـلُم فـؤادي
كـالأسَـدِ الـعـابسْ لـكـنـه خـانِسْ مـن الـحَـوَرْ

ومن نـظمه قصيـدة مدح يحيىٰ بن علي بن القـاسم المذكـور بها، منهـا في المـديح قوله[2]: [الكامل]

نـورانِ ليسـا يُحْجبـان عن الـورى كَـرَمُ الـطبـاعِ ولا جمـالُ المنـظرِ
وكـلاهمـا جُمِعـا ليحيىٰ فـليَـدَعْ كتمـانَ نـورِ عـلائِـهِ الـمتشـهـرِ
في كـلِّ أُفْقٍ من جمـالٍ[3] ثـنـائِـهِ عَـرْفٌ يـزيـدُ على دخـان المجمـرِ
رُدْفـي شـمـائِـلِهِ وردٌ فـي جـوده بين الحـديقـة والـغمـامِ الـممـطرِ
بـدرٌ علـيـه من الـوقـار سكـينـةٌ فيهـا لقيـطةُ كـلُّ لَيْثٍ مـخـدرِ[4]
مثـلُ الحُسـامِ إذا انـطوى في غمـده ألقى المهـابـةَ في نفـوس الحُضَّـرِ
أربى عـلى الـمـزن الـمُـلِثُّ لأنـه أعـطى كمـا أعـطى ولم يـستعبـرِ

(١) في طبعة عبد الحميد (ص ١٩): «ودادِ».
(٢) الأبيات في وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ٢٠٣ ـ ٢٠٤).
(٣) في الوفيات: «من جميل».
(٤) في الوفيات: «نَدْبٌ عليه.. فيها حفيظة كلّ..».

ومنـــها:

أقبـلتُ مـرتـاذًا لـجـودك إنـه ... صـوبُ الغمامـةِ بـل زُلَالُ الكـوثـرِ
ورأيتُ وجـهَ النُّجْحِ عنـدك أبيضًـا ... فـركبتُ نحـوكَ كـلَّ لُجٍّ أخضـرِ

وهي طويلة.

وقوله «أربى على المزن المُلِثُّ ـ البيت» هو معنًى تلاعب الشعراء بكـرته، وأورده كـلٌّ منهم على حسب مقدرته، فقال بعض: [المنسرح]

مَنْ قـاسَ جَـدْوَاك بـالغمـامِ فمـا ... أنـصفَ فـي الحُـكْمِ بـين شـيئيـنِ
أنـتَ إذا جُـدْتَ ضـاحـكٌ أبـدًا ... وهــو إذا جـادَ دامـعُ الـعَـيـنِ

وقال آخر: [الخفيف]

مـا نـوالُ الغَمـامِ يـومَ ربيـعٍ ... كـنـوالِ الأميـرِ يـومَ سـخـاءِ
فـنـوالُ الأمـيـرِ بـدْرَةُ عـيـنٍ ... ونـوالُ الـغـمـامِ قـطرةُ مـاءِ

وهما من شواهد البديع.

وقال أبو عبد الله الحوضي التلمساني في قصيدة مدح بها سلطان تلمسان أبا عبد الله الزياني: [الخفيف]

أصبح المزنُ مِنْ عطائك يحكي ... يـومَ الاثـنيـن لـلأنـامِ عـطاءَ
كيف يُـدْعى لـك الغمـامُ شبيهًـا ... ولـقـد فُـقْـتَـهُ سَـنًـا وسـنـاءَ
أنـتَ تـعـطي إذا تُـقَـصِّـرُ مـالاً ... وهــو يـعـطي إذا تَـطَوَّلَ مـاءَ

رجع ـ وذكر العماد في الخريدة ابن بقي المذكور، وأورد له جملة من المقطعات، ومحاسنه كثيرة رحمه الله تعالى، وبقيٌّ على وزن عَليّ.

رجع إلى بني عباد رحمهم الله تعالى:

وقال ابن اللبانة في بني عباد ما نصُّه: بماذا أصفهم وأُحليهم، وأي مَنْقَبة من الجلالة أُوليهم، فهم القوم الذين تجلّ مناقبهم عن العدّ والإحصاء، ولا يتعرّض لها بالاستيفاء والاستقصاء، ملوك[1] بهم زُينت الدنيا وتحلَّتْ، وترقَّتْ حيث شاءت وحلَّتْ، إنْ ذُكرت

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٤١): «ملوك زينت بهم...».

الحروب فعليهم يوقف منها الخبر اليقين، أو عُدَّت المآثر فهم في ذلك في درجة السابقين، أصبح الملك بهم مُشْرِق القَسَام[1]، والأيام ذات بهجة وابتسام، حتى أناخ بهم الحِمام، وعطّل من محاسنهم الوراء والأمام، فنقل إلى العدم وجودهم، ولم يَرْعَ بأسهم وَجُودهم، وكلّ ملك آدمي فمفقود ﴿ وما نُؤخِّرُهُ إلاَّ لِأَجَلٍ مَعْدُودٍ ﴾[2] فأول ناشئة ملكهم، ومحصّل الأمر تحت ملكهم، عظيمهم الأكبر، وسابقة شرفهم الأجلّ الأشهر، وزينهم الذي يُعدّ في الفضائل بالوُسْطَى والخنصر، محمد بن عباد، ويكنى أبا القاسم، واسم والده إسماعيل، ومن شعره قوله: [المنسرح]

يا حَبّذا الياسمينُ إذْ يزهرْ فوق غصونٍ رطيبةٍ نُضَّرْ
قد امتطى للجبالِ ذروتها فوقَ بساطٍ مِنْ سندسٍ أخضرْ
كأنه والعيونُ تَرْمُقُه زُمُرُّدٌ في حلالِه[3] جَوْهَرْ

ولنذكر كلام ابن اللبانة وغيره في حقّهم فنقول: وصف المعتضد، رحمه اللّه تعالى، بما صورته[4]: المعتضد أبو عمرو عَبَّاد، رحمه اللّه تعالى، لم تخلُ أيامه في أعدائه من تقييد قَدَم، ولا عطل سيفه من قبض روح وسفك دم، حتى لقد كانت في باب داره حديقة لا تثمر إلاَّ رؤوسًا، ولا تنبت إلاَّ رئيسًا ومرؤوسًا، فكان نظره إليها أشهى مقترحاته، وفي التلفّت إليها استعمل جُلَّ بُكَره ورَوْحَاته، فبكَّى وأَرَّق، وشتّت وفرّق، ولقد حكي عنه من أوصاف التجبّر ما ينبغي أن تصان عنه الأسماع، ولا يُتعرّض له بتصريح ولا إلماع، ومن نظمه عفا اللّه عنه[5]: [مجزوء الرجز]

أتتكَ أُمُّ الحُسُنِ تشدو بصوتٍ حَسَنِ
تمدُّ في ألحانها من[6] الغناء المدني

---

(١) القَسام، بفتح القاف: الحُسْن. محيط المحيط (قسم).
(٢) سورة هود ١١، الآية ١٠٤.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٢١): «خلاله» بالخاء المعجمة.
(٤) قارن بما جاء في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٦ ـ ٢٧).
(٥) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٣٠).
(٦) في الذخيرة: «مَدَّ الغناء».

تـقـودُ مـنـي سـاكـنًـا[1] كـأنـنـي فـي رَسَـنِ
أوراقُـهـا أسـتـارُهـا إذا شَـدَتْ فـي فـنَـنِ

وقـوله[2] : [الطويل]

شَـرِبْنا وجَفْنُ الليلِ يَغْسِلُ كُحْلَهُ بـمـاء صبـاحٍ ، والـنسيمُ رقـيـقُ
معتَّقَـةً كـالتِّبْـر، أمّـا نجـارهـا[3] فضخمٌ، وأمّـا جِسْمُهـا فـرقـيـقُ

وقـوله: [الخفيف]

قـد وجـدْنـا الحبيبَ يصفي ودادَهْ وحَـمِـدْنـا ضمـيـرَهُ واعـتـقـادَهْ
قَـرَّبَ الحِـبُّ من فـؤادِ مـحـبٍّ لا يـرى هَـجْـرَهُ ولا إبـعـادَهْ

وقال عند حصول رُنْدة في ملكه: [مجزوء الوافر]

لـقـد حـصِّـلْت[4] يـا رُنْـدَهْ فـصـرتِ لـمـلكـنـا عُـدَّهْ
أفـادتـنـاكِ أرمـاحٌ وأسـيـافٌ لـهـا جِـدَّهْ

وقال رحمه اللّه تعالى[5] : [مجزوء الكامل]

اشْـرَبْ على وجـه الصبـاحِ وانـظرْ إلـى نَـوْرِ الأقـاحِ
واعـلـمْ بـأنـك جـاهـلٌ مـا لم تقـلْ بـالاصـطبـاحِ
فـالـدهـرُ شـيءٌ بـاردٌ مـا لـم تُـسَـخِّـنْـهُ بـراحِ

ومن حكايات المعتضد عباد ما ذكره غير واحد أنّ ابن جاخ الشاعر ورد على حضرتـه، فدخل الدارَ المخصوصة بالشعراء، فسألوه، فقال: إني شاعر، فقـالوا: أنشـدْنا من شعـرك، فقال: [الكامل]

إني قصـدت إليـك يـا عبّـادي قصـدَ القُلَّيْقِ بـالجَـرْيِ للوادي

---

(١) في الذخيرة: «مني سلسلًا».
(٢) البيتـان في الـذخيـرة (ق ٢ ص ٣١) والحلة السيـراء (جـ ٢ ص ٤٩) وأعمـال الأعـلام (القسم الثـاني ص ١٥٧) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٠٨).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٢) وفي الحلة السيراء وأعمال الأعلام: «بخارها».
(٤) في طبعة عبد الحميد: «حُصِّنْتِ» بالنون.
(٥) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٣٠).

فضحكوا منه وازْدَرَوْه، فقال بعض عقلائهم: دعوه فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء ويندرج في سلكهم، فلم يبالوا بكلام الرجل، وتنادروا على المذكور، فبقي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم مخصوص لا يدخل فيه على الملك غيرهم، وربما كان يوم الاثنين، فقال بعض لبعض: هذه شنعة بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويجترىء على الدخول معنا، فاتّفقوا على أن يكون هو أول متكلّم في اليوم المخصوص بهم عند جلوس السلطان، وقد رأوا أن يقول مثل ذلك الشعر المضحك فيطرده عنهم، ويكون ذلك حَسْمًا لعلّة إقدام مثله عليهم، فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، ونصب الكرسي لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادم أول متكلّم في ذلك اليوم، فأمر بذلك، فصعد الكرسي، وانتظروا أن ينشد مثل الشعر المضحك المتقدّم، فقال: [الكامل]

قَطَّعْتَ يا يومَ النوى أكبادي ... وحَرَمْتَ عن عيني لذيذَ رُقَادِي
وتركتني أرعى النجومَ مسهَّدًا ... والنارُ تُضْرَمُ في صميم فؤادي
فكأنما آلى الظلامُ أَلِيَّةً ... لا يَنْجلي إلّا إلى ميعاد
لي[1] بين بين أينَ تقتادُ النوى ... إبلُ الذين تَحَمّلوا بسُعَادِ
ولربّ خرقٍ قد قَطَعْتُ نياطَهُ ... والليلُ يرفلُ في ثيابِ حِداد
بشملّةٍ حَرْفٍ كأنَّ ذَمِيلَها ... سُرُحُ الرياحِ وكلُّ بَرْقٍ غادي
والنجمُ يحدوها وقد ناديتها ... يا ناقتي عوجي على عَبَّاد
ملكٌ إذا ما أُضرمتْ نارُ الوغى ... وتلاقتِ الأجنادُ بالأجناد
فترى الجسومَ بلا رؤوسٍ تنثني ... وترى الرؤوسَ لَقًى بلا أجساد
يا أيها الملكُ المؤمَّلُ والذي ... قُدُمًا سما شرفًا على الأندادِ
إنَّ القريضَ لكاسدٌ في أرضنا ... وله هنا سوقٌ بغيرِ كَسَاد
فجلبتُ مِنْ شعري إليك قوافيًا ... يفنى الزمانُ وذكرُها متمادي
من شاعرٍ لم يضطلعْ أدبًا ولا ... خَطَّتْ يداه صحيفةً بمدادِ

فقال له الملك: أنت ابن جاخ؟ فقال: نعم، فقال: اجلسْ، فقد وليتك رياسة الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم لأحد بعده. انتهى.

رجع إلى أخبار بقية بني عباد:

---

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٤٤): «يا بين. . .».

المعتمد على اللَّه أبو القاسم محمد بن المعتضد أبي عمرو عباد ابن القاضي أبي القاسم ابن عباد رحمه اللَّه تعالى، ملك مَجيد، وأديب على الحقيقة مُجيد، وهُمَام تحلَّى به للملك لَبَّة وللنظم جِيد، أفنى الطغَاة بسيفه وأباد، وأنسى بسَيْبه ذكر الحارث ابن عُبَاد، فأطلع أيامه في الزمان حُجولاً وغُرَرًا، ونَظَم معاليه في أجيادها جَوَاهِرَ ودُرَرًا، وشيَّد في كلّ معلوة فِناءه، وعمر بكل نادرة مستغربة وبادرة مستظرفة أوقاته وآناءه، فنَفَقَتْ به للمحامد سُوق، وبَسَقَتْ ثمراتُ إحسانه أيَّ بُسُوق، مَنَعَ وقَرَى، وراش وبَرَى، ووصل وفَرَى، وكان له من أبنائه عدة أقمار نظمهم نظم السلك، وزيّن بهم سماء ذلك الملك، فكانوا مَعَاقل بلاده، وحُماة طارفِه وتلاده، إلى أن استدار الزمان كهيئته، وأخذ البؤسُ في فَيْئَته، واعتز الخلاف وظهر، وسَلَّ الشتات سيفه وشهر، والمعتمد رحمه اللَّه تعالى يطلب نفسه أثناء ذلك بالثَّبات، بين تلك الثُّبات، والمقام، في ذلك المقام، إلى أن بدل القطب بالواقع، واتّسع الخرق على الراقع، فاستعضد بابن تاشفين فورد عليه كتابه[1] يشعر بالوفاء، فثاب إليه فكر خاطره وفَاء، وثبت خلال تلك المدة للنِّزَالِ، ودعا من رام حَرْبَه نَزَالِ، إلى أن أصبح والحروب قد نهبته، والأيام تسترجع منه ما وهبته، فثلّ ذلك العرش، واعتدّت الليالي حين أمنت من الأرش، فنقل من صَهَوَات الخيول إلى بطون الأجفان، وهذه الدنيا جميعُ ما لديها زائل و﴿ كلُّ مَنْ عليها فَان ﴾[2] فما أغنت تلك المملكة وما دفعت، وليتها ما ضرت إذ لم تكن نفعت، وكلٌّ يلقى معجَّله ومؤجَّله، ويبلغ الكتاب أجله.

وقال الفقيه القاضي أبو بكر بن خميس، رحمه اللَّه تعالى، حين ذكر تاريخ بني عباد: وقد ذكر الناسُ للمعتمد من أوصافه، ما لا يبلغ مع كثرته إلى إنصافه، وأنا الآن أذكر نبذًا من أخباره، وأُردفها بما وقفت عليه من منظومات أشعاره، فإنه رحمه اللَّه تعالى جَمُّ الأدب رائقه، عالي النظم فائقه، كان يسمّى بمحمد، ويكنى بأبي القاسم، على كنية جدّه القاضي، استبدّ بالأمر عند موت أبيه المعتضد، وفي ذلك يقول الحصري رحمه اللَّه تعالى: [مجزوء الرمل]

ماتَ عبّادٌ ولكنْ ... بقيَ الفرعُ الكريمُ
فكأنَّ الميْتَ حيٌّ ... غيرَ أنَّ الضادَ مِيْمُ

---

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٤٥): «خطابه».
(٢) سورة الرحمن ٥٥، الآية ٢٦.

قـال ابن اللبانـة رحمه الله تعـالى: ولم يزل المعتمـد بخير إلى أن كـانت سنة خمس وسبعين وأربعمائة، ووصل اليهودي[1] ابن شاليب لقَبْض الجزية المعلومة مع قوم من رؤساء النصارى، وحَلُّوا بباب من أبواب إشبيلية، فوجّه لهم المعتمـد المال، مـع جماعـة من وجوه دولته، فقال اليهودي: والله لا أخذت هذا العيار، ولا آخذه منه إلّا مشجرًا، وبعد هذا العام لا آخـذ منه إلّا أجفـان البلاد، ردّوه إليـه، فَرُدَّ المـالُ إلى المعتمد، وأُعلم بـالقصة، فـدعـا بالجند، وقال: ائتوني باليهودي وأصحابه، واقطعوا حبال الخباء، ففعلوا وجاءوا بهم، فقال: اسْجنُوا النصارى، واصلبـوا اليهودي الملعـون، فقال اليهـودي: لا تفعل، وأنـا أفتدي منـك بِزِنَتِي[2] مالاً فقال: والله لو أعطيتني العدوة والأندلس ما قبلتهما منك، فصُلب، فبلغ الخبـر النصـراني، فكتب فيهم، فوجّـه إليه بهم، فـأقسم النصراني أن يـأتي من الجنود بعـدَدِ شعر رأسه حتى يصل إلى بحر الزقاق، وأميرُ المسلمين يوسف بن تاشفين إذ ذاك محـاصر سبتـة، فجاز المعتمد إليه، ووعده بنصرته، فرجع وحثّ ملوك الأندلس على الجهاد، ثم وصـل ابن تاشفين، فكانت غزوة الزلّاقة[3] المشهورة، ورَجَـعَ ابنُ تاشفين إلى المغـرب، ثم جاز بعـد ذلك إلى الأندلس، وتوهّم ابن عباد أنه إذا أخذ البلاد يأخذ أموالها ويترك الأجفان، فعزم ابن تاشفين على أن يخلع ملوك الأندلس، ودارت إذ ذاك مكايد جمّـة، ثم وجّه ابن تـاشفين من سبتة إلى المعتمد يطلب منه الجزيرة الخضراء وفيها ابنه يزيد، فكتب إليه معتـذرًا عنها، فلم يكن إلّا كلمح البصر وإذا بمائة شِراع قد أطلّتْ على الجزيرة، فطيَّر ابنه الحَمَام إليه، فأمـره بـإخلائهـا، فظهـر عند ذلـك ابن تاشفين، وقيـل: إنـه لم يجـز المـرة الأولى حتى طلب من المعتمـد الجزيـرة لتكون عـدة له، وكـان ذلك بـدسيسـة بعض أهـل الأنـدلس نصحًـا لابن تـاشفين، ثم شرع ابن تـاشفين في خلع ملوك الأنـدلس وقتـالهم، وأرسـل إلى كـلِّ مملكـة جماعة من أهل دولته وأجناده يحاصرونها، وأرسـل إلى حضرة المعتمـد إشبيلية، وشـرع في قتالها، والناسُ قد ملّوا الدولة العَبّادية وسئموها، على ما جرت بـه العادة من حبّ الجـديد، لا سيما وقد ظهـر من ابن عباد من التهتّـك في الشرب والمـلاهي ما لا يخفى أمـره، فتمنّى

(1) قصة هذا اليهودي مذكورة أيضًا في الروض المعطار (ص ٢٨٨، مادة الزلاقة).

(2) بزنتي: بوزني.

(3) كانت وقعة الـزلاقة بين ألفـونسو السـادس والمرابـطين وملوك الطوائف سنـة ٤٧٩ هـ، وكان النصـر فيها للمسلمين.

أكثر الناس الراحة من دولتهم، ولَمَّا اشتدَّ مُخَنِّق المعتمد وجّه عن النصارى[1]، فأعدَّ لهم ابن تاشفين من لقيهم في الطريق، فهزمهم، وجهّز ابن تاشفين القطائع لإشبيلية، وجَدَّ في حصارها، والمعتمدُ مع ذلك منغمس في لذّاته، وقد ألقى الأمور بيد ابنه الرشيد، فلم يشعر ابن عباد إلاَّ والعسكر معه في البلد، فأفاق من نومه، وصَحَا مِنْ سكره، وركب فرسه وحسامُهُ في يده، وليس عليه إلاَّ ثوب واحد، فوافق العسكرَ قد دخل من باب الفرج، ووافى هنالك طبالاً فضربه بسيفه ضربة قسمه بها نصفين، ففرَّ الناس أمامه، وترامَوا من السور، ووقف حتى بَانَ الباب، وفي ذلك يقول الأبيات المذكورة فيما يأتي: «إن يسلب القوم العدا ـ إلى آخره». فلمّا وصل إلى باب الصباغين وجد ابنه مالكًا مقتولاً، فاسترحم له، ودخل القصر، وزاد الأمر بعد ذلك، ودُخِل البلد من كلِّ جهاته، فطلب الأمان له ولمن معه، فأُمِّنَ وجميع مَنْ له، وأُعِدَّت له مراكب، واجتاز إلى طَنْجة، فلقيه الحصري الشاعر، وكان قد ألّف له كتاب «المستحسن من الأشعار» فلم يُقْضَ بوصوله إليه إلاَّ وهو على تلك الحالة، فلما أخذ المعتمد الكتاب قال للحصري: ارفعْ ذلك البساط فَخُذْ ما تحته، فوالله ما أملك غيره، فوجد تحته جملة مال، فأخذه، ثم انتقل حتى وصل أغمات، ولم يزل بها إلى أن مات، رحمه الله تعالى!.

وقال الفتح في ترجمته ما نصّه[2]: ملك قَمَع العِدَا، وجمع البأس والندى، وطلع على الدنيا بَدْرَ هُدَى، لم يتعطّل يومًا كفّه ولا بنانه، آونةً يراعه وآونة سِنَانُه، وكانت أيامه مَوَاسم، وثغوره بَوَاسم[3]، ولياليه كلّها دررًا، وللزمان حُجولاً[4] وغُررًا، لم يغفلها من سِمَات عوارف، ولم يُضْحِها من ظلٍّ إيناس وارف، ولا عطّلها من مأثرة بقي أثرها باديًا، ولقي معتفيه منها إلى الفضل هاديًا، وكانت حضرته مَطْمَحًا للهمم، ومَسْرَحًا لآمال الأمم، ومقذفًا لكلِّ كَمِيٍّ، وموقفًا لكلِّ ذي أنَفٍ حَمِي، لم تَخْلُ من وَفْد، ولم يَصْحُ جوّها من انسجام رِفْد، فاجتمع تحت لوائه من جماهير الكُمَاة، ومشاهير الحُمَاة، أعداد يَغَصُّ بهم

---

(١) أغلب الظن أن أصل القول: «وجّه إلى النصارى» أو نحو ذلك؛ لأن كتب التاريخ التي تحدثت عن الزلاقة ذكرت أن المعتمد، لمّا أحسّ ما ينوي يوسف بن تاشفين، وجّه إلى ألفونسو السادس ملك النصارى يطلب نجدته.

(٢) قلائد العقيان (ص ٤ ـ ٥).

(٣) في قلائد العقيان: «وثغور برّه بواسم».

(٤) في القلائد: «أحجالاً».

الفضاء، وأنجاد يُزْهَى بهم النفوذ والمَضَاء، وطلع في سمائه كلّ نجم مُتَّقد، وكل ذي فهم منتقد، فأصبحت حضرته ميدانًا لرهان الأذهان[١]، ومضمارًا لإحراز الخصل، في كل معنى وفَصْل، فلم يلتحق[٢] بزمامه إلاّ كلّ بطل نَجْد، ولم يتّسق في نظامه إلاّ ذكاء ومَجْد، فأصبح عصره أجمل عصر، وغدا مصره أكمل مصر، تُسفح فيه دِيَمُ الكرم، ويُفْصح فيه لسانا[٣] سيفٍ وقلم، ويفضح الرضا في وصفه أيام ذي سَلَم، وكان قومه وبنوه لتلك الحَلْبة زينًا، ولتلك الجملة عينًا، إن ركبوا خِلْتَ الأرضَ فَلَكًا يحمل نجومًا، وإن وهبوا رأيت الغمَام سَجُومًا، وإن أقدموا أحجم عَنْتَرة العبسي، وإن فخروا أفحم[٤] عَرَابة الأوسي، ثم انحرفت الأيام فألوت بإشراقه، وأذوت يانع إيراقه، فلم يدفع الرمحُ ولا الحسام، ولم تنفع تلك المنن الجسام، فتملك بعد الملك، وحُطَّ من فَلَكه إلى الفُلْك، فأصبح خائضًا تحدوه الرياح، وناهضًا يُزْجيه البكاء والصياح[٥]، قد ضَجّت عليه أياديه، واتجّت جوانبُ ناديه، وأضحت منازلُه قد بان عنها الأنس والحُبُور، وألوت ببَهْجَتها الصَّبا والدَّبور، فبكت العيون عليه دمًا، وعاد موجود الحياة عَدَمًا، وصار أحرار الدهر فيه خَدَمًا، فسحقًا لدنيا ما رعت حقوقه، ولا أبقت شروقه، فكم أحياها لبنيها، وأبداها رائقةً لمجتنيها[٦]، وهي الأيام لا يتقى من تجنيها، ولا تبقي على مواليها ومُدَانيها[٧]، أدثرت آثار جلق، وأخمدت نار المحلق، وذلك عزّة[٨] ابن شداد، وهدّت القصر ذا الشُّرُفَات من سِنْداد، ونعمت ببؤس النعمان، وأكمنت غدرها له في طلب الأمان، انتهى.

ثم ذكر الفتح من أخباره وأشعاره ومجالس أُنْسه وغير ذلك من أمره نبذًا ذكرنا بعضها في هذا الكتاب.

---

(١) في القلائد: «الأذهان، وغاية لرمي هدف البيان، ومضمارًا..».
(٢) في القلائد: «فلم يرتسم في زمانه إلاّ بطل نجد..».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٨): «لسان».
(٤) في القلائد: «أقصر».
(٥) في القلائد: «والنياح».
(٦) في قلائد العقيان: «لمجتليها».
(٧) كلمة «ومدانيها» غير واردة في القلائد.
(٨) في القلائد: «عزة عاد بن شداد».

وقال في ترجمة ابنه الراضي بالله أبي خالد يزيد بن المعتمد ما نصُّه[١]: ملك تفرّع من دَوْحَة سَناء، أصلها ثابت وفرعها في السماء، وتحدَّر من سُلاَلة أكابر، ورُقَاة أسِرَّة ومَنَابر، وتصرَّف أثناء شبيبته بين دراسة معارف، وإفاضة عَوَارف، وكلف بالعلم حتى صار مَلْهَجَ لسانه، وروضة أجفانه، لا يستريح منه إلاَّ إلى متنٍ[٢] سائلِ الغُرَّة، ميمون الأسِرَّة، يسابق به الرياح، ويحاسن بغُرَّته البدرَ اللَّيَّاح، عريق في السناء، عتيق الاقتناء، سريع الوَخْد والإرقال، من آل أعْوج أو لذي[٣] العُقَّال، إلى أنْ ولاَّه أبوه الجزيرة الخضراء، وضمّ إليها رُنْدَةَ الغرّاء[٤]، فانتقل من متن الجواد، إلى ذروة الأعواد، وأقلع عن الدراسة، إلى تدبير الرياسة، وما زال يدبِّرُها بجوده ونُهاه، ويورد الآمل فيها مُناه، حتى غدت عِـرَاقًا، وامتلأت إشراقًا، إلى أن اتّفق في أمر[٥] الجزيرة ما اتّفق، وخاب فيها الرجاء وأخفق، واستحالت[٦] بَهْجَتُها، وأحالت عليها من الحال لجّتها، فانتقل إلى رُنْدَة معقل أشِب، ومنزل للسِّمَاك منتسب، وأقام فيها رهينَ حصار، ومهين حماة وأنصار، ولقيت ريحه كلّ إعصار، حتى رمته سهام الخطوب عن قِسِيِّها، وأمكنت منه يدي مُسِيِّها، فحواه رَمْسُه، وطواه عن غده أمسه، حسبما بَسَطْنا القول فيه، فيما مَرّ من أخبار أبيه، انتهى.

والذي أشار إليه هنا وأحال عليه فيما تقدّم له من أخبار المعتمد هو قوله بعد حكايته قتل المأمون بن المعتمد بقرطبة وسياقه أخبار ذلك ما نصّه[٧]: ثم انتقلوا إلى رُنْدَة أحد معاقل الأندلس الممتنعة، وقواعدها السامية المرتفعة، تطرد منها على بُعْد مُرْتَقاها[٨]، ودنوّ النجوم من ذَرَاها، عيون لانصبابها دَوِيٌّ كالرعد القاصف، والرياح العواصف، ثم تتكوّن

(١) قلائد العقيان (ص ٣١ - ٣٢).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٩): «إلى فرس سائل الغرّة».

(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٩) والقلائد: «أو ولد العقال». وأعوج والعقال فحلان من فحول الجياد. وهذا من قول جرير (الكامل):

إنَّ الجيادَ يَبِتْنَ حول قِبابِنا ... مِنْ نَسْلِ أَعْوَجَ أو لذي العُقّال

لسان العرب (عقل).

(٤) في القلائد: «العراء» بالعين المهملة.

(٥) كلمة «أمر» غير واردة في القلائد.

(٦) في القلائد: «فاستحالتْ بهجتها، وأسالت عليها من الحوادث لجّتها..».

(٧) قلائد العقيان (ص ٢٠ - ٢١).

(٨) في القلائد: «ملتقاها».

واديًا يلتوي بجوانبها التواء الشجاع[1]، ويزيدها في التوعّر والامتناع، وقد تجوّنت نواحيها وأقطارها، وتكوّنت فيها لُبَاناتها وأوطارها، لا يتعذّر لها مطلب، ولا يتصوّر فيها عدوّ إلاّ علقه[2] ناب أو مِخْلَب، فلمّا أناخوا[3] منها على بُعْد، وأقاموا من الرجاء فيها على غير وعد، وفيها ابنه الراضي لم يحفل بإناختهم بإزائه، ولا عَدَّها من أرزائه، لامتناعه من منازلتهم، وارتفاعه عن مُطَاولتهم، إلى أن انقضى في أمر إشبيلية ما انقضى، وأفضى أمر أبيه إلى ما أفضى، فحمل على مخاطبته[4] لينزل عن صَيَاصيه، ويمكنهم من نواصيه، فنزل بَرًّا بأبيه، وإبقاءً على أرماق ذويه، بعد أن عاقدهم مستوثقًا، وأخذ عليهم عهدًا من اللّٰه ومَوْثِقًا، فلمّا وصل إليهم، وحصل في يديهم، مالوا به عن الحصن وجرَّعوه الردى، وأقطعوه الثرى حين أودى، وفي ذلك يقول المعتمد يرثيهما، وقد رأى قمرية بائحة بشَجَنها، نائحة بفَنَنِها على سَكَنها، وأمامها وَكْر فيه طائران يردّدان نغمًا، ويغرّدان تَرْحَةً وترنّمًا: [الطويل]

بَكَتْ أنْ رأتْ إلْفَينِ ضَمهُما وَكْرُ ... مساءً وقد أخنى على إلْفِها الدَّهْرُ
وناحتْ فباحتْ واستراحتْ بِسِرِّها ... وما نطقتْ حرفًا يبوح[5] به سرُّ
فما ليَ لا أبكي أمِ القلبُ صخرةٌ ... وكم صخرةٍ في الأرض يجري بها نهر
بَكَتْ واحدًا لم يُشْجِها غيرُ فَقْدِهِ ... وأبكي لألّافٍ عديدُهم كُثْرُ
بنيٌّ صغيرٌ أو خليلٌ مُوافِقٌ ... يمزّق ذا قَفْرٌ ويُغْرِقُ ذا بَحْرُ
ونجمانِ زَيْنٌ للزمانِ احتواهما ... بقرطبةَ النكداءِ أو رُنْدَةَ القَبْرُ
غدرْتُ إذن إن ضنَّ جفني بقطرةٍ ... وإنْ لُوِّمَتْ نفسي فصاحبها الصبْرُ
فقلْ للنجوم الزُّهْرِ تبكيهما معي ... لمثلهما فَلْتَحْزَنِ الأنجمُ الزُّهْرُ

وقال في ترجمة الراضي ما صورته[6]: وكان المعتمد، رحمه اللّٰه تعالى، كثيرًا ما يرميه بمَلاَمه، ويُصْميه بسهامه، فربما[7] استلطفه بمقالٍ أفصح من دمع المحزون، وأملح

---

(١) الشجاع: الثعبان. لسان العرب (شجع).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ص ٣٠): «عقله».
(٣) في القلائد: «فأناخوا».
(٤) في القلائد: «مخاطبة ولده».
(٥) في طبعة عبد الحميد (ص ٣١): «يباح».
(٦) قلائد العقيان (ص ٣٢).
(٧) في القلائد: «وربما».

من رَوْض الحُزُون، فإنه كان ينظم من بديع(١) القول لآلىء وعقودًا، تسُلُّ من النفوس سَخَائم(٢) وحُقودًا، وقد أثبتّ من كلامه في بث آلامه، واستجارة(٣) عَذْله ومَلامه، ما تستبدعه، وتُحِلُّه النفوس وتودعُه، فمن ذلك ما قاله وقد أنهض جماعة من أخوته وأقعده، وأدناهم وأبعده: [الوافر]

أعيذكَ أنْ يكونَ بنا خمولُ ... ويطلعَ غيرنا ولنا أُفُولُ
حنانَكَ إن يكنْ جرمي قبيحًا ... فإنَّ الصفحَ عن جرمي جميلُ
ألستُ بفرعك الزاكي وماذا ... يرجّي الفرعُ خانَتْهُ الأصولُ

ثم قال الفتح بعد كلام(٤): ومرّت عليه ـ يعني الراضي ـ هوَادجُ وقِباب، فيها حبائب كُنَّ له وأحباب، ألِفهن أيامَ خلائه من دولة، وجال معهنّ في ميدان المنى أعظم جَوْلة، ثم انتزعوا منه ببُعْدِهِ، وأودعوا الهَوَادجَ من بَعْده، ووُجِّهوا هدايا إلى العُدْوة، وألمّوا بها إلمام قريش بدار(٥) الندوة، فقال(٦): [البسيط]

مَرُّوا بنا أُصُلاً من غير مِيعادِ ... فأوقدوا نار قلبي(٧) أيَّ إيقادِ
وأذكروني َ(٨) أيامًا لَهَوْتُ بهم ... فيها ففازوا بإيثاري وإحمادي
لا غَرْوَ أنْ زاد في وَجْدي مرورُهُمُ ... فرؤيةُ الماءِ تُذْكِي غُلَّةَ الصادي

ولَمَّا وصل المعتمد لورقة أعلم أنّ العدوّ قد جيّش لها واحتشد، ونَهَد نحوها وقصد، ليتركها خاوية على عروشها، طاوية الجوانح على وُحُوشها، فتعرّض له المعتمد دون بغيته، وطلع عليه من ثنِيَّته، وأمر الراضي بالخروج إليه في عسكر جَرَّده لمحاربته، وأعدّه لمُصَادمته

---

(١) في القلائد: «بدائع».
(٢) السخائم: جمع سخيمة وهي الحقد. لسان العرب (سخم).
(٣) في القلائد: «واستجادة».
(٤) قلائد العقيان (ص ٣٣ ـ ٣٦).
(٥) دار الندوة: مكان في مكة كانت قريش تجتمع فيه للمشاورة فيما يعرض لهم من الأمور الجسام. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٤٢٣).
(٦) الأبيات أيضًا في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٧١)، وتقدم البيتان الأول والثالث في الجزء الرابع.
(٧) في القلائد والحلة السيراء: «نار شوقي».
(٨) في القلائد: «وذكروني».

ومضاربته، فأظهر التمارض[1] والتشكّي، وأضمر[2] التقاعُسَ والتلكي، فرارًا من المُصَادمة، وإحجـامًا عن المسـاومة[3]، وجَـزَعا من منـازلة الأقـران، ومقابلة ذوابـل المُـرَّان، ومقـاسـاة الطعان، وملاقاة أبطال كالرِّعَان، ورأى أن المطالعة، أرجح[4] من المقارعة، ومعاناة العلوم، أربح[5] من مداواة الكُلُوم، فقد كان عاكفًا على تـلاوة ديوان، عـارفًا بـإجادة صـدر وعنوان، فعلم المعتمد ما نواه، وتحقّق ما لَوَاه، فأعرض عنه، ونفض يده منه، ووَجّه المعتدَّ مع ذلك الجيش الذي لم تنشر بُنُوده، ولا[6] نصرت جنوده، فعندمـا لاقوا[7] العـدوّ لاذوا بالفـرار، وعاذوا[8] بإعطاء الغِرّة بدلاً من الغِرار، وتفـرّقوا في تلك الأمـاريت[9] ،وفرقـوا من تخطف أولئـك العفـاريت، فتحيف العـدوُّ مَنْ بقي مـع المعتـدّ واهتضمـه، وخضم مـا في العسكـر وقَضَمه، وغدت مضاربه مَجَرَّ عوالِيه، ومُجْرَى مَـذَاكيه، وآب أَخْسَـرَ من بائـع السِّدَانـة[10]، ومضيع الأمانة، فانطبقت سماء المعتمد على أرضه، وشغلته عن إقامة نوافله وفَرْضِه، فكتب إليه الراضي: [البسيط]

لا يكـرثَنَّـكَ خَـطْبُ الـحـادثِ الجـاري ... فـمـا عـلـيـكَ بـذاك الـخَـطْبِ مِنْ عـارِ
مـاذا عـلى ضَـيْـغـمٍ أمضـى عـزيـمَـتَـهُ ... إنْ خـانـه حَـدُّ أنـيـابٍ وأظـفـارِ
لئـن أتَـوْكَ فـمـن جـبـنٍ ومـن خَـوَرٍ ... قـد ينهضُ العَيـرُ نحـو الضيغـم الضـاري
عـلـيـكَ لـلنـاس أن تَـبْـقَـى لـنـصـرتـهـم ... ومـا عـلـيـكَ لـهـم إسـعـادُ[11] أقـدارِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ص ٣٢): «التمرض».
(٢) في القلائد: «وأكثر».
(٣) في القلائد: (ص ٣٤): «المساورة».
(٤) في القلائد: «أربح».
(٥) في القلائد: «أريح».
(٦) في القلائد: «ولم تنصر».
(٧) في القلائد: «لقوا».
(٨) في القلائد: «وعادوا».
(٩) الأماريت: الأراضي المنبسطة، مفردها مَرْت. محيط المحيط (مرت).
(١٠) السدانة: أي سِدانة الكعبة وهي خِدْمتها وتولّي أمرها وفتح بابها وإغلاقه. لسان العرب (سدن). وبائع السدانة: هو أبو غبشان الذي باع السدانة لقصي بن كلاب.
(١١) في القلائد: «إسعاف».

لـو يـعلمُ الـنـاسُ فيمـا[1] أن تـدومَ لهـمْ بَـكَـوْا لأنـكَ مـن ثـوبِ الـصِّبـا عـاري
ولـو أطـاقـوا انـتقـاصًـا مِنْ حيـاتـهـمُ لـم يُـتْـحِـفـوكَ بـشـيء غـيـرِ أعـمـارِ

فحَجَب عنه وَجْه رضاه، ولم يستنزله[2] بذلك ولا استرضاه، وتمادى على إعراضه، وقعد عن إظهاره وإنهاضه، حتى بسطته سوانح السُّلُوّ، وعطفته عليه جوانح الحنوّ، فكتب إليه بهزل، غلب فيه كلّ منزع جزل، وهو [مجزوء الكامل]

الـمـلك فـي طَـيِّ الـدفـاتـرْ فـتـخـلَّ عـن قَـود الـعـسـاكـرْ
طُـفْ بـالـسـريـر مُـسَـلِّمًـا وارجِـعْ لـتـوديـعِ الـمـنـابـرْ
وازحـفْ إلى جَـيْش الـمـعـا رفِ تـقهـرِ الـحـبـرَ الـمـقـامـرْ
واطْـعَـنْ بـأطـرافِ الـيـرا عِ نُصِـرْتَ في ثغـر المـحـابـرْ
واضـربْ بـسـكـيـن الـدوا ةِ مـكـان مـاضي الـحَـدِّ بـاتـرْ
أَوَ لَـسْـتَ رسـطـاليـسَ إنْ ذُكِـرَ الـفـلاسـفـةُ الأكـابـرْ
وأبـو حـنـيـفـةَ سـاقِطٌ في الـرأي حين تكـونُ حـاضـرْ[3]
وكـذاكَ إنْ ذُكـر الـخـلـيـ ـلُ فـأنـتَ نـحـويٌّ وشـاعـرْ
مَـنْ هُـرْمسٌ مَـنْ سـيـبـويـ ـهِ مَـنِ ابـنُ فُـورَكَ إذ تُـنـاظـرْ
هـذي الـمـكـارم قـد حَـوَيـ ـتَ فكنْ لـمن حـابـاك شـاكـرْ
واقْـعُـدْ فـإنـك طـاعـمٌ كـاسٍ[4] وقـل: هَـلْ مِنْ مُفَـاخـرْ
لـحجبـتُ[5] وجـه رضـاي عنـ ـكَ وكـنـتَ قـد تـلقـاهُ سـافـرْ
أَوَ لَـسْـتَ تـذكـرُ وقـت لَـوْ رَقَـةٍ وقَـلْـبُـكَ ثَـمَّ طـائـرْ
لا يَـسْـتَـقِـرُّ مـكـانَـهُ وأبـوكَ كـالـضِّـرغـامِ خـادرْ
هَـلّا اقـتـديـتَ بـفـعـله وأَطَـعْـتَـهُ إذ ذاك آمـرْ
قـد كـان أبْـصَـرَ بـالـعـوا قِـبِ والـمـوارِدِ والـمـصـادرْ

(١) في القلائد: «ما في أن تدوم».
(٢) في القلائد: «ولم يستمله بذلك ولا أرضاه».
(٣) ترتيب هذا البيت في القلائد بعد البيت الذي بعده.
(٤) أخذه من قول الحطيئة في هجاء الزِّبرقان: [البسيط]
دَعِ المكـارمَ لا تـرحـلْ لبغـيتهـا واقْعُـدْ فـإنـك أنت الطاعمُ الكـاسي
فوات الوفيات (جـ ١ ص ٢٧٧).
(٥) في القلائد (ص ٣٥): «فَحَجَبْتَ».

فكتب إليه الراضي مراجعًا بقطعة(١) منها: [مجزوء الكامل]

مولايَ، قد أصبحتُ كافرْ ... بجميع ما تحوي الدفاترْ
وفَلَلْتُ سِكِّينَ الدوا ... ةِ وظِلْتُ للأقلام كاسرْ
وعلمتُ أنَّ المُلْكَ ما ... بين الأسِنَّةِ والْبَوَاتِرْ
والمَجْدُ والعَلْياءُ في ... ضَرْبِ العساكرِ بالعساكرْ
لا ضَرْبِ أقوالٍ بأقـ ... ـوالٍ ضعيفاتٍ مَناكرْ(٢)
قد كنتُ أحسبُ مِنْ سفا ... هٍ أنها أصلُ المفاخرْ
فإذا بها فَرْعٌ لها ... والجَهْلُ للإنسان عاذرْ
لا يدركُ الشرفَ الفتى ... إلَّا بعَسَّالٍ وباترْ(٣)
وهجرتُ مَنْ سَمَّيْتُهُمْ ... وجَحَدْتُ أنهمُ أكابرْ
لو كنتَ تهوى مِيتَتِي ... لَوَجَدْتَني للعيش هاجرْ
ضَحِكُ الموالي بالعبيـ ... ـدِ إذا تؤمِّل غيرُ ضائرْ(٤)
إن كان لي فضلٌ فمنـ ... ـك(٥) وهلْ لذاك النور ساترْ
أو كان بي نقصٌ فمِنْـ ... ـني غير أنَّ الفضلَ غامرْ
ذَكَّرْتَ عَبْدَكَ ساعةً ... يبقى لها ما عاشَ ذاكر
يا ليته قد غَيَّبَتْـ ... ـهُ عندها إحدى المقابرْ
أتريدُ مني أن أكو ... نَ كمن غدا في الدهر نادر(٦)
هيهات ذلك مَطْمَعٌ ... يُعْيي الأوائلَ والأواخرْ
لا تَنْسَ يا مولاي قَو ... لَةَ ضارعٍ لا قولَ فاخرْ
ضَبَطَ الجزيرةَ عندما ... نَزَلَتْ بِعَقْوَتِها العساكِرْ
أيامَ ظلْتُ بها فريـ ... ـدًا ليس غيرَ اللَّهِ ناصرْ

(١) في القلائد: «بقطعة مطولة منها».
(٢) في القلائد: «مكاسر».
(٣) العَسّال: الرمح الذي يشتدّ اهتزازه للينه. الباتر: السيف القاطع. لسان العرب (عسل) و(بتر).
(٤) الضائر: المضرّ.
(٥) في القلائد: «إن كان في فضل فمنك..».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ص ٣٥): «غادر».

إذْ كـان يُـغْـشـي[١] نـاظـري لَـمْـعُ الأسِـنّـةِ والـبـواتِـرْ
ويُـصِـمُّ أسـمـاعـي بـهـا قَـرْعُ الـحـجـارةِ بـالـحـوافـرْ
وهـي الـحـضـيضُ سُـهُـولَـةً لـكـنْ ثـبـتُّ بـهـا مـخـاطـرْ[٢]
هَـبْـنـي أسـأتُ كـمـا أسـأ تُ أمـا لـهـذا الـعَـتْـبِ آخِـرْ
هَـبْ زلّـتـي لِـبُـنُـوّتـي واغـفـرْ فـإنَّ الـلّـهَ غـافِـرْ

فقرّبه وأدناه، وصفح عَمّا كان جَنَاه، ولم تزل الحال آخذة في البَوَار، والأمور[٣] معتلّة اعتلالَ حُبِّ الفرزدق للنَّوار، حتى مَضَوا لغيرطِيَّة، وقضوا بين الصوارم والرماح الخَطِّيَّة، حسبما سَرَدْناه، وعلى ما أوردناه، وإذا أراد اللّه سبحانه إنفاذ أمر سبق في علمه، فلا مردّ له[٤] ولا مُعَقِّبَ لحكمه، ولا إلّه إلاّ هو رب العالمين، انتهى كلام الفتح.

وعلى الجملة فكانت دولة بني عباد بالأندلس من أبهج الدول في الكرم والفضل والأدب، حتى قال ابن اللبانة رحمه اللّه تعالى: إنَّ الدولة العَبَّادية بالأندلس أشْبَهُ شيء بالدولة العباسية ببغداد، سعة مكارم، وجمع فضائل، ولذلك ألّف فيها كتابًا مستقلاً سمّاه «الاعتماد، في أخبار بني عبّاد» ولا يلتفت لكلب عَقُور نبح بقوله[٥]: [البسيط]

مِمّا يُزَهِّدُني في أرض أندلسٍ أسماءُ مُعْتَضِدٍ فيها ومُعْتَمِدِ
ألقابُ مملكةٍ في غير مَوْضِعِها كالهرِّ يَحْكي انتفاخًا صورةَ الأسدِ

لأنَّ هذه مقالة متعسّف كافر للنعم، ومثل ذلك في حقّهم لا يقدح، وما زالت الأشراف تُهْجَى وتُمْدَح.

وللمعتمد أولاد ملوك منهم المأمون والرشيد والراضي والمعتد وغيرهم، وقد سردْنا خبر بعضهم.

---

(١) في القلائد (ص ٣٦): «يغشى».
(٢) في القلائد: «لكن بها ثبت مخاطرْ».
(٣) كلمة «والأمور» غير واردة في القلائد.
(٤) في القلائد: «فلا مردٌّ لأمره».
(٥) البيتان لابن رشيق القيرواني، وهما في ديوانه (ص ٥٩ ـ ٦٠) ببعض الاختلاف عمّا هنا. وهما في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٤٢٨) لابن عمار الأندلسي، وقد تقدما في الجزء الأول من نفح الطيب ببعض الاختلاف أيضًا.

وكان الداني المذكور مائلاً إلى بني عباد بطَبْعه، إذ كان المعتمد هو الذي جذب بضَبْعِهِ، وله فيه المدائح الأنيقة، التي هي أذكى من زهر الحديقة، فمن ذلك قوله من قصيدة يمدحه بها ويذكر أولاده الأربعة، الذين عَمَروا من المجد أرْبُعَه، وهم الرشيد عبيد اللّه والراضي يزيد والمأمون والمؤتمن، وكانوا نجوم ذلك الأفق وغيوث ذلك الزمن، ولقد أجاد في ذلك كل الإجادة، وأطال لمجدهم نِجَادَهْ: [الطويل]

يغيثُكَ في مَحْلٍ، يعنيكَ في ردًى ... يروعُكَ في درع، يروقُكَ في بُرْدِ
جمالٌ وإجمالٌ وسَبْقٌ وصولَةٌ ... كشمسِ الضحى كالمزن كالبرق كالرعد
بمهجته شاد العُلا ثم زادها ... بناء بأبناء جَحاجِحَةٍ لُدٍّ[1]
بأربعةٍ مِثْلِ الطباعِ تركّبوا ... لتعديلِ ذكرِ المجدِ والشرفِ العِدّ

والمأمون بن المعتمد قَتَله لمتونة بقرطبة، والراضي يزيد قتلوه بُرنْدة كما سقْنا خبره آنفًا، وفي حالتهم هذه يقول الشاعر المشهور عبد الجبار بن حَمْديس الصقلي[2]: [الطويل]

ولَمّا رحلتم بالندى في أكُفِّكمْ ... وقُلْقِلَ رَضْوَى منكُمُ وثَبِيرُ
رفعتُ لساني بالقيامة قد دَنَتْ ... فهذي الجبالُ الراسياتُ تسيرُ[3]

وفي قضية[4] المعتمد يقول الداني المذكور: [البسيط]

لكلِّ شيء من الأشياء ميقاتُ ... وللمنى في مناياهنّ غاياتُ
والدهرُ في صفة الحِرْبَاء منغمسٌ ... ألوانُ حالاته فيها استحالاتُ
ونحن من لُعَبِ الشطرنج في يده ... وطالما قُمِرَتْ[5] بالبيدق الشاةُ
انْفُضْ يديك من الدنيا وزينتها ... فالأرضُ قد أقفرتْ والناسُ قد ماتوا
وقُلْ لعالمها الأرضيّ قد كَتَمَتْ ... سريرةَ العالمِ العُلْوي أغماتُ

وهي طويلة ذكرها الفتح وغيره.

(١) الجحاجحة: جمع جحجاح وهو السيد الجواد الكريم. اللُّدُّ: جمع أَلَدّ وهو الشديد الخصومة.
(٢) ديوان ابن حمديس (ص ٢٦٩).
(٣) في الديوان: «قد أتت ألاّ فانظروا هذي الجبال تسيرُ».
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٢٥٦): «وفي قصة..».
(٥) قُمِرَتْ: رُبِحَتْ في القمار.

وللداني أيضًا قصيدة عملها في المعتمد وهو بأغمات سنة ٤٨٦ : [الطويل]

تَنشَّقْ بريحانِ السلامِ فإنما ... أفضّ به مسكًا عليك مُختّما
وقُلْ لي مجازًا إنْ عدمتَ حقيقةً ... لعلّك في نعْمىٰ فقد كنتَ منعما
أفكرُ في عصرٍ مضى بك مشرقًا ... فيرجعُ ضوء الصبحِ عنديَ مظلما
وأعجبُ من أُفقِ المجرَّةِ إذ رأى ... كسوفكَ شمسًا كيف أطْلَعَ أنجما
لئن عظمتْ فيك الرزيّةُ إننا ... وجدْناكَ منها في الرزيّة أعظما
قناة سَعَتْ للطعن حتى تقسَّمتْ ... وسيفٌ أطالَ الضرب حتى تثلّما

ومنها:

بكى آلَ عبّادٍ ولا كمحمدٍ ... وأولادِهِ صَوْبُ الغمامَةِ إذ هَمَى
حبيبٌ إلى قلبي حبيبٌ لقوله ... عسى طللٌ يدنو بهم ولعلّما
صباحُهُمُ كُنّا به نَحْمَدُ السُّرَى ... فلمّا عدمناهم سرينا على عَمَى
وكُنّا رعَيْنَا العِزَّ حول حِماهُمُ ... فقد أجدبَ المرعى وقد أقفر الحمى
وقد ألبستْ أيدي الليالي قلوبَهم ... مناسجَ سَدَّى الغيثُ فيها وألحما
قصورٌ خَلَتْ من ساكنيها فما بها ... سوى الأدم تمشي حول واقفة الدُّمَى
تجيبُ بها الهامَ الصَّدَى ولطالما ... أجابَ القيانُ الطائرَ المترنّما
كأن لم يكن فيها أنيس، ولا الْتَقَى ... بها الوفدُ جمعًا والخميسُ(١) عرمرما

ومنها:

حكيتَ وقد فارقْتَ ملكك مالكًا ... ومن وَلَهي أحكي عليك متمّما(٢)
مصابٌ هوى بالنيراتِ من العلا ... ولم يُبْقِ في أرض المكارم مَعْلَما
تضيقُ عليَّ الأرضُ حتى كأنما ... خُلِقْتُ وإياها سوارًا ومِعْصما
ندبتك حتى لم يُخَلِّ ليَ الأسى ... دموعًا بها أبكي عليك ولا دَمَا
وإني على رسمي مقيمٌ فإنْ أَمُتْ ... سأجعلُ للباكين رسميَ موسما
بكاكَ الحيا والريحُ شَقَّتْ جيوبها ... عليك وناحَ الرعدُ باسمك معلما

---

(١) الخميس: الجيش الجرار ويقسّم خمسة أقسام. لسان العرب (خمس).

(٢) مالك: هو مالك بن نويرة، قتله خالد بن الوليد في حروب الردّة. ومتمّم: هو أخوه متمم بن نويرة، وقد بكاه أحرّ بكاء بمراث عديدة.

ومــزّق ثــوب البــرق واكتست الضحـى حــدادًا وقــامـتْ أنجـمُ الجــوّ أفـحمـا
وحـار ابنك الإصبـاح وجـدًا فمـا اهتـدى وغــار أخــوكَ البحــرُ غيضًـا فمـا طَمَى
ومــا حَــلَّ بَــدْرُ الــتـمِّ بــعــدك دارةً ولا أظهــرت شمس الــظهيــرة مبسـمـا
قضى الــلّه أن حــطُّوك عن ظهــر أشقـرٍ بــشــم وأن أمــطَوْكَ[1] أشــأمَ أدهــمـا

وكان قد انفكّت عنه القيود، فأشار إلى ذلك بقوله فيها:

قيـودكَ ذابت فـانــطلقتَ لقـد غَــدَتْ قيــودكَ منهم بــالمكــارمِ أرْحَـمَـا
عجبتُ لأن لاَنَ الحــديــدُ وأن قَسَــوْا لقــد كـان منهمْ بــالسريــرة أعْلَمَــا
سينجيـك مَنْ نَجَّى من السجن يـوسفًـا ويؤويـك من آوى المسيحَ بن مـريمـا

ولأبي بكر الداني المذكور في البكاء على أيامهم، وانتشار نِظامهم، عـدة مقطعـات[2] وقصائد، هي قرّة عين الطالب ونُجْعَة الرائد، وقد اشتمـل عليها جـزء لطيف، صـدر عنه في هيئـة تصنيف، سماه «السلوك، في وعظ الملوك» ووفـد على المعتمد وهـو بأغمـات، عِـدَّةَ وفـادات، لم يَخْلُ في جميعهـا من إفادات، وقـال في إحداهـا: هذه وفـادة وَفـاء، لا وفـادة اجتداء.

قال غير واحد: من النادر الغريب أنه نودي على[3] جنازته «الصلاة على الغـريب» بعد عظم سلطانه، وسعة أوطانه، وكثرة صَقَالبته وحُبْشَانه، وعظم أمره وشانه، فتبارك من له العزّة والبقاء والدوام، واجتمع عند قبره جماعة من الأقوام، الـذين لهم في الأدب حصة، ولقضيـة المعتمـد في صدورهم غُصَّـة، منهم البالـغ في البلاغـة الأمد، شـاعره أبـو بحر بن[4] عبـد الصمد، وكان به خصيصًا، وكم ألبسـه من برّه حُلّةً وقميصًـا، فقال من قصيـدة طويلة أجـاد فيها ما شا، وجلب بها إلى أنْفُسِ الحاضرين بعد الأنس إيحاشا، مطلعها[5]: [الكامل]

مَـلِكَ الــملوك، أســامـعٌ فـأُنــادي أم قـد عَـدَتْــكَ عن السمـاع عَــوَادي

(١) أمْطَوْكَ: جعلوك تمتطي.
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٥٨): «مقطوعات».
(٣) في طبعة دار صادر (ص ٢٥٩): «في جنازته».
(٤) في أصول النفح: «أبو بحر عبد الصمد»، وقد صوّبناه؛ لأنَّ المذكور هو أبو بحر يوسف بن عبد الصمد، وقد تقدم الحديث عنه في الجزء الخامس.
(٥) هذا البيت والبيتان بعده في قلائد العقيان (ص ٣٠)، وتقـدمت في الجزء الخـامس، وجاء البيت الثـالث هناك ببعض الاختلاف عمّا هنا.

ومنـها:

لَمّـا خَلَتْ منـك القصـورُ ولم تـكنْ ... فيهـا كـمـا قــد كُنْتَ في الأعيــادِ
قَبَّلْتُ في هـذا الثرى لـك خـاضعًـا ... وجـعلتُ قبـرك مـوضـعَ الإنـشـادِ

فلمّا بلغ من إنشاده، إلى مُرَاده، قَبَّلَ الثرى ومَرَّغ جسمه وعفّر خدّه، فبكى كل من حضر وصرفه[1] ذلك عن سرور العيد وصَدِّه، إذ كانت هذه القصة يوم عيد، فسبحان المبدىء المعيد.

ويحكى أنَّ رجلاً رأى في منامه أثر الكائنة على المعتمد بن عباد كأنَّ رجلاً صعد منبر جامع قرطبة فاستقبل الناس وأنشد هذه الأبيات متمثّلاً: [الرمل]

رُبَّ ركبٍ قـد أنـاخـوا عِيسهُـمْ ... فـي ذُرَا مـجـدهـمُ حيـن بَسَـقْ
سكتَ الـدهـرُ زمـانًـا عـنهـمُ ... ثـم أبكـاهـمْ دمًـا حيـن نَـطَقْ

وعاش أبو بكر بن اللبانة المعروف بالداني المذكور آنفًا بعد المعتمد، وقدم ميورقة آخر شعبان سنة ٤٨٩، ومدح ملكها مبشر بن سليمان بقصيدة مطلعها: [الكامل]

ملكٌ يـروعـكَ في حلى ريعـانِـهِ ... راقتْ بـرونقِـهِ صفـاتُ زمـانِـهِ

وأين هذا من أمداحه في المعتمد؟!.

وتذكَّرْتُ هنا من أحوال الداني أنه دخل على ابن عمار في مجلس، فأراد أن يندر به وقال له: اجْلِسْ يا داني، بغير ألف، فقال له: نعم يا ابن عمار، بغير ميم، وهذا هو الغاية في سرعة الجواب والأخذ بالثأر في المزاح.

ونظيره ـ وإن كان من باب آخر ـ أنَّ المعتمد مَرَّ مع وزيره ابن عمار ببعض أرجاء إشبيلية، فلقيتهما امرأة ذات حسن مفرط، فكشفت وجهها، وتكلّمت بكلام لا يقتضيه الحياء، وكان ذلك بموضع الجباسين الذين يصنعون الجبس والجيارين الصانعين للجير، بإشبيلية، فالتفت المعتمد إلى موضع الجيارين، وقال: يا ابن عمار الجيارين، ففهم مراده، وقال في الحال: يا مولاي والجياسين، فلم يفهم الحاضرون المراد، وتحيّروا، فسألوا ابن عمار، فقال له المعتمد: لا تبعها منهم إلاّ غالية، وتفسيرها أن ابن عبّاد صحف «الحَيَـازَيْن»

(١) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٠): «وحذفه».

بقوله «الجيارين»، إشارة إلى أن تلك المرأة لو كان لها حياء لازدانت، فقال له والجباسين وتصحيفه «والخناشَيْن» أي: هي وإن كانت جميلةً بديعةَ الحسن لكن الخنا شَانَها، وهذا شأو لا يُلْحق.

ومن أخبار المعتمد أنه جلس يومًا والبُزَاة تُعرض عليه، فاستحثَّ الشعراء في وصفها، فصنع ابن وهبون بديهًا: [الكامل]

للصيدِ قبلكَ سنَّةٌ مأثورةٌ   لكنها بكَ أَبْدَعُ الأشياءِ
تمضي البزاة وكلّما أَمْضَيْتَها   عاطيتها بخواطِرِ الشعراءِ

فاستحسنهما، وأسنى جائزته.

وذكر ابن بَسَّام[1] أنَّ أبا العرب الصقلي حضر مجلس المعتمد يومًا وقد حُمل إليه حمول وافرة من قراريط الفِضّة، فأمر له بكيسين منها، وكان بين يديه تماثيل عنبر من جملتها جمل مُرَصَّع بالذهب واللآلىء، فقال له أبو العرب معرِّضًا: ما يحمل هذين الكيسين إلاَّ جمل، فتبسّم المعتمد وأمر له به، فقال أبو العرب بَدِيهًا: [البسيط]

أَهْدَيْتَني[2] جملاً جَونًا شفَعْتَ به   حملاً من الفِضّة البيضاء لو حُمِلا
نتاجُ جودِكَ في أعطانِ مكرمةٍ   لا قِدَّ تصرف مِنْ منعٍ ولا عُقُلاَ[3]
فاعْجَبْ لشأني فشأني كلُّه عَجَبٌ   رَفَّهْتَني فحملتُ الحملَ والجَمَلاَ

وذكر الحِجَارِي هذه القصة فقال: قعد المعتمد في مجلس احتفل في تنضيده، وإحضار الطرائف الملوكية، وكان في الجملة تمثال جمل من بلور، وله عينان من ياقوتتين، وقد حُليَ بنفائس الدُّرِّ، فأنشده أبو العرب قصيدة، فأمر له بذهب كثير مِمّا كان بيده من السكة الجديدة، فقال معرِّضًا بذلك الجمل: ما يحمل هذه الصلة إلاَّ جمل! فقال: خُذْ هذا الجمل، فإنه حمال أثقال، فارتجل شعرًا منه:

رفهتني فحملت الحمل والجملا

---

(١) حكاية أبي العرب الصقلي في مجلس المعتمد بن عباد وشعره في الذخيرة (ق ٤ ص ٣٠١ - ٣٠٢) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٣٦). وتقدم ذلك في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في الذخيرة والبدائع: «أجديتني».
(٣) في الذخيرة: «سماح جودك.. لا قِدَّ يعرف..».

وذكر أنّ ذلك الجمل بيع بخمسمائة مثقال، فسارت بهذا الخبر الركائب، وتهادته المشارق والمغارب.

وتباحث المعتمد مرة مع الجلساء في بيت المتنبي الذي زعم أنه أمير شعره[1]: [البسيط]

أزورُهُمْ وسَوَادُ الليلِ يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبح يغري[2] بي

فقال: ما قصر في مقابلة كل لفظة بضدها إلّا أنّ فيه نقدًا خفيًّا، ففكّروا فيه، فلمّا فكّروا قالوا له: ما وقفْنا على شيء، فقال: الليل لا يطابَقُ إلّا بالنهار [ولا يطابق بالصبح][3]؛ لأن الليل كلّي والصبح جزئي، فتعجّب الحاضرون، وأثنوا على تدقيق انتقاده.

قال الصفدي: قلت: ليس هذا بنقد صحيح، والصواب مع أبي الطيب؛ لأنه قال «أزورهم وسواد الليل يشفع لي» فهذا مُحِبٌّ يزور أحبابه في سواد الليل خوفًا مِمَّنْ يَشِي به، فإذا لاح الصبح أغرى به الوشاة، ودلّ عليه أهل النميمة، والصبح أول ما يغري به قبل النهار، وعادة الزائر المريب أن يزور ليلًا، وينصرف عند انفجار الصبح خوفًا من الرقباء، ولم تَجْرِ العادة أنَّ الخائفَ يتلبّث إلى أن يتوضّح النهار، ويمتلىء الأفق نورًا، فذكر الصبح هنا أولى من ذكر النهار، والله أعلم، انتهى.

قلت: كان يختلج في صدري ضعف ما قال الصفدي، حتى وقفت على ما كتبه البدر البشتكي، ومن خطّه نقلت ما صورته: هو ما انتقد عليه المعنى، إنما انتقد عليه مطابقة الليل بالصبح، فإن ذلك فاسد، انتهى، فحمدت الله على الموافقة، انتهى.

وقال في بدائع البداته[4]: جلس المعتمد للشرب وذلك في وقت مطر أجرى كلّ وهدة نهرًا، وحَلّى جيد كلّ غصن من الزهر جوهرًا، وبين يديه جارية تسقيه وهي تقابل وجهها

---

(١) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٨١).

(٢) في العرف الطيب: «يغزي» بالزاي المعجمة.

(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (ص ٢٦١).

(٤) النص في بدائع البدائه (جـ ١ ص ١٠٠ ـ ١٠١) مختلف بعض الاختلاف عمّا هنا. وانظر الجزء الخامس.

بنجم الكاس في راحة كالثريّا، تخجل الزهر بطيب العَرْفِ والريّا، فاتّفق أن لعب البرق بحسامه، وأجال سوطه المذهب يَسُوقُ به ركامه، فارتاعت لخطفته، وذعرت من خيفته، فقال المعتمد بديهًا[1]: [السريع]

رَوَّعَهــا الـبــرقُ وفـي كَـفِّـهـا ... بَـرْقٌ مِـنَ الـقـهـوةِ لَـمّـاعُ
عجبتُ منهـا وهي شمسُ الضحى ... كـيـفَ مـن الأنـوار تـرتـاعُ

واستدعى[2] عبد الجليل بن وَهْبُون المرسي، وأنشده البيت الأول مستجيزًا، فقال عبد الجليل[3]: [السريع]

ولـن تـرى[4] أعـجـب مـن آنسٍ ... مـن مثـلِ مـا يُـمْسِـكُ يـرتـاعُ

فاستحسنه، وأمر له بجائزة.

قال ابن ظافر: وبيته عندي أحسن من بيت المعتمد، انتهى.

وقال ابن بسام[5]: كان في قصر المعتمد فيل من الفِضّة على شاطىء بركة يقذف الماء، وهو الذي يقول فيه عبد الجليل بن وَهْبُون من بعض قصيدة: [الوافر]

ويُفْـرِغُ فيـه مِثْـلَ النَّصْـلِ بـدعٌ ... مـن الأفيـالِ لا يـشكـو مَـلالا
رعى رَطْبَ اللجين فجـاء صلدًا ... تـراه[6] قـلّمـا يـخـشى هُـزالا

فجلس المعتمد يومًا على تلك البركة والماء يجري من ذلك الفيل، وقد أوقدت شمعتان من جانبيه، والوزير أبو بكر بن الملح عنده، فصنع الوزير فيهما عدة مقاطيع بديهًا منها: [البسيط]

ومِشْعَلَين من الأضـواء قـد قُـرِنَـا ... بـالماءِ والمـاءُ بـالـدولابِ منـزوفُ
لاحـا لعينيَّ كـالنجمين، بينهمـا ... خَطُّ المَجَـرَّةِ ممـدودٌ ومعـطوفُ

---

(١) البيتان أيضًا في ديوان المعتمد بن عباد (ص ٣١)، وقد تقدما في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٦٢): «فاستدعى».

(٣) ديوان المعتمد (ص ١٢). وتقدم في الجزء الخامس.

(٤) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٣): «أرى».

(٥) الذخيرة (ق ٢ ص ٤٧٢ - ٤٧٣) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٣٧).

(٦) في الذخيرة: «وقاحًا».

وقال أيضًا: [البسيط]

كـأنمـا النـارُ فـوق الشمعتينِ سَنًـا ... والمـاءُ من نُفَـذِ الأنبـوبِ منسكبُ[1]
غمـامـةٌ تحت جنحِ الليـلِ هـامِعَـةٌ ... في جـانبيها خفـاقٌ[2] البرق يضـطربُ

وقال أيضًا: [الطويل]

وأنبـوبِ مـاءٍ بيـن نـارَينِ ضُـمِّـنـا ... هُوًى[3] لكؤوسِ الراحِ تحت الغياهبِ
كـأنّ انـدفـاع الماء بـالمـاء حَيَّـةٌ ... يحـرّكها في[4] المـاء لمـعُ الحبـاحب

وقال أيضًا: [الطويل]

كـأنَّ سـراجَيْ شِـرْبهم في التـظائهـا ... وأنبـوبَ مـاءِ الفيـلِ في سيـلانِـه[5]
كـريـمٌ تـولّى كِبْـرَهُ من كـليهـمـا ... لئيـمـانِ فـي إنـفـاقـه يـعـذلانـه

ولَمّا مات والد المعتمد واستقلّ بالملك قال ذو الوزارتين ابن زيدون يرثي المعتضد ويمدح المعتمد بقصيدة طويلة أوّلها[6]: [الطويل]

هـو الـدهـرُ فـاصْبِـرْ للذي أَحْدَثَ الـدَّهْـرُ ... فمن شِيَمِ الأحـرارِ[7] فـي مثـلهـا الصبـرُ
سَتَصْبِـرُ صَبْـرَ اليـأسِ أو صَبْـرَ حسبـةٍ[8] ... فـلا تُـؤثِـرِ الـوَجْـهَ الـذي معـه الـوِزْرُ
حِـذَارَكَ مِـنْ أن يُـعْـقِـبَ الـرُّزْءُ فِـتْـنَـةً ... يَضِيقُ بهـا[9] عن مثـل إيمـانـك العُـذْرُ
إذا آسـفَ الـثُّـكْـلُ الـلبـيـبَ فَـشـفَّـهُ ... رأى أَفْـدَحَ الـثكـلَين أن يـذهـب[10] الأجـر

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٤): «منفذ الأنبوب». وفي الذخيرة: «ينسكبُ».
(٢) في الذخيرة: «جناح البرق».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «هُدًى».
(٤) في الذخيرة: «يحركّها بالليل لمعُ . .».
(٥) في الذخيرة: «في التظاهما. . ماء الحوض في . .».
(٦) ديوان ابن زيدون (ص ١٧٥ ـ ١٨١).
(٧) في الديوان (ص ١٧٥): «الأبرار».
(٨) في أصول النفح: «وحشة» والتصويب عن الديوان. والحسبة: احتساب الأجر.
(٩) في الديوان: «يضيق لها».
(١٠) في الديوان: «أن يهلك الأجرُ».

مصابُ الذي يأسَى بموتِ ثوابِهِ		هو البَرْحُ[1] لا المَيْتُ الذي أَحْرَزَ القَبْرُ
حياةُ الوَرَى نَهْجٌ إلى الموت مَهْيَعٌ		لهم فيه إيضاعٌ كما يُوضِعُ السَّفْرُ[2]

ومنها:

إذا الموتُ أضحى قصدَ[3] كلِّ مُعَمَّرٍ		فإنَّ سواءً طالَ أو قَصُرَ العُمْرُ
ألم تَرَ أنَّ الدِّيْنَ ضِيمَ ذِمارُهُ		فلم يُغْنِ أنصارٌ عَدِيدُهُمُ دَثْرُ[4]
بحيث استقلَّ المُلْكُ ثانيَ عِطْفِهِ		وجرَّرَ من أذيالِه العَسْكَرُ المَجْرُ[5]
هو الضيمُ، لو غيرُ القَضاء يَرُومُهُ		ثَناه المَرامُ الصَّعْبُ والمَسْلَكُ الوَعْرُ
إذا عَثَرَتْ جُرْدُ العناجيجِ[6] في القَنا		بليلِ عَجاجٍ ليس يَصْدَعُهُ فَجْرُ

ومنها:

أَعَبّاد، يا أوفى الملوكِ، لقد عَدَا		عليكَ زمانٌ، مِنْ سَجِيَّتِهِ الغَدْرُ

إلى أن قال بعد أبيات كثيرة:

ألا أيها المولى الوَصُولُ عَبِيدَهُ		لقد رابَنا أن يتلو الصِّلَةَ الهَجْرُ
يغاديكَ، داعِينا السلامُ، كَعَهْدِهِ[7]		فما يُسْمَعُ الداعي، ولا يُرْفَعُ السِّتْرُ
أَعَتْبٌ علينا ذادَ عن ذلك الرضا		فتسمع أم بالمَسْمَعِ المعتلي وَقْرُ.[8]

ومنها:

وكيف بنسيانٍ وقد ملأتْ يدي		جِسامُ أيادٍ منكَ، أَيْسَرُهَا الوَفْرُ
وإن كنتُ لم أشكرْ لك المننَ التي		تَمَلَّيْتُها تَتْرَى، لأوبقني الكُفْرُ[9]

---

(١) البَرْحُ: المشقة والشدّة.
(٢) المَهْيَعُ: الطريق. الإيضاع: السير السريع. السَّفْرُ: المسافرون.
(٣) في الديوان: «قصر»، والقصر: القصد والغاية.
(٤) الدَّثْرُ: الكثير.
(٥) المَجْرُ: العظيم.
(٦) العناجيج: جياد الخيل.
(٧) في الديوان: «نغاديك.. كعهدنا».
(٨) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٥): «ذاو» بدل «ذاد». وفي الديوان: «فَنُعْتَبَ» بدل «فتسمع». والوَقْرُ: الصدع.
(٩) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٥): «فلا بقي الكُفْرُ». وفي الديوان: «لئن كنتُ...». وفي طبعة دار صادر: «فأوبقني الكفرُ».

فهلْ عَلِمَ الشِّلْوُ المقدَّسُ أنني مُسَوِّغُ حالٍ، حار في كنهها الفكر (1)
وأنَّ متاتي(2) لم يُضِعْهُ محمدٌ خليفتك العدلُ الرضى وابنُك البَرُّ
هو الظافرُ الأعلى المؤيَّدُ بالذي له في الذي وفّاه(3) من صنعه سِرُّ
له في اختصاصي ما رأيتُ وزادني مزيّةَ زُلْفَى مِنْ نتائِجِها الفَخْرُ(4)
وأَرْغَمَ، في بِرِّي، أُنوفَ عِصابَةٍ لقاؤُهُمُ جَهْمٌ، ولحظهمُ شَزْرُ
إذا ما استوى في الدَّسْت عاقدَ حُبْوَةٍ وقامَ سِماطا حَفْلِهِ فليَ الصَّدْرُ(5)
وفي نفسه العَلْياءِ لي مُتَبوَّأٌ يُساجلني(6) فيه السِّماكانِ والنَّسْرُ

ومنها:

لكَ الخيرُ إنَّ الرُّزْءَ كان غيايةً(7) طَلَعْتَ لنا فيها، كما طَلَعَ البدرُ
فَقَرَّتْ عيونٌ كان أسْخَنَها البُكا وقَرَّتْ قلوبٌ كان زلزلها الذُّعْرُ

ومنها:

ولَمَّا قدمتَ الجيشَ بالأمر(8) أَشْرَقَتْ إليكَ من الآمال آفاقُها الغُبْرُ
فقضَّيْتَ مِنْ فَرْضِ الصلاة لُبانةً فشيَّعها نُسْكٌ وقارنها طُهْرُ(9)
ومن قبلُ ما قَدَّمْتَ مَثْنَى نوافلٍ يُلاقي بها مَنْ صامَ من عَوَزٍ(10) فِطْرُ
ورُحْتَ إلى القَصْرِ الذي غضّ طَرْفَهُ بُعَيْدَ التسامي أن غدا غيرَهُ القَصْرُ
وأَجْمِلْ عن الثاوي العزاءَ فإن ثوى(11) فإنك لا الواني ولا الضَّرِعُ الغُمْرُ

---

(1) في طبعة عبد الحميد: «المقدسي أنني... الدهرُ». وفي الديوان: «ضلَّ في كنهها..». وأراد بالشلو المقدس: جسد المرثي.

(2) في الديوان: «متابي». والمتات: مصدر مَتَّ إليه بكذا: أي توسَّل إليه.

(3) في طبعة دار صادر (ص ٢٦٥): «وافاه». وفي الديوان: «ولّاه».

(4) في الديوان: «رأى في اختصاصي». والزُّلْفَى: القربى.

(5) الدَّسْتُ: المجلس. السماطان: الصفان من الناس.

(6) في الديوان: «يُنافسني».

(7) في أصول النفح وفي الديوان: «غيابة» بالباء. والغياية: السحابة، وهذا يلائم المعنى لذكر البدر.

(8) في الديوان: «بالأمس».

(9) في الديوان: «مُشَيِّعُها نُسْكٌ وفارطُها طُهْرٌ».

(10) في أصول النفح: «من غيره» والتصويب من الديوان.

(11) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٦): «عن التاوي.. فإن توى» بالتاء وليس بالثاء.

وما أعطتِ السبعونَ قبلَ أُولي الحِجَا من اللبّ ما أعطاك عشروك والعمرُ [1]
ألستَ الذي إنْ ضاق ذَرْعٌ بحادثٍ تَبلَّجَ منه الوَجْهُ واتَّسَعَ الصَّدْرُ
فلا تُهِضِ الدنيا جَناحَكَ بَعْدَهُ فمنك لمن هاضَتْ نوائبُها جَبْرُ
ولا زلتَ موفورَ العديدِ بِقُرَّةٍ لعينكَ مشدودًا بها ذلك الأزْرُ
فإنك شمسٌ في سماءِ رياسةٍ تَطَلَّعُ منهمْ حولنا أنجمٌ زُهْرُ[2]
شَكَكْنا فلم نُثْبِتْ، أأيامُ[3] دَهْرِنا بها وَسَنٌ أم هَزَّ أعطافَها سكرُ
وما إنْ تَغَشَّتْها مُغازلةُ الكَرَى وما إن تَمَشَّتْ في معاطفها[4] الخمرُ
سِوَى نَشَواتٍ مِنْ سجايا مُمَلَّكٍ يُصَدِّقُ في عَلْيائها الخَبَرَ الخُبْرُ
أرى الدهرَ إنْ يَبْطِشْ فأنتَ يمينُه وإن تَضْحَكِ الدنيا فأنتَ لها ثَغْرُ
وكم سائلٍ بالغَيْبِ عنكَ أَجَبْتُهُ هناك الأيادي الشَّفْعُ والسؤددُ الوِتْرُ
هناك التُّقَى والعِلْمُ والحِلْمُ والنُّهَى وبَذْلُ اللُّها والبأسُ والنَّظْمُ والنثرُ
هُمامٌ إذا لاقى المُناجِزَ رَدَّهُ وإقبالُهُ خَطرٌ وإدبارُهُ حصرُ[5]
محاسِنُ ما للروضِ سامره[6] الندى رُوَاءٌ إذا نُصَّتْ حُلاها ولا نَشْرُ
متى انْتُشِقَتْ لم تَدْرِ[7] دارِينُ مِسْكَها حياءً ولم يَفْخَرْ بعنبره الشِّحْرُ
عَطاءٌ ولا مَنٌّ، وحُكْمٌ ولا هَوًى وحِلْمٌ، ولا عَجْزٌ، وعِزٌّ ولا كِبْرُ
قد اسْتَوْفَتِ النعماءُ فيكَ تمامَها علينا، فَمِنّا الحمدُ للّه والشُّكْرُ

وكتب ابن زيدون المذكور إلى المعتمد رحمهما اللّه تعالى يشوقه إلى تعاطي الحُمَيَّا، في قصوره البديعة التي منها المبارك والثريّا[8]: [الكامل]

فُزْ بالنجاحِ وأحْرِزِ الإقْبالا وحُزِ المُنَى وتَنَجَّزِ الآمالا
ولْيَهْنِكَ التأييدُ والظفرُ اللّذا صَدَقاكَ في السمةِ العَلِيَّةِ فالا

(١) في الديوان: «من الإرب ما أعطتك عشروك والعشرُ».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٧): «منها حولنا». وفي الديوان: «منهم حولها».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «لأيام».
(٤) في الديوان: «في مفاصلها».
(٥) في الديوان: «خطوٌ وإدباره حُضْرُ».
(٦) في الديوان: «خامره الندى».
(٧) في الديوان: «لم تُطْرِ». أي لم تمدح.
(٨) ديوان ابن زيدون (ص ١٨٢).

يـا أيهـا الملكُ، الـذي لـولاه لم تَجِـدِ العقـولُ النـاشِـداتُ كَمـالا
أَمّـا (الثُّـرَيَّـا) فـالثُّـرَيَّـا نسبـةً[1] وإفـادةً وإنـافـةً وجـمـالا
قـد شـاقَهـا الإغبـابُ، حتى إنهـا لـو تستـطيـعُ سَـرَتْ إليـك خَيـالا
رَفِّـهْ وُرُودَكَـهـا لِتَـغْـنَـمَ راحـةً وأطِـلْ مَـزارَكَـهـا لِتَـنْـعَـمَ بـالا
وتـأمَّـلِ[2] القصـرَ (المبـارَكَ) وَجْنَـةً قـد وُسِّـطَتْ فيهـا (الثُّـريّـا) خـالا
وأَدِرْ هنـاك من الـمُـدام كـؤوسـهـا وأتـمّـهـا وأشـفّـهـا جـريـالا[3]
قَـصْـرٌ يُقِـرُّ الـعَيـنَ منـه مَصْنَـعٌ بَهِـجُ الجـوانبِ لـو مشـى لاختـالا
لا زِلْتَ تفتـرشُ السـرورَ حـدائقًـا فيـه وتَلْتَحِـفُ الـنعـيـمَ ظِـلالا

وأهدى إليه تفاحًا، واعتقد أن يكتب معه قطعة، فبدأ بها، ثم عرض له غيرها فتركها ثم ابتدأ[4]: [مجزوء الخفيف]

دونَـكَ الـراحَ جـامِـدَهْ وَفَـدَتْ خَـيْـرَ وافِـدَهْ
وَجَـدَتْ سُـوقَ ذَوْبِـهـا عنـدكَ اليومَ كـاسِـدَهْ[5]
فـاستحـالتْ إلى الجمـو دِ وجـاءتْ مُـكَـايِـدَهْ

وكتب إلى المعتمد[6]: [السريع]

يـا أيـهـا الـظافـرُ نلتَ الـمُـنَـى ولا أتـانـا فـيـك مَـحْـذُورُ
إنَّ الخِـلَالَ الـزُّهْـرَ قـد ضَمَّهـا ثـوبُ عـليـك الـدهـرَ مَـزْرُورُ
لا زال لـلمجـد الـذي شِـدْتَـهُ رَبْـعٌ بـتـعـمـيـركَ مـعـمـورُ
وافـاك نـظمٌ لـيَ فـي طـيِّـه مـعنًـى معـمَّـى الـلفظ مسـتـورُ
مَـرَامُـهُ يـصـعـبُ مـا لـم يَـبُـحْ بـالـسِّـرِّ قُـمْـرِيٌّ وشُـحْـرورُ

---

(١) في الديوان: «نصبةً». والنصبة: الارتفاع.
(٢) في الديوان: «وتمثَّل».
(٣) في الديوان: «من المدام أتمُّها أرجًا زكا وأشفُّها جريالا».
(٤) ديوان ابن زيدون (ص ٢٧١).
(٥) في الديوان: «عند تقواك كاسدهْ».
(٦) الأبيات غير واردة في ديوان ابن زيدون، طبعة دار بيروت، وهي في الديوان طبعة مصر (ص ٦١٦).

وذكر أبياتًا فيها أسماء طيور عَمَّى بها عن بيت طيره فيها، والبيت المطير فيه: [مجزوء الخفيف]

أنتَ إنْ تَغْزُ ظافِرْ فَلْيُطِعْ مَنْ يُنافِرْ

ففكّه المعتمد وجاوبه[1]: [السريع]

يا خيرَ مَنْ يلحظُهُ ناظري شهادةً ما شانَهَا زورُ
ومن إذا خَطْبٌ دَجَا ليلُه لاحَ به من رأيه نورُ
جاءتنيَ الطيرُ التي سِرُّها نَظْمٌ به قلبيَ مسرور
شعرٌ هو السحرُ فلا تُنْكروا أنِّي به ما عشتُ مسحور
اللفظُ والقرطاسُ إنْ شُبِّهَا قِيلَ هما مِسْكٌ وكافورُ
هَوَى لحسنِ الطير من فكرتي صَقْرٌ فولَّى وهو مقهور
ولاح لي بيتٌ فؤادي له دأبًا على ودِّكَ مقصورُ
حَظُّكَ مِنْ شكريَ يا سيدي حَظٌّ نما لي منك موفور[2]
قَصَّرْتُ في نظميَ فاعذر فَمَنْ ضاهاكَ في التقصير معذور
فأنت إن تنظمْ وتنثرْ فقد أعْوَزَ منظومٌ ومنثور
لا يَعْدُكُمْ روضٌ من الحظ في الـ إكرام والترفيع ممطور

فكتب إليه ابن زيدون[3]: [السريع]

حظيَ مِنْ نُعْماكَ موفورُ وذنبُ دهري بكَ مغفورُ
وجانبي إنْ[4] رامَهُ أزمةٌ حِجْرٌ لدى ظِلِّكَ محجورُ
يا ابن الذي سِرْبُ الهدى آمنٌ منذُ آنبرى يحميه مخفورُ
وآمرِ الدهرِ الذي لم يزلْ يُصْغِي إليه منه مأمورُ
ألبس منك الدهر[5] أسنَى الحلى بظافرٍ مَنحاه منصورُ

(١) الأبيات في ديوان ابن زيدون طبعة مصر (ص ٦١٨).
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٦٨): «حظٌّ تمالا منك موفورُ». وفي الديوان: «بما بدا لي منك موفورُ».
(٣) ديوان ابن زيدون طبعة مصر (ص ٦٢٠).
(٤) في الديوان: «إنْ زمني رامه».
(٥) في الديوان: «منك المُلْك».

يا مرويَ[1] المأثور يا من له مجدٌ مع الأيام مأثورُ
عَبْدُكَ إنْ أكثرَ مِنْ شكره فهو بما توليه مكثورُ
إنْ تَعْفُ عن تقصيره منعمًا فاليسرُ أنْ يُقْبَلَ معسورُ
إنَّ حَلالَ السحر إنْ صُغْتَهُ في صُحُفِ الأنفسِ مسطور
نظمٌ زهاني منه إذ جاءني عِلْقٌ عظيمُ القَدْر مذخور
لا غرو أن أُفْتَنَ إذ لاحظتْ فِكْريَ منه أعينٌ حُورُ
تنمُّ عن معناهُ ألفاظُهُ كما وَشَى بالراح بَلُّورُ
جهلتُ إذ عارضْتُهُ غير أنْ لا بُدَّ أن يَنْفِثَ مصدور
يا آلَ عبّادٍ مُوَالاتكم زَاكٍ من الأعمال مبرورُ
إنَّ الذي يرجو موازاتكمْ من المناوِينَ لَمغرور
مكانُهُ منكم كما انحطَّ عن منزلةِ المرفوعِ مجرورُ
لا زلتمُ في غبطةٍ ما انجلى عن فَلَقِ الإصباحِ ديجورُ
ولا يَزَلْ يجري بما شئتمُ أعمارَكُمْ للّه مقدورُ

وكتب المعتمد إلى ابن زيدون بعد أن فَكَّ معمّى كتب به إليه ابن زيدون ما صورته[2]: [المجتث]

العينُ بعدك تَقْذَى بكلِّ شيء تراهُ
فليجلُ شَخْصُك عنها ما بالمغيبِ جناه

وقد قدّمْنا من كلام أبي الوليد بن زيدون رحمه اللّه تعالى ما فيه كفاية.

رجع إلى بني عباد:

قال ابن حمديس: لَمّا قدمتُ وافدًا على المعتمد بن عباد استدعاني وقال: افتح الطاق، فإذا بكير زجاج والنار تلوح من بابيه، وواقدُهُ يفتحهما تارة ويسدُّهما أخرى، ثم أدام سدّ أحدهما، وفتح آخر، فحين تأملتهما قال لي: أجز[3]: [المنسرح]

انْظُرْهما في الظلامِ قد نجما

(١) في أصول النفح: «قام وفي المأثور..».
(٢) ديوان ابن زيدون طبعة مصر (ص ٢١٤).
(٣) خبر ابن حمديس وشعره في ديوانه (ص ٥٤٣). وتقدم ذلك في الجزء الخامس.

فقلـــت:

كـمــا رَنَــا في الــدُّجُـنَّــةِ الأســدُ

فقـــال:

يـفتــحُ عَـيْنَـيــهِ ثم يُـطْبِـقُـهــا

فقلـــت:

فِعْــلَ امــرئٍ في جُفــونــه رَمَــدُ

فقـــال:

فــابتزَّه الــدهـرُ نــورَ واحــدةٍ

فقلـــت:

وهــل نَـجَــا من صُــرُوفــه أحــدُ

فاستحسن ذلك وأطربه[1]، وأمر لي بجائزة، وألزمني الخدمة.

وعلى ذكر ابن حمديس فما أحسن قوله[2]: [الوافر]

أراكَ ركـبتَ فـي الأهــوال بَـحْـرًا ... عــظيمًـا ليس يُؤمَنُ مِنْ خــطوبِــهْ
تُـسَيِّــرُ فُـلْكُــهُ شــرقًــا وغــربًــا ... وتُــدْفَـعُ من صَبــاه إلى جَنُــوبِــهْ
وأصعبُ من ركـوبِ البحـرِ عنـدي ... أُمُــورٌ ألجـأتــكَ إلـى ركــوبِــهْ

ولغيره: [المجتث]

إنَّ ابــن آدمَ طـيــنٌ ... والــبــحــرُ مــاءٌ يُــذِيـبُــهْ
لــولا الــذي فـيــه يُـتْـلَى ... مــا جــازَ عــنــدي ركــوبُــهْ

وقال ابن حمديس في هذا المعنى[3]: [المجتث]

لا أركـبُ الـبـحــرَ، أَخْـشَــى[4] ... عــليَّ مــنــه الــمـعــاطــبْ
طــيــنٌ أنــا وَهْــوَ مــاءٌ ... والــطيــنُ فــي الــمــاء ذائــبْ

(١) كلمة «وأطربه» غير واردة في الديوان.
(٢) ديوان ابن حمديس (ص ٨).
(٣) ديوان ابن حمديس (ص ٥٣٣ ـ ٥٣٤).
(٤) في الديوان: «خوفًا».

رجع إلى بني عباد رحمهم اللّه تعالى:

قال ابن بسام[1]: أخبرني الحكيم النديم المطرب أبو بكر بن الإشبيلي، قال: حضرتُ مجلسَ الرشيد بن المعتمد بن عباد وعنده الوزير أبو بكر بن عمار، فلمَّا دارتِ الكأسُ، وتمكَّنَ الأنسُ، وغَنَّيْتُ أصواتًا، ذهب الطرب بابن عمار كلَّ مذهب، فارتجل يخاطب الرشيد: [البسيط]

ما ضرَّ أنْ قيل إسحٰقٌ ومَوْصِلُهُ ... ها أنتَ أنتَ وذي حمصٌ وإسحٰقُ
أنتَ الرشيدُ فَدَعْ[2] مَنْ قد سمعتَ به ... وإن تشابَهَ أخلاقٌ وأعراقُ
للّه دَرُّكَ دارِكْها مُشَعْشَعَةً ... واحضرْ[3] بساقِيكَ ما قامتْ بنا ساقُ

وكان الرشيد هذا أحد أولاد المعتمد النُّجَبا، وله أخبار في الكرم يقضي الناظر فيها من أمرها عجبًا، وكذلك إخوته، وقد ألمعْنا في هذا الكتاب بجملة من محاسنهم، وأُمّهم اعتماد الملقبة بالرُّميكية هي التي ترجمْناها في هذا الموضع، واقتضت المناسبة ذكر أمر بني عباد، فلنعدْ إلى ما كُنّا بصددهِ من أخبارها رحمها اللّه تعالى، فنقول:

قال ابن سعيد في بعض مصنّفاته: كان المعتمد كثيرًا ما يأنس بها، ويستظرف نوادرها، ولم تكن لها معرفة بالغناء، وإنما كانت مليحة الوجه، حسنة الحديث، حلوة النادر، كثيرة الفكاهة، لها في كلِّ ذلك نوادر محكية، وكانت في عصرها ولّادة بنت محمد بن عبد الرحمن، وهي أبدع منها مُلَحًا، وأحسن افتنانًا، وأجلُّ منصبًا، وكان أبوها أمير قرطبة، ويلقب بالمستكفي باللّه، وأخبار أبي الوليد بن زيدون معها وأشعاره فيها مشهورة، انتهى ملخّصًا.

ومن أخبار الرميكية القصة المشهورة في قولها «ولا يوم الطين» وذلك أنها رأت الناس يمشون في الطين، فاشتهت المشي في الطين، فأمر المعتمد، فَسُحِقَتْ أشياء من الطيب، وذُرَّتْ في ساحة القصر حتى عمّته، ثم نُصبت الغرابيل، وصُبَّ فيها ماء الورد على أخلاط الطيب، وعُجنت بالأيدي حتى عادت كالطين، وخاضتها مع جواريها، وغاضَبَها في بعض

(1) الذخيرة (ق ٢ ص ٣٨٥) وبدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٢٩).
(2) في الذخيرة: «ودَعْ».
(3) في الذخيرة: «واحْفِزْ».

الأيام، فأقسمتْ أنها لم تَرَ منه خيرًا قطُّ، فقال: ولا يوم الطين؟ فاستحيتْ واعتذرتْ، وهذا مصداق قول نبيِّنا، ﷺ، في حَقِّ النساء «لو أحسنتَ إلى إحداهنّ الدهرَ كلّه ثم رأتْ منك شيئًا قالتْ: ما رأيت منك خيرًا قطُّ».

قلت: ولعلّ المعتمد أشار في أبياته الرائية إلى هذه القضية حيث قال في بناته: [البسيط]

يَطَأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تطأْ مِسْكًا وكافورا

ويحتمل أن يكون أشار بذلك إلى ما جرت به عادة الملوك من ذَرِّ الطيب في قصورهم حتى يطؤوه بأقدامهم، زيادة في التنعّم.

وسبب قول المعتمد ذلك ما حكاه الفتح فقال[1]: وأول عيد أخذه ـ يعني المعتمد ـ بأغمات وهو سارح، وما غير الشجون له مَسَارح[2]، ولا زيّ إلّا حالة الخمول، واستحالة المأمول، فدخل إليه من بنيه، مَنْ يسلّم عليه ويهنّيه[3]، وفيهم بناته وعليهنّ أطمار[4]، كأنها كسوفٌ[5] وهنّ أقمار، يبكين عند التساؤل، ويبدين الخشوع بعد التخايل، والضياع قد غيّر صورهنّ، وحيّر نظرهنّ، وأقدامهنّ حافية، وآثار نعيمهنّ عافية، فقال: [البسيط]

فيما مضى كُنْتَ بالأعياد مسرورا فساءك العيدُ في أغماتَ مأسورا
ترى بناتِكَ في الأطمار جائعةً يغزلْنَ للناسِ ما يملكْنَ قِطْميرا[6]
بَرَزْنَ نحوكَ للتسليم خاشعةً أبصارُهُنَّ حسيراتٍ مكاسيرا
يَطَأْنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ كأنها لم تَطَأْ مِسْكًا وكافورا
لا خَدَّ إلّا تشكّى الجدبَ ظاهرُهُ وليس إلّا مع الأنفاس ممطورا
أفطرتَ في العيد لا عادتْ مساءتُهُ[7] فكان فِطْرُكَ للأكباد تفطيرا

(١) قلائد العقيان (ص ٢٥).
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٧٣): «مبارح».
(٣) في طبعة عبد الحميد (ص ٥٣): «فدخل إليه، من يسلّيه، ويسلّم عليه..».
(٤) الأطمار: جمع طِمْر وهو الثوب الخَلَق البالي. محيط المحيط (طمر).
(٥) في القلائد: «كسيوف».
(٦) القطمير: الشيء الهيّن القليل الحقير. لسان العرب (قطمر).
(٧) في القلائد: «إساءته».

قـد كـان دهـرك إن تـأمـره ممتثـلا فـردك الـدهـر مـنـهـيّـاً ومـأمـورا
من بـات بعـدك فـي مـلك يُسَـرُّ بـه فـإنـمـا بـات بـالأحـلام مـغـرورا

وقال الفتح أيضًا[1]: ولَمّا نُقل المعتمدُ من بلاده، وأُعريَ مِنْ طارفه وتِلادِه، وحُمل في السفين، وأُحِلَّ في العدوة محلَّ الدفين، تندبه منابره وأعواده، ولا يدنو منه زُوَّاره ولا عُوَّاده، بقي أسِفًا تتصعَّد زفراته، وتطَّرد اطّراد المَذَانب عَبَراته، لا يخلو بمؤانس، ولا يرى إلاّ عَرِينًا بدلاً من تلك المَكَانس[2]، ولَمّا لم يجد سلوًّا، ولم يؤمِّل دنوًّا، ولم يَرَ وَجْهَ مسرّة مجلُوًّا، تذكّر منازله فشاقته، وتصوّر بهجتها فراقته، وتخيّل استيحاش أوطانه، وإجهاش قصره إلى قُطّانه، وإظلام جوّه من أقماره، وخلوّه من حُرَّاسه وسُمَّاره، فقال: [البسيط]

بـكى الـمبـارزُ فـي إثْـرِ ابنِ عـبّـادِ بـكـى عـلى إثْـرِ غـزلانٍ وآسـادِ
بـكتْ ثـريّـاه لا غُـمَّتْ كـواكبُـهـا بمثل نـوء الثـريا الـرائح الغـادي
بكى الـوحيدُ، بكى الـزاهي وقبّتُـهُ والـنهـرُ والـتـاجُ، كـلٌّ ذُلُّـهُ بـادي
مـاءُ الـسمـاء عـلى أفيـائـه[3] دِرَرٌ يـا لُـجّـةَ البـحـرِ دومي ذات إزبـادِ

وفي ذلك يقول ابن اللبانة[4]: [البسيط]

أستـودعُ اللّه أرضًـا عنـدمـا وضحت بشـائرُ الصبـح فيهـا بُـدِّلَتْ حَلَكَـا
كـان المؤيّـد بستـانًـا بسـاحتـهـا يُجْنِي النعيـمَ وفي عـليـائهـا فلكـا
فـي أمـره لمـلوك الـدهـرِ مُعْـتَبَـرٌ فـليس يَـغْـتَـرُّ ذو مُـلْكٍ بـمـا مَـلَكَـا
نبكيـه من جبـلٍ خَـرَّتْ قـواعـدُهُ فكـلُّ مَنْ كـان في بَـطْحَـائـه هلكـا

وكـان القصر[5] الزاهي من أجمل المـواضع لـديه وأبهـاها، وأحبّهـا إليـه وأشهـاهـا، لإطلاله على النهر، وإشرافه على القصر، وجماله في العيون، واشتماله بالزهر[6] والزيتون، وكـان لـه بـه من الـطرب، والعيش المـزري بحـلاوة الضَّـرَب[7]، مـا لم يكن بحلب لبني

(١) قلائد العقيان (ص ٢٣ ـ ٢٤).
(٢) المكانس: جمع مكنس وهو بيت الظبي. لسان العرب (كنس).
(٣) في القلائد: «على أبنائه».
(٤) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٤).
(٥) قلائد العقيان (ص ٢٤ ـ ٢٥) وفيه: «وكان الحصن الزاهر».
(٦) في القلائد: «بالشجر».
(٧) الضَّرَب، بالفتح: العسل الأبيض الغليظ. لسان العرب (ضرب).

حَمْدَان، ولا لسيف بن ذي يَزَن في رأس غُمْدَان، وكان كثيرًا ما يُدِير بـه راحه، ويجعـل فيه انشراحه، فلمّا امتدّ[1] الزمان إليه بعُدْوَانه، وسدّ عليه أبواب سلوانـه، لم يحنَّ إلاَّ إليه، ولم يتمنَّ غير الحلول لديه، فقال: [الطويل]

غـريبٌ بـأرضِ المغـربينِ أسيـرُ　　　سيبكـي عـليـه منـبـرٌ وسـريـرُ
وتنـدبـه البِيضُ الصـوارمُ والقَنَـا　　　ويـنـهـلُّ دمـعٌ بـينـهـنَّ غـزيـرُ
مـضى زمـنٌ والمـلكُ مستـأنِسٌ بـه　　　وأصبـحَ منـه اليـومَ وهـو نَفُـورُ
بـرأي من الـدهـرِ المضلِّل فـاسـدٍ　　　مـتى صلحتْ لـلصـالحيـن دهـورُ
أذلَّ بـنـي مـاء السـمـاء زمـانُـهـمْ　　　وذُلُّ بـنـي مـاء الـسـمـاء كـبـيـرُ
فيـا ليـت شعـري هـل أبيتَنَّ ليـلةً　　　أمـامي وخـلفـي روضـةٌ وغـديـرُ
بمنبتـةِ الـزيتـونِ مـورثـةِ العُـلا　　　تـغـنّـي حَـمـامٌ أو تـرنُّ[2] طـيـورُ
بـزاهرهـا السامي الـذي جـاده الحَيَا　　　تـشيـرُ الـثـريّـا نحـونـا ونشيـر
ويلحـظنـا الـزاهي وسعـدُ سعـودِهِ　　　غـيـورين والـصَّبُّ المُحِبُّ غيـور
تـراهُ عسيـرًا لا[3] يـسيـرًا منـالُـهُ　　　ألا كـلُّ مـا شـاء الإلَـهُ يـسـيـرُ

وقـال الحِجـاري في «المسهب»: إنَّ أميـر المسلمين يـوسف بن تـاشفين أهـدى إلى المعتمد جارية مغنّية قد نشأت بالعُدْوة، وأهل العُدْوة بالطبـع يكرهـون أهل الأنـدلس، وجاء بهـا إلى إشبيلية وقـد كثر الإرجـاف بأنّ سلطان الملثّمين ينتـزع بـلاد ملوك الـطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكر في ذلـك، فخرج بهـا إلى قصر الـزاهر[4] على نهـر إشبيلية، وقعد على الراح، فخطر بفكرها أن غنّت عندما انتشى هذه الأبيات: [الكامل]

حملوا قلوبَ الأسْـدِ بين ضُلُوعهمْ　　　وَلَـوَوْا عمـائمـهمْ عـلى الأقمـارِ
وتَقَلَّدوا يـوم الـوغى هِنْـدِيّـةً[5]　　　أمـضى إذا انـتُضِيَتْ مـن الأقـدارِ
إنْ خَـوَّفُـوكَ لقيتَ كـلَّ كـريهـةٍ　　　أو أَمَّـنـوكَ حَـلَلْتَ دارَ قـرارِ

---

(١) في القلائد: «فلما استدّ».
(٢) في القلائد: «تدنّ».
(٣) في القلائد: «أو يسيرًا».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ص ٥٦): «الزهراء».
(٥) هندية: سيوف هندية.

فوقع في قلبه أنها عرَّضتْ بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر، فهلكت، انتهى، فقدر اللَّه تعالى أن كان تمزيقُ ملكه على يدهم تصديقًا للجارية في قولها:

إنْ خــوّفــوكَ لقيتَ كــلَّ كــريهــة

وحصره جيوش لمتونة الملثّمين حتى أخذوه قهرًا، وسيق إلى أمير المسلمين، والقصة مشهورة.

وقال الفتح في شأن حصار المعتمد ما صورته[1]: ولَمَّا تمَّ في الملك أمَدُه، وأراد اللَّه تعالى أن تخرّ عُمُدُه، وتنقرض أيامُه، وتتقوّض عن عِرَاصِ الملك خِيَامُه، نازلته جيوش أمير المسلمين ومحلَّاته، وظاهرته فساطيطه ومظلّاتـه، بعد مـا نَثَرَتْ حصـونه وقـلاعه، وسُعِّـرت بالنكاية جوانحه وأضلاعه، وأخذتْ عليه الفروج والمضايق، وثنت[2] إليه الموانع والعوائق، وطـرقته طـوارقها بـالإضرار، وأمـطرته [من النكـاية][3] كـل ديمة مِـدْرَار، وهو سـاهٍ بروضٍ ونسيم، لاهٍ براح ومُحَيًّا وسيم، زاهٍ بفتاة تنادمه، ناهٍ عن هدم أُنْس هو هـادمه، لا يصيـخ إلى نبأةٍ سمعُهُ، ولا ينيخ إلَّا على لهوٍ يفرق جموعَهُ جمعُهُ، وقـد ولى المدامـة ملامـه، وثنى إلى ركنها طوافه واستلامه، وتلك الجيوش تجوس خِلاَلَه، وتقلّص ظلاله، وحين اشتدّ حصـاره، وعجـز[4] عن المدافعـة أنصاره، ودَلَّس[5] عليـه وُلاته، وكثـرت أدواؤه وعِـلَّاتـه، فتـح بـاب الفـرج، وقد لفـح شُوَاظ الهـرج، فدخلت عليـه من المرابـطين زُمْرة، واشتعلت من التغَلّب جَمْرة، تأجّج اضطرامُها، وسهل بها إيقاد الفتنة[6] وإضرامها، وعندما سقط الخبر عليه خرج حاسرًا عن مُفاضته، جـامحًا كـالمهر قبـل رياضتـه، فلحق أوائلهم عند البـاب المذكـور وقد انتشـروا في جَنَبَاتـه، وظهروا على البلد من أكثـر جهـاتـه، وسَيْفُـه في يـده يتلَمّظ للطُّلَى[7] والهام، ويعد بانفراج ذلك الاستبهام[8]، فرماه أحَدُ الداخلين برمح تخطَّاه، وجاوز مَطاه[9]،

---

(١) قلائد العقيان (ص ٢١ ـ ٢٢).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «وانثنت».

(٣) ما بين قوسين غير وارد في القلائد.

(٤) في القلائد: «وعجزتْ».

(٥) دَلَّس عليه: أتاه بغير الصحيح. لسان العرب (دلس).

(٦) في القلائد: «إيقاد البقية».

(٧) في القلائد: «الطُّلَى».

(٨) في القلائد: «الإبهام».

(٩) جاوز مطاه: جاوز مطيّته.

فبادره بضربة أذهبت نفسه، وأغربت شمسه، ولقي ثانيًا فضربه وقسمه، وخاض حَشا ذلك الداء وحَسَمه[1]، فأجْلَوْا عنه، وولّوا فرارًا منه، فأمر بالباب فَسُدَّ، وبني منه ما هدّ، ثم انصرف وقد أراح نفسه وشفاها، وأبعد اللّه تعالى عنه الملامة ونَفاها، وفي ذلك يقول عندما خُلع، وأُودِعَ من المكروهِ ما أُودع: [مجزوء الكامل]

إن يسلبِ القومُ العدى مُلْكي وتُسْلِمني الجموعُ
فالقلبُ بين ضُلُوعِهِ لم تُسْلِمِ القلبَ الضلوعُ
قد رُمْتُ يومَ نزالهم أنْ لا تُحَصِّنُني الدروعُ
وبرزتُ ليس سوى القميـ ـص على الحشا شيء دفوعُ
أجَلِي تأخَّرَ لم يكنْ بِهَوايَ ذُلّي والخضوعُ[2]
ما سرتُ قطُّ إلى القِتا لِ وكان مِنْ أملي الرجوعُ
شِيَمُ الألى أنا منهمُ والأصلُ تتبعه الفروعُ

وما زالت عقارب تلك الداخلة تدبّ. ثم ذكر الفتح تمام هذا الكلام فراجعه فيما مَرَّ بنحو ثلاث ورقات.

ومن حكايات مجالس أنسه أيام ملكه، قبل أن ينظمه صرف الدهر في سلكه، ما حكاه الفتح[3] عن ذخر الدولة أنه دخل عليه في دار المزينية[4] والزهر يحسد إشراق مجلسه، والدرّ يحكي اتّساق تأنّسه، وقد رددت الطير شَدْوَها، وجودت[5] طربها ولهوها، وجَدَّدت كلفها وشَجْوَها، والغصون قد التحفت بسندسها، والأزهار تحيي بطيب تنفّسها، والنسيم يُلِمُّ بها فتضعه بين أجفانها، وتُودِعُه أحاديث آذارها ونيسَانها، وبين يديه فتى من فتيانه يتثنّى تثني القضيب، ويحمل الكأس في راحة أبهى من الكفّ الخضيب، وقد توشّح وكأنَّ الثريّا وشاحه، وأنار فكأنَّ الصبح مِنْ مُحَيّاه كان اتّضاحه، فكلما ناوله الكأس خامرته[6] سَوْرَه، وتخيّل أنّ الشمس تهديه نوره، فقال المعتمد: [المنسرح]

---

(١) في القلائد: «فحسمه».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ص ٥٨): «والخشوعُ».
(٣) قلائد العقيان (ص ٩ ـ ١٠).
(٤) في القلائد: «المزينة».
(٥) في القلائد: «وجددت طربها وشجوها والغصون..».
(٦) في القلائد: «خامره».

لـلّه سـاقٍ مـهـفـهـفٌ غَـنِـجٌ قـد قـام يسقي[1] فجـاء بـالعجـبِ
أهـدى لـنـا من لـطيفِ حكـمتـه فـي جـامـدِ المـاءِ ذائبَ الـذهـبِ

ولَمَّا وصل لورقة استدعى ذا الوزارتين القائد أبا الحسن بن اليسع ليلته تلك في وقت لم يَخَفْ فيه زائر من مُرَاقب، ولم يَبْدُ فيه غير نجم ثاقب، فوصل وما للأمن إلى فؤاده وصول[2]، وهو يتخيّل أنَّ الجوّ صَوَارم ونُصُول، بعد أن وَصَّى بما خلَّف، وودع من تخلف، فلمّا مثل بين يديه آنسه، وأزال توجُّسَه، وقال له: خرجت من إشبيلية وفي النفس غَرام طويته بين ضلوعي، وكفكفت[3] فيه غَرْبَ دُموعي، بفتاة هي الشمس أو كالشمس إخَالُها، لا يجول قُلْبها[4] ولا خَلْخالها، وقد قلت في يوم وَدَاعها، عند تفطُّر كبدي وانصداعها: [الطويل]

ولَـمَّـا الـتـقـيْـنـا لـلوداع غُـدَيَّـةً وقـد خفقتْ في ساحة القصرِ راياتُ
بَـكَيْنـا دَمًـا حتى كـأنَّ عيـونَـنـا لجري[5] الدموعِ الحمرِ منها جراحاتُ

وقد زارتني هذه الليلة في مضجعي، وأبرأتني من توجُّعِي، ومكنتني من رُضَابها، وفتنتني بدلالها وخِضابها، فقلت: [الطويل]

أبـاحَ لِـطَيْفي طَيْفُهَـا الخَـدَّ والـنَّهْـدَا فـعضَّ بـهـا تـفـاحـةً واجْـتَـنَـى وَرْدَا
ولـو قَـدَرَتْ زارتْ عـلى حـالِ يـقـظةٍ ولـكنْ حـجـابُ البين مـا بيننـا مُـدَّا
أمـا وجـدتْ عنّـا الشجـونُ مُعَـرَّجًـا ولا وجـدتْ منّـا خـطوبُ النـوى بُـدَّا
سـقى اللّه صـوبَ الـقـطر أُمَّ عـبيـدةٍ كمـا قـد سقتْ قلبي على حَـرّه بَـرْدا
هي الـظبيُ جِـيـدًا، والغـزالـةُ مُـقْلَةً، وروضُ الـرُّبـا عَـرْفًـا،وغصنُ النَّقـا قَـدًّا

فكرَّر استجادته، وأكثر استعادته، فأمر له بخمسمائة دينار وولّاه لورقة من حينه.

---

(١) في القلائد: «قام ليسقي..».
(٢) في القلائد: «من وصول».
(٣) هكذا في القلائد، وفي طبعة دار صادر (ص ٢٧٨): «وكففت».
(٤) في القلائد: «يحول» بالحاء المهملة. والقُلْب، بضم القاف: السُّوار. لسان العرب (قلب).
(٥) في القلائد: «بجري».

قال الفتح[1]: وأخبرني ابن اللبانة أنه استدعاه ليلة إلى مجلس قد كساه الروض وَشْيَه، وامتثل الدهر فيه أمره ونَهْيَه، فسقاه الساقي وحَيَّاه، وسفر له الأنس عن مُونِقٍ مُحَيَّاه، فقام للمعتمد مادحًا، وعلى دَوْحَة تلك النعماء صَادِحًا، فاستجاد قوله، وأفاض عليه طَوْله، فصدر وقد امتلأت يداه، وغمرهُ جوده ونَدَاه، فلمّا حَلَّ بمنزله وافاه رسوله بقطيع وكأس[2] من بُلار، قد أُتْرِعا بصِرْف العُقار، ومعهما: [الكامل]

جاءتك ليلاً في ثياب نهارِ ... مِنْ نورها وغِلالة البُلّارِ
كالمشتري قد لَفَّ من مِرِّيخه ... إذ لفّه في الماء جَذْوَةَ نارِ
لَطُفَ الجمود لذا وذا فتألّفا ... لم يَلْقَ ضِدٌّ ضِدَّهُ بنِفارِ
يتحير الراءون في نَعْتَيهما ... أَصَفاءُ ماءٍ أم صَفاء دراري

وقال الفتح أيضًا[3]: وأخبرني ذخر الدولة أنه استدعاه في ليلة قد ألبسها البدرُ رُوَاءه[4]، وأوقد فيها أضواءه، وهو على البحيرة الكبرى، والنجوم قد انعكست فيها تخالها زهرًا، وقابلتها المجرّة فسالت فيها نهرًا، وقد أرِجَتْ نوافجُ الند[5]، وماست معاطف الرَّنْد، وحَسَد النسيمُ الروضَ فوَشَى بأسراره، وأفشى حديث آسِهِ وعَرَاره، ومشى مختالاً بين لَبَّات النَّوْر وأزراره، وهو وَجِم، ودمعُه مُنْسَجِم، وزفراتُه تُتَرْجِمُ عن غَرَامه، وتجمجم عن تعذر مَرَامه[6]، فلمّا نظر إليه استدناه وقرّبه، وشكا إليه من الهجران ما استغربه، وأنشده: [المتقارب]

أيا نفسُ، لا تجزعي واصبري ... وإلَّا فإنَّ الهوى مُتْلِفُ
حبيبٌ جفاكِ، وقلبٌ عصاك ... ولاحٍ لحاك، ولا منصفُ[7]
شُجونٌ مَنَعْنَ الجفونَ الكرى ... وعَوَّضْنَها أدمعًا تنزفُ

فانصرف ولم يعلمه بقصته، ولا كشف له عن غُصَّته، انتهى.

---

(١) قلائد العقيان (ص ٦ ـ ٧).
(٢) في القلائد: «وكان من بُلار، وقد أترع. .».
(٣) قلائد العقيان (ص ٩).
(٤) في القلائد: «رداءه».
(٥) النوافج: جمع نافجة وهي وعاء المسك. النَدُّ: عودٌ يُتَبَخَّرُ به. محيط المحيط (نفج) و(ندد).
(٦) في القلائد: «عن غرام. . . تعذر مرام».
(٧) في القلائد: «ينصف».

وقال الفتح أيضًا[1]: أخبرني ذخر الدولة بن المعتضد أنه دخل عليه في ليلة قد ثَنَى السرور مَنَامها، وامتطى الحبور غاربها وسَنَامها، وراع الأنس فؤادها، وستر بياضُ الأماني سوادَها، وغازل نسيم الروض زُوّارها وعُوَّادها، ونورُ السُّرُج[2] قد قَلَّص أذيالها، ومحا من لجين الأرض نيالها[3]، والمجلسُ مُكْتَسٍ بالمعالي، وصوت المثاني والمثالث عالي، والبدر قد كمل، والْتَحَفَ بضوئه القصر واشتمل، وتزيّن بسناه وتجمّل، فقال المعتمد[4]: [الكامل]

ولقد شربتُ الراحَ يَسْطَعُ نُورُها ... والليلُ قد مَدَّ الظلامَ رداءَ
حتى تَبَدَّى البدرُ في جَوْزائه ... مَلِكًا تناهى بهجةً وبهاء
وتناهضتْ زُهْرُ النجومِ يحفُّهُ ... لألاؤها فاستكملَ اللألاء[5]
لَمّا أراد تنزّهًا في غربِه ... جعل المظلّة فوقه الجوزاء
وترى الكواكبَ كالمواكب حوله ... رُفِعَتْ ثُرَيّاها عليه لواء
وحكيته في الأرض بين كواكبٍ[6] ... وكواعبٍ جَمَعَتْ سَنًا وسناء
إن نَشَّرَتْ تلك الدروعَ حنادسًا ... ملأتْ لنا هذي الكؤوس ضياء
وإذا تَغَنَّتْ هذه في مِزْهَرٍ ... لم تألُ تلك على التَّريك غناء

وأخبرني[7] ابن إقبال الدولة بن مجاهد أنه كان عنده في يوم قد نشر من غيمه رداءَ نَدٍّ، وأسكب من قطره ماء وَرْد، وأبدى من برقه لسان نار، وأظهر من قوس قُزَحِه حنايا قوسٍ[8] آس حفت بنرجس وجُلَّنار، والروض قد بعث رَيَّاه، وبثّ الشكر لسُقْياه، فكتب إلى الطبيب الأديب[9] أبي محمد المصري: [الخفيف]

أيها الصاحب الذي فارقتْ عيـ ... ـني ونَفْسي منه السَّنا والسناءَ

---

(١) قلائد العقيان (ص ٦).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ص ٦٠): «السراج».
(٣) في القلائد: «نبالها».
(٤) كلمة «المعتمد» غير واردة في القلائد.
(٥) ترتيب هذا البيت في القلائد بعد البيت الذي يليه.
(٦) في القلائد: «مواكب».
(٧) قلائد العقيان (ص ٧).
(٨) كلمة «قوس» غير واردة في القلائد.
(٩) كلمة «الأديب» غير واردة في القلائد.

نحن في المجلس الـذي يَهَبُ الرا ... حـةَ والمسمـعَ الغنى[1] والغنـاء
نتعـاطى التي تُنَسِّي[2] من الـرقـ ... ـقَـةِ والـلذة الـهـوى والـهـواء
فَـأْتِـهِ تُـلْفِ راحـةً ومُـحَـيّـا ... قـد أعـدّا لـك الحيـا والحيـاءَ

فوافاه وألفى مجلسه وقد أتلعت فيه الأباريقُ[3] أجيادَهَا، وأقامت فيه خيل السرور طِرَادها، وأعطته الأماني انطباعها وانقيادها، وأهدت الدنيا ليومه مواسمها وأعيادها، وخلعت عليه الشمس شُعَاعها، ونشرت فيه الحدائقُ إيناعها، فأُديرت الراح، وتُعُوطيت الأقداح، وخامر النفوسَ الابتهاج والارتياح، وأظهر المعتمد من إيناسه، ما استرق به نفوسَ جُلاَّسه، ثم دعا بكبير، فشربه كما[4] غربت الشمس في ثَبير[5]، وعندما تناولها، قام المصري ينشد أبياتًا تمثّلها: [البسيط]

اشْـرَبْ هنيئًـا عليـكَ التـاجُ مـرتفقًـا ... بـشـاذَمِـهْـرَ ودَعْ غُـمْـدَانَ لـليـمـنِ
فـأَنتَ أولى بتـاجِ الـملك تـلبسـه ... مـن هـوذة بـن عـلي وابـن ذي يَـزَنِ

فطرب حتى زحف عن مجلسه، وأسرف في تأنّسه، وأمر فَخُلِعَتْ عليه خِلَعٌ[6] لا تصلح إلاَّ للخلفاء، وأدناه حتى أجلسه مجلس الأكفاء، وأمر له بدنانير عددًا، وملأ له بالمواهب يدًا.

وله[7] في غلام رآه يوم العَرُوبة من ثَنِيَّات الوغى طالعًا، ولطُلَى الأبطال قارعًا، وفي الدماء والغًا، ولمستبشع كؤوس المنايا سائغًا، وهو ظبي قد فارق كِنَاسه، وعاد أسدًا قد[8] صارت القنا أخْيَاسه، ومتكاثف العجاج قد مزّقه إشراقُه، وقلوب الدارعين قد شكتها أحداقه، فقال: [الكامل]

أبصـرتُ طِرْفَـكَ بين مشتجِـرِ القَنَـا ... فـبـدا لِـطَرْفِـي أنـه فَـلَكُ
أَوَ لـيس وجـهـكَ فـوقـه قـمـرًا ... يُـجْـلَى بـنـيّـرِ نـورِهِ الـحَـلَكُ

---

(١) في القلائد: «والسمع والغنا».
(٢) في القلائد: «التي تسمّى من اللذّة والرقّة..».
(٣) في طبعة دار صادر (ص ٢٨١) وقلائد العقيان: «أباريقه».
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٢٨٢) وقلائد العقيان: «فشربه كالشمس غربت في ثبير..».
(٥) ثبير: جبل بمكة. الروض المعطار (ص ١٤٩).
(٦) في القلائد: «ثيابٌ».
(٧) قلائد العقيان (ص ٨).
(٨) كلمة «قد» غير واردة في طبعة دار صادر (ص ٢٨٢) ولا في قلائد العقيان.

وقال فيه(1): [المتقارب]

ولَمَّـا اقْتَحَمْتَ الـوَغَى دارعًـا ... وقَنَّعْـتَ وَجْهَـكَ بـالـمِغْـفَـرِ
حَسِبْنـا مُحَيَّـاكَ شمسَ الضُّحَى ... عليهـا سـحـابٌ مِنَ الـعنبـرِ

وقد جمح بنا القلم في ترجمة المعتمد بن عباد بعضَ جُمُوح، وما ذلك إلَّا لما علمنا أنّ نفوس الأدباء إلى أخباره رحمه اللّه تعالى شديدة الطموح، وقد جعل اللّه تعالى له كما قال ابن الأبار في «الحلة السيراء»(2) رقةً في القلوب وخصوصًا بالمغرب فإنّ أخباره وأخبار الرميكية إلى الآن متداولة بينهم، وإنّ فيها لأعظم عبرة، رحم اللّه تعالى الجميع!.

رجع إلى أخبار النساء:

ومنهن العبادية جارية المعتضد عباد، والد المعتمد، أهداها إليه مجاهد العامري من دانية، وكانت أديبة، ظريفة، كاتبة، شاعرة، ذاكرة لكثير من اللغة؛ قال ابن عليم في شرحه لأدب الكاتب(3) لابن قتيبة، وذكر الموسعة وهي خشبة بين حمالين يجعل كلّ واحد منهما طرفها على عنقه، ما صورته: وبذكر الموسعة أغربَتْ جارية لمجاهد أهداها إلى عبّاد كاتبة شاعرة على علماء إشبيلية وبالغرمة(4) التي تظهر في أذقان بعض الأحداث، وتعتري بعضهم في الخدّين عند الضحك، فأمّا التي في الذقن فهي النونة، ومنه قول عثمان رضي اللّه تعالى عنه: رسموا(5) نونته لتدفع العين، وأمّا التي في الخدين عند الضحك فهي الفَحْصَة، فما كان في ذلك الوقت في إشبيلية مَنْ عرف منها واحدة.

وسهر عباد ليلة لأمرٍ حَزَبَه وهي نائمة، فقال(6): [المتقارب]

تنـامُ ومُـدْنَـفُـهـا يسـهـرُ ... وتـصبـرُ عـنـه ولا يـصـبـرُ

---

(1) قلائد العقيان (ص 8). والبيتان أيضًا في ديوان المعتمد بن عباد (ص 17)، وقد تقدما في الجزء الثالث دون تغيير عمّا هنا.

(2) ترجمة المعتمد بن عباد في الحلة السيراء (جـ 2 ص 52 - 67).

(3) في طبعة دار صادر (ص 283): «الكُتّاب». والكتاب طبع بهذا العنوان: «أدب الكاتب» بتحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد، مصر، 1963. وانظر مقدمتنا في كتاب عيون الأخبار (ص 18).

(4) في طبعة دار صادر: «وبالهزمة».

(5) في طبعة دار صادر: «دَسِّموا».

(6) هذا البيت والذي يليه في الحلة السيراء (جـ 2 ص 48).

فأجابته بديهة بقولها: [المتقارب]

لئن دامَ هذا وهذا له ... سَيَهْلِكُ وَجْدًا ولا يشعرُ

ويكفيك هذا شاهدًا على فضلها رحمها اللّٰه تعالى وسامحها.

ومنهن: بثينة بنت المعتمد بن عباد، وأمّها الرميكية السابقة الذكر، وكانت بثينة هذه نحوًا من أمِّها في الجمال والنادرة ونظم الشعر، ولَمّا أحيط بأبيها ووقع النهب في قصره كانت في جملة[1] من سُبي، ولم يزل المعتمد والرميكية عليها في وَلَه دائم لا يعلمان ما آل إليه أمرها إلى أن كتبت إليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس بالمغرب، وكان أحد تجار إشبيلية اشتراها على أنها جارية سُرِّيَّة ووهبها لابنه، فنظر من شأنها وهُيِّئت له، فلمّا أراد الدخول عليها امتنعت، وأظهرت نسبها، وقالت: لا أحلّ لك إلاّ بعقد النكاح إن رضي أبي بذلك، وأشارت عليهم بتوجيه كتاب مِنْ قِبَلِها لأبيها، وانتظار جوابه، فكان الذي كتبته بخطِّها من نظمها ما صورته: [الكامل]

اسْمَعْ كلامي واستمعْ لمقالتي ... فَهْيَ السلوكُ بَدَتْ مِنَ الأجيادِ
لا تنكروا أني سُبيتُ وأنني ... بنتٌ لملكٍ من بني عباد
مَلْكٌ عظيمٌ قد تولَّى عصرُهُ ... وكذا الزمانُ يؤول للإفساد
لَمّا أراد اللّٰهُ فُرْقَةَ شملنا ... وأذاقنا طعمَ الأسى من[2] زاد
قامَ النفاقُ على أبي في مُلْكِهِ ... فدنا الفراقُ ولم يكن بمراد
فخرجتُ هاربةً فحازنيَ امرؤ ... لم يأتِ في إعجاله بسداد
إذ باعني بيعَ العبيدِ فضمّني ... مَنْ صانني إلاّ من الأنكاد
وأرادني لنكاح نجلٍ طاهرٍ ... حَسَنِ الخلائقِ مِنْ بني الأنجاد
ومضى إليك يسومُ رأيك في الرضا ... ولأنت تنظرُ في طريقِ رشادي
فعساكَ يا أبتي تعرفني به ... إن كان مِمَّنْ يُرْتجى لوداد
وعسى رميكيةُ الملوكِ بفضلها ... تدعو لنا باليُمْن والإسعاد

فلمّا وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات، واقعٌ في شِراك الكُروب والأزمات، سُرَّ هو وأمُّها بحياتها، ورأيا أنّ ذلك للنفس من أحسن أمنياتها، إذ علما مآل أمرها، وجبر كسرها،

(١) في طبعة دار صادر (ص ٢٨٤): «من جملة».
(٢) في الطبعة نفسها: «عن زاد».

إذ ذاك أخفّ الضررين، وإن كان الكرب قد ستر القلب منه حجابُ رَيْن[1]، وأشهد على نفسه بعَقْد نكاحها من الصبي المذكور، وكتب إليها أثناء كتابه ما يدل[2] على حسن صبره المشكور: [السريع]

بنيّتي كوني به بَرَّةً فَقَدْ قضى الدهرُ[3] بإسعافِهِ

وأخبار المعتمد بن عباد، تذيب الأكباد، فلنرجع إلى ذكر نساء الأندلس فنقول:

ومنهن حفصة بنت حمدون، من وادي الحِجَارة، ذكرها في «المغرب»[4] وقال: إنها من أهل المائة الرابعة، ومن شعرها: [الطويل]

رأى ابنُ جميلٍ أنْ يُرى الدهرَ مجملاً فكلُّ الورَى قد عمّهمْ سَيْبُ نعمتِهْ
له خُلُقٌ كالخمرِ بَعْدَ امتزاجِها وحُسْنٌ فما أحلاه من حين خلقتِهْ
بوجهٍ كمثل الشمسِ يدعو ببشره عيونًا ويُغْشيها بإفراطِ هيبتِهْ

ولها أيضًا[5]: [الخفيف]

لي حبيب لا ينثني لِعتابٍ[6] وإذا ما تَرَكْتُهُ زادَ تِيْهَا
قال لي هل رأيتِ لي مِنْ شبيهٍ قلتُ أيضًا وهل ترى لي شبيها

ولها تذمُّ عبيدها[7]: [السريع]

يا ربِّ إني من عبيدي على جمرِ الغَضَا، ما فيهمُ من نجيبْ
إمّا جَهُولٌ أَبْلَهٌ مُتْعِبٌ أو فَطِنٌ مِنْ كَيْدِهِ لا يجيبْ[8]

(١) الرَّيْنُ: سواد القلب، أو كالصدإ يغشى القلب. لسان العرب (رين).
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٢٨٥): «ممّا يدلُّ».
(٣) في طبعة دار صادر: «قضى الوقتُ..».
(٤) المغرب (جـ ٢ ص ٣٧).
(٥) كلمة «أيضًا» ساقطة من طبعة دار صادر. والبيتان في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٣٨).
(٦) في المغرب: «بعتاب».
(٧) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٣٨).
(٨) في المغرب: «لا أخيبْ».

وقال ابن الأبار: إنها كانت أديبة عالمة شاعرة، وذكرها ابن فرج صاحب «الحدائق» وأنشد لها أشعارًا منها قولها: [مجزوء الكامل]

يا وحشتي لأحبّتي   يا وحشةً متماديهْ
يا ليلةً ودعتهمْ   يا ليلةً هي ما هيهْ

ومنهن زينب ألمرية، كانت أديبة شاعرة، وهي القائلة: [البسيط]

يا أيها الراكبُ الغادي لِطَيَّتِهِ   عَرِّجْ أُنَبِّئْكَ عن بعضِ الذي أجدُ
ما عالج الناسُ من وجد تضمَّنهم   إلاَّ ووجدي بهم فوق الذي وجدوا
حسبي رضاه وأني في مسرّته   ووده آخرَ الأيامِ أَجْتَهِدُ

ومنهن غاية المنى، وهي جارية أندلسية متأدّبة، قدمت إلى المعتصم بن صُمَادح، فأراد اختبارها فقال لها: ما اسمك؟ فقالت: غاية المنى، فقال لها: أجيزي [مجزوء الخفيف]

اسْأَلُوا غايةَ المنى

فقالت:

مَنْ كَسَا جسميَ الضَّنا
وأراني مولهًا   سَيَقُول الهوى أنا

هكذا أورد السالمي هذه الحكاية في تاريخه.

قال ابن الأبار: وقرأت بخطِّ الثقة حاكيًا عن القاضي أبي القاسم بن حبيش قال: سيقت لابن صُمَادح جارية لبيبة[1] تقول الشعر وتحسن المحاضرة، فقال: تُحْمَل إلى الأستاذ ابن الفراء الخطيب ليختبرها، وكان كفيفًا، فلمّا وصلتْه قال: ما اسمك؟ فقالت: غاية المنى، فقال: أجيزي: [مجزوء الخفيف]

سل هوى غايةِ المنى   مَنْ كسا جسميَ الضّنا

فقالت تجيزه:

وأراني متيَّمًا   سيقولُ الهوى أنا

فحكى ذلك لابن صمادح، فاشتراها، انتهى.

---
(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٨٦): «نبيلة».

ومنهنّ حمدة، ويقال حمدونة بنت زياد المؤدّب[1]، من وادي آش، وهي خنساء المغرب، وشاعرة الأندلس، ذكرها الملاحي وغيره، ومِمَّنْ روى عنها أبو القاسم بن البراق.

ومن عجيب شعرها قولها: [الطويل]

ولَمّا أبى الواشون إلاّ فراقَنا ... وما لهمُ عندي وعندكَ من ثارِ
وشَنُّوا على أسماعنا كلَّ غارةٍ ... وقَلَّ حُماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهمُ من مقلتيكَ وأدمعي ... ومن نَفَسي بالسيف والسَّيْل والنارِ

وبعض يزعم أن هذه الأبيات لمهجة بنت عبد الرزاق الغرناطية، وكونها لحمدة أشهر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

وخرجت حمدة مرّة للوادي مع صبية، فلمّا نضت عنها ثيابها وعامت قالت[2]: [الوافر]

أباح الدمعُ أسراري بِوَادي ... له للحُسْنِ آثارٌ بَوَادي[3]
فمن نهرٍ[4] يطوفُ بكلِّ روضٍ ... ومِنْ روض يرفُّ بكل وادي
ومِنْ بين الظِّباءِ مهاةُ أُنْس ... سبت لبي وقد مَلَكَتْ فؤادي[5]
لها لَحْظٌ تُرَقِّدُهُ لأمرٍ ... وذاك الأمرُ يَمْنَعُني رُقادي
إذا سَدَلَتْ ذوائبَها عليها ... رأيتَ البدرَ في أفق السواد[6]
كأنَّ الصبح ماتَ له شقيق ... فمن حُزنٍ تَسَرْبَلَ بالحِداد[7]

وقال ابن البراق في سَوْق هذه الحكاية: أنشدتنا حمدة العوفية لنفسها، وقد خرجت متنزّهة بالرملة من نواحي وادي آش فرأتْ ذات وجه وسيم أعجبها، فقالت: ـ وبين الروايتين

---

(١) ترجمة حمدة (أو حمدونة) بنت الحاج في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢١٤ ـ ٢١٥) والمطرب (ص ١١).
(٢) الأبيات في المقتضب والمطرب.
(٣) في المقتضب: «أباح الدهرُ... به للحسن..». وفي المطرب: «به للحسن».
(٤) في المقتضب: «فمن وادٍ..».
(٥) في المقتضب: «مهاة رَمْلٍ سبتْ عقلي..». وفي المطرب: «مهاة رملٍ تَبَدَّتْ لي.. قِيادي».
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٨٨): «في جنح الدآدي». وفي المقتضب: «ذؤابتها عليه كمثل البدر في الظُّلَم الدآدي». وفي المطرب: «رأيت الصبح أشرق في الدآدي».
(٧) في المقتضب: «تخال الصبحَ مات له خليلٌ». وفي المطرب: «تخال البدر مات له خليل».

خلاف ـ أباح الدمع، إلى آخره، ونسب بعضهم إلى حمدة هذه الأبيات الشهيرة بهذه البلاد المشرقية، وهي: [الوافر]

وقانا لفحةَ الرمضاءِ وادٍ ... سقاه مُضاعَفُ الغَيْث العميمِ
حَلَلْنا دَوْحَه فَحَنَا علينا ... حُنُوَّ المرضعاتِ على الفطيم
وأَرْشَفَنا على ظمإ زُلالاً ... ألذَّ مِنَ المُدامة للنديم
يصدُّ الشمسَ أنى واجهتنا ... فيحجبها ويأذَنُ للنسيم
يَرُوعُ حصاه حاليةَ العذارى ... فتلمسُ جانبَ العقد النظيم

ومِمَّنْ جزم بذلك الرعيني، وقال: إنَّ مؤرخي بلاد الأندلس نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق، وقد رأيت أن أذكر كلامه برمّته ونصُّه: كانت من ذوي الألباب، وفحول أهل الآداب، حتى إنّ بعض المنتحلين تعلّق بهذه الأهداب، وادّعى نظم هذين البيتين ـ يعني: ولَمّا أبى الواشون ـ إلى آخره؛ لِمَا فيهما من المعاني والألفاظ العذاب، وما غرّه في ذلك إلاَّ بُعْدُ دارها، وخلوّ هذه البلاد المشرقية من أخبارها، وقد تلبّس بعضهم أيضًا بشعارها، وادّعى غير هذا من أشعارها، وهو قولها: وقانا لفحة الرمضاء وادٍ، إلى آخره، وإنّ هذه الأبيات نسبها أهلُ البلاد للمنازي من شعرائهم، وركبوا التعصّب في جادة آدعائهم، وهي أبيات لم يخلبها[1] غير لسانها، ولا رقم برديها غير إحسانها، ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا وهي الأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود، ويتّصف بلفظة الموجود، انتهى.

وهو أبو جعفر الأندلسي الغرناطي، نزيل حلب.

وحكى ابن العديم في تاريخ حلب ما نصُّه: وبلغني أنّ المنازي عمل هذه الأبيات ليعرضها على أبي العلاء المعرّي، فلمّا وصل إليه أنشده الأبيات، فجعل المنازي كلّما أنشد المصراع الأوّل من كلّ بيت سبقه أبو العلاء إلى المصراع الثاني الذي هو تمام البيت كما نظمه، ولمّا أنشده قوله: [الوافر]

نَزَلْنا دَوْحَةً فَحَنَا علينا

قال أبو العلاء: [الوافر]

حُنُوَّ الوالداتِ على الفطيمِ

---

(١) لم يخلبها: أراد هنا: لم يزيّنها.

فقال المنازي: إنما قلتُ «على اليتيم» فقال أبو العلاء: الفطيم أحسن. انتهى.

وهذا يدلّ على أن الرواية عنده «حنوّ الوالدات» وقد تقدّم المرضعات، والله تعالى أعلم.

وقال ابن سعيد: يقال لنساء غرناطة المشهورات بالحسب والجلالة «العربيات» لمحافظتهنّ على المعاني العربية، ومن أشهرهنّ زينب بنت زياد الوادي آشي، وأختها حمدة، وحمدة هذه هي القائلة وقد خرجت إلى نهر منقسم الجداول بين الرياض مع نسائها فسَبَحْنَ في الماء وتلاعَبْنَ: [الوافر]

أباح الدمع أسراري بوادي

الأبيات، انتهى.

ومنهنّ عائشة بنت أحمد القرطبية(١).

قال ابن حيان في «المقتبس»: لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يَعْدِلها علمًا وفهمًا وأدبًا وشعرًا وفصاحةً، تمدح ملوك الأندلس وتخاطبهم بما يعرض لها من حاجة، وكانتْ حسنة الخطّ، تكتب المصاحف، وماتت عذراء لم تُنْكَحْ، سنة أربعمائة.

وقال في «المغرب»: إنها من عجائب زمانها، وغرائب أوانها، وأبو عبد الله الطبيب عَمُّها، ولو قيل «إنها أشعر منه» لجاز، ودخلت على المظفّر بن المنصور بن أبي عامر وبين يديه ولد، فارتجلت: [الوافر]

أراك اللَّهُ فيه ما تريدُ ... ولا بَرِحَتْ معاليه تزيدُ
فقد دلّتْ مخايلُهُ على ما ... تؤمّله وطالعه السعيدُ
تشوّقتِ الجيادُ له وهُزَّ الـ ... حُسامُ هوًى وأشرقتِ البنودُ
وكيف يخيبُ شبلٌ قد نَمَتْه ... إلى العَلْيا ضراغمةٌ أُسود(٢)
فسوفَ تراهُ بَدْرًا في سماء ... مِنَ العَلْيا كواكبُهُ الجنودُ
فأنتم، آلَ عامرَ، خيرُ آلٍ ... زكا الأبناءُ منكم والجدودُ
وليدكُمُ لدى رأيٍ كشيخٍ ... وشيخكُمُ لدى حربٍ وليدُ

(١) هي عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، ترجمتها في الصلة (ص ٩٩٢).
(٢) ترتيب هذا البيت في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٩٠) بعد البيت الذي يليه.

وخطبها بعض الشعراء مِمَّنْ لم ترضه فكتبت إليه: [الكامل]

أنـا لـبـوةٌ لـكـنـنـي لا أرتـضـي ... نفسي مُنَاخًا طـول دهـري من أحـدْ
ولَـوَ انّـنـي أخـتـارُ ذلـك لـم أُجِبْ ... كلبًـا وكم غَـلَّقْتُ سمعي عن أسـدْ

ومنهنّ مريم بنت أبي يعقوب الأنصاري[1].

سكنت إشبيلية، وأصلها والله أعلم من شِلْبَ.

وذكرها ابن دحية في «المطرب»[2] وقال: إنها أديبة شاعرة مشهورة [جزلة][3]، وكانت تُعلّم النساء الأدب، وتحتشم لدينها وفضلها، وعمرت عمرًا طويلًا، سكنت إشبيلية، واشتهرت بها بعد الأربعمائة، وذكرها الحميدي، وأنشد لها جوابها لما بعث المهدي إليها بدنانير، وكتب إليها[4]: [البسيط]

مـا لـي بشـكـرِ الـذي أُوليتِ من قِبَـلٍ ... لـو أنني حُـزْتُ نُـطْق اللُّسن في الحلَلِ[5]
يـا فَـذَّةَ الـظرف في هـذا الـزمـانِ ويـا ... وحيدةَ العصـر في الإخـلاص في العمـلِ[6]
أشْـبَهـتِ مـريـمًـا الـعـذراء فـي وَرَعٍ ... وفُـقْتِ خـنـسـاءَ فـي الأشـعـار والـمـثـلِ

ونص الجواب منها: [البسيط]

من ذا يجـاريـكَ في قـولٍ وفي عمـلِ ... وقـد بَـدَرْتَ إلـى فضـلٍ ولـم تُـسَـلِ
مـا لي بشكـرِ الـذي نَـظَّمْتَ في عُنُقي ... مـن الـلآلي ومـا أُولِيتَ مـن[7] قِبَـلِ
حَـلَّيْـتـني بـحُـلًى أصـبـحـتُ زاهـيـةً ... بـهـا على كـلِّ أُنْثى مـن حُـلًى عُـطُلِ
لـلّه أخـلاقُـكَ الـغُـرُّ الـتـي سُـقِيَـتْ ... مـاءَ الـفـرات فـرقَّـتْ رِقَّـةَ الـغَـزَلِ

(١) ترجمة مريم بنت أبي يعقوب في الصلة (ص ٩٩٥) وجذوة المقتبس (ص ٤١٢ - ٤١٣) وبغية الملتمس (ص ٤٤٣ - ٤٤٤).
(٢) النص الوارد هنا في الصلة وليس في المطرب كما يزعم المقري.
(٣) ما بين قوسين زيادة من الصلة.
(٤) هذه الأبيات وجوابها في الصلة والجذوة والبغية.
(٥) في المصادر جميعاً: «نطق الإِنْس والخَبَل».
(٦) في المصادر نفسها: «يا فَرْدة الظرف... وَالعملِ».
(٧) في الجذوة: «في قبلي».

أَشْبَهْتَ[1] مـروان مَنْ غـارتْ بـدائعـه وأنْجـدتْ وغـدتْ من أحسن المثـلِ
مـن كـان والـده العضْبَ المهنّـد لم يَلِدْ من النَّسْـلِ غيـرَ البِيضِ والأَسَـلِ

ومن شعرها وقد كبرت[2]: [الطويل]

ومـا يُـرْتجى[3] من بنتِ سبعينَ حِجّـةً وَسَبْـعٍ كَنَسْـجِ العَنْكَبُـوتِ المُهَلْهَـلِ
تـدبُّ دبيبَ الطفـلِ تسعى إلى العصا وتمشي بهـا مشي الأسيـرِ المُكَبَّـلِ

ومنهنّ أسماء العامرية، من أهل إشبيلية، كتبت إلى عبد المؤمن بن علي رسالة نمت فيها إليه بنسبها العامري، وتسأله في رفع الإنـزال عن دارها، والاعتقال عن مالها، وفي آخرها قصيدة أولها: [الوافر]

عـرفنـا النصـرَ والفتـحَ المُبِينـا لـسيـدنـا أميـرِ المـؤمـنيـنـا
إذا كـان الحـديثُ عن المعـالي رأيتُ حـديثكم فينـا شُجُـونـا

ومنـهـا:

رويتـمْ عِـلْمَـهُ فـعـلمتـمـوه وصُنْتم عَهْـدَهُ فغـدا مَصُـونـا

ومنهنّ أم الهناء بنت القاضي أبي محمد عبد الحق بن عطية، سمعَت أباها، وكانت حاضرة النادرة، سريعة التمثّل، من أهل العلم والفهم والعقل، ولها تأليف في القبور، ولَمّا ولي أبوها قضاء ألمرية دخل داره وعيناه تذرفان وجدًا لمفارقة وطنه، فأنشدته متمثّلة: [الكامل]

يـا عَيْنُ، صـارَ الـدمعُ عنـدكِ عـادةً تبـكـيـنَ فـي فـرحٍ وفي أحـزانِ

وهذا البيت من جملة أبيات هي: [الكامل]

جـاء الكتـابُ من الحبيبِ بـأنـه سيـزورني فـاستعبَـرَتْ أجفـاني
غـلبَ الـسـرورُ علـيَّ حتـى إنـه من عـظم فـرط مسـرّتي أبكـاني

وبعده البيت، وبعده:

فـاستقبلي بـالبشر يـوم لقـائـه ودعي الـدموعَ لليلة الهجـرانِ

---

(١) في المصادر كلها: «أَشْبَهْتَ في الشعر من غارتْ..».
(٢) البيتان في الصلة والجذوة والبغية.
(٣) في الجذوة والبغية: «وما ترتجي».

ومنهن مهجة القرطبية[1] صاحبة وَلّادة رحمهما اللّٰه تعالى، وكانت من أجمل[2] نساء زمانها، وعلقت بها ولّادة، ولازمت تأديبها، وكانت من أخفّ الناس روحًا، ووقع بينها وبين ولّادة ما اقتضى أنْ قالت: [السريع]

ولادةٌ قد صِرْتِ ولادةً ... من غير بعلٍ، فُضِحَ الكاتمُ
حَكَتْ لنا مريمَ لكنه ... نخلةُ هٰذِي ذَكَرٌ قائمُ

قال بعض الأكابر: لو سمع ابن الرومي هذا لأقرّ لها بالتقدّم[3].

ومن شعرها: [الطويل]

لئن قد حَمَى[4] عن ثغرها كلُّ حائمٍ ... فما زال يُحْمىٰ عن مُطَالبه الثَّغرُ
فذلك تحميه القواضبُ والقَنا ... وهذا حَمَاه من لواحظها السِّحْرُ

وأهدى إليها من كان يهيم بها خوخًا، فكتبت إليه: [السريع]

يا مُتْحفًا بالخوخ أحبابَهُ ... أهلًا به من مُثْلجٍ للصدورْ
حكى ثُدِيَّ الغِيدِ تفليكُهُ ... لكنه أخزى رؤوس الأيورْ

ومنهنّ هند جارية أبي محمد عبد اللّٰه بن مسلمة الشاطبي، وكانت أديبة شاعرة، كتب إليها أبو عامر بن يَنَّق يدعوها للحضور عنده بعُودها: [الكامل]

يا هندُ، هل لكِ في زيارةِ فتيةٍ ... نبذوا المحارمَ غيرَ شربِ السلسلِ
سمعوا البلابلَ قد شَدَوْا فتذكّروا ... نغماتِ عُودِكِ في الثقيلِ الأولِ

فكتبت إليه في ظهر رقعته: [الكامل]

يا سيّدًا حازَ العُلا عن سادةٍ ... شُمِّ الأنوفِ مِنَ الطرازِ الأولِ[5]
حَسْبِي من الإسراع نحوكَ أنني ... كنتُ الجوابَ مع الرسولِ المقبلِ

---

(١) هي مهجة بنت التياني القرطبية، وترجمتها وأبياتها المذكورة هنا في المغرب (جـ ١ ص ١٤٣).
(٢) هكذا في المغرب، وفي طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٩٣): «أجلّ».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٢٩٣): «بالتقديم».
(٤) في المغرب: «لئن حَلأتْ عن ثغرها. . .».
(٥) عجز هذا البيت هو نفسه عجز بيت لابن القبطورنة ورد في هذا الجزء .

ومنهنّ الشلبية؛ قال ابن الأبار: ولم أقف على اسمها، وكتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلّم من وُلَاة بلدها وصاحب خراجه[1]: [الكامل]

قد آن أن تبكي العيونُ الآبيهْ ... ولقد أرَى أنَّ الحجارةَ باكيهْ
يا قاصدَ المصرِ الذي يُرْجَى به ... إن قَدَّرَ الرحمنُ رَفْعَ كراهيهْ
نادِ الأميرَ إذا وقفتَ ببابه ... يا راعيًا إنَّ الرعيَّةَ فانيهْ
أرسلْتَها هَمَلًا ولا مَرْعًى لها ... وتركْتَها نهبَ السباعِ العاديهْ
شِلْبٌ كلا شلبٍ، وكانت جنّةً ... فأعادها الطاغون نارًا حاميهْ
حافوا[2] وما خافوا عقوبةَ ربِّهم ... واللّهُ لا تخفى عليه خافيهْ

فيقال: إنها أُلقيت يوم جمعة[3] على مصلّى المنصور، فلمّا قضى الصلاة وتصفّحها بحث عن القضية[4] فوقف على حقيقتها، وأمر للمرأة بصلة.

وحُكي أنَّ بعض قضاة لُوشَة كانت له زوجة فاقت العلماء في معرفة الأحكام والنوازل، وكان قبل أن يتزوّجها ذكر له وصفها فتزوّجها، وكان في مجلس قضائه تنزل به النوازل، فيقوم إليها فتشير عليه بما يحكم به، فكتب إليه بعضُ أصحابه مداعبًا بقوله: [المتقارب]

بِلُوشَةَ قاضٍ له زوجةٌ ... وأحكامُها في الورى ماضِيَهْ
فيا ليته لم يكن قاضيًا ... ويا ليتها كانَتِ القاضيهْ

فأطلع زوجته عليه حين قرأه فقالت: ناولني القلم، فناولها، فكتبت بديهة: [مجزوء الرجز]

هُوْ شيخُ سوءٍ مُزْدَرًى ... له شيوبٌ عاصِيَهْ
﴿كلَّا لئِنْ لم يَنْتَهِ ... لَنَسْفَعًا بالناصِيَهْ﴾[5]

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٧٣): «خراجها».

(٢) حافوا: ظلموا. لسان العرب (حيف).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٩٤): «الجمعة».

(٤) في الطبعة نفسها: «عن القِصّة».

(٥) هذا البيت هو الآية ١٥ من سورة العلق ٩٦.

وسمعتُ بعضَ أشياخنا يحكي القضية عن لسان الدين بن الخطيب، وأنه هو الذي كتب يُدَاعب زوج المرأة فكتبت إليه: [مجزوء الكامل]

إنَّ الإمام ابنَ الخطيبِ   لـه شيوبٌ عاصِيَةْ

إلى آخره، فاللَّه أعلم.

ومنهن نزهون الغَرْناطية[1].

قال في «المغرب»[2]: من أهل المائة الخامسة، ذكرها الحِجَاري في «المسهب» ووصفها بخفة الروح، والانطباع الزائد، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال فائق، وحسن رائق، وكان الوزير أبو بكر بن سعيد أولع الناس بمحاضرتها ومذاكرتها ومراسلتها، فكتب لها مرة[3]: [المجتث]

يا مَنْ له ألفُ خِلٍّ   من عاشقٍ وصديقِ[4]
أراكِ خَلَّيتَ للنا   سِ منزلا في الطريقِ[5]

فأجابته: [الطويل]

حللتَ أبا بكرٍ مَحَلًّا منعتُهُ   سواكَ، وهل غيرُ الحبيب له صَدْري
وإن كان لي كم من حبيبٍ فإنما   يُقَدِّمُ أهلُ الحقِّ حُبَّ[6] أبي بكرِ

قيل: لو قالت «وإن كان خلاني كثيرًا ـ الخ» لكان أجود.

---

(١) مرَّ التعريف بنزهون الغرناطية والإشارة إلى مصادر ترجمتها في الجزء الأول .
(٢) ترجم لها ابن سعيد في المغرب (جـ٢ ص ١٢١) ولكن الترجمة هنا غير واردة في المغرب.
(٣) شعر أبي بكر بن سعيد وجواب نزهون في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٢١٦).
(٤) في المقتضب: «لها ألف شخص. . وعشيق».
(٥) في المقتضب: «سدَّ ذاك الطريق».
(٦) في المقتضب: «فضل أبي بكرِ».

ولما قال فيها المخزومي(١): [الطويل]

على وَجْهِ نزهونٍ من الحُسْنِ مَسْحَةٌ ... وتحتَ الثيابِ العارُ لو كان باديا(٢)

قواصدُ نزهونٍ توارِكُ غَيْرِها ... ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا(٣)

قالت: [المجتث]

إن كان ما قُلْتَ حَقًّا ... من بعض عهدٍ كريمِ

فصار ذكري ذميمًا ... يُعْزَى إلى كلِّ لومِ

وصرتُ أقبحَ شيء ... في صورة المخزومي

وقد تقدّمتْ حكايتها في «الباب الأوّل» من هذا، فلتراجَعْ(٤).

وقال لها بعض الثقلاء: ما على من أكل معك خمسمائة سوط؟! فقالت: [الطويل]

وذي شقوة لمّا رآني رأى له ... تمنّيه أن يَصْلَى معي جاحمَ الضربِ(٥)

فقلتُ له كُلْها هنيئًا فإنما ... خُلقتُ إلى لبس المطارف والشربِ

وقال ابن سعيد في طالعه لمّا وصف وصول ابن قزمان إلى غرناطة واجتماعه بجنّته بقرية الزاوية من خارجها بنزهون القلاعية الأديبة، وما جرى بينهما، وأنها قالت له بعقب ارتجال بديع ـ وكان يلبس غفارة صفراء على زي الفقهاء حينئذ ـ أحسنت يا بقرة بني إسرائيل، إلاّ أنك لا تسرُّ الناظرين، فقال لها: إن لم أسرَّ الناظرين فأنا أسر السامعين، وإنما يُطلب سرور الناظرين منك يا فاعلة يا صانعة، وتمكن السكر من ابن قزمان، وآل الأمر إلى

---

(١) شعر المخزومي وجوابها في المقتضب (ص ٢١٧).

(٢) رواية عجز البيت في المقتضب هي:

وإن كان قد أضحى من الصَّوْن عاريا

وهذا من قول ذي الرمة في صاحبته مي: (الطويل)

على وَجْهِ مَيٍّ مَسْحَةٌ من مَلاحَةٍ ... وتحت الثيابِ الشَّيْنُ لو كان باديا

الشعر والشعراء (ص ٤٣٩).

(٣) عجز هذا البيت تضمين لبيت المتنبي من قصيدة قالها في مدح كافور:

قواصدَ كافورٍ توارِكَ غَيْرِهِ ... ومَنْ قَصَدَ البحرَ استقلَّ السواقيا

العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٤٧٤).

(٤) تراجع في الجزء الأول .

(٥) يَصْلى: هنا يمعنى يذوق. وأراد بجاحم الضرب: أشدّه وأقساه.

أن تدافعوا معه حتى رموه في البركة، فما خرج إلاّ وهو قد شرب كثيرًا من الماء، وثيابه تهطل، فقال: اسمع يا وزير، ثم أنشد: [السريع]

إيـهٍ أبـا بـكـرٍ ولا حـولَ لـي — بـدَفْـع أعـيـانٍ وأنـذالِ
وذات فـرجٍ واسـع دافـقٍ — بـالـمـاء يحكي حـالَ أذيـالـي
غـرّقتني في الـمـاء يـا سيـدي — كَـفِّـرْهُ بـالتـغـريق في المـالِ

فأمر بتجرد ثيابه، وخلع عليه ما يليق به، ومَرَّ لهم يوم بَعُدَ عهدُهم بمثله. ولم ينتقل ابن قزمان من غرناطة إلاّ من بعد ما أجزل له الإحسان، ومدحه بما هو ثابت له في ديوان أزجاله. وحُكي عنه فيما أظنّ ـ أعني ابن قزمان ـ ويحتمل أنه غيره أنه تبع إحدى الماجنات، وكان أحول، فأطمعته في نفسها، وأشارت إليه أن يتبعها، فاتّبعها حتى أتت به سوق الصاغة بإشبيلية، فوقفت على صائغ من صُيَّاغها، وقالت له: يا معلم، مثل هذا يكون فص الخاتم الذي قلت لك عنه، تشير إلى عين ذلك الأحول الذي تبعها، وكانت قد كلفت ذلك الصائغ أن يعمل لها خاتمًا يكون فصّه عين إبليس، فقال لها الصائغ: جئيني بمثال[1]، فإني لم أَرَ هذا ولا سمعت[2] به قط، فجاءته به عن مثال، وحكاها بعضهم على وجه آخر وأنها ذهبت إلى الصائغ وقالت له: صَوِّرْ لي صورة الشيطان، فقال لها: ائتيني بمثال، فلمّا تبعها ابن قزمان جاءته به، وقالت له: مثل هذا، فسأل ابن قزمان الصائغ فأعلمه فخجل ولعنها.

وكتب أبو بكر ابن قزمان على باب جنّته: [السريع]

وقـائـلٍ يـا حُـسْـنَـهـا جَـنَّـةً — لا يـدخـلُ الحـزنُ على بـابِهـا
فـقـلتُ والـحـقُّ لـه صـولـةٌ — أحسنُ منهـا مجـدُ أربـابـهـا

ولـه: [الوافر]

كـثيـرُ الـمـالِ تمسكُـه فَيَفْـنَى — وقـد يبقى مَـعَ الجُـودِ القليـلُ
ومن غـرستْ يـداه ثـمـارَ جـودٍ — فـفي ظـلِّ الثنـاءِ لـه مقيـلُ

رجع إلى أخبار نزهون بنت القليعي: حكي[3] أنها كانت تقرأ على أبي بكر

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٩٧): «بالمثال».

(٢) في الطبعة نفسها: «ولا سمعته قط..».

(٣) الحكاية والشعر في المغرب (جـ ٢ ص ١٢١).

المخزومي الأعمى، فدخل عليهما أبو بكر الكُتَنْدي، فقال يخاطب المخزومي: [الكامل]

لــو كـنتَ تُـبْصِـرُ مَنْ تجـالِـسُـهُ[1]

فأُفْحم، وأطال الفكر فما وجد شيئًا، فقالت نزهون: [الكامل]

لَغَـدَوْتَ أخـرسَ من خـلاخِلِهِ
الـبـدرُ يـطلعُ مِـنْ أَزِرَّتِـهِ والـغصـنُ يمـرحُ فـي غَـلاَئِلِهِ

وكانت ماجنة، ومن شعرها قولها: [البسيط]

لـلّه دَرُّ الـليـالـي مـا أُحَيْـسِنَـهـا ومـا أُحَيْسن منهـا لـيـلةَ الأحَـدِ!
لـو كنتَ حـاضـرَنـا فيهـا وقـد غفلتْ عينُ الـرقـيب فـلم تنـظرْ إلـى أحـدِ
أَبْصَرْتَ شمسَ الضحى في ساعِدَيْ قمرٍ بـل رِيمَ خـازمـةٍ في سـاعـدَيْ أَسَـدِ

وهذا المعنى متّفق مع قول ابن الزقاق[2]: [الطويل]

ومُـرْتَجَّـةِ الأردافِ[3] أَمَّـا قَـوامُهـا فَـلَدْنٌ وأمـا رِدْفُـهـا فَـرَدَاحُ
أَلَمَّتْ فبـاتَ الليـلُ مِنْ قِصَـرٍ بـهـا يـطيـرُ، ولا غيـرُ الســرورِ جَنـاحُ
فَـبِـتُّ[3] وقـد زارتْ بـأنـعـمِ لـيـلةٍ يـعـانِقُـني حتى الـصبـاحِ صبـاحُ
على عـاتقي مِنْ سـاعـدَيْهَـا حمـائـلٌ وفي خَصْـرِهـا من سـاعـديَّ وشـاحُ

وابن الزقاق هذا له في النظم والغَوْص على المعاني الباعُ المديد، ومن نظمه قوله[5]: [الوافر]

رئيسُ الشـرق محمـودُ السجـايـا يُقَصِّـر عـن مـدائحـه الـبـليـغُ
نُـسَمِّـيـه بـيـحيـىٰ وهـو مـيـتٌ كـمـا أنَّ الـسـليـمَ هـو الـلديـغ
يـعـافُ الـورْدَ إن ظمئـتْ حَشـاه وفـي مـالِ الـيـتـيـم لـه ولـوغُ

---

(١) في المغرب: «من تكلّمُهُ».
(٢) ديوان ابن الزقاق (ص ١٢٩).
(٣) في الديوان: «ومرتجّة الأعطاف».
(٤) في الديوان: «وبتُّ».
(٥) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٥).

وقوله[1]: [المتقارب]

كتبت ولو أنني أستطيعُ		لإجلالِ قدرِكَ بين البَشَرْ
قددتُ اليراعةَ مِنْ أنملي		وكان المدادُ سوادَ البَصَرْ

وقوله[2]: [الطويل]

غريرٌ يُباري الصبحَ إشراقُ خَدِّه		وفي مَفْرِقِ الظَّلْماء منه نصيبُ
ترفُّ بفيه ضاحكًا أقحوانةٌ		ويهتزُّ في بُرْدَيه منه قضيبُ

وقوله[3]: [الكامل]

ومُهَفْهَفٍ نَبَتَ الشقيقُ بخدِّه		واهتزَّ أُمْلُودُ النقا في بُرْدِهِ
ماءُ الشبيبةِ والغرامِ أرقُّ من		صَقْلِ الحسامِ المنتقى[4] وفِرِنْدِهِ
يُحْيِي الورى[5] بتحيَّةٍ مِنْ وَصْلِهِ		مِنْ بَعْدِ ما وردوا الحِمامَ بصَدِّه
إن كنتَ أهديتَ الفؤادَ له فقلْ		أيُّ الجوى بجوانح[6] لم يُهْدِهِ

وقوله[7]: [المتقارب]

أَرَقُّ نسيمَ الصَّبا عَرْفُهُ		وراقَ قضيبَ النقا عِطْفُهُ
ومَرَّ بنا يتهادى وقد		نضا[8] سَيْفَ أجفانه طَرْفُهُ
ومدَّ[9] لمبسمه راحةً		فخلْتُ الأقاحَ دنا قَطْفُهُ
أشارتْ بتقبيلها للسلامِ[10]		فقال فَمِي ليتني كَفُّهُ

وقوله[11]: [الرمل]

بأبي مَنْ لم يَدَعْ لي لحظُهُ		في الهوى من رَمَقٍ حين رَمَقْ

---

(١) ديوان ابن الزقاق (ص ١٧٧).
(٢) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩١).
(٣) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٢ ـ ٢٩٣).
(٤) في الديوان: «المنتضى».
(٥) في الديوان: «الأنام بلمحةٍ من وَصْلِهِ».
(٦) في الديوان: «لجوانحي».
(٧) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٠٢).
(٨) نضا السيفَ: استلَّه من غمده. لسان العرب (نضا).
(٩) في الديوان: «ومَرَّ».
(١٠) في الديوان: «أشار لتقبيلها في السلام».
(١١) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٠٨). ورواية الأبيات في الديوان مختلفة اختلافًا كبيرًا عمّا هنا.

جَمَعَتْ نكهتُهُ في ثغره ... عبقًا في نسقٍ يسبي الحَدَقْ
وبَدَتْ خجلتُهُ في خَدِّه ... شَفَقًا في فَلَقٍ تحت غَسَقْ

وقال[1] : [الكامل]

وعشيةٍ لبستْ مُلاءَ[2] شقيقِ ... تُزْهَى بسلو للخدودِ أنيقِ
أبقتْ بها الشمسُ المنيرةُ مثل ما ... أبقى الحياءُ بوجنتيْ[3] معشوق
لو أستطيعُ شَرِبْتُها كَلَفًا بها ... وعَدَلْتُ فيها عن كؤوس رحيقِ

وقال في مسامرة كتّاب زعماء[4]: [الكامل]

للّه ليلتُنا التي استجدى[5] بها ... فَلَقُ الصباح لِسُدفةِ الإظلامِ
طرأتْ عليَّ مع النجوم بأنجمٍ ... منْ فتيةٍ بيضِ الوجوهِ كرامِ
إنْ حُوربوا فَزِعُوا إلى بِيض الظُّبَا ... أو خُوطبوا فزعوا إلى الأقلام
فترى البلاغةَ إنْ نظرتَ إليهمُ ... والبأسَ بين يراعةٍ وحُسام

وقال[6]: [الخفيف]

ومُجِدِّين في السُّرى قد تعاطَوْا ... غَفَواتِ الهوى بغير كؤوسِ
جنحوا وانحنَوْا على العِيس حتى ... خِلْتَهُمْ يُعْتِبُون أيدي العِيسِ
نبذوا الغَمْضَ وهو حُلْوٌ إلى أن ... وَجَدُوه سُلافةً في الرؤوس

وقال[7]: [الطويل]

وحَبَّبَ يومَ السبتِ عنديَ أنني ... يُنادمني فيه الذي أنا أَحْبَبْتُ
ومِنْ أَعْجَبِ الأشياء أنيَ مسلمٌ ... حنيفٌ[8] ولكنْ خيرُ أياميَ السبتُ

---

(١) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٠٦).
(٢) في الديوان: «رداء شقيق».
(٣) في الديوان: «بوجنة المعشوق».
(٤) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٨).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٠٠): «استخذى».
(٦) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٩٤).
(٧) ديوان ابن الزقاق (ص ١١٣) وتقدما في الجزء الخامس.
(٨) في الديوان: «تقيٌّ».

ولنقتصر من نساء الأندلس على هذا المقدار، ونَعُدْ إلى ما كُنّا فيه من جلب كلام بلغاء الأندلس ذوي الأقدار، فنقول:

قال الخفاجي رحمه اللّه تعالى[1]: [الطويل]

وهاتفةٍ في البان تُمْلي غرامَها | علينا وتتلو من صبابتها صُحْفَا
عجبتُ لها تشكو الفراقَ جهالةً | وقد جاوبتْ من كلِّ ناحيةٍ إلفا
ويُشْجِي قلوبَ العاشقين أنينُها | وما فهموا مِمَّا تَغَنَّتْ به حرفا
ولو صدقتْ فيما تقولُ من الأسى | لما لبست طوقًا ولا خَضَبَتْ كَفَّا

وقال الأستاذ أبو محمد بن صارة[2]: [الطويل]

متى تلتقي[3] عيناايَ بَدْرَ مكارم | تودُّ الثريَّا أنها من مَوَاطِئِهْ
ولَمَّا أهلَّ المدلجون بذكرِهِ | وفاحَ ترابُ[4] البِيد مِسْكًا لواطئه
عرفنا بحسن الذكرِ حُسْنَ صنيعِهِ | كما عُرِفَ الوادي بخضرة شاطئهْ

وقال يتغزل[5]: [الكامل]

يا من تَعَرَّض دونه شَحْطُ النوى | فاستشرفتْ لحديثه أسماعي
إنِّي لمن يَحْظَى بقربك حاسدٌ | ونواظري يحسدْنَ فيك رقاعي
لم تَطْوِكَ الأيامُ عني إنما | نَقَلَتْكَ من عيني إلى أضلاعي

وقال الأديب أبو القاسم بن العطار[6]: [الطويل]

عَبَرْنا سماءَ[7] الجَوِّ والنهرُ مُشْرِقٌ | وليس لنا إلاَّ الحبابَ نُجُومُ
وقد أَلْبَسَتْهُ الأيكُ بُرْدَ ظِلالها | وللشمسِ في تلك البُرُودِ رُقُومُ

(١) البيتان غير واردين في ديوان ابن خفاجة طبعة دار بيروت، وهما في الديوان طبعة المعارف بمصر (ص ٣٧٠).
(٢) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٥٩).
(٣) في القلائد: «متى تجتلي».
(٤) في القلائد: «وفاح نسيم الترب مسكًا..».
(٥) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٥٩).
(٦) البيتان في قلائد العقيان (ص ٢٨٣)، وقد تقدّما في الجزء الثاني والجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.
(٧) في القلائد: «سماء النهرِ والجوُّ..».

وله أيضًا[1] : [الكامل]

لله بهجـةُ نـزهـةٍ ضَـرَبَتْ بـه فـوقَ الغَـدِيرِ رُواقَهـا الأَنْشـامُ[2]
فَمَعَ الأصيلِ النهرُ دِرْعٌ سابـغٌ ومَـعَ الضُّحَى يلتاحُ فيـه حُسـامُ

وقال أيضًا[3]: [الخفيف]

هَبَّتِ الـرِّيـحُ بـالـعشـيِّ فحـاكتْ زَرَدًا لـلغَـدِيـرِ نـاهِـيـكَ جُـنَّـهْ
وانْجَلَى البَـدْرُ بَعْدَ هَدْءٍ فحاكتْ[4] كَـفُّـهُ لـلقـتـال مـنـه أَسِـنَّـهْ

وقال أيضًا[5] : [الكامل]

للَّه حُسْنُ حـديقـةٍ بَسَـطَتْ لنـا منهـا النفـوسَ سَـوالِفٌ ومَعـاطِفُ
تختـالُ في حُلَلِ الـربيـعِ وحَلْيِهِ ومِنَ الـربيعِ قـلائـدٌ ومَـطارِفُ

ولـه[6]: [المنسرح]

وَسْنـانُ مـا إن يـزالُ عـارضُـهُ يعـطفُ قلبي بعـطفـةِ الـلامِ
أسلمني للهـوى فـواحَـزَنِي[7] أنْ بَـزَّنـي عفَّـتي وإسـلامـي
لحـاظُـه أسهـمٌ، وحـاجِبُـهُ قـوسٌ، وإنسـانُ عينـه رامي

وارتجل أبو جعفر ابن خاتمة رحمه اللَّه تعالى لَمَّا بات في قرية بَيِّش[8] : [الكامل]

لـلَّه مـنـزِلُـنـا بـقـريـة بـيِّشٍ كـاد الهـوى فيهـا اَدكـارًا بي يَشِي
رُحْـنـا إليهـا والبِـطاحُ كـأنـهـا صُحُفٌ مُـذَهَّبَـةٌ بـإبـريـزِ الْعَشِي

(١) البيتان في قلائد العقيان (ص ٢٨٣) والمغرب (جـ ١ ص ٢٥٩) وتقدما في الجزء الثاني باختلاف يسير عمّا هنا.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٨١): «الأنسام». وفي المغرب: «بهجة منزهٍ.. الأنسامُ».
(٣) البيتان في قلائد العقيان (ص ٢٨٤)، وقد تقدّما في الجزء الثاني وجاء هناك: «فصاغت» بدل «فحاكتْ».
(٤) في القلائد: «فصاغتْ».
(٥) البيتان في القلائد (ص ٢٨٤) وقد تقدما في الجزء الثاني دون تغيير عمّا هنا.
(٦) الأبيات الثلاثة في قلائد العقيان (ص ٢٨٦) والبيت الثالث فقط في المغرب (جـ ١ ص ٢٥٩).
(٧) في القلائد: «فوا حزنا».
(٨) ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ص ١٩٦).

فأجازه الوزير ابن جزي بقوله[1]: [الكامل]

في فتيـةٍ هَـزَّتْ حُمَيَّـا الأُنْسِ من ... أعـطافهم فـالكـلُّ منهـا مُنْتَشي
يـأتي عُـلاهمْ بـالصحيح، ولفـظُهُمْ ... بـالمُنْتَقى، وجمـالُهُمْ بـالمـدهش

وقال السلطان أبو الحجاج النصري مرتجلاً أيام مقامه بظاهر جبل الفتح سنة ٨١٥[2]: [الطويل]

ولـم يتـركـوا أوطـانَـهُمْ بـمـرادهمْ ... ولـكنْ لأحـوالٍ أشـابـتْ مفـارقـي
أقـامَ بـهـا ليـلُ الـتهـاني تـقـلّبـا ... وقـد سكنتْ جهلاً نفـوسُ الخـلائقِ
فَعَـوَّضْتُهـا ليـلَ الصبابـةِ بـالسُّـرَى ... وأُنْسَ التـلاقي بـالحبيبِ المفـارق
ولم يثنني طـرفٌ من الـنـور نـاعسٌ ... ولا مـعـطفٌ للبـان وسطَ الحـدائق
ولا منهضُ الأشبـال في عُقْـرِ غيـرهم ... ولا ملعبُ الـغـزلانِ فـوقَ النـمـارق
وعـاطيْتُهـا صُبْحَ الـديـاجي مُـدامـةً ... تميـلُ بهـا الـركبـانُ فـوق الأيـانقِ
إذا مـا قـطعْنـا بـالمـطيِّ تَنُوفَـةً[3] ... دلجْنـا لأخـرى بـالجيـاد السـوابقِ
بحيثُ الْتَقَى مـوسى مـع الخضـرِ آيـةً ... عسى تـرجعُ العقبى كمـوسى وطـارقِ

ولـه: [البسيط]

مَـنْ عـاذري مِـنْ غـزالٍ زانـه حَـوَرٌ ... قـد هـام لَمَّـا بَـدَا في حُسْنِـهِ البشـرُ
ألحـاظُـه كسيـوفِ الهنـدِ مـاضيـةٌ ... لـهـا بـقـلبي وإن سـالـمتُـهـا أثـرُ

وقال القاضي أبو القاسم بن حاتم: [الوافر]

شكـوتَ بمـا دهـاكَ وكـان سِـرًّا ... لِـمَنْ ليسـت مَـوَدَّتُـهُ صحيحَـهْ
فـتلك مـصيْبَـةٌ عـادت ثـلاثًـا ... لصحبتهـا الشمـاتـةَ والفضيحَـهْ

وقال الفقيه محمد بن سعيد الأندلسي مخاطبًا للفقيه الفخار: [البسيط]

خَـفِّفْ علينـا قليـلاً أيهـا العَـلَمُ ... فـربّـمـا كـان فينـا مَنْ بـه ألـمُ
لا يستـطيـعُ نهـوضًـا من تـألّـمـه ... وإن تـمـادى قليـلاً خـانـتِ القـدمُ
كـفـى وصـيَّـةُ مـولانـا وسيِّـدنـا ... محمـد فـاسمعوا مـا قـال والتـزمـوا

(١) ديوان ابن خاتمة (ص ١٩٦).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٨٢): «٨٢٥».
(٣) التَّنُوْفَةُ: المفازة والأرض الواسعة البعيدة الأطراف. محيط المحيط (تنف).

وقال ابن جُبَير اليحصبي فيمن أهدى إليه تفاحًا: [الوافر]

خليلٌ لم يزلْ قلبي قديمًا يميلُ بفرط صاغيةٍ إليهِ
أتاني مُقْبلاً والبشرُ يبدي وسائلَ برّةٍ كرمَتْ لديهِ
وجاء بِعَرْفِ تفاحٍ ذكيّ فقلتُ أتى الخليلُ بسيبويهِ
فأهدى من جَنَاه بكلّ شكلٍ يلوحُ جمالُ مُهْديها عليهِ

وقال قاضي مالقة سيدي إبراهيم البدوي: [مخلع البسيط]

قَطَعْتُ يأسي فَصُنْتُ وجهي عن الوقوف لذي وَجاهَهْ
قصدت ربِّي فكان حسبي أَلْبَسني فضلَهُ وَجَاهَهْ
فلا يُرَى ينثني عِناني مدى حياتي إلَّا تجاهَهْ

وقال ابن خليل السكوني في فهرسته: شاهدت بجامع العدبَّس بإشبيلية ربعة مصحف في أسفار يُنْحَى به لنحو خطوط الكوفة إلَّا أنه أحسن خطًّا وأبينه وأبرعه وأتقنه، فقال لي الشيخ الأستاذ أبو الحسين(1) بن الطفيل بن عظيمة: هذا خطّ ابن مقلة، وأنشد: [البسيط]

خَطُّ ابنِ مقلَة مَنْ أرعاه مُقْلَته؟ وَدَّتْ جوارحُه لو أنها مُقَلُ

ثم قِسْنا حروفه بالضابط فوجدْنا أنواعها تتماثل في القدر والوضع، فالألفات على قدر واحد، واللامات كذلك، والكافات والواوات وغيرها بهذه النسبة، انتهى.

قلت: رأيت بالمدينة المنوّرة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام مصحفًا بخطّ ياقوت المستعصمي بهذه المثابة، وهو من الأوقاف الرستمية، ورأيت بالحجرة الشريفة على صاحبها الصلاة والسلام مصحفًا مكتوبًا في آخره ما صورته: كتبته بقلم واحد فقط ما قُطَّ قطُّ إلَّا مرة فقط، انتهى.

رجع ـ وقال ابن عَبْدُون رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

أَذْهَبْنَ مِنْ فَرَقِ الفراقِ نفوسًا ونَثَرْنَ من درٍّ الدموع نَفِيسَا
فتبعتُها نظرَ الشجيِّ فحدّقَتْ رُقباؤها نحوي عيونًا شوسا
وحللْنَ عَقْدَ الصبرِ إذ ودَّعْنني فحللْنَ أفلاكَ الخدورِ شموسا

---

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٠٤): «أبو الحسن».

حَـلَّتـه إذ حَـلَّتْـهُ حتى خِـلْتُـه عـرشًـا لهـا وحسبْتُهـا بَلْقِيسـا
فـآزوَرَّ جـانبُهـا وكـان جـوابها: لـو كنتَ تهـوانـا صحبتَ العِيسـا

وهي طويلة.

قلت: ما أظنّ لسان الدين نَسَجَ قصيدته من هذا البحر والـروي إلاّ على منوال هـذه، وإن كان الحافظ التنسي قال: إنه نسجها على [منوال][1] قصيدة أبي تمام حسبما ذكرْنا ذلك في محله فليراجَعْ.

وقال أبو عبد اللّه بن المناصف قاضي بَلَنْسية ومُرْسِية رحمه اللّه تعالى: [المجتث]

أَلْـزَمْـتُ نفسـي خُـمُـولاً عــن رُتْـبَــةِ الأعــلامِ
لا يَـخْـسِـفُ الـبـدرَ إلاّ ظـهـورُهُ فــي تــمــام

وتذكَّرْتُ به قول غيره: [المجتث]

لـيس الـخـمـولُ بـعـارٍ عـلى امـرىء ذي جـلالِ
فـليـلةُ الـقَـدْرِ تَـخْـفَـى وتـلك خـيـرُ الـليـالـي

وقال الوزير ابن عمار، وقد كتب له أبو المطرف بن الدباغ شافعًا لغلام طَرَّ عِذاره[2]: [المتقارب]

أتـانـي كتـابُـك مُـسْـتَـشْـفِـعًـا بـوجـهِ أبىٰ الـحُـسْـنُ مـن رَدِّهِ
ومـن قبـل فَـضِّيَ ختمَ الـكتـابِ قـرأتُ الـشـفـاعـةَ فـي خَـدِّهِ

وقـال القاضي الأديب، والفيلسـوف الأريب، أبو الـوليد الـوقشي قـاضي طُلَيْطلة[3]: [السريع]

بَـرَّحَ بـي أنَّ عـلوم الـورى قسمـانِ مـا إن فيهمـا من مـزيـدْ
حقيقـةٌ يُـعْـجِـزُ تـحـصيـلُها وبـاطـلٌ تـحـصيـلُهُ لا يـفـيـدْ

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٨٥).
(٢) تقدم هذان البيتان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) تقدم هذان البيتان في الجزء الخامس وفيه: «اثنان» بدل «قسمان» في البيت الأول.

وقال أبو عبد اللّه بن الصفار وهو من بيت القضاء والعلم بقرطبة: [السريع]

لا تحسبِ الناسَ سواءً متى ... ما اشْتَبَهُوا فالناسُ أطوارُ
وانظرْ إلى الأحجار، في بعضها ... ماءٌ، وبعضُ ضمنَهُ نارُ[1]

وهذا مثل قول غيره[2]: [السريع]

الناسُ كالأرضِ، ومِنْها هُمُ ... مِنْ خَشِنِ الطبعِ ومن لَيِّنِ
مَرْوٌ تَشَكّى الرِّجْلُ منه الْوَجَى ... وإثْمِدُ يُجْعَلُ في الأعينِ[3]

ومن نظم ابن الصفار المذكور: [المجتث]

إذا نويتَ انقطاعًا ... فاعملْ حسابَ الرجوعِ

وقال أبو مروان الجزيري: [الكامل]

ومن العجائبِ والعجائبُ جَمَّةٌ ... أن يلهجَ الأعمى بعيبِ الأعورِ

وقال حسان بن المصيصي كاتب الظافر بن عباد ملك قرطبة: [الكامل]

لا تأمننَّ مِنَ العدوِّ لبعدِهِ ... إنَّ امرأ القيس اشتكى الطِّماحا

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي [قدس سره العزيز][4] في كتابه «الإسفار، عن نتائج الأسفار»: أنشدني الكاتب الأديب أبو عمرو بن مهيب بإشبيلية أبياتًا عملها في حمود بن إبراهيم بن أبي بكر الهرغي، وكان أجمل أهل زمانه، رآه عندنا زائرًا وقد خطّ عذاره، فقلت: يا أبا عمرو، ما تنظر إلى حُسْن هذا الوجه؟ فعمل الأبيات في ذلك، وهي: [المتقارب]

وقالوا العِذارُ جَناحُ الهوى ... إذا ما استوى طار عن وَكْرِهِ
وليس كذاكَ فَخَبِّرْهُمُ ... قيامًا بعذريَ أو عذرِهِ
إذا كملَ الحُسْنُ في وَجْنَةٍ ... فخاتمُهُ وَيْكَ مِنْ شَعْرِهِ

---

(١) أخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ وإنَّ مِنَ الحجارةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ منه الأنهارُ ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٧٤.

(٢) البيتان للحصري كما تقدم في الجزء الثاني ورويا هناك ببعض الاختلاف عمّا هنا. وهما أيضًا في التكملة (ص ٤٣٤).

(٣) المَرْوُ: حجارة بيض برّاقة تقدح منها النار. الوَجَى: وجع يأخذ الإنسان من المشي. الإثمد: حجر يكتحل به. لسان العرب (مرا) و(وجى) و(ثمد).

(٤) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٠٧).

قال بعضهم: رأيت آخر الكتاب المذكور بعد فراغه شعرًا نسبه إليه، وهو: [الكامل]

يا حاضرًا بجماله في خاطري ... ومُحَجَّبًا بجلاله عن نظاري
إن غِبْتَ عن عيني فإنك نورُها ... وضميرُ سرِّكَ سائرٌ في سائري
ومن العجائب أنني أبدًا إلى ... رُؤياك ذو شوقٍ مديدٍ وافرِ
مَعَ أنني ما كنتُ قطُّ بمجلسٍ ... إلَّا وكنتَ مُنَادِمِي ومسامري

وأنشد في «الإحاطة» لعبد اللّه الجذامي: [الطويل]

أيا سيدي أشكو لمجدكَ أنني ... صددتُ مرارًا عن مثولي بساحتكْ
شكاةَ اشتياقٍ أنتَ حقًّا طبيبُها ... وما راحتي إلَّا بتقبيلِ راحتكْ

قال: وهو عبد اللّه بن عبد اللّه بن أحمد بن محمد الجُذَامي، فاضل ملازم للقراءة، عاكف على الخير، مشارك في العربية، خاطب للرياسة الأدبية، اختصّ بالأمير أبي علي المنصور ابن السلطان أيام مقامه بالأندلس، ومِمّا خاطبه به معتذرًا:

أيا سيدي ـ البيتين

انتهى.

وقال في ترجمة عبد اللّه بن أحمد المالقي قاضي غَرْناطة[1]، وكان فقيهًا بارع الأدب: إنه كتب إلى أبي نصر صاحب «القلائد» و«المطمح» أثناء رسالة بقوله: [الوافر]

تَفَتَّحَتِ الكتابةُ عن نسيمٍ ... نسيمُ المِسْكِ في خُلُقٍ كريمِ
أبا نصرٍ، رَسَمْتَ لها رسومًا ... تُخالُ رسومُها وَضَحَ النجومِ
وقد كانت عَفَتْ فأنرْتَ[2] منها ... سراجًا لاح في الليل البهيمِ
فَتَحْتَ من الصناعة كلَّ بابٍ ... فصارتْ[3] في طريقٍ مستقيمِ

(١) هو عبد اللّه بن أحمد بن إسماعيل بن عيسى ابن سِماك العاملي، يكنى أبا محمد، مالقي الأصل؛ كان فقيهًا أديبًا بارع الأدب، شاعرًا مطبوعًا. توفي سنة ٥٤٠ هـ. ترجمته وأبياته الميمية في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤١٠ ـ ٤١١).
(٢) في الإحاطة: «فأثَرْتَ».
(٣) في الإحاطة: «فسارَتْ».

فكُتَّابُ الزمانِ ولستَ منهم إذا راموا مَرامَكَ في هُمُوم
فما قُسٌّ بأبدع منكَ لفظًا ولا سَحْبانُ مثلك في العلوم[1]

وقال الذهبي، وقد جرى ذكر محمد بن الحسن المذحجي الأندلسي بن الكتاني: إنه أديب شاعر متفنن ذو تصانيف، حمل عنه ابن حزم، ومن شعره: [الطويل]

ألَا قد هَجَرْنا الهَجْرَ واتّصل الوَصْلُ وبانتْ ليالي البينِ واجتمعَ الشَّمْلُ
فسعدى نديمي، والمُدامة ريقُها، ووجنتُها روضي، وتقبيلُها النَّقْلُ[2]

وقال العلامة محمد بن عبد الرحمن الغرناطي: [الكامل]

الشعبُ ثمَّ قبيلةٌ وعمارةٌ بَطْنٌ وفَخْذٌ والفصيلةُ تابعَهْ
فالشعبُ مجتمعُ القبيلةِ كلِّها ثم القبيلةُ للعمارةِ جامِعَهْ
والبطنُ تجمعُهُ العمائرُ فاعْلَمَنْ والفخذُ تجمعه البطونُ الواسعَهْ
والفخذُ يجمع للفصائل هَاكَها جاءت على نَسَقٍ لها متتابعَهْ
فخزيمةٌ شعبٌ، وإنَّ كنانةً لقبيلةٌ منها الفصائلُ شائعَهْ
وقُرَيْشُها تُسْمى العمارةَ يا فتى وقُصيٌّ بطنٌ للأعادي قامعَهْ
ذا هاشم فخذٌ وذا عبّاسها أثَرَ الفصيلةِ لا تُناطُ بسابعَهْ

وكتبتُ هذه الأبيات وإن لم تشتمل على بلاغة؛ لِمَا فيها من الفائدة، ولأنَّ بعض الناس سألني فيها لغرابتها، والأعمال بالنيّات.

ولَمَّا دخل أبو محمد الكلاعي الجياني على القاضي ابن رشد قام له فأنشده أبو محمد بديهة: [مخلع البسيط]

قامَ ليَ السيدُ الهمامُ قاضي قضاة الوَرَى الإمامُ
فقلتُ قُمْ بي، ولا تقمْ لي فقلَّما يُؤكَلُ القيامُ

---

(١) قس: هو قس بن ساعدة الإيادي، وسحبان: هو سحبان وائل، وقس وسحبان مضربا المثل في الفصاحة.

(٢) النَّقْلُ: ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب. محيط المحيط (نقل).

وقال أبو عبد الرحمن بن جحاف [1] البَلَنْسي: [الوافر]

لئن كان الزمانُ أراد حطِّي ... وحار بني بأنياب وظُفْرِ
كفاني أنْ تُصافِيَني المعالي ... وإن عاديتِني يا أمَّ دَفْرِ
فما اعتزَّ اللئيمُ وإنْ تسامى ... ولا هانَ الكريمُ بغير وَفْرِ

وقال أبو محمد بن برطلة: [الطويل]

ألَا إنما سيفُ الفتى صِنْوُ نَفْسِهِ ... فنافِسْ بأوفى ذِمَّةٍ وإخاءِ
يزينُكَ مَرْأى أو يعينك حاجةً ... فيحسنُ حالَيْ شدَّةٍ ورخاء

وقال أيضًا: [الطويل]

أنفسيَ، صبرًا لا يَرُوعُكِ حادثٌ ... بإرتاجه [2]، واستشعري عاجل الفتحِ
فربَّ اشتدادٍ في الخطوبِ لفرجةٍ ... كما آنشقّ ليلٌ طالَ عن فَلَقِ الصبحِ

وقال أيضًا: [الوافر]

متى يدنو لوَعْدِكُمُ انتجازُ ... ويبعدُ عن حقيقته المجازُ
أيجملُ أن يؤمّكُمُ رجائي ... فيوقفَ لا يُردُّ ولا يُجازُ
وجدكُمُ كفيلٌ بالأماني ... ومطلوبي قريبٌ مستجازُ
إذا ما أمكَنَتْ فُرَصُ المساعي ... فعجزٌ أن يُطاولها انتهازُ
وها أنا قد هززتكم حُسامًا ... ويحسنُ للمهنّدةِ اهتزازُ
فما الإنصافُ أن يُنْضَى كَهامٌ ... ويودعَ غمدَه العضبُ الْجُرَازُ
كما نعم العراقُ بعذبِ بحرٍ ... ويَشْقَى بالظما البرحِ الحجازُ
فأعيى الناسِ في المقدار حلمٌ [3] ... تَجاذَبَه خمولٌ واعتزازُ

وأنشد الشيخ أبو بكر بن حبيش لابن وضاح البيت المشهور، وهو: [البسيط]

أسْرَى وأَسْيَرُ في الآفاق مِنْ قمرٍ ... ومِنْ نسيمٍ ومِنْ طيفٍ ومِنْ مَثَلِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٨٨): «حجاف».
(٢) الإرتاج: الإغلاق المحكم. لسان العرب (رتج).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣١٠): «حُكْمٌ».

وابن حبيش المذكور هو أبو بكر محمد بن الحسن بن يوسف بن حَبيش ـ بفتح الحاء ـ وقد عرّف به تلميذه ابن رشيد الفهري في رحلته، فقال بعد كلام[1]: أمّا النظم فبيده عِنانُه، وأمّا النثرُ فإن مال إليه توكَّفَ له بنانه[2]، مع تواضع زائد، على صلة مخبره عائد، لقيته بمنزله ليوم أو يومين من مقدمي على تونس، فتلقى بكلّ فنّ يونس، وصادفته بحالة مرض، من وثءٍ[3] في رجله عرض، وعنده جملة من العُوّاد، من الصدور الأمجاد، فأدنى وقرّب، وسَهَّل ورَحَّب، وتفاوض أولئك الصدور، في فنون من الأدب كأنها الشذور، إلى أن خاضوا في الأحاجي، واستضاءوا بأنوار أفكارهم في تلك الدَّيَاجي، فخضت معهم في الحديث، وأنشدتهم بيتين كنت صنعتهما وأنا حديث، لقصة بلغتني عن أبي الحسن سَهْل بن مالك، وهي أنه كان يسائل أصحابه وهو في المكتب ويقول لهم: أخرجوا اسمي، فكلٌّ ينطق على تقديره، فيقول لهم: إنكم لم تصيبوه مع أنه سهل، فنظمت هذا المعنى فقلت: [الوافر]

وما اسمٌ فَكُّهُ سهلٌ يسيرُ ... يكونُ مصغَّرًا نجمًا[4] يسيرُ
مُصَحَّفُهُ[5] له في العَيْن حُسْنٌ ... وقلبي عند صاحبِهِ أسيرُ

وكان الشيخ أبو بكر على فراشه، فزحف مع ما به من ألم، إلى محبرة وطِرْس وقلم، وكتب البيتين بخطّه، وقال للحاضرين: ارووا هذين البيتين عن قائلهما.

ومن شيوخ ابن حَبيش المذكور أبو عبد اللّه بن عسكر المالقيّ، كتب له ولأخيه أبي الحسين بخطّه إجازة جميع ما يجوز له، وعنه، وضمّن آخرها هذه الأبيات: [الطويل]

أَجَبْتُكُما لكن مُقِرًّا بأنني ... أُقَصِّرُ فيما رمتُما عن مَدَاكما
فإنكما بَدْرانِ في العِلْمِ أشرقا ... فسلَّم إذعانًا وقَسْرًا عِداكما
فسيروا على حُكْمِ الودادِ فإنني ... أَجُودُ بنفسي أن تكونَ فداكما

قال ابن رشيد: وقد جمع صاحبنا أبو العباس الأشعري لابن حَبيش فهرسة جامعة ولَمّا وقف عليها ابن حبيش كتب في أوّلها ما نصُّه: الحمد للّه حقّ حمده، أحسن هذا الفاضل

---

(١) ملء العيبة في ما جمع في الرحلة بطول الغيبة (رحلة ابن رشيد السبتي) (رقم ١٧٣٦).
(٢) في رحلة ابن رشيد وطبعة دار صادر: «عنانه».
(٣) في رحلة ابن رشيد: «من ألم». والوثء: مرض يصيب اللحم لا يبلغ العظم. لسان العرب (وثا).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٩٠): «نجمٌ».
(٥) مصحّفه: شَهْل، والشهل هو الأزرق العينين. القاموس المحيط (شهل).

فيما صنع أحسن اللّٰه إليه، وبالغ فيما جمع بَلَغَ اللّٰه تعالى به أشرف المراتب لديه، غير أني أقول واحدة، ما سريرتي لها بجاحدة[1]، وأصرح بمقال، لا يسعني كَتْمُه بحال: واللّٰه ما أنا للإجازة بأهل، ولا مَرَامُها لديَّ بسهل، إذ من شرط المجيز أن يعد فيمن كمل، ويُعِد العلم والعمل، اللهم غَفْرًا، كيف يُنِيل من عدم وَفْرًا، أو يجيز من أصبح صدره من المعارف قَفْرًا، وصحيفته من الصالحات صِفْرًا، وكيف يرتسم في ديوان الجلَّة، من يَتَّسم بالأفعال المخلّة، ومتى يقترن الشَّبَه بالإبريز، أو يوصف السكيت بالتبريز، ومن ضعف النُّهى، مجانسة الأقمار بالسُّها، ومن أعظم التوبيخ، تشييخ من لا يصلح للتشييخ، وإن هذا المجموع لَيَرُوق ويُعْجب، ولكنه جمع لمن لا يستوجب، وإنّ القراءة قد تحصَّلت، ولكن القواعد ما تأصَّلت، وإنّ القارىء عَلَم، ولكن المقروء عليه عَدَم، ولقد شكرت لهذا السَّرِيِّ ما جَلَب، وكتبت مسعفًا له بما طلب، وقرنت إلى دُرِّه هذا المَخْشَلَب[2]، قلت وحليي عطل ونطقي خطل، مُكره أخاك[3] لا بَطَل، واللّٰه سبحانه وتعالى ينفع بما أخلص له عند الاعتقاد، ويسمح للبَهْرَج عند الانتقاد، كتبه العبد المذنب [المستغفر][4] محمد بن الحسن بن يوسف بن حبيش اللخمي حامدًا للّٰه تعالى ومصلّيًا على نبيّه الكريم المصطفى وعلى آله أعلام الطهارة والهدى ومسلِّمًا تسليمًا.

وكتب أيضًا، رحمه اللّٰه تعالى، في جواب استجازة: المسؤول، مبذول، إن شاء اللّٰه تعال على التنجيز، ولكن شروط الإجازة موجودة في المُجَاز معدومة في المُجِيز، واللّٰه تعالى يصفح بكرمه ومَنِّه، ويشكر كل فاضل على تحسين[5] ظنه، وهو المسؤول سبحانه أن يحفظ بعنايته مُهَجَاتهم، ويرفع بالعلم والعمل درجاتهم، ويمتعهم بالكمال الرائق المعجب، ويقرّ بالنجيبين عين المنجب، وكتبه ابن حبيش. انتهى[6].

---

(١) في رحلة ابن رشيد: «جاحدة».

(٢) المَخْشَلَب: قطع الزجاج المتكسّر، وقيل الخزف، وخرز أبيض يشبه الدُّرَّ، ومنه قول المتنبي: (البسيط]

بياضُ وَجْهٍ يُريكَ الشمسَ حالكةً ... ودُرُّ لفظٍ يريك الدُّرَّ مَخْشَلَبا

محيط المحيط (خشلب) والعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٩٣).

(٣) في رحلة ابن رشيد: «أخوك».

(٤) كلمة «المستغفر» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٩١).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣١٣): «تحصيل».

(٦) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٩٢).

وقال الوزير الكاتب أبو بكر بن القَبْطُرْنة يستجدي بازيًا من المنصور بن الأفطس صاحب بَطَلْيَوْسَ: [الكامل]

يا أيها الملك الذي آباؤه ... شُمُّ الأنوفِ من الطراز الأوّلِ
حلَّيت بالنِّعَمِ الجسام جسيمةً ... عنقي فحلِّ يَدِي كذاك بأجدلِ[1]
وامننْ به صافي الجناح كأنما ... جُذِبَتْ[2] قوائمه بريح شمأل
متلفتًا والطَّلُّ ينشرُ بُرْدَه ... منه على مثل اليماني المحمّل[3]
أغدو به عجبًا أُصَرِّفُ في يدي ... ريحًا وآخذُ مطلقًا بمكَبَّلِ

وأُدْخِلَتْ على المعتمد يومًا باكورة نرجس، فكتب إلى ابن عمار يستدعيه: [مخلع البسيط]

قد زارنا النرجسُ الذكيُّ ... وآن من يومنا العشيُّ
وعندنا[4] مجلس أنيقٌ ... وقد ظمئنا وفيه رِيُّ
ولي خليل غدا سَمِيِّي ... يا ليته ساعَدَ السُّميُّ

فأجابه ابن عمار: [مخلع البسيط]

لَبَّيْكَ لبيك من مُنَادٍ ... له النَّدى الرحْبُ والنديُّ[5]
ها أنا بالبابِ عبد قنّ ... قِبْلَتُهُ وَجْهُكَ السنيُّ
شَرَّفَهُ والداه باسْمٍ ... شَرَّفْتَهُ أنتَ والنبيُّ

واصطبح المعتمد يوم غَيْم مع أم الربيع، واحتجب عن الندماء، فكتب إليه ابن عمار: [الطويل]

تَجَهَّمَ وَجْهُ الأُفْقِ واعتلَّتِ النَّفْسُ ... لأنْ لم تَلُح للعين أنتَ ولا شَمْسُ
فإن كان هذا منكما مِنْ تَوَافُقٍ ... وضمَّكما أنسٌ فيهنيكما الأُنْسُ

---

(١) الأجدل: الصقر، والجمع أجادل. محيط المحيط (جدل).
(٢) في طبعة دار صادر: «حُذِيَتْ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «المخمل» بالخاء المعجمة.
(٤) في طبعة دار صادر: «ونحن في مجلس..».
(٥) النديُّ: النادي. محيط المحيط (ندا).

فأجابه المعتمد بقوله: [الطويل]

خليليَّ، قُولاَ هل عَلَيَّ مَلامَةٌ ... إذا لم أغِبْ إلَّا لتحضرني الشمسُ
وأهدي بأكواس المُدَام كواكبًا ... إذا أبْصَرَتْها العينُ هَشَّتْ لها النفسُ
سلامٌ سلامٌ أنتما الأنس كلّه ... وإنْ غبْتما أمُّ الربيع هي الأُنْسُ

واستدعى جماعة من إخوان ابن عمار منه شرابًا في موضع هو فيه مفقود، فبعث لهم به وبرمّانتين وتفّاحتين، وكتب لهم مع ذلك: [الوافر]

خُذاها مثل ما استدعيْتُماها ... عروسًا لا تُزَفُّ إلى اللئامِ
ودونكما بها ثَدْيَيْ فتاةٍ ... أضَفْتُ إليهما خَدَّيْ غلامِ

وشرب ذو الوزارتين القائد أبو عيسى بن لَبُّون مع الوزراء والكتّاب ببَطْحاء لورَقَةَ عند أخيه، وابن اليسع غائب، فكتب إليه[1]: [البسيط]

لو كنتَ تَشْهَدُ يا هذا عَشِيَّتَنا ... والمُزْنُ يسكن أحيانًا وينحدرُ
والأرضُ مُصْفَرَّةٌ بالمُزْنِ طافية ... أبْصَرْتَ دُرًّا عليه التِّبْرُ ينتشرُ

وقال الحجاري من القصيدة المشهورة: [الوافر]

عليك أحَالَني الذِّكْرُ الجميلُ

في وصف زيّه البدوي المستثقل وما في طيّه: [الوافر]

ومثْلني بِدَنٍّ فيه خمرٌ ... يَخِفُّ به ومَنْظَرُهُ ثَقِيلُ

ولَمّا انصرف عن ابن سعيد إلى ابن هود عذله ابن سعيد على تحوّله عنه، فقال: النفس توّاقة، وما لي بغير التغرّب طاقة، ثم قال: [الطويل]

يقولون لي ماذا المَلال تقيمُ في ... محلٍّ فعند الأنس تذهب راحلا
فقلتُ لهم مثلَ الحَمام إذا شدا ... على غُصُنٍ أمسى بآخر نازلا

وقد رأيت أن أكفر ما تقدّم ذكره من الهزل الذي أتينا به على سبيل الإحماض بما لا بُدَّ منه من الحِكم والمواعظ وما يناسبها. فنقول:

---

(١) البيتان في قلائد العقيان (ص ١٠٠) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ١٦٩) والمغرب (جـ ٢ ص ٣٧٧) ببعض الاختلاف عمّا هنا، وتقدما في الجزء الثاني ببعض الاختلاف أيضًا.

قال أبو العباس ابن الخليل[1]: [الكامل]

فَهِمُوا إشاراتِ الحبيبِ فهامُوا ... وأقام أمْرَهُمُ الرشادُ فقاموا
وتوسّموا بمدامع منهلّة ... تحت الدياجي والأنامُ نيامُ
وتلوا من الذكر الحكيم جوامعًا ... جُمعت لها الألبابُ والأفهامُ
يا صاحِ، لو أبصرتَ ليلهمُ وقد ... صَفَتِ القلوبُ وصُفَّتِ الأقدامُ
لرأيت نورَ هداية قد حَفَّهم ... فسرى السرور وأشرق الإظلامُ
فهمُ العبيدُ الخادمون مليكهم ... نعم العبيدُ وأفلح الخدّامُ
سلموا من الآفات لَمّا استسلموا ... فعليهمُ حتى المماتِ سلامُ

وقال العالم الكبير الشهير صاحب التآليف أبو محمد عبد الحق الإشبيلي رحمه الله تعالى: [البسيط]

قالوا صِفِ الموتَ يا هذا وشِدَّتَهُ ... فقلتُ وامتدَّ منِّي عندها الصوتُ
يكفيكم منه أنَّ الناسَ إنْ وصفوا ... أمرًا يُرَوِّعهم قالوا هو الموتُ

وقال الخطيب الأستاذ أبو عبد الله محمد بن صالح الكناني الشاطبي نزيل بَجَاية: [الوافر]

جَعَلْتُ كتابَ ربِّي لي بِضاعَهْ ... فكيف أخافُ فقرا أو إضاعَهْ
وأعددتُ القناعة رأس مال ... وهل شيء أعزُّ من القناعه

وقال القاضي الكبير الأستاذ الشهير أبو العباس أحمد بن الغماز البَلَنْسي نزيل إفريقية[2]: [الطويل]

هو الموتُ فاحْذَرْ أن يجيئك بغتةً ... وأنتَ على سوء من الفعل عاكفُ
وإياك أن تمضي من الدهر ساعةٌ ... ولا لحظة إلاَّ وقَلْبُكَ واجفُ
وبادرْ بأعمالٍ تسرّك أن تُرَى ... إذا نُشِرَتْ يوم الحساب الصحائفُ
ولا تيأسَنْ من رحمةِ اللّهِ إنه ... لِرَبِّ العبادِ بالعباد لطائفُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣١٥): «ابن خليل».
(٢) سترد هذه الأبيات بعد قليل باختلاف يسير عمّا هنا.

وقال رحمه اللّٰه تعالى: [المتقارب]

أَمَا آن للنفس أن تخشعا ... أما آن للقلب أن يقلعا
أَليس الثمانون قد أقبلتْ ... فلم تُبْقِ في لذّة مطمعا
تَقَضًّى الزمانُ ولا مطمعٌ ... لما قد مضى منه أن يرجعا
تَقَضًّى الزمانُ فواحسرتي ... لما فاتَ منه وما ضُيِّعَا
ويا ويلتاه لذي شيبة ... يطيعُ هوى النفس فيما دعا
وبُعْدًا وسحقًا له إذ غَدًا ... يسمع وعظًا ولن يسمعا

وقال الأستاذ الزاهد أبو إسحٰق الإلبيري الغَرْنَاطي رحمه اللّٰه تعالى[1]: [الكامل]

كل امرىء فيما يدين يُدَانُ ... سبحان من لم يَخْلُ منه مكانُ
يا عامر الدنيا ليسكنها وما ... هي بالتي يبقى بها سكان
تفنى وتبقى الأرضُ بعدك مثل ما ... يبقى المناخُ ويرحل[2] الركبان
أأُسرُّ في الدنيا بكلِّ زيادة ... وزيادتي فيها هي النقصان

وقال أيضًا رحمه اللّٰه تعالى[3]: [المنسرح]

وذي غنى أَوْهَمَتْهُ هِمَّتُهُ ... أنَّ الغنى عنه غير منفصلِ
يجرُّ أذيال عُجْبِهِ بطرًا ... واختال للكبرياء في الحللِ
بَزَّتْه أيدي الخطوب بِزَّتَهُ ... فاعتاض بعد الجديد بالسملِ
فلا تثقْ بالغنى فآفتُهُ الـ ... ـفَقْرُ وصرفُ الزمان ذو دُوَلِ
كفى بنيل الكفاف عنه غنى ... فكن به فيه غيرَ محتفلِ

وقال رحمه اللّٰه تعالى[4]: [الكامل]

لا شيء أخسر صَفْقَةً من عالم ... لعبتْ به الدنيا مع الجهّالِ
فَغَدَا يفرّق دينه أيْدِي سَبَا ... ويذيله حرصًا لجمعِ المالِ

---

(١) ديوان أبي إسحٰق الإلبيري (القطعة ٣٥ في الملحق).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣١٧): «وترحل».

(٣) ديوان أبي إسحٰق الإلبيري (القطعة رقم ٣٤).

(٤) ديوان أبي إسحٰق الإلبيري (ص ٨١)، وتقدمت الأبيات في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

لا خيرَ في كسب الحرام، وقلّما ... يُرْجَى الخلاص لكاسبٍ لحلال
فخذ الكفاف ولا تكن ذا فضلة ... فالفضلُ تُسْأَلُ عنه أيّ سؤالِ

وقال رحمه اللّه تعالى[1]: [الكامل]

الشيبُ نَبَّهَ ذا النُّهَى فتنبَّها ... ونهى الجهولَ فما استقامَ ولا انتهى
فإلى متى ألهو وأُخْدَعُ بالمنى ... والشيخُ أقبحُ ما يكونُ إذا لها
ما حُسْنُهُ إلاَّ التُّقى لا أن يُرى ... صَبًّا بألحاظِ الجآذر والمَهَا
أنّى يقاتل وهو مفلول الشَّبَا ... كابي الجواد إذا استقل تأوَّها
مَحَقَ الزمانُ هلالَه فكأنما ... أبقى له منه على قدر السُّها
فغدا حسيرًا يشتهي أنْ يُشْتَهى ... ولكم جرى طلق الجموح كما اشتهى
إنْ أنَّ أوّاهٌ وأجهشَ بالبُكا ... لذنوبه ضحكَ الجهولُ وقهقها
ليست تُنَبِّهُه العظاتُ ومثله ... في سنّه قد آنَ أنْ يَتَنَهْنَها[2]
فَقَدَ اللذّاتِ وزادَ غَيًّا بعدهم ... هلَّا تيقّظَ بعدهم وتنبّها
يا وَيْحَهُ ما بالُه لا ينتهي ... عن غيّه والعمرُ منه قد انتهى

وقال الأستاذ وليُّ اللّه سيدي أبو عبد اللّه ابن العريف[3]: [الكامل]

مَنْ لم يشافِهْ عالمًا بأصولِهِ ... فيقينُهُ في المشكلات ظنونُ
من أنكر الأشياءَ دون تيقُّنٍ ... وتثبُّتٍ فمعاندٌ مفتون
الكتبُ تذكرةٌ لمن هو عالم ... وصوابُها بمحالها معجون
والفكرُ غوّاصٌ عليها مخرجٌ ... والحقُّ فيها لؤلؤ مكنون

وقال أبو القاسم ابن الأبرش: [الخفيف]

أيأسوني لَمَّا تَعاظَمَ ذنبي ... أتراهُمْ هُمُ الغفورُ الرحيمُ
فَذَرُوني وماتعاظم منه ... إنما يغفرُ العظيمَ العظيمُ

---

(١) ديوان أبي إسحٰق الإلبيري (رقم ٨).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٩٧): «يتنبها».
(٣) سترد هذه الأبيات في الجزء الثامن ببعض التغيير عمّا هنا.

وقال أبو العباس ابن صقر الغرناطي أو المري، وأصله من سَرَقُسْطة[1]: [الكامل]

أَرْضِ العدوَّ بظاهرٍ مُتَصَنِّعٍ إنْ كنتَ مضطرًّا إلى استرضائِهِ
كم من فتًى أَلْقَى بوجهٍ باسم وجوانحي تَنْقَدُّ من بَغْضائِهِ

وقال الكاتب الشهير الشهيد أبو عبد اللّه محمد بن الأبار القُضَاعي البَلَنسي رحمه اللّه تعالى من أبيات: [الرمل]

يا شقيقَ النفسِ أُوْصيك وإنْ شقَّ في الإخلاص ما تنتهجُهْ
لا تبِتْ في كمدٍ من كبدٍ ربَّ ضيق عاد رحبًا مخرجُهْ[2]
وبلطف اللّهِ أَصْبِحْ واثقًا كلُّ كربٍ فعليه فرجهْ

ولابن الأبار المذكور ترجمة طويلة استوفيت منها ما أمكنني في «أزهار الرياض، في أخبار عياض، وما يناسبها مِمّا يحصل به للنفس ارتياح وللعقل ارتياض».

قال الغبريني في «عنوان الدراية»[3]: لو لم يكن له من الشعر إلاّ قصيدته السينية التي رفعها للأمير أبي زكريا، رحمه اللّه تعالى، يستنجده ويستصرخه لنصرة الأندلس لكان فيها كفاية، وإن كان قد نقدها ناقد، وطعن عليه فيها طاعن، ولكن كما قال أبو العلاء المعري: [الطويل]

تكلَّم بالقولِ المضللِ حاسدٌ وكلُّ كلامِ الحاسدينَ هواءُ[4]

ولو لم يكن له من التآليف إلاّ كتابه المسمّى بـ «معادن[5] اللجين، في مراثي الحسين» لكفاه في ارتفاع درجته، وعلوّ منصبه وسموّ رتبته.

ثم قال: توفي بتونس ضحوة يوم الثلاثاء الموفي عشرين لمحرم سنة ٦٥٨، ومولده آخر شهر ربيع سنة ٥٩٥ ببَلَنسية، رحمه اللّه تعالى وسامحه!، انتهى.

(١) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري؛ أصله من سرقسطة، ولد بالمرية، وولي القضاء بإشبيلية، وتوفي بمراكش سنة ٥٦٩ هـ. ترجمته وبيتاه في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٠٢).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «كيد» بالياء.

(٣) عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية (ص ١٨٥).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٢٠): «هراءُ».

(٥) في عنوان الدراية: «بكتاب اللجين..».

وقال ابن علوان: إنه يتّصل سنده بـه من طرق، منهـا من طريق الـراوية أبي عبـد اللّه محمـد بن جابـر القيسي الوادي آشي عن الشيـخ المقرىء المحـدّث المتبحّـر أبي عبـد اللّه محمـد بن حيان الأوسي الأنـدلسي نزيـل تونس عنـه، ومن طـريق والـدي صـاحب «عنـوان الدراية» عن الخطيب أبي عبد اللّه بن صالح عنه، انتهى.

قلت: وسنـدي إليه عن العمّ عن التنسي عن أبيـه عن ابن مرزوق عن جـدّه الخـطيب عن ابن جابر الوادي آشي به كما مَرَّ.

وقال ابن عبد ربه[1]: [البسيط]

بـادِرْ إلى التـوبـةِ الخَلْصـاء مجتـهـدًا ... والمـوتُ وَيْحَكَ لم يَمْـدُدْ إليـك يَـدَا
وارقُـبْ مـن اللّه وَعْـدًا ليس يُـخْلِفُـهُ ... لا بُـدَّ لـلّهِ مـنْ إنـجـازِ مـا وَعَـدَا

وقال الصدر أبو العلاء بن قاسم القيسي: [البسيط]

يـا واقـفَ البـابِ في رزقٍ يـؤمِّـلُه ... لا تـقـنـطنَّ فـإنَّ الـلّه فـاتـحُـهُ
إن قـدّر الـلّهُ رزقًـا أنتَ طـالـبُـهُ ... لا تـيـأسـنَّ فـإنَّ الـلّهَ مـانِـحُـهُ

وقال الأعمى التُّطيلي[2]: [البسيط]

تنـافَسَ النـاسُ في الـدنيـا وقـد علمـوا ... أنْ سـوف تَـقْـتُـلُهُمْ لـذاتُـهـا[3] بِـدَدَا
قُـلْ لـلمحـدِّثِ عـن لـقـمـانَ أو لُـبَـدٍ ... لـم يـتـركِ الـدهـرُ لـقـمـانًـا ولا لُـبَـدَا
ولـلذي هـمُّـهُ الـبُـنْـيـانُ يَـرْفَـعُـهُ ... إنَّ الـرَّدَى لـم يغـادر في الثـرى أحـدا[4]
مـا لابـنِ آدمَ لا تَـفْـنَـى مـطامـعُـه؟[5] ... يَـرْجُـو غـدًا وعـسى أن لا يـعيشَ غَـدَا

وقال أبو العباس التطيلي[6]: [البسيط]

والنـاسُ كـالنـاس إلاَّ أنْ تُجَـرِّبَهُـمْ ... ولـلبصـيـرةِ حُـكْـمٌ لـيس لـلبصـرِ

---

(١) ديوان ابن عبد ربه (ص ٥٠).

(٢) ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٧).

(٣) في الديوان: «لذّاتهم».

(٤) في الديوان: «في الثّرى أسدا».

(٥) في الديوان: «مَطالبه».

(٦) هو نفسه الأعمى التطيلي، وبيتاه في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٤٨).

كـالأيْـكِ مُشْتَبهـاتٌ في منـابـتهـا وإنمـا يقـعُ التفضيـلُ في الثمـر[1]

وقال القاضي أبو العباس بن الغماز البَلَنسي: [الكامل]

مـن كـان يَـعْـلَمُ لا مـحـالـة أنـه لا بـد أن يُـودِي وإنْ طـالَ الـمَـدَى
هـلَّا اسْتَعَـدَّ لِـمَـشْـهَـدٍ يـجـزي بـه مَـنْ قـد أعـدَّ من اهتـدى ومـن اعتـدى

وقال أيضًا[2]: [الطويل]

هـو المـوتُ فـاحـذرْ أن يجيئـك بغتـةً وأنتَ على سـوء من الفعـل عـاكفُ
وإيـاكَ أن تمضي من الـدهـر سـاعـةً ولا لـحـظة إلَّا وقَـلْبُـكَ واجـفُ
فـبـادرْ بـأعمـالٍ يسـرّك أن تُـرَى إذا طُـوِيَتْ يـومَ الحسـابِ الصحـائفُ
ولا تـيـأسَـنْ مـن رحـمـة الـلَّه إنـه لِـرَبِّ الـعِبـاد بـالـعبـاد لـطائـفُ

ولَمّـا استوزر باديسُ صاحبُ غَـرْنَاطـة اليهوديَّ الشهيـرَ بابن نَغْـدِلَةَ[3]، وأعضـل داؤه المسلمين، قال زاهد إلبيرة وغرناطة أبو إسحٰق الإلبيري قصيدته النونية المشهـورة التي منها في إغراء صنهاجة باليهود[4]: [المتقارب]

أَلَا قُـلْ لِـصِنْـهـاجَـةٍ أَجْمَـعِـيـنْ بُـدُورِ الـزمـانِ وأُسْـد العَـرِينْ
مـقـالـة ذي مِـقَـةٍ مُـشْـفِـقٍ صحيـح الـنصيحـة دنيـا وديـنْ
لـقـد زَلَّ سـيِّـدكُـمْ زَلَّـةً أَقَـرَّ بـهـا أعـيـنَ الـشـامتـيـنْ

---

(١) في الديوان: «بالثمر».

(٢) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء باختلاف يسير عمّا هنا.

(٣) هو يوسف بن إسماعيل بن يوسف بن نغدلة اليهودي. وقد اختلف الذين ترجموا لأبيه إسماعيل في رسم اسم شهرته؛ فأسماه ابن حزم ابن النغرال، ثم قال: ابن النغريلة. وذكره صاعد الأندلسي ابن الغزال. وجعله الأمير عبد اللّٰه وابن الخطيب ابن نغرالة. وكتبه ابن عذاري: نغزالة. وهو عند ابن خلدون: نعزلة. وأغلب الظن أن هذا التباين في رسم شهرته عائد إلى طبيعة النطق أو إلى تصحيف الناسخ أو المحقق أو المترجم. انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل (جـ ١ ص ١٥٢) ورسائل ابن حزم (جـ ٣ ص ٤١) وطبقات الأمم (ص ١٣٦) ومذكرات الأمير عبد اللّٰه (ص ٣٦) والإحاطة (جـ ١ ص ٤٣٤) وأعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٣٠) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٦٤) وتاريخ ابن خلدون (م ٤ ص ٣٤٦). وكان إسماعيل الوزير الأول في عهد حبوس بن ماكسن ابن زيري وولده باديس بن حبوس، وبوفاته عام ٤٤٨ هـ ارتقى ابنه يوسف إلى خطة الوزارة التي تبوأها أبوه.

(٤) ديوان أبي إسحٰق الإلبيري (ص ١٥١).

تَـخَـيَّـرَ كـاتِـبَـهُ كـافـرًا ولـو شـاء كـان مـن المـؤمـنـيـنْ
فَـعَـزَّ الـيـهـودُ بـه وانْـتَـمَـوْا وسـادوا وتـاهُـوا على المسلمين

وهي قصيدة طويلة، فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور، وعادة أهل الأندلس أنَّ الوزير هو الكاتب، فأراح اللَّهُ العباد والبلاد[1]، ببركة هذا الشيخ الذي نورُ الحَقِّ على كلامه باد.

وقال أبو الطاهر الجياني المشهور بابن أبي رَكْب، بفتح الراء وسكون الكاف[2]: [مجزوء الوافر]

يـقـول الـنـاسُ فـي مَـثَـلٍ تـذكَّـرْ غـائـبًـا تَـرَهُ
فمـا لـي لا أرى سـكـنـي[3] ولا أنـسـى تَـذَكُّـرَهُ

وكان[4] أبو الطاهر هذا في جملة من الطلبة، فمرّ بهم رجل معه محبرة آبنوس تأنَّقَ في حليتها واحتفل في عملها، فأراهم إياها، وقال: أُريد أن أقصد بها بعض الأكابر، وأُريد أن تتمموا احتفالي بأن تصنعوا لي بينكم أبيات شعر أقدّمها معها، فأطرق الجماعة، وقال أبو الطاهر: [الكامل]

وَافَتْـكَ من عُـدَدِ العُـلاَ زِنْجِيَّـةٌ فـي حلّةٍ مِنْ حِلْيـةٍ تَتَبَـخْـتَـرُ
صفـراءُ[5] سـوداءُ الحُليِّ كـأنها لـيـلٌ تُـطَرِّزُه نـجـومٌ تـزْهَـرُ

فلم يغب الرجل عنهم إلاَّ يسيرًا، وإذا به قد عاد إليهم، وفي يده قلم نحاس مذهب، فقال لهم: وهذا مِمّا أعددتُه للدفع مع هذه المحبرة، فتفضّلوا بإكمال الصنيعة عندي بذكره، فبدر أبو الطاهر وقال: [الكامل]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٢٢): «البلاد والعباد».
(٢) هو أبو الطاهر إسماعيل بن مسعود الخشني، ابن أبي ركب؛ من أهل جيان، أديب شاعر فاضل. ترجمته وبيتاه في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٧٥) والتكملة (ص ٨٥). وقد تقدم البيتان في الجزء الخامس.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٢٣): «وطني».
(٤) حكاية أبي الطاهر وشعره في المقتضب (ص ٧٦ ـ ٧٧).
(٥) في المقتضب: «سوداء صفراء..».

حُمِلَتْ بأصْفَرَ من نِجارِ حُلِيِّها   تخفيه أحيانًا وحينًا يَظْهَرُ[1]
خَرْسان[2] إلَّا حين يرضَعُ ثَدْيها   فتراه يَنْطِقُ ما يشاء ويَذْكُرُ

قال ابن الأبار في «تحفة القادم»[3]: وحضر يومًا في جماعة من أصحابه وفيهم أبو عبد اللَّه بن زرقون في عقب[4] شعبان في مكان، فلما تملأوا[5] من الطعام قال أبو الطاهر لابن زرقون: أجز يا أبا عبد اللَّه، وأنشد: [الطويل]

حَمِدْتُ لشعبانَ المبارَكِ شَبْعَةً   تُسَهِّلُ عندي الجُوْعَ في رمضانِ
كما حَمِدَ الصَّبُّ المتيَّمُ زَوْرَةً   تَحَمَّلَ فيها الهجرَ[6] طول زمانِ

فقال: [الطويل]

دَعَوْها بِشَعْبانية ولَوَ آنهم   دَعَوْها بِشَبْعانية لكفاني[7]

وقال أبو عبد اللَّه بن خميس الجزائري: [الوافر]

تَحَفَّظْ مِنْ لسانك، ليس شيء   أحقّ بطول سجن من لسانِ
وكُنْ للصمت ملتزمًا إذا ما   أردتَ سلامة في ذا الزمان

وقال أيضًا: [البسيط]

كُنْ حِلْسَ[8] بيتك مهما فتنةٌ ظَهَرَتْ   تخلص بدينك وافعلْ دائمًا حسنا
وإن ظُلِمْتَ فلا تحقدْ على أحد   إنَّ الضغائن فاعْلَمْ تنشىء الفتنا

وقال: [الوافر]

بَدَا لي أنَّ خيرَ الناس عيشًا   مَنَ آمنه الإلَهُ من الأنامِ
فليس لخائف عيشٌ لذيذٌ   ولو ملك العراق مع الشآم

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٠١): «تظهر».
(٢) في المقتضب: «خَرْصان».
(٣) المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٧٦ - ٧٧).
(٤) كلمة «عقب» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٠١).
(٥) تملأوا: امتلأوا، أي شبعوا.
(٦) في المقتضب: «الفجر».
(٧) في المقتضب: «لشفاني».
(٨) يقال: هو حِلْسُ بيته: أي لم يبرح مكانه، فيلازمه. محيط المحيط (حلس).

ولـــه: [الكامل]

جـــانبْ جميــعَ النـــاسِ تسلمْ منهـمُ　　　إنَّ الســـلامــة في مجــانبــة الــوَرَى
وإذا رأيــت مـن آمـرىء يـومـا أذى　　　لا تــجْــزِهِ أبــدًا بـمـا مـنـه تـرى

ولـــه: [مخلع البسيط]

مَـنْ أدَّبَ ابـنًـا لـه صـغـيـرًا　　　قَـرَّتْ بـه عـيـنُـه كـبـيـرَا
وأرغــم الأنـف مـن عـدوّ　　　يـحـسـدُ نـعـمـاءه كـثـيـرا

وقال أبو محمد بن هارون القرطبي: [الكامل]

بيــدِ الإلّــهِ مفــاتــحُ الــرزق الــذي　　　أبــوابُــهُ مـفـتـوحـةٌ لـم تُـغْـلَقِ
عـجبًـا لـذي فـقـرٍ يـكـلّف مـثـلـه　　　في الـوقت شيئًـا عنـده لـم يخلقِ

وقال أيضًا: [الطويل]

لعمــرك مــا الإنســان يــرزق نفســه　　　ولكنـمــا الــربّ الكــريـم يُسَخِّـرُه
ومــا بيــد المخلوق في الــرزق حيلة　　　تــقــدّمـه عــن وقـتـه أو تـؤخّـره

وقال الأديب الأستاذ أبو محمد بن صَارة رحمه اللّه تعالى[1]: [البسيط]

يــا مَنْ يُصيــخُ إلى داعي السَّفــاهِ[2] وقــد　　　نــادى بـه الـنـاعيــانِ: الـشيبُ والكِبَـرُ
إن كنتَ لا تـسمــعُ الــذِّكــرى فـفيـمَ ثَـوَى　　　في رأسِـك الـواعيـانِ: السمـعُ والبصـرُ
لــيس الأصَـمُّ ولا الأعـمـى سـوى رجـلٍ　　　لـم يَـهْـدِهِ الـهـاديـانِ: الـعـيـنُ والأثـر
لا الــدهــرُ يبقى ولا الـدنيـا ولا الـفلك الـ　　　أعـلى ولا الـنَّيِّـرَان: الـشـمسُ والـقـمـر
لَـيَـرْحَـلَنَّ عــن الـدنـيـا وإنْ كَـرِهَـا　　　فـراقهـا الثـاويـان[3]: البَـدْوُ والحَـضَـرُ

وقال رحمه اللّه تعالى في ابنة ماتت له[4]: [الوافر]

ألا يـا مــوتُ كـنـتَ بـنـا رؤوفًـا　　　فـجـدَّدْتَ الحيــاةَ لـنـا بـزورَهْ

---

(١) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٦٤) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ٩٤ ـ ٩٥).
(٢) في القلائد: «السقاة». والسَّفاه: الجهل.
(٣) في القلائد: «الشاويان».
(٤) الأبيات في قلائد العقيان (ص ٢٦٨).

حَمَادِ لفعلك المشكور لمّا كفيت مؤونةً وسترتَ عورهْ
فأنكحنا الضريح بلا صَداق وجهزنا الفتاةَ بغير شَوْرَهْ

وأنشد أبو عبد الله ابن الحاج البكري الغرناطي في بعض مجالسه قوله: [الرجز]

يا غاديًا في غفلة ورائحًا إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى كم لا تخافُ موقفًا يستنطق اللَّهُ به الجَوارحا
يا عَجَبًا منكَ وكنتَ مبصرًا كيف تجنَّبْتَ الطريقَ الواضحا
كيف تكون حين تقرا في غد صحيفةً قد ملئت فضائحا
أم كيف ترضى أن تكون خاسرًا يومَ يفوزُ من يكونُ رابحا

ومِمَّنْ روي عنه هذه الأبيات الكاتب الرئيس أبو الحسن بن الجياب، وتوفي ابن الحاج المذكور سنة ٧١٥ رحمه الله تعالى!

وقال حافظ الأندلس ومحدّثها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكُلاَعي رحمه الله تعالى(١): [الطويل]

إلهي مَضَتْ للعُمْرِ سبعون حِجّةً ولي حركاتٌ بعدها وسكونُ
فيا ليتَ شعري أين أو كيفَ أو متى يكون الذي لا بدَّ أن سيكونُ

والصواب أنهما لغيره كما ذكرته في غير هذا الموضع، وبالجملة فهما من كلام الأندلسيين، وإن لم يحقّق ناظمهما بالتعيين.

وقال أبو بكر يحيىٰ التطيلي رحمه الله تعالى: [الطويل]

إليكَ بَسَطْتُ الكَفَّ في فحمة الدُّجَى نداء غريق في الذنوب عريقِ
رجاكَ ضميري كي تخلِّص جملتي وكم من فريق شافعٍ لفريقِ

وحكي أنَّ بعض المغاربة كتب إلى الملك الكامل بن العادل بن أيوب رقعة في ورقة بيضاء، إن قرئت في ضوء السراج كانت فضّيّة، وإنِ قرئت في الشمس كانت ذهبيّة، وإن قرئت في الظل كانت حبرًا أسودَ، وفيها هذه الأبيات: [المتقارب]

لئن صَدَّني البحرُ عن موطني وعيني بأشواقها زاهرَهْ

---

(١) التكملة (ص ٤٩٦). وتقدم البيتان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

فـقـد زَخْـرَفَ الـلّهُ لـي مكـة بـأنـوار كـعـبـتِـهِ الـزاهـرَهْ
وزخـرفَ لـي بـالنبيِّ يثـربًـا وبـالملك الكـامـل القـاهـرَهْ

فقال الملك الكامل: قُلْ: [المتقارب]

وطـيِّب لـي بـالـنبي طيبـة وبـالملكِ الكـامـلِ القـاهـرَهْ

وأظنّ أنَّ المغربيّ أندلسي لقوله: لئن صدّني البحر عن موطني، فلذلك أدخلته في أخبار الأندلسيين[1] على غير تحقيق في ذلك، واللّه أعلم.

وأنشد أبو[2] الوليد المعروف بابن الخليع قال: أنشدنا أبو عمر بن عبد البر النمري الحافظ: [الطويل]

تَـذَكَّـرْتُ مَـنْ يـبـكي علـيّ مـداومًـا فـلم أُلْفِ إلاَّ الـعلم بـالـديـن والخبـرْ
عـلوم كـتـاب الـلّه والـسـنـن الـتـي أتتْ عن رسـول اللّه مـع صحـة الأثـرْ
وعـلم الألـى مـن نـاقـديـه وفـهـم مـا لـه اختلفـوا في العلم بـالـرأي والنـظرْ

وأنشد له أيضًا: [الطويل]

مـقـالـةُ ذي نصـحٍ وذات فـوائـد إذا مِنْ ذوي الألبـاب كـان استمـاعُهـا
عـليكُـم بـآثـارِ الـنـبـيّ فـإنـه مِنَ أفضـل أعمـالِ الـرشـاد اتِّبـاعُهـا

وقال أبو الحسن عبد الملك بن عياش الكاتب الأزدي اليابُرِي، وسكن أبوه قُرْطُبة[3]: [الطويل]

عصيتُ هـوى نفسي صغيـرًا وعنـدمـا رَمَتْني الليـالي بـالمشيب وبـالكبـرْ
أَطَعْتُ الهـوى، عكسَ القضيةِ ليتني خُلِقْتُ كبيـرًا وانـتقـلْتُ إلى الـصغـرْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٢٧): «الأندلسيين ولست على تحقيق ويقين، واللّه أعلم».
(٢) في طبعة دار صادر: «ابن الوليد».
(٣) أبو الحسن عبد الملك بن عياش الأزدي قرطبي، وأصل سلفه من يابرة، كان أديبًا بليغًا شاعرًا مجيدًا. توفي سنة ٥٦٨ هـ. ترجمته في التكملة (رقم ١٧٢١) والذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٢٦). وبيتاه في المصدر الأخير (ص ٢٨).

وقيل: إن ابنه أبا الحسن علي بن عبد الملك قال بيتًا مفردًا في معنى ذلك، وهو[1]: [الطويل]

هنيئًا له إذ لم يكن كابنه الذي أطاعَ الهوى في حالتيه وما اعتبرْ[2]

وقيل: إن هذا البيت رابع أربعة أبيات.

وقال أبو إسحٰق بن خَفاجة لَمّا اجتمع به أبو العرب[3] وسأله عن حاله وقد بلغ في عمره إحدى وثمانين سنة، فأنشده لنفسه[4]: [الرمل]

أيُّ عيشٍ أو غذاء أو سِنَهْ لابن إحدى وثمانين سَنَهْ
قَلَّصَ الشَّيْبُ به ظِلَّ امرئٍ طالما جَرَّ صِباهُ رَسَنَهْ
تارة تسطو به سيئةٌ تُسْخِنُ العينَ وأخرى حَسَنَهْ

وقال أبو محمد عبد الوهاب بن محمد القَيْسي المالقي: [السريع]

الموتُ حَصّادٌ بلا منجلِ يسطو على القاطن والمنجلي
لا يقبلُ العذرَ على حالة ما كان من مشكل أو مِنْ جَلي

وقال الشيخ عبد الحق الإشبيلي الأزدي صاحبُ كتابي[5] «العاقبة» و«الإحكام» وغيرهما: [الخفيف]

إنَّ في الموت والمعاد لَشُغْلاً وادكارًا لِذي النُّهى وبلاغا
فاغتنمْ خطّتين قبل المنايا صحةَ الجسم يا أخي والفراغا

(١) البيت رابع أربعة أبيات في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٢٨).
(٢) في الذيل والتكملة: «إن لم يكن... في الحالتين وما ائتمرْ».
(٣) هو أبو العرب عبد الوهاب بن محمد التجيبي البلنسي، كما في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٦٨).
(٤) الأبيات في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٦٨) وبغية الملتمس (ص ٢١٧)، وديوان ابن خفاجة طبعة دار المعارف (ص ٣٥٥) وهي لم ترد في الديوان طبعة دار بيروت. وفي روايتها بعض اختلاف عمّا هنا.
(٥) في أصول النفح: «كتاب».

وقال أبو الفضل عبد المنعم بن عمر بن عبد اللّه بن حسان الغساني، من أهل جليانة من عمل وادي آش[1]: [الطويل]

أَلَا إنما الدنيا بحارٌ تلاطمتْ ... فما أكثر الغَرْقَى على الجَنَبَاتِ
وأكثرُ مَنْ[2] صاحبْتُ يُغْرِقُ إلْفَهُ ... وقَلَّ فَتًى يُنْجِي من الغَمَرَاتِ

وكان المذكور من أهل العلم والأدب، رحل وحجّ وتجوّل في البلاد، ونزل القاهرة المعزية، وكان أحد السياحين في الأرض، وله تآليف منها «جامع أنماط الوسائل، في القريض والخطب والرسائل» وأكثره نظمه ونثره، رحمه اللّه تعالى!.

وقال عبد العليم بن عبد الملك بن حبيب القُضَاعي الطُّرْطُوشي: [الطويل]

وما الناسُ إلّا كالصحائف عبرة[3] ... وألسنهم إلّا كمثل التراجمِ
إذا اشتجر الخصمان في فطنة الفتى ... فمقوله في ذاك أعدلُ حاكمِ

وقال أبو الحكم عبد المحسن البَلَنْسي: [البسيط]

مَنْ كان للدهر خِدْنًا في تصرّفه ... أبدت له صَفْحَةُ الدهر الأعاجيبا
من كان خلوًا من الآداب سَرْبله ... مَرُّ الليالي على الأيام تأديبا

وقال أبو حاتم عمر بن محمد بن فرج، من أهل مِيرْتُلَةَ، مدينةٍ بغرب الأندلس، يمدح «شهاب» القضاعي: [الكامل]

شُهُبُ السماء ضياؤها مستورُ ... عنّا إذا أَفَلَتْ توارى النُّورُ
فانزعْ، هُدِيتَ، إلى شهاب نورُهُ ... متألّقٌ آماله تبصيرُ
تشفي جواهره القلوبَ من العمى ... ولطالما انشرحتْ بهنَّ صدورُ
فإذا أتى فيه حديثُ محمد ... خُذْ في الصلاة عليه يا مغرور
وتَرَحَّمَنَّ على القُضاعيِّ الذي ... وضع الشهاب فَسَعْيُهُ مشكورُ

---

(١) البيتان في الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٥٧)، وقد تقدّما في الجزء الثالث من نفح الطيب.
(٢) في الذيل والتكملة: «وأكثر ما لاقيتُ».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٢٩): «كالصحائف غيّرت».

وقال الأستاذ أبو محمد غانم بن الوليد[1] المخزومي المالقي: [السريع]

ثلاثةٌ يُجْهَلُ مِقْدارُها ... الأَمْنُ والصِّحَّةُ والقُوتُ
فلا تَثِقْ بالمال من غيرها ... لو أنه دُرٌّ وياقوتُ

وتذكَّرْتُ بهذا قول الآخر: [الهزج]

إذا ما[2] القوتُ يأتي لـ ... ـك والصِّحَّةُ والأمنُ
وأصبحتَ أخا حزنٍ ... فلا فارقكَ الحزنُ

وكلُّ ذلك أصله الحديث النبوي [على صاحبه أفضل الصلاة وأزكى التسليم فإنه قال][3]: «من أصبح آمنًا في سربه، مُعَافًى في بدنه، معه قوتُ يومه، فكأنما سِيقت له الدنيا بحَذَافيرها».

وأخبرنا شيخنا القصار أبو عبد الله محمد بن قاسم القيسي مفتي مدينة فاس وخطيبها سنة عشر وألف، قال: حدّثنا شيخنا أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل التونسي نزيل فاس الشهير بخروف [قال][3]، حدّثنا الإمام سيدي فرج الشريف الطحطحائي[4]، قال: سمعت النبي، ﷺ، في النوم يقول: «من أصبح آمنًا في سربه ـ الحديث».

رجع:

وقال الأستاذ العارف بالله سيدي أبو العباس أحمد بن العريف الأندلسي دفين مراكش، وقد زرت قبره بها سنة ١٠١٠[5]: [الوافر]

إذا نَزَلَتْ بساحتك الرزايا ... فلا تجزعْ لها جزعَ الصَّبِيِّ
فإنَّ لكلِّ نازلةٍ عَزاءً ... بما قد كان من فَقْدِ النبيِّ

وقال رحمه الله تعالى[6]: [البسيط]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٣٠): «وليد».
(٢) في الطبعة نفسها: «إذا القوت تأتّى . . ».
(٣) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٠٧).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٣١): «الطحطاوي».
(٥) البيتان في المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ٧٠).
(٦) الأبيات في بغية الملتمس (ص ١٦٦) عدا البيت الثالث.

شَدُّوا الرحالَ[1] وقد نالوا المُنَى بِمِنًى وكلُّهُمْ بأليمِ الشَّوقِ قد باحا
راحتْ ركائبُهُمْ[2] تَنْدَى روائِحُها طِيبًا بما طابَ ذاكَ الوفدُ أشباحا
نسيمُ قَبْرِ النبيِّ المصطفى لهمُ راحٌ إذا سكروا من أجله فاحا
يا راحلينَ[3] إلى المختار من مُضَرٍ زُرْتُمْ جُسُومًا وزُرْنا نحن أرواحا
إنّا أقمْنا على شوقٍ وعن قدرٍ ومَنْ أقامَ على عذر كمن راحا

وقال أبو محمد المحاربي: [مجزوء الكامل]

داءُ الزمانِ وأهلِهِ داءٌ يَعِزُّ له العلاجُ
أطلعت في ظلمائه رأيًا كما سطع السراجُ
لمعاشرٍ أعْيا ثِقَا في من قَنَاتهم اعوجاجُ
كالدُّرِّ ما لم تختبر فإذا اختبرت فهم زجاجُ

وقال أبو عبد اللّه غربيب[4] الثقفي القرطبي: [الوافر]

يُهَدِّدُني[5] بمخلوقٍ ضعيف يَهابُ من المنيّة ما أهابُ
له أجلٌ ولي أجلٌ وكلٌّ سَيَبْلُغُ حيثُ يَبْلُغُهُ الكِتابُ
وما يدري[6] لعلَّ الموتَ منه قريبٌ أيُّنا قَبْلُ المصابُ

وله: [الرمل]

أيها الآمِلُ ما ليس له طالما غرَّ جَهُولاً أملُهْ
ربما[7] باتَ يُمَنِّي نفسه خانه دون مُناه أجلُهْ

---

(١) في بغية الملتمس: «الركاب».
(٢) في البغية: «ركابهم».
(٣) في البغية: «يا واصلين».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٠٨): «غريب». وهو غربيب بن عبد اللّه الطليطلي، شاعر قديم مشهور في الفضل والخير. ترجمته في جذوة المقتبس (ص ٣٢٦) وبغية الملتمس (ص ٤٤٢) والمغرب (جـ ٢ ص ٢٣ ـ ٢٤) والقطعة الأولى في المصادر المذكورة.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٠٨): «تهددني».
(٦) في جذوة المقتبس: «وما ندري».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٣٢): «ربَّ مَنْ بات...».

وفـتًى بَـكَّـرَ فـي حـاجـاتـه		عـاجـلًا أعقب رَيْثًـا عـجـلَهْ
قُـلْ لـمـن مثَّـل فـي أشـعـارِهِ		يَـذْهَـبُ الـمـرءُ ويـبـقـى مثـلَهْ
نـافِسِ المحسن في إحسـانـه		فـسـيـكـفـيـك مـسيئًـا عـمـلَهْ

قال ابن الأبار: وهذا البيت الأخير في برنامج الطبني.

وقال أبو الحسين سليمان بن الطراوة النحوي المالقي[1]: [الوافر]

وقـائـلةٍ أتـصـبـو[2] لـلغـوانـي		وقـد أضحى بِمَفْـرِقِـكَ الـنهـارُ
فقلتُ لهـا: حشتِ على التصـابي		(أحقُّ الخيـلِ بـالـركضِ المعـارُ)

وقال الحافظ أبو الربيع بن سالم: [الطويل]

إذا بَـرِمَـتْ نفسي بـحـالٍ أحلْتُـهـا		عـلى أمـلٍ نـاءٍ فَقَـرَّتْ بـه الـنفسُ
وأُنْـزِلَ أرجـاءَ الـرجـاءِ ركـائـبـي		إذا رام إلـمـامًـا بسـاحـتيَ الـيـأسُ
وإن أوحـشـتـنـي مـن أمـانـيَّ نَـبْـوة		فلي في الـرضـا بـاللّٰه والقَـدَر الأنس

وقال أبو الحسن سلام بن عبد اللّٰه بن سلام الباهلي الإشبيلي[3] مِمّا أنشده لنفسه في كتابه الذي سمّاه بـ «الذخائر والأعلاق، في أدب النفوس ومكارم الأخلاق»: [الطويل]

إذا تَمَّ عقـلُ الـمـرء تَمَّـتْ فضـائـلُهْ		وقـامَتْ على الإحسـان منـه دلائـلُهْ
فـلا تنكـر الأبصـارُ مـا هـو فـاعله		ولا تنكـر الأسـمـاءُ مـا هـو قـائلُهْ

وكان أبو المذكور من وزراء المعتمد بن عباد، رحم اللّٰه تعالى الجميع!.

وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي: [الرمل]

اتْـرُكِ الـهَـمَّ إذا مـا طَـرَقَـكْ		وكِـلِ الأمـرَ إلى مَنْ خَـلَقَـكْ
وإذا أمّـل قـوم أحـدًا		فـإلى ربِّـك فـامـددْ عـنقَـكْ

---

(١) مرّ التعريف بسليمان بن الطراوة في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته. وبيتاه الواردان هنا في أخبار وتراجم أندلسية (ص ١٧).
(٢) في أخبار وتراجم أندلسية: «أتكلفُ الغواني».
(٣) أبو الحسن سلام بن عبد اللّٰه بن سلام الباهلي الإشبيلي شيخ جليل وأديب شاعر، أودع كتابه «الذخائر» جملة وافرة من شعره. توفي بشلب سنة ٥٤٤ هـ. الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٤٨).

وقـال القاضي أبـو الوليـد هشـام بن محمـد القيسي الشِّلْبي المعـروف بـابن الـطلاء: فـاوضت القاضي أبـا[1] عبد اللّه ابن شبـرين ما يحـذر من فتنة النـظر إلى الوجـوه الحسان، فقلت: [البسيط]

لا تـنـظرنَّ إلـى ذِي رَوْنَـقٍ أبـدًا   واحْـذَرْ عقـوبـةَ مـا يـأتي بـه النـظرُ
فكم صـريـعٍ رأينـاه صـريـعَ هـوًى   من نـظرةٍ قـادهـا يـومًـا لـه القَـدَرُ

فأجابني في المعنى الذي انتحيته: [البسيط]

إذا نَـظَرْتَ فـلا تُـولَـعْ بـتقـليبِ   فـربمـا نـظرةٌ عـادتْ بتعـذيبِ

و «رب» هنا للتكثير.

وقال الأستاذ ابن حَوط اللّه[2]: [الوافر]

أتـدري أنـك الـخَـطَّاءُ حـقًّـا   وأنـك بـالـذي تـأتـي رَهـيـنُ
وتغتـاب[3] الأُلى فعـلوا وقـالـوا   وذاك الـظنُّ والإفْـكُ الـمُـبِـيـنُ

قـال في «الإحاطـة»: أبو محمـد عبد اللّه بن سليمـان بن داود بن عمـر بن حَـوط اللّه الأنصاري الحارثي؛ كان فقيهًا جليـلًا أصوليًـا كاتبًـا أديبًا شـاعرًا متفننًـا في العلوم ورعًا ديِّنًـا حافظًا ثبتًـا فاضـلًا، درس كتاب سيبـويه ومستصفى أبي حـامد الغـزالي، وكان ـ رحمـه اللّه تعـالى! ـ مشهورًا بـالعقل والفضـل، معظَّمًـا عند الملوك، معلوم القـدر لديهم، يخـطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية، مقدَّمًا في ذلك بلاغة وفصاحة إلى أبعد مضمار، ولي قضاء إشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتـة وسلا وميـورقة، فتـظاهر بـالعدل، وعُـرف بما أبـطن من الدين والفضل، وكان من العلماء العاملين، مجانبًا لأهل البدع والأهواء، بارع الخطِّ، حسن التقييد، وسمع الحديث، فحصل له سماع لم يشاركه فيه أحد من أهل الغرب، وسمـع على الجهابذة كابن بَشْكُوال وغيره، وقرأ أكثر من ستين تأليفًا بين كبار وصغار، وكمل له على أبي محمد بن عبد اللّه بين قراءة وسماع نحو من ستة وثلاثين تأليفًا، منها الصحيحان، وأكثر عن

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١١٠): «أبا محمد عبد اللّه بن شبرين».
(٢) هو أبو محمـد عبد اللّه بن سليمـان بن داود بن عبد الـرحمن ابن حوط اللّه الأنصـاري الحارثي الأزدي. توفي بغرناطة سنة ٦١٢ هـ. ترجمته وبيتاه في الإحاطة (جـ ٣ ص ٤١٦ ـ ٤١٧).
(٣) في الإحاطة: «وتعتب».

ابن حَبيش وابن الفخار والسهيلي وغيرهم، ومولده في محرم سنة ٥٤١، ومات بغَرْنَاطة سحر يوم الخميس ثاني ربيع الأول سنة ٦١٢، ونُقل منها في تابوته الذي أُلحد فيه يوم السبت تاسع عشر شعبان من السنة المذكورة إلى مالقة فدفن بها، رحمه اللّه تعالى! انتهى، وبعضه بالمعنى مختصرًا.

وللمذكور ترجمة واسعة جدًا، وألمعتُ بما ذكر على وجه التبرّك بذكره، رحمه اللّه تعالى ورضي عنه!

وقال أبو المتوكل الهيثم بن أحمد السكوني الإشبيلي[1]: [البسيط]

يُجْفَى الفقيرُ ويَغْشَى الناسُ قاطبةً ... بابَ الغنيِّ، كذا حكم المقاديرِ
وإنما الناسُ أمثالُ الفَرَاشِ، فهم ... يرونَ حيثُ مصابيحِ الدنانيرِ

وقال تلميذه ابن الأبار: أنشدني بعض أصحابنا عنه هذين البيتين، ولم أسمعهما منه، انتهى.

قلت: وبهذا تعرف وَهْمَ من نسب البيتين إلى عبد المهيمن الحضرمي فإن هذا كان قبل أن يُخلَق والد عبد المهيمن الحضرمي، وقد أنشدهما أيضًا ابن الجلاب الفهري في «روح الشعر، ورَوح الشحر».

وقال أبو محمد القاسم بن الفتح الحجاري المعروف بابن إفريولة: [الطويل]

ركابي بأرجاء الرجاء مُناخةٌ ... ورائدها علمي بأنك لي رَبُّ
وأنك علّامٌ بما أنا قائلٌ ... كما أنت علّامٌ بما أضمر القلبُ
لئن آدها ذنبٌ تولّت بعبئِهِ ... لقد قرعت بابًا به يُغفر الذنبُ

وقال أيضًا: [الكامل]

عجبًا لحبر قد تيقّن أنه ... سيرى اقترافَ يديه في ميزانِهِ
ثم امتطى ظهر المعاصي جهرةً ... لم يَثْنِهِ التأنيبُ عن عصيانِهِ
أنّى عصى ولكلّ جزء نعمة ... من نفسِهِ وزمانِهِ ومكانِهِ

(١) تقدم هذان البيتان في الجزء الرابع. وسيردان في الجزء الثامن منسوبين إلى محمد بن عبد المهيمن الحضرمي السبتي وجاء هناك: «يُلْفَونَ» بدل «يرون» في البيت الثاني.

وقال الشاعر الكبير الشهير أبو بكر يحيىٰ بن عبد الجليل بن مجبر الفهري: [البسيط]

إنَّ الشدائد قد تغشى الكريمَ لأنْ ... تَبِينَ فضل سجاياه وتُوْضِحَهُ
كمبرد القَيْنِ[1] إذ يعلو الحديدُ به ... وليس يأكُلُهُ إلاّ لِيُصْلِحَهُ

وقال: [السريع]

لا تغبط المجدب في علمه ... وإن رأيت الخصب في حالِهِ
إنَّ الذي ضَيَّعَ من نفسه ... فوقَ الذي ثَمَّرَ مِنْ مالِهِ

وقال أبو الحجاج يوسف بن أحمد الأنصاري المُنْصِفي البَلَنسي[2]: [السريع]

قالتْ ليَ النفسُ: أتاك الردى ... وأنتَ في بحرِ الخطايا مقيمْ
هل[3] اتخذت الزادَ، قلتُ اقصري ... هل يحمل الزاد لدار الكريمْ

وكان المنصفي المذكور صالحًا، وله رحلة حجّ فيها، ومال إلى علم التصوّف، رحمه اللّٰه تعالى، وله فيه أشعار حُملت عنه.

وقال أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن الصائغ[4] القرشي الأموي الأندلسي مخمسًا أبيات عزّ الدين بن جماعة قاضي القضاة رحمه اللّٰه تعالى: [البسيط]

هَمُّ الأبيّ على مقدار منصبِهِ ... وبسطُ راحته في طيٍّ منصبِهِ
ما أنتَ والدهْرَ تشكو من تقلّبه ... يا مبتلًى بقضاء قد بُليت بِهِ
عليك بالصبر واحذرْ يا أخي جَزَعَكْ
صبرًا فللصبر في حرب العدا عددُ ... ذَرِ العدوَّ يُمِتْهُ الغيظُ والحَسَدُ
ولا يكن لك إلاّ اللّٰه معتمدُ ... واعلمْ بأنَّ جميعَ الخلقِ لو قصدوا
أذاكَ لم يقدروا واللّٰه قد رفعكْ

---

(١) القَيْنُ: الحدّاد. لسان العرب (قين).

(٢) تقدم هذان البيتان في الجزء الأول والجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٣٦): «هلاّ».

(٤) ترجمة محمد بن عبد اللّٰه بن محمد بن الصائغ في الوافي بالوفيات (جـ ٣ ص ٣٧٥) ولقبه فيه: «محب الدين» وله كنية ثانية هي «أبو البقاء».

أَعْــلاكَ فـي رتبٍ غـرٍّ مـعــظمــة ... بــالعـرف معـروفـة بــالعلم معلمـة
ومن ينـاويـك في بهمــاءَ مـظلمــة ... فاصرف هــواك وجانبْ كـلَّ مَظْلمـة
وآصحبْ فديتك من بالنصح قـد نفعكْ
قــد اجتلبْتَ من الأيــام تـبصــرةً ... وقـد كفاك الهـدى والذكـر تـذكـرة
فاشكرْ وقـدِّمْ مع الإخـلاص معذرةً ... وآسـأل إلٰهك في الإسحـار مغفـرة
منــه وكنْ معــه حتـى يكــون مــعــكْ

وتوفي المذكور بالقاهرة في الطاعون العامّ سنة ٧٤٩.

وقال أبو عبد اللّه الحُمَيْدي: [البسيط]

النــاسُ نبـتٌ وأربــابُ القـلوب لهـمْ ... روضٌ وأهـلُ الحـديث المـاءُ والـزَّهَـرُ
من كــان قـول رســول اللّه حـاكمـه ... فــلا شــهــود لــه إلَّا الألــى ذكــروا

وقال أيضًا: [الكامل]

مـن لم يـكن لـلعـلمِ عـنــد فَـنَـائِـهِ ... أَرَجٌ فــإنَّ بــقــاءه كــفــنــائِــهِ
بــالعِلْمِ يَحْيـا المـرءُ طـولَ حيــاتِـهِ ... فــإذا انقضـى أحيــاه حسن ثـنـائِــهِ

وقال أيضًا: [البسيط]

ديـنُ الـفـقيــه حــديـثٌ يـسـتـضـيء بـه ... عنــد الحِـجــاجِ وإلَّا كــان في الــظُّلَمِ
إنْ تــاه ذو مــذهــبٍ فـيَ قـفــر مـشـكـلة ... لاح الحــديث لــه في الــوقت كــالـعَلَم

ولَمَّا تعرّض بعض مَنْ لا يُبالي بما ارتكب إلى أصحاب الحديث بقوله: [الطويل]

أرى الخيــرَ في الـدنيــا يقــلُّ كثيــرُهُ ... وينقصُ نـقصًــا والـحــديثُ يــزيــدُ
فلو كــان خيــرًا كــان كــالخيــر كلّه ... ولكنَّ شيــطان الحــديث مَــرِيــدُ[1]
ولابـن معين فـي الــرجــال مقــالــةٌ ... سَيُسْــأَل عـنهــا والـمليــكُ شـهيــدُ
فــإنْ يَــكُ حقًّــا قــولــه فهي غِيبــة ... وإنْ يــكُ زورًا فــالقِصــاص شـديــدُ

---

(١) المَرِيدُ: المتمرّد. محيط المحيط (مرد). يقول اللّه تعالى: ﴿ ويَتَّبِعُ كلَّ شيطانٍ مَرِيدٍ ﴾. سورة الحج ٢٢، الآية ٣.

أجابه الإمام أبو عبد اللّه الحميدي بقصيدة طويلة، منها: [الطويل]

وإني إلى إبطالِ قولكَ قاصدٌ ... ولي من شهاداتِ النصوصِ جنودُ
إذا لم يكنْ خيرًا كلامُ نبيِّنا ... لديكَ فإنَّ الخيرَ منك بَعِيدُ
وأقبح شيء أن جعلت لما أَتَى ... عن اللّه شيطانًا وذاك شديدُ
وما زلت في ذكر الزيادة مُعْجبًا ... بها تبدىء التلبيس ثم تُعِيدُ
كلام رسول اللّه وَحْيٌ ومن يَرُمْ ... زيادة شيء فهو فيه عَنِيدُ

ومنها في ابن مَعِين:

وما هو إلاَّ واحدٌ من جماعة ... وكلُّهُمُ فيما حكوه شُهُودُ
فإنْ صَدَّعن حكمِ الشهادةِ جاهلٌ ... فإنَّ كتابَ اللّه فيه عتيدُ
ولولا رُوَاةُ الدين ضاع وأصبحتْ ... معالمُهُ في الآخرين تبِيدُ
هُمُ حفظوا الآثارَ مِنْ كلِّ شبهة ... وغيرهُمُ عمَّا اقتنوه رقود
وهم هاجروا في جمعها وتبادروا ... إلى كل أُفقٍ والمَرامُ كؤود(١)
وقاموا بتعديل الرواة وجَرْحهم ... فدام صحيح النقل وهو جديد(٢)
بِتَبْليغهم صحت شرائع ديننا ... حدود تحرَّوْا حفظها وعهود
وصحّ لأهل النقل منها احتجاجُهُم ... فلم يبق إلاَّ عاندٌ وحَقُود
وحسبهُمُ أنَّ الصحابةَ بلَّغوا ... وعنهم رَوَوْا لا يستطاع جُحود
فمن حاد عن هذا اليقين فمارق ... مَريدٌ لإظهار الشكوك مُرِيدُ
ولكن إذا جاء(٣) الهدى ودليله ... فليس لموجود الضلال وجود
وإنْ رام أعداء الديانة كيدها ... فكيدهُمُ بالمخزيات مَكِيدُ

وقال أبو بكر محمد بن مُحْرز الزهري البَلَنسي(٤)، والتزم الراء في كل كلمة: [مجزوء الكامل]

اشكرْ لربِّكَ وانتظرْ ... في إثْر عُسْرِ الأمرِ يُسْرا

(١) الكؤود: الصّعب الشاقّ المصعد. محيط المحيط (كأد).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١١٥): «حديد» بالحاء المهملة.
(٣) في الطبعة نفسها: «جاءا».
(٤) هو أبو بكر محمد بن محمد بن محرز الزهري، قاضٍ من أهل بلنسية، من أهل الطلب البارع والنباهة في بلده. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٩٥).

واصبر لربّك وادَّخِرْ في ستر ضر الفقر أَجْرا
فالدهرُ يعثرُ بالورى والصبرُ بالأحرار أَحْرَى
والوفرُ أظهرُ معشرا والفقرُ بالأخيار يُغْرَى

وقال أيضًا: [الكامل]

اقنعْ بما أوتيته تَنَلِ الغنى وإذا دَهَتْكَ مُلِمَّةٌ فَتَصَبَّرِ
واعلمْ بأنَّ الرزق مقسومٌ فلو رُمْنا زيادة ذَرَّةٍ لم نقدرِ
واللَّه أرحم بالعِباد فلا تَسَلْ بشرًا تعش عيش الكرام وتؤجرِ
وإذا سخطت لضرِّ حالك مرّة ورأيت نفسك قد عَدَتْ فاستبصرِ
وانظرْ إلى من كان دونك تذّكر[1] لعظيم نعمته عليك فتشكرِ

وقال الحافظ أبو محمد بن حَزْم[2]: أنشدني والدي أحمد بن سعيد بن حزم[3]: [الطويل]

إذا شئت أنْ تَحْيا غَنِيًّا فلا تَكُنْ على حالةٍ إلاَّ رَضِيتَ بدونها

وقال القاضي أبو العباس أحمد بن الغماز البَلَنسي نزيل تونس: [الطويل]

وقالوا أَمَا تخشى ذنوبًا أَتَيْتَها ولم تكُ ذا جهل فتُعْذَرَ بالجهلِ
فقلتُ لهم هبني كما قد ذكرتُمُ تجاوزتُ في قولي وأسرفْتُ في فعلي
أَمَا في رضا مولى الموالي وصفحه رجاءٌ ومسلاةٌ لمقترف مثلي

وأنشد رحمه اللَّه تعالى لنفسه في اليوم الذي مات فيه، وهو آخر ما سُمع منه ليلة عاشوراء سنة ٦٩٣: [البسيط]

أدعوكَ يا ربِّ مضطرًّا على ثقة بما وَعَدْتَ كما المضطرُّ يدعوكا
داركْ بعفوكَ عبدًا لم يزلْ أبدًا في كلِّ حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتي ولمَّا أتخذْ عملاً إلاَّ محبّة أقوام أَحَبُّوكا

---

(١) تذّكر: تتذكّر، وادّكر: لغة في: اذّكر. محيط المحيط (دكر).
(٢) مرَّ التعريف بابن حزم والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.
(٣) ترجمة أحمد بن سعيد بن حزم في جذوة المقتبس (ص ١٢٦) وبغية الملتمس (ص ١٨٢) والبيت فيهما، وقد تقدّم في الجزء الثاني وجاء هناك: «سعيدًا» بدل «غنيًّا».

وقال ابن الزقاق: ويقال: إنها مكتوبة على قبره[1]: [الطويل]

أإخوانَنا والموتُ قد حالَ دونَنا ... ولِلموتِ حُكْمٌ نافذٌ في الخلائقِ
سَبَقْتُكُمُ للموتِ والعُمْرُ طيَّةٌ[2] ... وأعلمُ أنَّ الكلَّ لا بُدَّ لاحقي
بعيشكُمُ أو باضطجاعيَ في الثرى ... ألم نَكُ في صَفْوٍ مِنَ العَيْشِ[3] رائقِ
فمن مَرَّ بي فليمضِ لي مُتَرَحِّمًا ... ولا يَكُ مَنْسِيًّا وفاءُ الأصادِقِ

وقال الخطيب أبو عبد اللّه محمد بن صالح الكناني الشاطبي، ومولده سنة ٦١٤: [الطويل]

أرى العمرَ يَفْنَى والرجاءُ طويلُ ... وليس إلى قرب الحبيب سبيلُ
حباه إلّه الخلق أحسنَ سيرةٍ ... فما الصبرُ عن ذاك الجمال جميلُ
متى يَشْتفي قلبي بلَثْم ترابِهِ ... ويسمح دهرٌ بالمزار بخيلُ
دللتُ عليه في أوائل أسطري ... فذاك نبيٌّ مُصْطَفًى ورسولُ

وقال أيمن بن محمد الغرناطي نزيل طيبة على ساكنها الصلاة والسلام: [الطويل]

أرى حُجُرَات قد أحاطتْ عِرَاصُها[4] ... ببحرٍ محيطٍ حَصْرُهُ غيرُ ممكنِ
بحار المعاني[5] والمعالي وإن طَمَتْ ... لدى لجّةٍ تفنى وعن هوله تني
محمّدُ المحمودُ في كلٍّ موطن ... أبو القاسم المختار من خيرِ معدنِ
نبيٌّ إذا أبصرت غرّة وجهه ... تَيَقَّنْتُ أنَّ العِزَّ عِزُّ المهيمن
لكَ اللّه من بدر إذا الشمس قابلت ... مُحَيَّاه قالتْ إنَّ ذا طالعٌ سَنِي

وله: [الكامل]

كلّ القلوب مطيعة لك في الهوى ... جانبْ فديتكَ من تشاء وَوَالِ
الحسنُ والٍ، والقلوبُ رعيّةٌ ... وعلى الرعيّة أن تطيع الوالي

---

(١) ديوان ابن الزقاق (ص ٢٠٥).
(٢) في الديوان: «والعمرُ ظِنَّةٌ».
(٣) في الديوان: «من الوُدِّ».
(٤) العِراصُ: جمع عَرْصة وهي ساحة الدار. لسان العرب (عرص).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٤١): «المعالي والمعاني».

وقال أيضًا: [الطويل]

ألَا أيها الباكي على ما يفوته ... من الحظِّ في الدنيا جهلت وما تدري
على فوتِ حظّ من جوار محمد ... حقيقٌ بأنْ تبكي إلى آخر العمرِ
ستدري إذا قُمْنا وقد رفع اللوا ... وأنحمدها دينًا إلى موقف الحشرِ
مَنِ الفائز المغبوط في يوم حشره[1] ... أجارُ النبيِّ المصطفى أم أخو الوفرِ

ولـه: [الطويل]

فررتُ من الدنيا إلى ساكن الحمى ... فرارَ مُحِبٍّ لائذٍ بحبيبِ
لجأتُ إلى هذا الجناب، وإنما ... لجأتُ إلى سامي[2] العِماد رَحيبِ
وناديتُ مولاي الذي عنده الغنى ... نداءَ عليلٍ في الزمان غريبِ
أمولايَ، إني قد أتيتك لائذًا ... وأنتَ طبيبي يا أجلَّ طبيبِ
فقال لك البشرى ظفرت من الرضا ... بأوفر حظٍّ مُجْزَلٍ ونصيبِ
تناومتُ في أطلال ليل شبيبتي ... فأدركني بالفَجْر صبحُ مشيبي

وقال أبو بكر الزبيدي اللغوي: [السريع]

لو لم تكن نارٌ ولا جَنَّةٌ ... للمرء إلاَّ أنه يُقْبَرُ
لكان فيه واعظٌ زاجرٌ ... ناهٍ لمن يَسْمَعُ أو يُبْصِرُ

ولقد صدق رحمه اللّه تعالى ورضي عنه!.

ولبعض فقهاء طلبيرة: [الوافر]

رأيتُ الانقباض أجلَّ شيء ... وأَدْعَى في الأمور إلى السلامَهْ
فهذا الخلق سَالِمْهُمْ ودعهم ... فرؤيتهم تؤول إلى الندامَهْ
ولا تُعْنَى بشيء غير شيء ... يقود إلى خلاصك في القيامَهْ

وأمر الكاتب أبو بكر بن مغاور بكَتْب هذه الأبيات على قبره، وهي له[3]: [الخفيف]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٤١): «يوم عرضه».
(٢) سامي العماد: مرتفعه. والعماد: العمود وسط الخيمة وهو أطول الأعمدة وأقواها. لسان العرب (عمد).
(٣) الأبيات في بدائع البدائه (جـ ٢ ص ١٧٢)، وقد تقدمت، ما عدا البيت الثالث، في الجزء الرابع.

أيهـا الـواقِفُ اعـتبـارًا بـقبـري ... استمـعْ فيه قـولَ عـظمي الـرَّميمِ
أَوْ دَعُـونِي بَطْنَ الضريحِ وخـافـوا ... مِـنْ ذنـوبٍ كـلومُـهـا بـأديـمـي
قـلتُ لا تـجـزعـوا عـليَّ فـإنـي ... حَسَنُ الـظَّنِّ بـالـرؤوف الـرحيمِ
ودَعُـونِي بمـا اكـتسبْتُ رهـينًـا ... غَلِقَ الـرهْنُ عنـد مـولًى كـريمِ

وقال الخطيب بن صفوان: [الطويل]

رأيتُـك يُـدْنيـنـي إلـيـكَ تَبَـاعُـدِي ... فـأبعـدتُ نفسي لابتغـائيَ في القـربِ
هـربتُ لـه مـنـي إليـه فـلم يـكـن ... بيَ البعـد في قـربي فصَـحَّ بـه قـربي
فيـا ربّ هـل نعمى على العبد بـالـرِّضا ... ينـالُ بهـا فـوزًا من القـرب بـالقـرب

وقال الوادي آشي:

وهـذا النظم معنـاه جليل، وتكـرار القرب وإنْ قبـح عند العـروضي فهو عنـد المحبِّ جميـل، وهُمُ القـوم يُسَلِّم لهم في الأفعـال والأقـوال، وتـرتجى بـركتهم في كـلّ الأحـوال، انتهى.

وقال بعض قدماء الأندلس: [المتقارب]

سئـمـتُ الـحيـاةَ عـلى حُبِّـهـا ... وحُـقَّ لـذي السقم أن يسـأمـا
فـلا عـيش إلاّ لـذي صـحّـة ... تـكـون لـه لـلتّـقـى سـلّمـا

وذيّله آخر منهم فقال: [المتقارب]

ولا داءَ إلاَّ لـمـن لـم يـزل ... يُـقـاربُ فـي ديـنـه مـأثـمـا
فـلستَ تُـعـالـجُ جـرحَ الـهـوى ... هُـدِيـتَ بمثـلِ التّقى مـرْهَـمَـا

وقال أبو جعفر أحمد السياسي(١) القَيْسي المري: [الطويل]

إذا مـا جنى يـومًـا عليـك جنـايـةً ... ظلومٌ يـدقّ السُّمْـرَ بـأسًـا ويقصفُ
فـلا تنتقمْ يـومًـا عـليـه بمـا جنى ... وكِـلْ أمره للدهـر فـالـدهـرُ منصفُ

وقال أيضًا: [الخفيف]

ليس حلمُ الـضعيفِ حـلمًـا، ولكـنْ ... حـلمُ مَنْ لـو يـشـاء صـال اقتـدارا

---

(١) نميل إلى أنَّ هذه الكلمة هي «البياسي» نسبة إلى «بياسة».

مَنْ تغاضى عَنِ السفيه بحلمٍ أصبحَ الناسُ دونه أنصارا
مَنْ يُزَوِّجْ كريمةَ الهمّة العلـ ـيا علوًّا فقد أجادَ الخيارا
ستريه عند الولاد بنيها العـ ـلم والحلم والأناة كبارا

وقال الخطيب الصالح أبو إسحٰق بن أبي العاصي: [الكامل]

اعْمَلْ بعلمك تُؤْتَ عِلْمًا إنما جَدْوَى علومِ المرءِ نهجُ الأقومِ
وإذا الفتى قد نالَ علمًا ثم لم يعمل به فكأنه لم يعلمِ

وقال موطّئًا على البيت الأخير: [المتقارب]

أمولايَ، أنتَ العفوُّ الكريمُ لبذلِ النوالِ وللمعذرَهْ
عليَّ ذنوبٌ وتصحيفها ومِنْ عندِكَ الجودُ والمغفرَهْ

وقال الخطيب المتصوّف الشهير أبو جعفر أحمد بن الزيات من بلش مالقة: [الوافر]

يقال خصالُ أهلِ العلم ألفٌ ومَنْ جمع الخصال الألفَ سادا
ويجمعها الصلاحُ فمن تعدّى مذاهبه فقد جَمَعَ الفسادا

وقال أيضًا: [البسيط]

إنْ شئتَ فوزًا بمطلوب الكرامِ غدًا فاسْلُكْ من العملِ المرضيِّ منهاجا
واغلبْ هوى النفس لا يغررْكَ خادعه فكلُّ شي يحطّ القدر منها جا[1]

وقال الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن صارة البكري الشنتريني رحمه اللّه تعالى[2]: [الوافر]

بنو الدنيا بِجَهْلٍ عَظَّمُوها فجلَّتْ عندهم وهي الحقيرَهْ
يُهَارشُ بَعْضُهُم بعضًا عليها مُهَارشَةَ الكلابِ على العقيرَهْ[3]

---

(١) جا: أي جاء، وقد حذف الهمزة لضرورة القافية. وضمير «منها» يعود إلى «النفس» في صدر البيت.
(٢) البيتان في التكملة (ص ٨١٧)، وقد تقدّما في الجزء الخامس وجاء هناك: «فَعَزَّتْ» بدل «فَجَلَّتْ» في البيت الأول.
(٣) الهراش: الخصام وهو مخصّص للكلاب. العقيرة: ما عقر من صيد وغيره. لسان العرب (هرش) و (عقر).

وقـــال: [الخفيف]

أيّ عـــذرٍ يـــكـــون لا أيّ عـــذر لابن سبعين مُـــولَـــعٌ بـــالصَّـــبـــابَـــهْ
وهـــو مـــاء لـــم تُبْق مـــنـــه الـــليـــالـــي فـــي إنـــاء الـــحـــيـــاة إلّا صُـــبـــابَـــهْ[1]

وقال أيضًا: [الكامل]

ولقد طلبتُ رضـا البريّـة جاهـدًا فـإذا رضـاهم غـايـةٌ لا تُـدْرَكُ
وأرى القنـاعـةَ للفتى كنـزًا لـه والبـر أفضـلُ مـا بـه يتمسّـكُ

وقال أبو محمد ابن صاحبِ الصلاة الداني، ويُعْرف بعبدون[2]: [الطويل]

وعَـجَّـلَ شيـبي أنَّ ذا الـفضـل مُبْتَـلًى بـدهـرٍ غـدا ذو النقص فيـه مؤمَّـلاَ
ومن نكـد الـدنيـا على المـرء أن يَـرَى بهـا الحُـرَّ يشـقى والـلئيـمَ مـمـوَّلاَ
متى ينعـم المعتـرُّ[3] عَـيْنًـا إذا اعـتفى جَـوادًا مُـقـلاًّ أو غـنـيًّـا مـبـخَّـلاَ

وقال أبو الحكم عبيد اللّه الأموي مولاهم الأندلسي: [الطويل]

إذا كـان إصـلاحي لجسميَ واجبًـا فـإصـلاحُ نفسي لا محـالـة أوجبُ
وإنْ كـان مـا يفنى إلى النفس معجبًـا فـإنَّ الـذي يبقـى إلى العقـل أعجبُ

وقال الفقيه الزاهد أبو إسحٰق إبراهيم بن مسعود الإلبيري رحمه اللّه تعالى: [الكامل]

لـلّه أكيـاسٌ[4] جَفَـوا أوطـانهـم فـالأرضُ أجـمـعـهـا لـهـم أوطـانُ
جـالـتْ عقـولُهُمُ مجـالَ تَـفَكُّـرٍ وجـلالـةٍ فـبـدا لـهـا الـكـتـمـان
ركبت بحـار الفـهم في فلك النُّهى وجـرى بـهـا الإخـلاص والإيمـان
فـرسَتْ بهم لمـا انتهـوا بجفـونهم مـرسى لـهـم فـيـه غـنـى وأمـانُ

وقال أبو جعفر بن خاتمة رحمه اللّه تعالى[5]: [البسيط]

يـا مَنْ يُغِيثُ الـوَرَى مِنْ بَعْـدِ مـا قَنِـطُوا ارْحَمْ عِبـادًا أَكُـفُّ الفَـقْـرِ قـد بَسَـطُوا

(١) الصُّبابة، بضم الصاد: بقية الماء في الإناء، وصُبابة العيش: قليله وبقيته. لسان العرب (صبب).
(٢) التكملة (ص ٦٩).
(٣) المُعْتَرُّ: الفقير والمعترض للمعروف. محيط المحيط (عرر).
(٤) الأكياس: جمع كَيِّس وهو الظريف البَيِّنُ الكياسة. محيط المحيط (كيس).
(٥) ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي (ص ٢١ ـ ٢٢) وفيه: «وقال أيضًا وقد سُئل إجازة البيت الأول».

عَـوَّدْتَـهُـم بَـسْطَ أرزاقٍ بـلا سـبـبٍ ... سـوى جميـلِ رجـاءٍ نحـوه انْبَسـطوا
وعُـدْتَ بـالفضـل في وِرْدٍ وفي صَـدَرٍ ... بـالجُوْد إن أَقْسطوا والحِلْم إنْ قَسَطوا[1]
عـوارفُ ارْتَبَـطَتْ شُمُّ الأُنـوفِ لـهـا ... وكـلُّ صَـعْبٍ بقيـدِ الجـود يَـرْتبط[2]
يـا مَنْ تَعَـرَّفَ بـالمعـروفِ فـاعتـرفتْ ... بِـجَـمٍّ إنـعـامِـهِ الأطـرافُ والـوَسَطُ
وعـالِـمًـا بِـخَـفِـيَّـاتِ الأمـورِ فـلا ... وَهْـمٌ يـجـوزُ عـليـه، لا ولا غَـلَطُ
عَـبْـدٌ فقيـرٌ ببـابِ الجُـود مُنْكَسِـرٌ ... مـن شـأنـه أن يُـوافي حيـن يَـنْـضَـغِطُ
مـهـمـا أتـى لِيَـمُـدَّ الـكَـفَّ أَخْـجَـلَهُ ... قَـبـائـحُ وخـطايـا أمـرُهـا فُـرُطُ
يـا واسعًـا ضـاقَ خَـطْوُ الخَلْقِ عن نِعَمٍ ... منـه إذا خـطبـوا في شكـرهـا[3] خَبَطُوا
ونـاشِـرًا بيـدِ الإجـمـالِ رَحْـمَـتَـهُ ... فـليس يَـلْحَـقُ منـه مُـسْـرِفًـا قَـنَطُ
ارْحَمْ عِبـادًا بضَنْـك العيش قـد قَنِعـوا ... فـأينمـا سقـطوا بين الـورى لَقَـطُوا[4]
إذا تُـوزِّعـت الـدنـيـا فـمـا لـهـمُ ... غيـرُ الـدُّجُنَّـةِ لُحْفٌ والـثَّـرى بُسُطُ
لـكـنّـهُـم مِـنْ ذَرا عَـلْيـاكَ فـي نَـمَطٍ ... سـامٍ رفيعِ الـذُّرا مـا فـوقَـهُ نمط[5]
ومَـنْ يكـنْ بـالـذي يَهْـواه مُـجْـتَـمِـعًـا ... فمـا يُبـالي أقـامَ الحيُّ أم شَحَـطوا[6]
نحن العبيـد وأنت الـمَلْكُ لـيس سـوى ... وكـلُّ شـيء يُـرَجَّى بـعـد ذا شَـطَطُ

وقال رحمه اللّٰه تعالى[7]: [الوافر]

مِـلاكُ الأَمْـرِ تَقْـوَى اللّٰهِ، فـاْجْعَـلْ ... تُـقـاهُ عُـدَّةً لِـصَـلاحِ أَمْـرِكْ
وبـادِرْ نـحـو طـاعـتِـهِ بِعَـزْمٍ ... فمـا تَـدْري متى يمضى بِعُمْـرِكْ

---

(١) أَقْسَط الرجلُ: عَدل، وقَسَط: ظَلَمَ وجارَ. لسان العرب (قسط).

(٢) في الديوان: «فضائلٌ ارتبطت.. لقيد الجود..». والعوارف: جمع عارفة وهي المعروف. لسان العرب (عرف).

(٣) في الديوان: «في وصفها».

(٤) ضنك العيش: ضيقه. لسان العرب (ضنك). يقول: هؤلاء الفقراء يكتفون بما يُساق إليهم من الرزق.

(٥) الذُّرا، بفتح الذال: فناء الدار ونواحيها. والذِّروة: المكان المرتفع. لسان العرب (ذرا).

(٦) شحطوا: بَعُدوا. لسان العرب (شحط).

(٧) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٧)، وسيرد البيتان في الجزء الثامن وفيه: «يُقْضى» بدل «يمضى» في البيت الثاني.

وقال أيضًا[1]: [المتقارب]

إذا كـنـتَ تَـعْـلَـمُ أنَّ الأمـورَ ... بِـحُكْـمِ الإلَـه كمـا قـد قَـضَـى
فَفِيمَ التـفكُّـرُ والـحُكْـمُ مـاضٍ ... ولا رَدَّ لِـلْحُـكْـمِ مـهـمـا مَـضـى
فَـخَـلِّ الـوجـودَ كـمـا شـاءه ... مُـدَبِّـرُهُ وابْـغِ مـنـه الـرِّضـا

وقـال[2]: [الوافر]

إذا مـا الـدَّهْـرُ نـابَـكَ منه خَـطْبٌ ... وشَـدَّ عـليـك من خَـنَـقٍ عِـقـالَـهْ
فَـكِـلْ لِـلَّه أَمْـرَكَ لا تُـفَـكِّـرْ ... فَـفِكْـرُكَ فيـه خَبْطٌ في حِبـالَـهْ[3]

وقـال[4]: [الوافر]

عَـدُوَّكَ دارِهِ مـا اسْـطَعْـتَ حـتـى ... يـعـودَ لـديـك كـالخِـلِّ الـشَّفِـيقِ
فـمـا فـي الأرض أَرْدَى مـن عَـدُوٍّ ... ومـا في الأرض أجْـدَى من صَـديقِ

وقـال[5]: [الكامل]

إن أَعْـرَضَتْ دُنياكَ عنـكَ بـوجهها ... وغَـدَتْ ومنـهـا في رضـاكَ نِـزاعُ
فـاحْـذَرْ بَنِيهـا واحتفظْ[6] مِنْ شـرِّهم ... إنَّ الـبـنـيـن لأمِّـهِـمْ أَتْـبـاعُ

وقـال[7]: [الخفيف]

يـا مُجِيبَ المُضْـطَرِّ عنـد الـدُّعـاء ... مـنـكَ دائي وفـي يَـدَيْـكَ دوائي
جَـذَبَتْني الـدنيـا إليهـا بضَبْعي[8] ... ودَعَـتْـني لِـمِـحْـنَـتي وشَـقـائي
يـا إلَـهـي وأنـتَ تَـعْـلَـمُ حـالـي ... لا تَـذَرْنـي شـمـاتـةَ الأعـداءِ

---

(١) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٧) وهي في التسليم والرِّضى.
(٢) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٨) وهي في التفويض عند النوائب.
(٣) الحِبالة: التي يُصاد بها، يقال: نَصَبَ حِبالته وحبائله. لسان العرب (حبل).
(٤) ديوان ابن خاتمة (ص ١٢٩) وهما في المداراة.
(٥) ديوان ابن خاتمة (ص ١٣٢) وهما في التحذير من أبناء الزمان عند اضطرابه.
(٦) في الديوان: «واحترزْ».
(٧) ديوان ابن خاتمة (ص ١٣٩) وهي في التضرّع.
(٨) الضَّبْعُ: العضد أو الإبط أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه. القاموس المحيط (ضبع).

وقال الحافظ الكبير الشهير أبو عبد اللّٰه الحميدي صاحب «الجمع بين الصحيحين» رحمه اللّٰه تعالى[1]: [الوافر]

كتابُ اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ قَوْلِي ... وما صَحَّتْ به الآثارُ ديني
وما اتَّفَقَ الجميعُ عليه بَدْءاً ... وعَودًا فَهْوَ عَنْ حَقٍّ مبينِ
فدعْ ما صَدَّ عن هذي وخُذْها ... تكنْ منها على عَينِ اليقينِ

وقال[2]: [الوافر]

طريق الزهدِ أفضلُ ما[3] طريقٍ ... وتقوى اللّٰه باديةُ الحقوقِ
فَثِقْ باللّٰه يَكْفِكَ، وَٱسْتَعِنْهُ ... يُعِنْكَ، وذَرْ بُنَيَّاتِ[4] الطَّريقِ

وقال أبو بكر مالك بن جبير رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

رحلْتُ وإنني مِنْ غير زاد ... وما قدّمتُ شيئًا للمعادِ
ولكنّي وثقتُ بجود ربي ... وهل يشقى المقلُّ[5] مَعَ الجوادِ

وتوفي المذكور بأريولة ـ أعادها اللّٰه تعالى إلى الإسلام! ـ سنة ٥٦١.

وقال ابن جبير اليحصبي وهو الكاتب أبو عبد اللّٰه محمد: [الخفيف]

كلّما رمتُ أنْ أُقَدِّمَ خيرًا ... لمعادي ورمتُ أني أتوبُ
صرفتني بواعثُ النفس قسرًا ... فتقاعستُ والذنوبُ ذنوبُ
رَبِّ قَلِّبْ قلبي لعزمةِ خيرٍ ... لمتابٍ ففي يديك القلوبُ

ولتعلمْ أنَّ كلام أهل الأندلس بحر لا ساحل له، ويرحم اللّٰه تعالى لسان الدين ابن الخطيب حيث قال في صدر الإحاطة: وهذا الغَرَضُ الذي وضعنا له هذا التأليف يطلبنا فيه

---

(١) تقدمت هذه الأبيات في الجزء الأول ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) تقدم هذان البيتان في الجزء الأول باختلاف يسير عمّا هنا.

(٣) كلمة «ما» هنا زائدة.

(٤) بُنَيّات الطريق: أي الطريق الضيّقة الصغيرة المتشعّبة من الجادة، وأراد هنا ما التبس من الأمور؛ يقول: دَع الطرق الضيقة لأنها غير مأمونة، والزم الجادة التي توصلك إلى رضى اللّٰه.

(٥) المُقِلُّ: الذي ليس لديه إلّا القليل، أي الفقير. لسان العرب (قلل).

ما قصدنا به من المباهاة والافتخار بالإكثار، واستيعاب النِّظام والنِّثار، ويحملنا فيه خوفُ السآمة على الاختصار والاقتصار، وكفى بهذا جلاء في الأعذار، واللَّه تعالى مُقيل العِثار[1]، وساتر العَيب المُثَار، بفضله، انتهى.

ولنختم هذا الباب بقول أبي زكريا يحيىٰ بن سعد بن مسعود القلني: [مجزوء الرمل]

عَفْوُكَ اللهمَّ عَنّا   خَيرُ شيء نَتَمَنَّى
ربِّ إنّا قد جَهِلْنا   في الذي قد كان مِنّا
وخَطَينا وخَطَلْنا   ولَهَونا ومَجَنَّا
إن نكن ربّ أسأْنا   ما أسأْنا بك ظَنَّا

وذيَّلْتُه بقولي: [مجزوء الرمل]

فَأَنِلْنا الختمَ بالحُسْـ   ـنى وإنعامًا ومَنًّا

آمين

(١) يقال: أقال عثاره إذا أنهضه من عثرته، والمراد هنا: المنقذ.

الباب الثامن
ذكر تغلب العدو النصراني على الأندلس

في ذكر تغلُّب العدوّ الكافر على الجزيرة بعد صَرْفه وُجُوهَ الكيدِ إليها، وتَضْريبه[1] بين ملوكها ورؤسائها بمكره، واستعماله في أمرها حِيَلَ فكره، حتى استولى ـ دَمَّره اللّٰه تعالى! ـ عليها، ومحا منها[2] التوحيد واسمه، وكتب على مشاهدها ومعاهدها وَسْمَه، وقرّر مذهب التثليث، والرأي الخبيث، لديها، واستغاث أهلُها استغاثَةَ ملهوف[3] بالنظم والنثر، أهلَ ذلك العصر، من سائر الأقطار، حتى[4] تعذرت بحصارها، مع قلّة حماتها وأنصارها، المآرب والأوطار، وجاءها الأعداء من خلفها ومن بين يديها، أعاد اللّٰه تعالى إليها كلمة الإسلام، وأقام فيها شريعة سيّد الأنام، عليه أفضل الصلاة والسلام! ورفع يد الكفر عنها وعَمَّا حَوَاليها! آمين، [يا معين][5].

قال غير واحد من المؤرخين: أول من جمع فَلَّ النصارى بالأندلس ـ بعد غلبة العرب لهم ـ عِلْجٌ يقال له بلاي[6]، من أهل أشتوريش من أهل[7] جليقية، كان رهينةً عن طاعة

---

(١) ضَرَّب بين القوم: أغرى، والتضريب: الإغراء. محيط المحيط (ضرب).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٢٩): «ومحاملها».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥٠): «استغاثة أضرابها».

(٤) في الطبعة نفسها: «حين».

(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر.

(٦) تقدم التعريف ببلاي العلج في الجزء الرابع.

(٧) كلمة «أهل» ساقطة من طبعة دار صادر.

أهل بلده، فهرب من قرطبة أيام الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي، الثاني من أمراء[1] العرب بالأندلس، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها، وهي سنة ثمان وتسعين من الهجرة، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن، فطردوه، وملكوا البلاد، وبقي الملك فيهم إلى الآن، وكان عِدَّة مَنْ ملك منهم إلى آخر أيام الناصر لدين اللَّه اثنين وعشرين ملكًا، انتهى.

وقال عيسى بن أحمد الرازي: في أيام عَنْبَسة بن سُحَيم الكلبي قام بأرض جليقية عِلج خبيث يقال له بلاي من وقعة أخذ النصارى بالأندلس، وجَدَّ الفرنج في مُدَافعة المُسلمين عمّا بقي بأيديهم، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك، ولقد استولى المسلمون بالأندلس على النصرانية، وأَجْلَوهم، وافتتحوا بلادهم، حتى بلغوا أريولة من أرض الفرنجة، وافتتحوا بلبونة[2] من جليقية، ولم يبق إلَّا الصخرة فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي، فدخلها في ثلثمائة رجل، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعًا، وبقي في ثلاثين رجلًا وعشر نسوة، ولا طعام لهم إلَّا العسل يَشْتَارونه[3] من خروق بالصخرة فيتقوّتون به، حتى أعيا المسلمين أمرُهم، واحتقروا بهم، وقالوا: ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يجيء منهم؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة ما لا خفاء به.

وفي سنة ١٣٣ أهلك[4] اللَّه تعالى بلاي المذكور، وملك ابنه فافله[5] بعده، وكان ملك بلاي تسع عشرة سنة، وابنه سنتين.

فملك بعدهما أذفونش[6] بن بيطر جد بني أذفونش هؤلاء الذين اتصل ملكهم إلى اليوم، فأخذوا ما كان المسلمون أخذوه من بلادهم، انتهى باختصار.

---

(١) الصواب: من ولاة العرب؛ لأن الحرّ الثقفي كان واليًا ولم يكن أميرًا.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٠): «بلبلونة».

(٣) يشتارون العسل: يستخرجونه من خلية النحل. لسان العرب (شور).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥١): «وفي سنة ١٣٣ هلك بلاي المذكور..».

(٥) Fafila.

(٦) Alfonso بن Pedro، وكان أذفونش المذكور قد تزوج ابنة بلاي واسمها أرمنسندا Ermensinda. فجر الأندلس (ص ٣٤٤).

وقال المسعودي بعد ذكره غزوة سمورة أيام الناصر، ما صورته[1]: وأخذ ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مِمّا يلي الفرنجة، ومدينة أربونة خرجت عن أيدي المسلمين سنة ٣٣٠ مع غيرها مِمّا كان بأيديهم من المدن والحصون، وبقي ثغر المسلمين في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٦[2] من شرق الأندلس طرطوشة، وعلى سائر بحر الروم مِمّا يلي طرطوشة آخذًا في الشمال إفراغه على نهر عظيم ثم لاردة. انتهى.

ومن أول ما استردّ الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طُلَيطِلة من يد ابن ذي النون سنة ٤٧٥[3]، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليَحْصُبي المشهور بابن العسال[4]: [البسيط]

يا أهلَ أندلسٍ، حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ... فما المُقامُ بها إلَّا من الغَلَطِ
الثوبُ يُنْسَلُ من أطرافه وأرى ... ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عَدُوٍّ لا يفارقُنا ... كيف الحياةُ مع الحَيَّاتِ في سَفَطِ[5]

ويروى صدر البيت الثالث هكذا:

مَنْ جاورَ الشَّرَّ لا يأمَنْ بَوائِقَه ... كيف الحياة مع الحيّات في سَفَط

وتروى الأبيات هكذا:

حُثُّوا رواحلكم يا أهلَ أندلسٍ ... فما المُقامُ بها إلَّا من الغلطِ
السلكُ يُنْثَرُ من أطرافه، وأرى ... سلك الجزيرة منثورًا من الوسط
مَنْ جاورَ الشَّرَّ لا يأمن عواقبه ... كيف الحياةُ مع الحيَّاتِ في سَفَطِ

---

(١) مروج الذهب (جـ٣ ص ١٨٤).
(٢) في مروج الذهب: «سنة ثلاثين وثلاثمائة».
(٣) الصواب: سنة ٤٧٨ هـ كما سيأتي بعد قليل وكما جاء في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٧) والكامل في التاريخ (جـ ١٠ ص ١٤٢).
(٤) الأبيات في الذخيرة (ق ٢ ص ٢٥٠) ووفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٨) ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) السَّفَطُ: الوعاء. محيط المحيط (سفط).

وقال آخر: [البسيط]

يـا أهلَ أنـدلسٍ، رُدُّوا المُعَـار فمـا في العُـرفِ عـاريـةٌ إلاَّ مـردّاتُ
ألم تَـرَوا بَيـذَقَ الكُفّـارِ فَـرْزَنَـهُ وشـاهُنا آخـر الأبيـات شَهْمـاتُ[1]

وقـال بعض المؤرخين: أخذ الأذفـونش طُلَيطلة من صـاحبها القـادر باللَّه بن المـأمون يحيىٰ بن ذي النون بعد أن حـاصرهـا سبع سنين، وكـان أخْذُه لهـا في منتصف محرم سنـة ٤٧٨، انتهى.

وفيه بعض مخالفة لما قبله في وقت أخذها، وسيأتي قريبًا بعض ما يؤيّده.

قال: وهي مدينة حصينة، قديمة أزلية، من بناء العمالقة، على ضفـة النهر الكبيـر[2]، ولها قَصَبة حصينة في غاية المَنَعَة، ولها قنطرة واحدة عجيبة البنيان على قوس واحـد، والماء يدخل تحته بعنف وشدّةِ جَرْي، ومع آخر النهر ناعورة ارتفاعُها في الجوّ تسعون ذراعًا، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة، وطُلَيطلة هذه دار مملكة الروم، وبها كان البيت المغلق الذي كانوا يتحامَونَ فتحه حتى فتحه لُذُرِيق فوجد فيـه صورة العرب؛ انتهى.

وقد تقدّم شيء من هذا فيما مرّ من هذا الكتاب[3].

وقد حكى ابن بدرون في شرح العبدونية[4] أنّ المأمـون يحيىٰ بن ذي النون صـاحب طُلَيـطلة بنى بها قصـرًا تأنّق في بنـائه، وأنفق فيـه مالاً كثيـرًا، وصنـع فيـه بحيـرة، وبنى في وسطها قبّة، وسِيق الماء إلى رأس القبة على تدبيرٍ أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطًا بها متّصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غِلالـة من ماء سَكْبٍ[5]

(١) البيـذق: المراد بيـذق الشطرنـج لأنه عبـارة عن المشاة في الحـرب، والبيذق أصـلاً: المـاشي راجـلاً. وتفـرزن البيـذق: صـار فِرْزانًـا وهي الملكـة في لعبـة الشـطرنـج. محيط المحيط (بيـذق) و(فـرزن). وشهمـات: كلمة في اصـطلاح اللاعبين يعبّـرون بها عن انتهـاء الدور، وأصله: «شـاه مات» أي: مـات الشاه، يقولها الغالب. حاشية طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣١).

(٢) المراد نهر تاجه Tajo.

(٣) انظر ما تقدم في الجزء الأول.

(٤) كمامة الزهر وصدفة الدرّ (شرح البسامة) لابن بدرون (ص ٢٧١).

(٥) ماء سكب: أي ماء ساكب.

لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسّه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشدًا ينشد: [الطويل]

أتبني بناء الخالدين، وإنما بقاؤك فيها، لو علمتَ، قليلُ
لقد كان في ظِلِّ الأراك كفاية لِمَنْ كلَّ يوم يعتريه رحيلُ

فلم يلبث بعد هذا إلّا يسيرًا حتى قضى نَحْبه، انتهى.

وقال ابن خلكان[1]: إن طليطلة أُخذت يوم الثلاثاء مستهلّ صفر سنة ٤٧٨ بعد حصار شديد، انتهى.

وقال ابن علقمة: إنّ طليطلة أُخذت يوم الأربعاء لعشر خَلَونَ من المحرم سنة ٤٧٨، وكانت وقعة الزلّاقة في السنة بعدها، انتهى.

وقد رأيت أن أذكر هنا وقعة الزلاقة التي نشأت عن أخذ طُلَيطلةَ وما يتبع ذلك من كلام صاحب «الروض المعطار» وغيره فنقول[2]: إنه لَمّا ملك يوسف بن تاشفين اللمتوني المغرب، وبنى مدينتي مراكش وتلمسان الجديدة، وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة، وتمهّدت له الأقطار الطويلة المَدِيدة، تاقت نفسُه إلى العبور لجزيرة الأندلس، فهمَّ بذلك، وأخذ في إنشاء المراكب والسفن ليعبر فيها، فلمّا علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدّوا له العُدَّة والعَدَد، وصعبت عليهم مدافعته، وكرهوا أن يكونوا بين عدوّين الفرنج عن[3] شمالهم والمسلمين عن[3] جنوبهم، وكانت الفرنج تشتدّ وطأتها عليهم، وتغير وتنهب[4]، وربما يقع بينهم صلح على شيء معلوم كلّ سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنجُ ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم، لنفاذ أمره وسرعة تملّكه بلاد المغرب، وانتقال الأمر إليه في أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثّمين ومشايخ صِنْهَاجَة في المعارك من ضربات السيوف التي تقدُّ الفارس، والطعنات التي تنظم الكلى، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتاله، وكان ملوك الأندلس يفيئون

---

(١) وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٧).

(٢) الروض المعطار (ص ٢٨٨). والنص هنا منقول في معظمه عن وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٣ - ١١٥).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥٤): «من».

(٤) في الطبعة نفسها: «تنهب» بدون واو العطف.

إلى ظلِّه، ويحذرونه خوفًا على ملكهم، مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلمّا رأوا ما دلّهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك، راسل بعضُهم بعضًا يستنجدون آراءهم في أمره، وكان مَفْزَعهم في ذلك إلى المعتمد بن عباد؛ لأنه أشجع القوم، وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابًا، وهو: «أمّا بعد، فإنك إن أعْرَضْتَ عنّا نُسبت إلى كرم، ولم تُنْسب إلى عجز، وإنْ أجبْنا داعيَك نُسبنا إلى عقل، ولم نُنْسب إلى وَهْن، وقد اخترْنا لأنفسنا أجملَ نسبتينا، فاخترْ لنفسك أكرم نسبتيك، فإنك بالمحلّ الذي لا يجب أن تُسْبَق فيه إلى مكرمة، وإن في استبقائك ذوي البيوت ما شئتَ من دوامٍ لأمرك وثبوت، والسلام».

فلمّا وصله[1] الكتاب مع تُحَف وهدايا ـ وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربي، لكنه[2] ذكي الطبع، يجيد فهم المقاصد، وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية ـ فقال له: أيها الملك، هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظّمونك فيه، ويُعَرِّفونك أنهم أهل دعوتك، وتحت طاعتك، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي، فإنهم مسلمون وذوو[3] بيوتات، فلا تغيّر بهم، وكفى بهم مَنْ وراءهم من الأعادي[4] الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعْرِضْ عنهم إعراضَكَ عمّن أطاعك من أهل المغرب[5]، فقال يوسف بن تاشفين لكاتبه: فما ترى أنت؟ فقال: أيها الملك، اعلم أنّ تاجَ الملك وبَهْجَته شاهده الذي لا يُردّ[6]، فإنه خليق بما حصل في يده من الملك والمال أن يعفو إذا استُعفي، وأن يهب إذا استُوهب، وكلّما وهب جليلاً جزيلاً كان لقدره أعظم، فإذا عظم قدره تأصّل ملكه، وإذا تأصّل ملكه تشرف الناس بطاعته، وإذا كانت طاعته شرفًا جاءه الناس، ولم يتجشّم المشقّة إليهم، وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البُصَراء بطريق تحصيل الملك قال: من جاد ساد، ومن ساد قاد، ومن قاد ملك البلاد، فلمّا ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بِلُغته فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: أجِبِ القوم، واكتب بما يجب في ذلك، واقرأ عليَّ كتابك، فكتب الكاتب:

---

(١) في وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٤): «فلما جاءه».

(٢) في الوفيات: «لكنه كان يجيد فهم المقاصد..».

(٣) في الوفيات: «وهم من ذووي البيوتات».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥٥) والوفيات: «الأعداء».

(٥) هكذا في الوفيات، وفي طبعة دار صادر: «الغرب».

(٦) في الوفيات: «لا يردُّ بابه».

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، من يوسف بن تاشفين، سلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، تحية مَنْ سالمكم وَسَلَّم عليكم[١]، وإنكم مِمّا في أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصين[٢] مِنّا بأكرم إيثار وسَمَاحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، واللّه ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام». فلمّا فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه، فاستحسنه، وقَرَن[٣] به ما يصلح لهم من التحف ودَرَق اللّمط[٤] التي لا توجد إلاّ ببلاده، وأنفذ ذلك إليهم، فلمّا وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به، وعظّموه، وسُرُّوا[٥] بولايته، وتقوّت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم، وأزمعوا إن رأوا من[٦] الفرنج ما يَرِيبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم، أو يمدَّهم بإعانة منه.

وكان ملك الإفرنج الأذفونش لَمّا وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف، وكان كلّ من حاز بلدًا وتقوّى فيه مَلَكه وادّعى الملكَ وصار[٧] مثل ملوك الطوائف، فطمع فيهم الأذفونش بسبب ذلك، وأخذ كثيرًا من ثغورهم، فقوي شأنه، وعظم سلطانه، وكثرت عساكره، وأخذ طليطلة من صاحبها القادر باللّه بن المأمون يحيىٰ بن ذي النون بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها في منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، فزاد لعنه اللّه تعالى بملكه طليطلة قوّةً إلى قوّته، وأخذ يجوسُ خِلالَ الديار، ويستفتح المعاقل والحصون.

قال ابن الأثير في «الكامل»[٨]: وكان المعتمد بن عباد أعظم ملوك الأندلس، ومتملّك[٩] أكثر بلادها، مثل قرطبة وإشبيلية، وكان ـ [مع ذلك][١٠] ـ يؤدّي الضريبة إلى

---

(١) في وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٥): «وسلّم إليكم، وحكّمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مِمّا. .».
(٢) في الوفيات: «مخصوصون».
(٣) في الوفيات: «وقرن به يوسف بن تاشفين دَرَقًا لمطية ممّا لا يكون إلاّ في بلاده. .».
(٤) اللَّمْط واللمطية، بفتح اللام وسكون الميم: نسبة إلى لمطة وهي بليدة عند السوس الأقصى، بينها وبين سجلماسة عشرون يومًا. وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٥).
(٥) في الوفيات: «وفرحوا».
(٦) في الوفيات: «من ملك الفرنج».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٥): «وصاروا».
(٨) الكامل في التاريخ (جـ ١٠ ص ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٩) في الكامل في التاريخ: «وكان يملك أكثر البلاد».
(١٠) ما بين قوسين غير وارد في الكامل في التاريخ.

الأذفونش كلّ سنة. فلمّا تملّك[1] الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد الضريبة المعتادة[2]، فلم يقبلْها منه، وأرسل إليه يهدِّده ويتوعّده بالمسير إلى قرطبة[3] ليفتحها، إلاَّ أن يسلّم إليه جميع الحصون المنيعة، ويبقى السهل للمسلمين، وكان الرسول في جَمْع كثير نحو[4] خمسمائة فارس، فأنزله المعتمد، وفرّق أصحابه على قواد عسكره، ثم أمر قوّاده[5] أن يقتل كلّ منهم مَنْ عنده من الكفرة، وأحضر الرسول وصَفَعَه حتى خرجت عيناه، وسلم من الجماعة ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش وأخبروه[6] الخبر، وكان متوجِّهًا إلى قرطبة ليحاصرها، فرجع[7] إلى طُلَيطلة ليجمع آلات الحصار، [ويكثر العدد والعدّة][8]، انتهى.

وقال الفقيه أبو عبد اللَّه [محمد بن][8] عبد اللَّه بن عبد المنعم الحميري في كتابه «الروض المعطار، في ذكر المدن والأقطار» ما ملخّصه[9]: إنه لَمّا اشتغل المعتمد بغَزْو ابن صُمَادح صاحب ألمَرِيَّة حتى[10] تأخّر الوقتُ الذي كان يدفع فيه الضريبة للأذفونش وأرسلها إليه بعد ذلك، استشاط الطاغية غضبًا، وتشطط، وطلب بعض الحصون زيادة على الضريبة، وأمعن في التَّجَنِّي، وسأل في دخول آمرأته القمجيطة[11] إلى جامع قرطبة لتلد فيه، إذ كانت حاملاً، لما أشار عليه بذلك القسيسون والأساقفة لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظّمة عندهم عمل عليها المسلمون الجامع الأعظم، وسأل أن تنزل امرأته المذكورة بالمدينة الزهراء غربي مدينة قرطبة، [وهي التي أنشأ بناءها الناصرُ لدين اللَّه، وأمعن في بنائها، وأغرب في حسنها، وجَلَب إليها الرخام الملوّن والمرمر الصافي والحوض المشهور من البلاد والأقطار، وكان يثيب على السارية بكذا وكذا غير الثمن وأجرة

---

(١) في الكامل في التاريخ: «مَلَكَ».
(٢) في الكامل: «الضريبة على عادته، فردّها عليه ولم يقبلها منه، فأرسل إليه يتهدّده..».
(٣) في الكامل: «إلى مدينة قرطبة ويتملَّكها إلاّ أن يسلّم إليه جميع الحصون التي في الجبل..».
(٤) كلمة «نحو» غير واردة في الكامل في التاريخ.
(٥) في الكامل في التاريخ: «ثم أمر كل مَنْ عنده منهم رجل أن يقتله، وأحضر..».
(٦) في الكامل: «فأخبروه».
(٧) في الكامل: «فلمّا بلغه الخبر عاد إلى طليطلة».
(٨) ما بين قوسين غير وارد في الكامل في التاريخ.
(٩) الروض المعطار (ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩).
(١٠) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٦): «حين».
(١١) في الروض المعطار: «القمطيجة».

الحمل، وأنفق فيها الأموال العظيمة، واشتغل بها، وكان يباشر الصناع بنفسه، حتى تخلّف عن حضور الجمعة ثلاث مرات متواليات، وحضر في الرابعة، وكان الخطيب يومئذ الفقيه الزاهد مُنْذر بن سعيد البَلُّوطي، فعرّض به في الخطبة، ووبّخه على رؤوس الملأ، وقصته في ذلك مشهورة، وبناء الزاهر أيضًا من أعظم[1] مباني الإسلام، فمن أراد الوقوف على ذلك فعليه بتاريخ ابن حيان][2].

ولنرجع إلى الأذفونش فإن الأطباء والقُسُوس[3] لما أشاروا أن تكون المرأة المذكورة ساكنة بالزهراء، وتتردَّد إلى الجامع المذكور حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة من الجامع المذكور، وكان السفير في ذلك يهوديًا كان وزير الأذفونش، فامتنع ابن عَبَّاد من ذلك، فراجعه، فأباه وأيأسه من ذلك، فراجعه اليهودي في ذلك، وأغلظ له في القول، وواجهه[4] بما لم يحتمله ابنُ عباد، فأخذ ابن عباد محبرة كانت بين يديه وضرب[5] بها رأس اليهودي، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فَصُلِبَ منكوسًا بقرطبة، واستفتى، لَمّا سكن غضبهُ، الفقهاءَ عن حكم ما فعله باليهودي، فبادره الفقيه محمدُ بن الطلاع بالرخصة في ذلك لتعدّي الرسول حدودَ الرسالة إلى ما استوجب به القتل، إذ ليس له ذلك، وقال للفقهاء: إنما بادرتُ[6] بالفتوى خوفًا أن يكسل الرجل عمّا عزم عليه من مُنَابذة العدوِّ، وعسى اللّه أن يجعل في عزيمته للمسلمين فرجًا. وبلغ الأذفونشَ ما صنعه ابن عباد، فأقسم بآلهته ليغزونّه بإشبيلية، وليحاصرنه[7] في قصره، فجرّد جيشين جعل على أحدهما كلبًا من مَساعير كلابه وأمره أن يسير على كورة باجة من غرب الأندلس ويُغير على تلك التخوم والجهات، ثم يمرّ على لَبْلَة إلى إشبيلية، وجعل موعده إياه[8] طريانة للاجتماع معه، ثم زحف الأذفونش[9] بنفسه في جيش آخر عَرَمْرَم، فسلك طريقًا غير الطريق التي

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥٧): «من أغرب».
(٢) ما بين قوسين غير وارد في الروض المعطار، وهو استطراد من المقري.
(٣) القُسُوس: جمع قَسّ وهو رجل الدين عند النصارى.
(٤) في الروض المعطار: «وشافهه».
(٥) في الروض: «فأنزلها على رأس..».
(٦) في الروض: «بدرتُ».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٥٨): «ويحاصره». وفي الروض المعطار: «ويحصره».
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٨): «أمام».
(٩) في الروض المعطار: «ثم زحف ابن فرذلند..».

سلكها الآخر، وكلاهما عَاثَ في البلاد[1] وخَرَّبَ ودمّر، حتى اجتمعا لموعدهما بضفة النهر الأعظم قُبالة قصر ابن عباد. وفي أيام مقامه هنالك كتب إلى ابن عباد زاريًا عليه: كثر بطول مقامي في مجلسي الذبان[2]، واشتدّ عليَّ الحرّ، فأتحفني من قصرك بمروحة أروّح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي[3]، فوقّع له ابن عباد بخطّ يده في ظهر الرقعة: قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللمطية تروّح منك لا تروح عليك، إن شاء الله تعالى، فلما وصلت الأذفونش رسالة ابن عباد، وقرئت عليه، وعلم مقتضاها، أطرق إطراق مَنْ لم يخطر له ذلك ببال. وفشا[4] في الأندلس توقيعُ ابن عباد، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين، والاستظهار به على العدوّ، فاستبشر الناسُ، وفرحوا بذلك، وفُتحت لهم أبواب الآمال. وأما ملوك طوائف الأندلس فلمّا تحقّقوا عزْمَ ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك، اهتمّوا منه، ومنهم من كاتبه، ومنهم من كلّمه مواجهة، وحَذّروه عاقبة ذلك، وقالوا له: الملك عقيم، والسيفان لا يجتمعان في غِمْدٍ واحد، فأجابهم ابنُ عباد بكلمته السائرة مثلاً: رَعْيُ الجمال خيرٌ من رَعْي الخنازير، ومعناه أنَّ كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء خيرٌ من كونه ممزَّقًا للأذفونش[5] أسيرًا له يرعى خنازيره في قَشْتَالَة. وقال لعذّاله ولُوَّامه: يا قومُ، إني من أمري على حالتين[6]: حالة يقين، وحالة شكّ، ولا بُدَّ لي من إحداهما، أما حالة الشكّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش[5] ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة شك[7]، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا[8] أُرْضِي اللّه، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطت اللّه تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يُرْضي اللّه وآتي ما يسخطه؟ فحينئذ قَصَّر أصحابه عن لومه.

---

(١) في الروض: «في بلاد المسلمين».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٨): «الذباب».

(٣) في الروض المعطار: «عني».

(٤) في الروض المعطار: «وفشا في بلاد الأندلس خبر توقيع..».

(٥) في الروض المعطار: «لابن فرذلند».

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٨): «على حالين».

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٣٩): «حالة الشكّ».

(٨) في الطبعة نفسها: «فإني».

ولَمْـا عزم أَمَـرَ صـاحبَ بَـطَلْيَـوْسَ المتـوكـلَ عمـرَ بن محمـد، وعبـدَ اللّه بن حَبُّـوس الصنهاجي صاحب غَرْنَاطة أن يبعث إليه كلٌّ منهما قاضي حضرته، ففعلا، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة أبـا بكر عبيـد اللّه بن أدهم، وكان أعقـل أهل زمـانه. فلمّـا اجتمع[1] عنـده القُضَـاة بإشبيليـة، أضاف إليهم وزيـره أبا بكـر بن زيدون، وعـرّفهم أربعتهم أنهم رُسُله إلى يوسف بن تاشفين، وأسند إلى القضاة مـا يليق بهـم من وعظ يوسف بن تـاشفين وترغيبـه في الجهاد، وأسند إلى وزيره[2] ما لا بُدَّ منه في تلك السِّفارة من إبرام العقود السلطانية، وكـان يوسف بن تاشفين لا تـزال تَفِدُ[3] عليـه وفود ثغـور الأندلس مستعـطفين، مجهشين بالبكـاء، ناشدين باللّه والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولتـه، فيسمع[4] إليهم، ويُصْغِي لقولهم، وترقُّ نفسه لهم.

فما عبرت رسُل ابنِ عباد البحرَ إلاّ ورسُلُ يوسف بالمـرصاد، ولمّـا انتهت الرسـل إلى ابن تاشفين أقبل عليهم، وأكرم مَثْوَاهم، واتّصل ذلك بـابن عباد، فـوجّه من إشبيليـة أسطولاً نحو صاحب سبتة، فانتظمت في سلك يوسف، ثم جَـرَتْ بينه وبين الـرسل مـراوضات، ثم انصرفت إلى مُرْسِلهـا، ثم عبر يـوسف البحر عبـورًا سهلاً، حتى أتى الجـزيرة الخضـراء، ففتحوا له، وخرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات، وأقاموا له سوقًا جلبوا إليـه مـا عندهم من سـائر المـرافق، وأذنوا للغُـزَاة في دخول البلد والتصـرّف فيـه[5]، فـامتـلأت المسـاجد والـرحبات بـالمطَّوِّعين[6]، وتـواصـوا بهم خيـرًا، هـذا مَسَـاق صـاحـب «الـروض المعطار».

وأما ابن الأثير[7] فإنه لَمَّـا ذكر وقعـة الزلاّقـة ذكر مـا تقدّم من فعـل المعتمد بـالأرسال وقتلهم، وتخـوف أكـابـر الأنـدلس من الأذفـونش، وأنـه اجتمـع منهم رؤسـاء، وسـاروا إلى

---

(١) في الروض المعطار: «فلما اجتمع القضاة عنده..».
(٢) في الروض المعطار: «إلى ابن زيدون».
(٣) في الروض المعطار (ص ٢٨٩): «يفد».
(٤) في الروض: «فيستمع».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٠): «فيها».
(٦) أصلها: «بالمتطوعين» فقلبت التاء طاء وأدغمت في الطاء.
(٧) الكامل في التاريخ (جـ ١٠ ص ١٥١ ـ ١٥٢).

القاضي عبد اللّٰه بن محمد بن أدهم[1]، وقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصَّغَار والذُّلَّة وإعطائهم الجِزْية، بعد أن كانوا يأخذونها، وقالوا: قد غلب على البلاد الفرنج، ولم يبق إلاَّ القليل، وإن دام[2] هذا الأمر عادت نصرانية كما كانت أولاً، وقد رأينا رأيًا نعرضه عليك، قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عَرَب إفريقية، ونبذل لهم إذا[3] وصلوا إلينا شطر أموالنا، ونخرج معهم مجاهدين في سبيل اللّٰه، فقال لهم: إنا نخشى إن وصلوا إلينا أن يخرّبوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية، ويتركوا الإفرنج ويبدأوا بنا، والمرابطون أصلح منهم، وأقرب إلينا، فقالوا له: فكاتب أمير المسلمين، وآسأله العبور إلينا أو إعانتنا بما تيسّر من الجند. فبينما هم في ذلك يتراوضون إذ قدم عليهم المعتمد بن عباد قرطبة، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له المعتمد ابن عباد: أنت رسولي إليه في ذلك، فامتنع، وإنما أراد أن يبرّىء نفسه من ذلك، فألحَّ عليه المعتمد، فسار إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فوجده بسبتة، وأبلغه الرسالة، وأعلمه بما فيه المسلمون من الخوف من الأذفونش، ففي الحال أمر بعبور العساكر إلى الأندلس، وأرسل إلى مراكش في طلب مَنْ بقي من العساكر، فأقبلت إليه يتلو بعضها بعضًا، فلمّا تكاملت عنده عبر البحر، واجتمع بالمعتمد بن عباد بإشبيلية، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضًا، وخرج من أهل قرطبة عسكر كثير، وقصده المطَّوِّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى الأذفونش فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طُلَيطلة، وكتب إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتابًا كتبه له بعضُ غواة[4] أدباء المسلمين يُغلظ له في[5] القول، ويصف ما معه[6] من القوة والعُدد والعَدَد، وبالغ في ذلك، فلمّا وصله وقرأه يوسف أمر كاتبه أبا بكر بن القصيرة أن يجيبه، وكان كاتبًا مفلقًا، فكتب وأجاد، فلمّا قرأه على أمير المسلمين قال: هذا كتاب

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٦٠): «عبيد اللّٰه». و «ابن أدهم» ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٠).

(٢) في طبعة دار صادر: «وإن طال».

(٣) في الكامل في التاريخ: «فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا وخرجنا معهم. . ».

(٤) كلمة «غواة» غير واردة في الكامل في التاريخ (جـ ١٠ ص ١٥٢).

(٥) كلمة «في» غير واردة في الكامل في التاريخ.

(٦) في الكامل في التاريخ: «ما عنده».

طويل، أحضر(١) كتاب الأذفونش واكتبْ في ظهره: «الذي يكون ستراه»(٢)، وأرسله إليه، فلمّا وقف عليه الأذفونش ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به.

وذكر ابن خلكان(٣) أن يوسف بن تاشفين أمر بعبور الجِمال فعبر منها ما أغصَّ الجزيرة، وارتفع رُغَاؤها إلى عَنان السماء، ولم يكن أهلُ الجزيرة رَأَوْا جملاً قطُّ ولا خيلُهم(٤)، فصارت الخيل تجمحُ من رؤية الجمال ومن رُغَائها، وكان ليوسف في عبور الجمال رأيٌ مصيب، فكان يحدق بها عسكره، ويحضرها للحرب، فكانت خيل الفرنج تجمح منها. وقدم يوسف بين يديه كتابًا للأذفونش يعْرِض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب، كما هي السّنّة، ومن جملة ما في الكتاب: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى(٥) الاجتماع بنا، وتمنّيت أن تكون لك سفن تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرْنا(٦) إليك، وقد جمع اللّه تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك ﴿ وما دُعاءُ الكافرينَ إلاّ في ضَلالٍ ﴾(٧) انتهى بمعناه، وأكثره بلفظه.

ولنرجع إلى كلام صاحب «الروض المعطار»(٨) فإنه أقعد بتاريخ الأندلس، إذ هو منهم، وصاحب البيت أدرى بالذي فيه، قال رحمه اللّه تعالى: فلمّا عبر يوسف وجميع جيوشه(٩) [إلى الجزيرة الخضراء](١٠) انزعج إلى إشبيلية على أحسن الهيئات، جيشًا بعد جيش، وأميرًا بعد أمير، وقبيلاً بعد قبيل، وبعث المعتمدُ ابنَه إلى لقاء يوسف، وأمر عمال البلاد بجَلْب الأقوات والضيافات، ورأى يوسف من ذلك ما سرّه ونشطه، وتواردت الجيوش مع أمرائها على إشبيلية، وخرج المعتمد إلى لقاء يوسف من إشبيلية في مائة فارس ووجوه

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤١): «وأحضر كتاب.. وكتب في ظهره..».
(٢) في الكامل في التاريخ: «سترًا له».
(٣) وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٦).
(٤) أي: ولا خيلهم رأت الجمال.
(٥) في وفيات الأعيان: «في الاجتماع».
(٦) في الوفيات: «أجزْنا».
(٧) سورة غافر ٤٠، الآية ٥٠.
(٨) الروض المعطار (ص ٢٨٩ ـ ٢٩١).
(٩) في الروض المعطار: «الجيوش».
(١٠) ما بين قوسين غير وارد في الروض المعطار.

أصحابه، فلمّا[1] أتى محلة يوسف ركض[2] نحو القوم، وركضوا نحوه، فبرز إليه يوسف وحده، والتقيا منفردين، وتصافحا وتعانقا، وأظهر كلٌّ[3] منهما لصاحبه المودّة والخلوص، وشكرا[4] نِعَمَ اللّه تعالى، وتواصيا بالصبر والرحمة، وبشّرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر، وتضرّعا إلى اللّه تعالى في أن يجعل ذلك خالصًا لوجهه، مقربًا إليه، وافترقا، فعاد يوسف لمحلّته، وابنُ عبّاد إلى جهته، وألحق[5] ابن عباد ما كان أعدّه من هدايا وتُحَف وضيافات[6] أوسع بها على[7] محلّة يوسف بن تاشفين، وباتوا تلك الليلة، فلمّا أصبحوا وصَلّوا الصبح ركب الجميع، وأشار ابن عباد على يوسف بالتقدّم نحو إشبيلية، ففعل، ورأى الناس من عزّة سلطانه[8] ما سرّهم، ولم يبق من ملوك الطوائف بالأندلس إلاّ مَنْ بادر أو أعان وخرج أو أخرج، وكذلك فعل الصحراويون مع يوسف، كلّ صقع من أصقاعه رابطوا وكابدوا[9] . وكان الأذفونش، لَمّا تحقق الحركة والحرب، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صُلْبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة ما لا يُحْصَى عدده، وجواسيس كلّ فريق تتردّد بين الجميع، وبعث الأذفونش[10] إلى ابن عباد: إنَّ صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاده[11]، وخاض البحور وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أكلّفكم تعبًا، أمضي إليكم وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم، وقال[12] لخاصّته وأهل مشورته: إني رأيت[13] أني إن مكنتهم من الدخول إلى بلادي، فناجزوني[14] فيها وبين جُدُرها، وربما كانت الدائرة عليّ، يستحكمون البلاد،

(١) في الروض: «وأتى».
(٢) في الروض: «فركض».
(٣) في الروض: «كل واحد منهما».
(٤) في الروض: «فشكرا».
(٥) في الروض: «ولحق بابن..».
(٦) في الروض: «وألطاف».
(٧) كلمة «على» غير واردة في الروض.
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ٦ ص١٤٢): «سلطانهم».
(٩) في طبعة دار صادر (جـ٤ ص٣٦٢) والروض المعطار: «وصابروا».
(١٠) في الروض المعطار: «وبعث ابن فرذلند».
(١١) في الروض: «من بلاد بعيدة».
(١٢) في الروض: «وقال لأهل ودّه ووزرائه».
(١٣) في الروض: «إني رأيت إن أمكنتهم..».
(١٤) في الروض: «فناجزوني بين جدرها..».

ويحصدون من فيها غَدَاةً واحدة، ولكني أجعل يومهم معي في حَوْز بلادهم، فإن كانت عليّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلّا بعد أُهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي، وجبر لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خُفْتُ أنا أن يكون فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها، ثم برز بالمختار من جنوده، وأنجاد جموعه على باب دربه، وترك بقيّة جموعه خلفه، وقال حين نظر إلى ما اختاره منهم: بهؤلاء أقاتل الجن والإنس وملائكة السماء، فالمقلّل يقول[1]: المختارون أربعون ألف دارع، ولكل واحد أتباع.

وأما[2] النصارى فيعجبون مِمّن يزعم ذلك، ويرون أنهم أكثر من ذلك كلّه. واتّفق الكلّ أنَّ عدد المسلمين أقل[3] من الكفرة. ورأى الأذفونش في نومه كأنه راكبُ فِيلٍ يضرب نقيرة طبل، فهالته الرؤيا، وسأل عنها القسوس والرهبان فلم يجبْه أحد، فدسَّ يهوديًّا عمَّنْ يعلم تأويلها من المسلمين، فَدُلَّ على مُعَبِّر[4]، فقصَّها عليه، ونسبها لنفسه، فقال له المعبر: كذبت، ما هذه الرؤيا لك، ولا أعبرها لك إلاَّ إن صدقتني بصاحب الرؤيا، فقال له: اكتم عليَّ، الرؤيا للأذفونش، فقال المعبِّرُ: صدقت ولا يراها غيره، والرؤيا تدلُّ على بلاء عظيم، ومصيبة فادحة فيه وفي عسكره، وتفسيرُها قوله تعالى: ﴿ ألم تَرَ كيف فَعَلَ رَبُّكَ بأصحابِ الفِيلِ ﴾[5] وأمّا ضربه النقيرة فتأويلها ﴿ فإذا نُقِرَ في النّاقُورِ فذلكَ يومئذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴾[6] الآية، فانصرف اليهوديّ وذكر للأذفونش ما وافق خاطره. ثم خرج الأذفونش ووقف على الدروب، ومال بجيوشه إلى الجهة الغربية من بلاد الأندلس، وتقدّم[7] السلطان يوسف فقصده، وتأخّر ابن عباد لبعض[8] مهمّاته، ثم انزعج يَقْفُو أثره بجيش فيه حماة الثغور، ورؤساء الأندلس، وجعل ابنَه عبدَ اللّٰه على مقدمته، وسار وهو ينشد لنفسه متفائلاً مكمّلاً البيت المشهور: [مجزوء الرمل]

---

(١) في الروض: «يقول: كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع، ولا بدّ لمن هذه صفته أن يتبعه واحد واثنان».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٣): «أما».

(٣) في الروض: «أقل من عدة المشركين».

(٤) في الروض: «على عابر».

(٥) سورة الفيل ١٠٥، الآية ١.

(٦) سورة المدثر ٧٤، الآيتان ٨، ٩ .

(٧) في الروض المعطار (ص ٢٩٠): «فتقدم يوسف فقصده. . ».

(٨) في الروض: «لبعض الأمر».

لا بُدَّ مِنْ فرجٍ قَرِيْبٍ يأتيك بالعجبِ العجيبِ
غَزْوٌ عليكَ مُبارَكٌ سيعودُ بالفتحِ القريبِ
للَّه سعدك إنه نكسٌ على دينِ الصليبِ
لا بُدَّ من يومٍ يكو ن له أخًا يومُ القليبِ[1]

ووافت الجيوش كلّها بَطَلْيوس، فأناخُوا بظاهرها، وخرج إليهم صاحبها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس، فلقيهم بما يجب من الضيافات والأقوات وبذل المجهود، وجاءهم الخبر بشخوص الأذفونش، ولَمّا ازدلف بعضُهم إلى بعض أذكى المعتمدُ عيونه في محلات الصحراويين خوفًا عليهم من مكايد الأذفونش، إذ هم غرباء لا علم لهم بالبلاد، وجعل يتولّى ذلك بنفسه، حتى قيل: إنّ الرجل من الصحراويين لا يخرج على طرف المحلّة لقضاء أمر أو حاجة إلاّ ويجدُ ابنَ عباد بنفسه مُطيفًا بالمحلّة، بعد ترتيب الخيل والرجال على أبواب المحلات، وقد تقدّم كتابُ السلطان يوسف إلى الأذفونش يدعوه إلى إحدى الثلاث المأمور بها شرعًا، فامتلأ الكافر غيظًا، وعتا، وطَغى، وراجعه بما يدلّ على شقائه، وقامت الأساقفة والرهبان فرفعوا[2] صُلْبانهم، ونشروا أناجيلهم، وتبايعوا على الموت، ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والصالحون مقام الوعظ، وحَضُّوهم على الصبر والثبات، وحذّروهم من الفَشَل والفرار، وجاءت الطلائع تخبر أنّ العدوّ مُشْرِفٌ عليهم صبيحةَ يومهم، وهو يوم الأربعاء، فأصبح المسلمون وقد أخذوا مَصَافَّهم، فكَعَّ[3] الأذفونش، ورجع إلى إعمال المَكْر والخديعة، فعاد الناسُ إلى محلاّتهم، وباتوا ليلتهم، ثم أصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عباد يقول: غدًا يوم الجمعة وهو عيدكم، والأحد عيدنا، فليكن لقاؤنا بينهما وهو يوم السبت، فعرَّفَ المعتمدُ بذلك السلطان يوسفَ، وأعلمه أنها حيلة منه وخديعة، وإنما قَصْدُه الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناسُ على استعداد له يوم الجمعة كلَّ النهار، وبات الناسُ ليلتهم على أُهْبَة واحتراس. وبعد مضيٍّ جزء من الليل انتبه الفقيهُ الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي ـ وكان في محلّة ابن عباد ـ فَرِحًا مسرورًا يقول: إنه رأى النبيَّ، ﷺ، تلك الليلة في النوم

(١) أراد بيوم القليب يوم بدر الذي كان بين رسول اللّه، ﷺ ومشركي مكة، وانتصر فيه الرسول الكريم.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٥): «ورفعوا». وفي الروض المعطار: «فرفعوا صلبهم. . .».
(٣) كَعَّ: جَبُنَ وضَعُفَ. محيط المحيط (كَعَّ).

فبشّره بالفتح والموتِ على الشهادة في صبيحة تلك الليلة، فتأهّب ودعا وتضرّع ودهن رأسه وتطيّب، وانتهى ذلك إلى ابن عباد، فبعث إلى يوسف يخبره بها تحقيقًا لما توقعه من غَدْر الكافر باللّه تعالى. ثم جاء بالليل[١] فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلّة الأذفونش وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحق بقية الطلائع متحقّقين[٢] بتحرّك الأذفونش، ثم جاءت الجواسيسُ من داخل محلّتهم[٣] تقول: استرقْنا السمعَ فسمعْنا الأذفونش يقول لأصحابه: ابن عباد مِسْعَر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون، وإن كانوا أهل حِفاظ وذوي بصائر في الحروب[٤]، فهم غيرُ عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابنُ عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، واصبروا[٥]، فإنِ انكشف لكم هان عليكم الصحراويون بعده، ولا أرى ابنَ عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة، فعند ذلك بعث ابن عباد الكاتب أبا بكر بن القصيرة إلى السلطان يوسف يُعَرِّفه بإقبال الأذفونش، ويستحثّ نصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي المحلّات حتى جاء يوسف بن تاشفين، فعرّفه بجلِيَّةِ الأمر، فقال له: قل له إني سأقرب منه إن شاء اللّه تعالى، وأمر يوسفُ بعضَ قواده أن يمضي بكتيبة رسمها له حتى يدخل محلّة النصارى فيُضْرِمها نارًا ما دام الأذفونش مشتغلاً مع ابن عباد. وانصرف ابن القصيرة إلى المعتمد، فلم يصلْه إلاّ وقد غشيته[٦] جنود الطاغية، فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله، ومال الأذفونش عليه بجموعه، وأحاطوا به من كلّ جهة، فهاجَتِ الحربُ، وحَمِيَ الوطيسُ، واستحرَّ[٧] القتل في أصحاب ابن عباد، وصبر ابن عباد صبرًا لم يُعْهد مثله لأحد، واستبطأ السلطان يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعضّته الحرب[٨]، واشتدّ عليه وعلى مَنْ معه البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون وساءت الظنون، وانكشف بعض أَصحاب ابن عباد وفيهم ابنه عبد اللّه، وأُثْخن ابن عباد جراحات، وضُرِبَ على رأسه ضربة فلقتْ هامته حتى وصلت إلى صدغه وجرحت يُمْنَى يديه، وطُعن في أحد

---

(١) في الروض المعطار: «في الليل».

(٢) في الروض: «محققين بتحرك ابن فرذلند..».

(٣) في الروض: «من داخل محلات ابن فرذلند يقولون: استرقْنا..».

(٤) في الروض المعطار: «في الجهاد غير عارفين..».

(٥) كلمة «واصبروا» غير واردة في الروض المعطار.

(٦) في الروض (ص ٢٩١): «غشيه».

(٧) استحرَّ القتلُ: كثر واشتدّ.

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٦): «الحروب».

جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس كلّما هلك واحد قُدِّم له آخر، وهو يقاسي حياض الموت، ويضرب يمينًا وشمالاً، وتذكّر في تلك الحالة ابنًا له صغيرًا كان مُغْرَمًا به تركه في إشبيلية عليلاً، وكنيته أبو هاشم فقال: [المتقارب]

أبا هاشم، هَشَّمَتْني الشِّفَارْ فلله صبري لذاك الأُوارْ
ذكرت شُخَيْصَكَ تحت العجاج فلم يَثْنِنِي ذِكْرُه للفِرارْ

ثم كان أوّل مَنْ وافى ابنَ عباد من قوّاد ابن تاشفين، داود بن عائشة، وكان بطلاً شجاعًا شهمًا، فنُفِّسَ بمجيئه عن ابن عباد، ثم أقبل يوسف بعد ذلك، وطبولُه تصعد[1] أصواتها إلى الجوّ. فلمّا أبصره الأذفونش وجّه حملته[2] إليه، وقصده بمعظم جنوده، فبادر إليهم السلطان يوسف، وصدمهم بجمعه، فردّهم إلى مركزهم، وانتظم به شملُ ابن عباد، واستنشق ريح الظفر، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وأظلم النهار بالعجاج والغبار، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة جاء معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين، وصدقوا الحملة، فانكشف الطاغية، ومرَّ هاربًا منهزمًا وقد طُعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع[3] بها بقية عمره.

وعلى سياق ابن خلكان[4] أنّ ابن تاشفين نزل على أقلّ من فرسخ من عسكر العدو في يوم الأربعاء، وكان الموعد في المناجزة في يوم السبت[5]، فغدر الأذفونش ومكر، فلمّا كان سحر يوم الجمعة منتصف رجب أقبلت طلائع ابن عباد، والروم في أثرها[6]، والناس على طمأنينة، فبادر ابن عباد للركوب، وبثّ[7] الخبر في العساكر فماجت بأهلها، ووقع البهت، ورجفت الأرض، وصار الناس فوضى على غير تعبية ولا أُهبة، ودهمتهم خَيْلُ

---

(١) في الروض: «وطبوله تصدع الجوّ. . ».
(٢) في الروض: «أشكولته».
(٣) يخمع: يعرج. محيط المحيط (خمع).
(٤) وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٧ ـ ١١٨).
(٥) في وفيات الأعيان: «السبت الأدنى».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٧): «على أثرها».
(٧) في الوفيات: «وانبثّ».

العـدوّ، فأحـاطتْ[1] بابن عبـاد، وحَطَّمت مـا تعرّض لهـا، وتركت الأرض حصيـدًا خَلْفَها، وجُرِحَ[2] ابنُ عباد جرحًا أشواه، وفَرَّ رؤساء الأندلس وتـركوا[3] محـلاّتهم وأسلموهـا، وظنّوا أنه وَهْيٌ[4] لا يُرْقَعُ، ونازلة لا تُدْفع، وظنَّ الأذفونش أنّ السلطان يوسف في المنهزمين، ولم يعلم أنّ العـاقبة للمتقين، فـركب أميـر المسلمين، وأحـدق بـه أنجـاد[5] خيله ورَجْله[6] من صنهـاجة رؤسـاء القبائـل، وقصدوا[7] محلّة الأذفـونش فاقتحمـوها ودخلوهـا، وفتكوا فيهـا، وقتلوا، وضُربت الطبـول، وزعقت البوقـات، فاهتـزّت الأرض، وتجاوبت الجبـال والآفاق، وتـراجـع الـروم إلى محـلاّتهم[8] بعـد أن علمـوا أنّ أميـر المسلمين فيهـا، فصـدمـوا أميـر المسلمين، فأفرج[9] لهم عنها، ثم كَرَّ عليهم فـأخرجهم منهـا، ثم كَرّوا عليـه فخرج[10] لهم عنها، ولم تزل الكرات بينهم تتوالى إلى أنْ أمر أمير المسلمين حَشَمَه السودان فتـرجّل منهم زهـاء أربعة آلاف، ودخلوا المعتـرك بدرق اللمط وسيـوف الهند ومـزاريق الزان[11]، فـطعنوا الخيـل فرَمَحت بفـرسانهـا، وأحجمت[12] عن أقرانهـا، وتـلاحق الأذفـونش بـأسْـوَد نفـدت مزاريقه، فأهوى ليضربه بالسيف، فلصق به الأسود، وقبض على عنانـه[13]، وانتضى خنجرًا كان متمنطقًا به، فأثبته في فخذه، فهتك حلق درعه، ونفذ من فخذه مع بـداد سرجـه، وكان وقت الـزوال، وهبّت ريح النصـر، فأنـزل اللّه سكينته على المسلمين، ونَصَـر دينه القـويم، وصدقوا الحملة على الأذفونش وأصحابه، فأخرجوهم عن محلّتهم، فولّوا ظهـورهم، وأَعْطَوا

---

(١) في الوفيات (ص ١١٨): «فقمرت ابن عباد. . ».

(٢) في الـوفيات: «وصـرع ابن عباد وأصـابه جـرح أشواه. . ». وفي طبعـة عبد الحميـد (جـ ٦ ص ١٤٧): «أساءه» بدل «أشواه».

(٣) في وفيات الأعيان: «وأسلموا».

(٤) في الوفيات: «وظنوا أنها وهية». والوَهْيُ: الشقُّ، التمزّق.

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٤٨): «جياد».

(٦) في الوفيات: «ورجاله».

(٧) في الوفيات: «فعمدوا».

(٨) في الوفيات: «محلتهم».

(٩) في طبعة عبد الحميد: «فخرج».

(١٠) في الوفيات: «فأفرج».

(١١) هكذا في الوفيات، وفي طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٦٨): «الران».

(١٢) هكذا في الوفيات، وفي طبعة دار صادر: «وأجحمت».

(١٣) في الوفيات: «على أعنّته».

أعناقهم، والسيوف تصفعهم، والرماح تطعنهم، إلى أن لحقوا ربوة لجأوا إليها واعتصموا بها، وأحدقت بهم الخيل، فلمّا أظلم الليل انساب الأذفونش وأصحابه من الربوة، وأفلتوا بعد ما تشبثت [1] بهم أظفار المنية، واستولى المسلمون على ما كان في محلتهم من الآلات والسلاح والمضارب والأواني وغير ذلك، وأمر ابن عباد بضم رؤوس قتلى المشركين، فاجتمع من ذلك تلٌّ عظيم، انتهى، وبعضه بالمعنى.

رَجْعٌ إلى كلام صاحب «الروض المعطار» قال[2]: ولجأ الأذفونش إلى تل كان يلي محلّته في نحو خمسمائة[3] فارس كلّ واحد منهم مكلوم، وأباد القتلُ والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم، وعمل المسلمون من رؤوسهم مآذن[4] يؤذنون عليها، والمخذول[5] ينظر إلى موضع الوقيعة ومكان الهزيمة فلا يرى إلاّ نَكالاً محيطًا به وبأصحابه، وأقبل ابن عباد على السلطان يوسف وصافحه، وهنّأه، وشكره، وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد، ومقامه، وحسن بلائه، وجميل صبره، وسأله عن حاله عندما أسلمته رجاله بانهزامهم عنه، فقال له: هم هؤلاء قد حضروا بين يديك فليخبروك.

وكتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية كتابًا مضمونه: كتابي هذا من المحلّة المنصورة[6] يوم الجمعة الموفي عشرين من رجب، وقد أعزّ اللّه الدين، ونصر المسلمين، وفتح لهم الفتح المبين، وهزم الكفرة المشركين[7]، وأذاقهم العذاب الأليم، والخطب الجسيم، فالحمدُ للّه على ما يسّره وسَنّاه من هذه المسرّة العظيمة، والنعمة الجسيمة، في تشتيت شمل الأذفونش، والاحتواء على جميع عساكره، أصْلاه اللّه نكال الجحيم! ولا أعدمه الوبالَ العظيم المليم! بعد إتيان النَّهْبِ على محلاّته، واستئصال القتل في جميع أبطاله وحُمَاته، حتى اتّخذ المسلمون من هاماتهم صَوَامع يؤذنون عليها، فللّه الحمد على جميل صنعه،

---

(١) في الوفيات: «نشبت فيهم أظفارهم».
(٢) الروض المعطار (ص ٢٩١ ـ ٢٩٢).
(٣) في الروض: «نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم . . .».
(٤) في الروض: «صوامع».
(٥) في الروض: «وابن فرذلند».
(٦) كلمة «المنصورة» غير واردة في الروض المعطار.
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٦٩): «والمشركين».

ولم يصبني والحمد لله[1] إلَّا جراحات يسيرة آلمت، لكنها فرجت[2] بعد ذلك، فللَّه الحمد والمنة، والسلام.

واسْتُشْهِدَ في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس، مثل ابن رميلة صاحب الرؤيا المذكورة، وقاضي مراكش أبي مروان عبد الملك المصمودي، وغيرهما، رحمهم اللَّه تعالى!

وحُكي أنَّ موضع المعترك كان على اتّساعه ما كان فيه موضع قدم، إلَّا على ميت أو دم، وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جُمِعت الغنائم، واستؤذن في ذلك السلطان يوسف، فعفَّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس، وعرّفهم أنَّ مقصده الجهاد والأجر العظيم، وما عند اللَّه في ذلك من الثواب المقيم، فلمّا رأت ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبّوه وشكروا له ذلك.

ولَمّا بلغ الأذفونش إلى بلاده وسأل عن أبطاله وشجعانه وأصحابه ففقدهم ولم يسمع إلَّا نواح الثَّكْلَى عليهم، اهتمَّ ولم يأكل ولم يشرب حتى هلك غمًّا وهمًّا، وراح إلى أمه الهاوية[3]، ولم يخلِّف إلَّا بنتًا واحدة جعل الأمر إليها، فتحصّنت بِطُلَيْطلة.

ورحل المعتمد إلى إشبيلية ومعه السلطان يوسف بن تاشفين، فأقام السلطان يوسف ابن تاشفين بظاهر إشبيلية ثلاثة أيام، ووردت عليه من المغرب أخبار تقتضي العزم، فسافر، وذهب معه ابن عباد يومًا وليلة، فحلف ابنُ تاشفين وعزم عليه في الرجوع، وكانت جراحاته تورَّمت عليه، فسير معه ولده عبد اللَّه إلى أن وصل البحر، وعبر إلى المغرب.

ولَمَّا رجع ابن عباد إلى إشبيلية جلس للناس، وهُنِّىء بالفتح، وقرأت القراء، وقامت[4] على رأسه الشعراء، فأنشدوه، قال عبد الجليل بن وهبون: حضرت ذلك اليوم، وأعْدَدْت قصيدة أُنشدها بين يديه، فقرأ القارىء ﴿ إلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ﴾[5] فقلت: بُعْدًا لي ولشعري! واللَّه ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به.

---

(١) في الروض المعطار (ص ٢٩٢): «بحمد اللَّه».

(٢) في الروض: «لكنها فَرَّحَتْ بعد ذلك وغَنَّمَتْ وأظفرتْ».

(٣) راح إلى أمّه الهاوية: أي هلك وراح إلى جهنم.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٠): «وقام».

(٥) سورة التوبة ٩، الآية ٤٠.

ولما عزم السلطان[1] يوسف بن تاشفين إلى بلاده ترك الأميرَ سير بن أبي بكر أحدَ قوّاده المشاهير، وترك معه جيشًا برَسْم غزو الفرنج، فاستراح الأمير المذكور أيامًا قلائل، ودخل بلاد الأذفونش، وأطلق الغارة، ونهب وسبى، وفتح الحصون المنيعة، والمعاقلَ الصعبة العويصة، وتوغّل في البلاد؛ وحصّل أموالاً وذخائر عظيمة، ورتّب رجالاً وفرسانًا في جميع ما أخذه، وأرسل للسلطان يوسف جميع ما حصّله، وكتب له يُعَرِّفُه أنَّ الجيوش بالثغور مقيمةٌ على مكابدة العدوّ وملازمة الحرب والقتال في أضيق العيش وأنكده، وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش[2] وأطيبه، وسأله مرسومه، فكتب إليه أن يأمرهم بالنقلة والرحيل إلى أرض العُدْوة، فمن فعل فذاك، ومن أبى فحاصرْهُ وقاتلْهُ، ولا تنفسْ عليه، ولتبدأ بمن والى الثغور، ولا تتعرّض للمعتمد بن عباد، إلَّا بعد استيلائك على البلاد، وكل بلد أخذته فولِّ فيه أميرًا من عساكرك، فأوّل من ابتدأ به من ملوك الأندلس بنو هُودٍ، وكانوا بِرُوطة - بضم الراء المهملة، وبعدها واو ساكنة، وطاء مهملة مفتوحة، وبعدها هاء ساكنة - وهي قلعة منيعة من عاصمات الذرى، وماؤها ينبع من أعلاها، وفيها من الأقوات والذخائر المختلفات ما لا تفنيه الأزمان، فحاصرها فلم يقدر عليها، ورَحَلَ عنها، وجَنَّد أجنادًا على هيئة الفرنج وزيّهم، وأمرهم أن يقصدوها ويُغِيرُوا عليها، وكمن هو وأصحابه بقرب منها، فلمَّا رآهم أهلُ القلعة استضعفوهم، فنزلوا إليهم، ومعهم صاحبُ القلعة، فخرج عليه سير المذكور، وقبضه باليد، وتسلّم الحصن. ثم نازل بني طاهر بشرق الأندلس، فأسلموا له البلاد، ولحقوا ببر العُدْوة. ثم نازل بني صُمَادح بألمريَّة، ولها قلعة حصينة، فحاصرهم، وضيق بهم، ولمّا علم ابن صُمَادح الغَلَبَ أسف ومات غبنًا، فأخذ القلعة، واستولى على ألمرية وجميع أعمالها. ثم قصد بَطَلْيوس، وكان بها المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس المتقدّم ذكره، فحاصره، وأخذه، واستولى على جميع أعماله وماله، ولم يبق له إلّا المعتمد بن عباد، فكتب للسلطان يوسف يعرفه بما فعل، ويسأله مرسومه في ابن عباد، فكتب إليه يأمره أنه يعرض عليه النقلة لبر العُدْوة بجميع الأهل والعشيرة، فإنْ رضي، وإلَّا فحاصره وخُذْه وأرسلْ به كسائر أصحابه، فواجَهَه وعرَّفه بما رسم به السلطان يوسف، وسأله الجواب، فلم يجب بنفي ولا إثبات، ثم إنه نازل إشبيلية، وحاصره بها، وألحَّ عليه،

---

(١) النقل هنا عن وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٩، ١٢٢ - ١٢٣) بإيجاز.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٠): «العيش».

فأقام الحصار شهرًا، ودخل البلد قهرًا، واستخرجه من قصره، فَحُمل وجميع أهله وولده إلى العُدْوة فأُنزل بأغمات، وأقام بها إلى أن مات، رحمه اللّه تعالى وعفا عنه!

وأمّا ابن الأثير[1] ففي كلامه تقديم وتأخير وبعض خلاف لِمَا مرّ.

وأخبار المعتمد بن عباد، وما رآه من الملك والعز كل حاضر وباد[2]، وما قاساه في الأسر، من الضيق والعسر، وسوء العيش أمر عجيب، يتّعظ به العاقل الأريب، وأمّا ما مدحته به الشعراء وأجوبته لهم في حالي يُسْره وعُسْره، وملكه وأسره، وطيّه ونشره، وتجهُّمه وبشره، فهو كثير، وفي كتب التواريخ منه نظيم ونثير، وقد قدّمْنا منه في هذا الكتاب ما يبعث الاعتبار ويثير، وخصوصًا في الباب السابع من هذا التأليف الذي هو عند المنصف أثير، وفي المعتمد وأبيه المعتضد يقول بعض الشعراء[3]: [الخفيف]

مِنْ بني مُنْذِرٍ وذاك انتسابٌ — زادَ في فخرهم بنو عبّادِ[4]
فتيةٌ لم تلدْ سواها المعالي — والمعالي قليلةُ الأولادِ

وقال ابن القطاع[5] في كتابه «لمح الملح» في حق المعتمد[6]: إنه أنْدَى ملوك الأندلس راحة، وأرحبهم ساحة، وأعظمهم ثِمادًا، وأرفعهم عمادًا، ولذلك كانت حضرته مَلْقى الرحال، وموسم الشعراء، وقِبْلة الآمال، ومألف الفضلاء، حتى إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك[7] من أعيان الشعراء، وأفاضل الأدباء، ما كان يجتمع ببابه، وتشتمل عليه حاشيتا جَنابه.

---

(١) راجع الكامل في التاريخ (جـ ١٠ ص ١٨٩ ـ ١٩٣).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٥٢): «في كل حاضر وباد». والحاضر: المقيم بالحاضرة، والبادي: المقيم بالبادية.

(٣) البيتان في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢١) منسوبين إلى بعض الشعراء. وفي الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٣٥) ينسبهما ابن الأبار إلى ابن اللبانة.

(٤) في الوفيات والحلة: «المنذرين وهو انتساب... في فخره..».

(٥) هو أبو الحسن علي بن القطّاع السعدي. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٤).

(٦) النص في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٤).

(٧) في الوفيات: «من ملوك عصره».

وقال ابن بسام في «الذخيرة»(١): للمعتمد شعر، كما انشقّ الكِمَامُ عن الزَّهْر، لو صار مثله مِمَّنْ جعل الشعر صناعة، واتّخذه بضاعة، لكان رائقًا معجبًا، ونادرًا مستغربًا، فمن ذلك قوله(٢): [الكامل]

أَكْثَرْتَ هَجْرَكَ(٣) غير أنك ربّما ... عَطَفَتْكَ أحيانًا عليَّ أمورُ
فكأنما زَمَنُ التهاجر بَيْنَنَا ... لَيْلٌ، وساعاتُ الوصالِ بُدُورُ

قال: وهذا المعنى ينظر إلى قول بعضهم من أبيات(٤): [السريع]

أَسْفَرَ ضوءُ الصبح عن وَجْهِه ... فقام ذاك الخال فيه بِلالْ
كأنما الخالُ على خدِّه ... ساعاتُ هجرٍ في زمان الوصالْ

وعزم على إرسال حَظَاياه من قرطبة إلى إشبيلية فخرج معهنّ يشيعهن فسايرهنّ من أول الليل إلى الصبح، فودعهنّ ورجع، وأنشد أبياتًا منها(٥): [الكامل]

سايَرْتُهُمْ والليلُ عَقَّدَ ثوبه ... حتى تَبَدَّى للنواظر معلما
فوقفت ثَمَّ مُوَدِّعًا وتَسَلَّمَتْ ... مني يَدُ الإصباح تلك الأنجما

وهذا المعنى في نهاية الحسن، ثم ذكر من كلامه جملة.

عَوْد وانعطاف ـ ولَمَّا جاء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى ناحية غَرْنَاطة(٦)، ـ بعد ما حصر بعض حصون الفرنج، فلم يقدر عليه ـ خرج إلى لقائه صاحبُ غَرْنَاطة عبد اللّه بن بلكين، فسلّم عليه، ثم عاد إلى بلاده ليخرج له التقادم، فغدر به، ودخل البلد، وأخرج

---

(١) الذخيرة (ق ٢ ص ٤١) ووفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٥).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٥٣): «فمنه قوله». والبيتان في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٤) ووفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٥)، وهما في ديوان المعتمد بن عباد (ص ١٣).
(٣) في الذخيرة: «هجري».
(٤) البيتان للأسعد بن بليطة، وهما في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٤) ووفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٥) وروايتهما مختلفة ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) النص والبيتان في وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٥). وورد البيتان أيضًا في الذخيرة (ق ٢ ص ٤٣)، وفي روايتهما بعض اختلاف عمّا هنا.
(٦) يريد الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس عام ٤٨١ هـ؛ لأن الجواز الأول كان في سنة ٤٧٩ هـ وهو الذي أدّى إلى معركة الزلاقة.

عبد اللَّه، ودخل قصره فوجد فيه من الذخائـر والأموال مـا لا يُحَدُّ ولا يُحْصَى، ثم رجع إلى مراكش وقد أعجبه حسنُ بلاد الأنـدلس وبهجتها، ومـا بها من المبـاني والبساتين والمـطاعم وسائر الأصناف التي لا توجد في سائر[1] بلاد العُـدْوة، إذ هي بلاد بـربر وأجـلاف عُربـان، فجعل خواصُّ يوسف يعظّمون عنده بلاد الأندلس، ويحسِّنون له أخذها، ويُوغِرُونَ قلبه على المعتمد بأشياء نقلوها عنه، فتغيّر على المعتمد، وقصد مُشَارفة الأندلس.

وحكى ابن خلدون[2] أنّ علماء الأندلس أَفْتَوا ابنَ تاشفين بجـواز خلع المعتمد وغيـره من ملوك الـطوائف، وبقتالهم إن امتنعـوا، فجهّز يـوسفُ العساكـر إلى الأنـدلس، وحـاصـر سير بنُ أبي بكر أحدُ عظماء دولة يوسف إشبيليةَ وبها المعتمد، فكان من دفاعه وشدّة ثباته ما هو معلوم، ثم أُخذ أسيرًا، وصار طَرْفُ الملك بعده حسيرًا.

وفي وصف ذلك يقول صـاحب القلائـد بعد كـلام[3]: ثم جُمع هـو وأهله، وحَمَلَتهم الجَوَاري المنشآت[4]، وضمتهم جوانحها كأنهم أموات، بعـد ما ضـاق عنهم القصر، وراق منهم المِصْر[5]، والناسُ قـد حشروا بضفتي الـوادي، يبكون بـدموع كـالغَوَادي[6]، فسـاروا والنوح يَحْدوهم، والبَوْحُ باللوعة لا يعدوهم، انتهى.

ولَمّـا[7] فرغ أميـر المسلمين يوسف بن تـاشفين من أمر غـزوة الزلاّقـة المتقدّم ذكـرُها ورجع تكرّم له ابن عباد، وسأله أن ينزل عنده، فعرّج إلى بلاده إذ أجابه إلى مـا طلب، فلمّا انتهى ابن تـاشفين إلى إشبيلية مـدينة المعتمـد ـ وهي من أجل[8] المـدن وأحسنهـا منـظرًا ـ أمعن[9] يوسف النظر فيهـا وفي محلّها، وهي على نهـر عظيم مستبحـر[10] تجري فيـه السفن

(١) كلمة «سائر» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٣).

(٢) تاريخ ابن خلدون (م ٦ ص ٣٨٤).

(٣) قلائد العقيان (ص ٢٢ ـ ٢٣).

(٤) الجواري المنشآت: السفن.

(٥) في القلائد (ص ٢٣): «العصر».

(٦) الغوادي: جمع غادية وهي السحابة. مختار الصحاح (غدا).

(٧) النقل هنا عن وفيات الأعيان (جـ ٧ ص ١١٩ ـ ١٢٢).

(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٤): «من أحسن المدن وأجلّها منظرًا. .».

(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٥٥): «وأمعن».

(١٠) في الطبعة نفسها: «متبحر».

بالبضائع جالبة من برّ المغرب وحاملة إليه، وفي غربيها رستاق عظيم مسيرة عشرين فرسخًا يشتمل على آلاف من الضياع كلّها تين وعنب وزيتون، وهذا هو المسمّى بشَرَف إشبيلية، وتمتارُ[1] بلاد المغرب كلّها بهذه الأصناف منه، وفي جانب المدينة قصور المعتمد وأبيه المعتضد في غاية الحسن والبهاء، وفيها أنواع ما يحتاج إليه من المطعوم والمشروب والملبوس والمفروش وغير ذلك، فأنزل المعتمدُ يوسفَ بن تاشفين في أحدها، وتولّى من إكرامه وخدمته ما أوسع شكر ابن تاشفين له، وكان مع ابن تاشفين أصحاب له ينبّهونه على حسن تلك الحال وتأمّلها، وما هي عليه من النعمة والإتراف، ويُغْرُونه باتّخاذ مثلها، ويقولون له: إنّ فائدة الملك قطع العيش فيه بالتنعّم واللّذّة، كما هو المعتمد وأصحابه، وكان ابن تاشفين داهية عاقلاً مقتصدًا في أموره، غير متطاول ولا مبذّر، غير سالك نهج الترف والتأنّق في اللذة والنعيم، إذ ذهب صَدْرُ عمره في بلاده بالصحراء في شَظَف العيش[2]، فأنكر على مَنْ أغراه بذلك الإسراف، وقال له: الذي يلوح لي من أمر هذا الرجل - يعني المعتمد - أنه مُضَيِّع لما في يده من الملك؛ لأنَّ هذه الأموال الكثيرة التي تُصرف في هذه الأحوال لا بُدَّ أن يكون لها أرباب لا يمكن أخذ هذا القدر منهم على وجه العدل أبدًا، فأخْذُه بالظلم وإخراجه في هذه التُّرَّهات من أفحش الاستهتار، ومَنْ كانت همّته في هذا الحدّ من التصرّف فيما لا يعدو الأجوفين متى تستنجد[3] همّته في ضبط بلاده وحفظها، وصون رعيّته والتوفير لمصالحها[4]؟، ولعمري لقد صدق في كلٍّ ذلك.

ثم إن يوسف بن تاشفين سأل عن أحوال المعتمد في لذّاته: هل تختلف فتنقص عمّا عليه في بعض الأوقات؟ فقيل له: بل كل زمانه على هذا، فقال: أفكلّ أصحابه وأنصاره على عدوّه ومُنْجِدِيه على الملك ينال حظًّا من ذلك؟ فقالوا: لا، قال: فكيف ترون رضاهم عنه؟ فقالوا: لا رضا لهم عنه، فأطرق وسكت، وأقام[5] عند المعتمد على تلك الحال أيامًا.

---

(١) تمتار: تجلب الميرة.

(٢) شظف العيش: خشونة العيش. لسان العرب (شظف).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٥٦): «متى يستجدّ همة..».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٥): «رعينه والتوقير..».

(٥) في وفيات الأعيان: (ص ١٢٠): «فأقام».

وفي أثنائها[1] استأذن رجلٌ على المعتمد فدخل وهو ذو هيئة رَثّة، وكان من أهل البصائر، فلمّا مَثَلَ بين يديه قال: أصلحك اللّه أيها السلطان! وإنَّ من أوجب الواجبات شكر النعمة، وإنَّ مِنْ شكر النعمة إهداء النصائح، وإني رجل من رعيّتك حالي في دولتك إلى الاختلال، أقربُ منها إلى الاعتدال، ولكنني مع ذلك مستوجب لك من النصيحة ما للملك على رعيّته، فمن ذلك خبرٌ وقع في أذني من بعض أصحاب ضيفك هذا يوسف بن تاشفين يدلُّ على أنهم يرون أنفسهم ومَلِكَهم أحقَّ بهذه النعمة منك، وقد رأيتُ رأيًا، فإن آثرت الإصغاء إليه قلْتُهُ، فقال المعتمد له: قُلْه، فقال له: رأيتُ أنَّ هذا الرجل الذي أطلعته على ملكك مستأسد على الملوك، قد حكم على رفقائه[2] ببر العُدْوة، وأخذ الملك من أيديهم، ولم يُبْقِ على واحد منهم، ولا يؤمن أن يطمح إلى الطمع[3] في ملكك، بل في ملك جزيرة الأندلس كلّها، لما قد عاينه من هَنَاءة[4] عيشك، وإني لمتخيل[5] مثل ذلك لسائر ملوك الأندلس، وإن له من الولد والأقارب وغيرهم من يَودُّ له الحلول بما أنت فيه من خصب الجناب، وقد أَرْدَى الأذفونش وجيشه، واستأصل شأفتهم، وأعدمك منه أقوى ناصر عليه لو احتجت إليه، فقد كان لك منه أقوى عضد وأوقى مِجَنّ[6]، وبعد فإنه إن فات الأمرُ في الأذفونش فلا يفتك الحزم فيما هو ممكن اليوم، فقال له المعتمد: وما هو الحزم اليوم؟ فقال: أن تجمع أمرك على قَبْض ضيفك هذا، واعتقاله في قصرك، وتجزم أنك لا تُطْلِقه حتى يأمر كلّ مَنْ بجزيرة الأندلس من عسكره أن يرجع من حيث جاء، حتى لا يبقى منهم أحد بالجزيرة طفل فمن فوقه، ثم تتّفق أنت وملوك الجزيرة على حراسة هذا البحر من سفينة تجري فيه له، ثم بعد ذلك تَسْتَحلفه بأغلظ الأيمان ألاّ يضمر في نفسه عَودًا إلى هذه الجزيرة إلاَّ باتفاق منكم ومنه، وتأخذ منه على ذلك رهائن فإنه يعطيك من ذلك ما تشاء، فنَفْسُه أعزُّ عليه من جميع ما يُلْتَمس منه، فعند ذلك يقتنع هذا الرجل ببلاده التي لا تصلح إلاَّ له، وتكون قد استرحت منه بعد ما استرحت من الأذفونش، وتقيم في موضعك على خير

(١) في الوفيات: «وفي بعض تلك الأيام استأذن..».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٦): «قد حطّم على زنانة..». وفي وفيات الأعيان: «قد حطّم ببر العدوة زنانة..».

(٣) في الوفيات: «الطماعية».

(٤) في الوفيات: «بلهنية».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٦) ووفيات الأعيان (ص ١٢١): «وإنه المتخيل في مثل حالك سائر».

(٦) المِجَنُّ: التُّرس. مختار الصحاح (جنن).

حال، ويرتفع ذكرك عند ملوك الجزيرة، ويتّسع ملكك، ويُنْسب هذا الاتفاق لك إلى سعادة وحَزْم، وتهابك الملوك، ثم اعمل بعد هذا ما يقتضيه حزمك في مجاورة[1] مَنْ عاملته هذه المعاملة، واعلَمْ أنه قد تهيّأ لـك من هذا أمر سَمَاوي تتفانى الأمم وتجري بحار الدم دون حصول مثله. فلمّا سمع المعتمد كلام الرجل استصوبه، وجعل يفكّر في انتهاز الفُرْصَة.

وكان للمعتمد نُدَماء قد انهكموا معه في اللّذّات، فقال أحدهم لهذا الرجل الناصح: ما كان المعتمد على اللّه ـ وهو إمام أهل المكرمات ـ مِمَّنْ يعامل بالحَيف، ويغدر بالضّيف، فقال الرجل: إنما الغدر أَخْذ الحقِّ من يد صاحبه، لا دَفْع الرجل عن نفسه المحذورَ إذا ضاق به، فقال ذلك النديم: ضَيْم[2] مع وفاء، خيرٌ من حَزْم مع جفاء.

ثم إن ذلك الناصح استدرك الأمر، وتلافاه، فشكر له المعتمد، ووصله بصلة[3].

واتّصل هذا الخبر بيوسف فأصبح غاديًا، فقدَّم له المعتمد الهدايا السنيّة والتُّحَف الفاخرة، فقبلها ثم رحل. انتهى خبر وقعة الزلاقة وما يتبعه ملخصًا من كتب التاريخ.

ولَمّا انقرض بالأندلس مُلْك ملوك الطوائف بني عَبَاد وبني ذي النون وبني الأفطس وبني صُمَادح وغيرهم انتظمت في سلك اللّمتُونيين، وكانت لهم فيها وقعات بالأعداء مشهورة في كتب التواريخ.

ولَمّا مات يوسف بن تاشفين سنة خمسمائة قام بالملك بعده ابنُه أمير المسلمين علي بن يوسف، وسلك سنن أبيه وإن قَصَّر عنه في بعض الأمور، ودفع العدو عن الأندلس مدة، إلى أن قيّض اللّه تعالى للثورة عليه محمد بن تُومَرْت الملقب بالمَهْدِي الذي أسَّسَ دولة الموحدين، فلم يزل يسعى في هَدْم بنيان لمتونة إلى أن مات ولم يملك حضرة سلطنتهم مراكش، ولكنه ملك كثيرًا من البلاد، فاستخلف عبد المؤمن بن علي، فكان من استيلائه على مملكة اللمتونيين ما هو معروف، ثم جاز إلى الأندلس وملك كثيرًا منها، ثم أخرج الإفرنج من مهدية إفريقية، وملك بلاد إفريقية وضخم ملكه، وتَسَمَّى بأمير المؤمنين[4].

---

(١) في الوفيات: «محاورة» بالحاء المهملة.

(٢) في وفيات الأعيان: «لَضَيْمٌ».

(٣) في الوفيات: «بصلة، وانصرف».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٧): «بأمير المسلمين».

ولما كانت سنة ٥٤٥ سار الأذفونش صاحبُ طُلَيطَلة وبلاد الجلالقة إلى قُرْطُبة ومعه أربعون ألف فارس، فحاصرها، وكان أهلها في غلاء شديد، فبلغ الخبر عبد المؤمن، فجهّز إليهم جيشًا يحتوي على اثني عشر ألف فارس، فلمّا أشرفوا على الأذفونش رحل عنها، وكان فيها القائد أبو الغمر السائب، فسلّمها إلى صاحب جيش عبد المؤمن يحيىٰ بن ميمون، فبات فيها، فلمّا أصبح رأى الفرنج عادوا إلى مكانهم، ونزلوا في المكان الذي كانوا فيه، فلمّا عاين ذلك رتب هنالك ناسًا، وعاد إلى عبد المؤمن، ثم رحل الفرنج إلى ديارهم.

وفي السنة بعدها دخل جيش عبد المؤمن إلى الأندلس في عشرين ألفًا عليهم الهنتاتي[1]، فصار إليه صاحب غَرْنَاطة ميمون وابنُ هَمُشْك وغيرهما، فدخلوا تحت طاعة الموحِّدِين، وحرصوا على قصد ابن مَرْدَنيش ملك شرق الأندلس، وبلغ ذلك ابن مردنيش، فخاف وأرسل إلى صاحب بَرْشلونة من الإفرنج يستنجده، فتجهّز إليه في عشرة آلاف من الإفرنج عليهم فارس، وسار صاحب جيش عبد المؤمن إلى أن قارب ابن مردنيش، فبلغه أمر البرشلوني الإفرنجي، فرجع، ونازل مدينة ألمرِيَّة وهي بأيدي الروم، فحاصرها، فاشتدّ الغلاء في عسكره، فرجع إلى إشبيلية، فأقام فيها، وسار عبد المؤمن إلى سبتة فجهّز الأساطيل وجمع العساكر.

ثم سار عبد المؤمن سنة ٥٤٧[2] إلى المهدية فملكها، وملك إفريقية، وضخم ملكه كما قدمناه.

ولَمَّا مات بُويع بعده ولده يوسف بن عبد المؤمن، ولَمَّا تمهّدت له الأمور، واستقرّت قواعد ملكه، رحل إلى جزيرة الأندلس لكشف مصالح دولته، وتفقّد أحوالها، وكان ذلك سنة ست وستين وخمسمائة، وفي صحبته مائة ألف فارس من الموحِّدِين والعرب، فنزل بحضرة إشبيلية، وخافه ملكُ شرق الأندلس ـ مُرْسِيَةَ وما انضاف إليها ـ الأميرُ الشهير أبو عبد اللّٰه محمد بن سعد المعروف بابن مَرْدَنيش، وحمل على قلب ابن مردنيش، فمرض مرضًا شديدًا ومات، وقيل: إنه سُمَّ، ولَمّا مات جاء أولاده وأهله إلى أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن وهو بإشبيلية، فدخلوا تحت حكمه، وسَلَّموا لأحكامه البلاد، فصاهرهم، وأحسن إليهم، وأصبحوا عنده في أعزّ مكان، ثم شرع في استرجاع البلاد التي

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٥٩): «عبد المؤمن بن يحيىٰ..».

(٢) في المعجب (ص ٢٩٨): «سار عبد المؤمن إلى المهدية سنة ٥٤٣».

استولى عليها الإفرنج، فاتّسعت مملكته بالأندلس، وصارت سَرَاياه تعبر[1] إلى باب طُلَيطلة، وقيل: إنه حاصرها، فاجتمع الفرنج كافة عليه، واشتدَّ الغلاء في عسكره، فرجع عنها إلى مراكش حضرة ملكه، ثم ذهب إلى إفريقية، فمهَّدها، ثم رجع إلى حضرته مراكش، ثم جاز البحر إلى الأندلس سنة ثمانين وخمسمائة ومعه جمع كثيف، وقصد غربي بلادها، فحاصر مدينة شَنْتَرين، وهي من أعظم بلاد العدوّ، وبقي محاصرًا لها شهرًا، فأصابه المرض، فمات في السنة المذكورة، وحُمِلَ في تابوت إلى إشبيلية، وقيل: أصابه سهم من قبل الإفرنج، واللَّه سبحانه وتعالى أعلم بحقيقة الحال.

وفي ابنه السيد أبي إسحٰق يقول مطرف التجيبي رحمه اللَّه تعالى: [السريع]

سعد كما شاء العُلا والْفَخارْ تصرّف الليل به والنهارْ
ما دانت الأرض لكمْ عَنْوَةً وإنما دانتْ لأمرٍ كُبارْ
مهدتُموها فصفا عيشها واتّصل الأمْنُ، فنعم القرارْ

ومنها:

فالشاة لا يَخْتِلُها ذئبها وإن أقامتْ معه في وِجارْ[2]

ولَمّا مات يوسفُ قام بالأمر بعده ابنُه الشهير أميرُ المؤمنين يعقوبُ المنصورُ بن يوسف بن عبد المؤمن، فقام بالأمر أحسن قيام، ولَمَّا مات يوسف المذكور رثاه أديب الأندلس أبو بكر يحيىٰ بن مجبر بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها: [الكامل]

جَلَّ الأسى فأسِلْ دَمَ الأجفانِ ماء الشؤون لغير هذا الشانِ

ويعقوب المنصور هو الذي أظهر أُبهة ملك الموحدين، ورفع راية الجهاد، ونَصَب ميزان العدل، وبسط الأحكام الشرعية، وأظهر الدين، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وأقام الحدود على القريب والبعيد، وله في ذلك أخبار، وفيه يقول الأديب أبو إسحٰق إبراهيم بن يعقوب الكانمي[3] الأسود الشاعر المشهور: [الوافر]

أزالَ حِجابَهُ عنِّي وعيني تراه مِنَ المهابة في حجابِ
وقَرَّبني تفضُّله ولكنْ بَعُدْتُ مهابةً عند اقترابي

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٧٩): «تُغير».
(٢) الوجار، بكسر الواو: جِحْر الضَّبُع وغيرها، والجمع أوجرة ووُجُر. محيط المحيط (وجر).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٦١): «الكاتمي» بالتاء.

وكثرت الفتوحات في أيامه، وأولُ ما نـظر فيه عنـد صيرورة الأمـر إليه بـلاد الأندلس، فنظر في شأنها، ورتّب مصالحها، وقرّر المُقـاتلين في مراكـزهم، ورجع إلى كـرسي مملكته مـراكش المحروسـة، وفي سنة ٥٨٦ بلغـه أنَّ الإفرنـج ملكـوا مـدينـةِ شِلْبَ وهي من غـرب الأندلس، فتوجّه إليها بنفسه، وحاصـرها، وأخـذها، وأنفـذ في الوقت جيشًـا من الموحِّـدين والعرب، ففتح أربع مُدُن مِمّا بأيدي الإفرنج من البلاد التي كانوا أخذوها من المسلمين قبـل ذلك بأربعين سنة، وخافـه صاحبُ طلَيْـطلة، وسألـه الهدنـة والصلح، فهادنـه خمسَ سنين، وعـاد إلى مراكش. وأنشـد القائـد أبو [بكـر بن][1] عبد اللّه بن وزيـر الشِّلْبي وهو من أمـراء كتـائب إشبيلية قصيـدةً يخاطب بهـا يعقوب المنصـور فيما جـرى في وقعة مـع الفرنـج كـان الشِّلْبي المذكور مقدّمًا فيها: [الطويل]

ولَمّـا تـلاقينـا جَـرَى الـطعنُ بيننـا ... فـمنّـا ومـنهـمْ طـائحـون عـديـدُ
وجـال غِـرارُ الـهنـد فـينـا وفـيهـمُ ... فـمِنَّـا ومنـهـمْ قـائـمٌ وحَـصـيـد
فـلا صَـدْرَ إلاّ فيـه صـدرٌ مُثَقَّفٌ ... وحـول الـوريـد لـلحُـسـام ورودُ
صبـرنا ولا كهف سـوى البيضِ والقَنـا ... كـلانـا على حَـرِّ الجِـلاد[2] جَليـدُ
ولـكـنْ شـددْنـا شَـدَّةً فـتبـلّدوا ... ومـن يَـتَـبـلَّدْ لا يـزال يَـحِـيـدُ
فَـوَلَّـوا وللسُّمْـر الـطِّوال بهـامهمْ ... ركـوعٌ وللبِيضِ الرِّقـاقِ سجـود[3]

رَجْع إلى أخبار المنصور بعد هُدْنة الإفرنج: ولَمّـا انقضت مدة الهـدنة، ولم يبق منهـا إلاّ القليـل، خرج طـائفة من الإفـرنـج في جيش كثيف إلى بـلاد المسلمين، فنهبـوا وسَعَـوا وعاثوا عَيثًا فظيعًا، فانتهى الخبـر إليه، فتجهّـز لقصدهم في جيـوش مُوفَـرة وعساكـر مُكَتَّبة، واحتفل في ذلك، وجاز إلى الأندلس سنة ٥٩١، فعلم به الإفرنج، فجمعـوا جمعًا كثيـرًا من أقاصي بلادهم وأدانيها، وأقبلوا نحوه، وقيل: إنه لَمّا أراد الجَوَاز من مدينة سَلا مرض مـرضًا

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبـد الحميد (جـ ٦ ص ١٦٢). وأورد ابن الأبـار في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٧١) اسمه هكذا: «محمد بن سيدراي بن عبـد الوهـاب بن وزير القيسي أبـو بكر»، وأورد لـه هذه الأبيات الدالية بعد أن قال إنه قالها في حرب ظهر فيهـا على الروم. المصـدر نفسه (ص ٢٧٣). وسترد هذه الأبيات في هذا الجزء دون تغيير عمّا هنا.

(٢) في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٧٣): «الطعان».

(٣) رواية البيت في الحلة السيراء هي:

فَـوَلَّـوا ولـلبِـيْض بـهـامِـهِـمْ ... صـليـلٌ ولـلسُّـمْـر الـطوال وُرُودُ

شديدًا، ويئس منه أطباؤه، فعاث الأذفونش في بلاد المسلمين بالأندلس، وانتهز الفُرْصة، وتفرّقت جيوش المسلمين بسبب مرض السلطان، فأرسل الأذفونش يتهدّد ويتوعّد، ويُرْعِد ويُبْرق، ويطلب بعضَ الحصون المتاخمة له من بلاد الأندلس، وخلاصة الأمر أنّ المنصور توجّه بعد ذلك إلى لقاء النصارى، وتزاحف الفريقان، فكان المصافُّ شمالي قُرْطُبَة على قرب قلعة رَبَاح في يوم الخميس تاسع شعبان سنة ٥٩١، فكانت بينهم وقعة عظيمة اسْتُشْهِد فيها جمع كبير من المسلمين.

وحكي أنَّ يعقوب المنصور جعل مكانه تحت الأعلام السلطانية الشيخ أبا يحيىٰ بن أبي حفص عمّ السلطان أبي زكريا الحَفْصي[1] الذي ملك بعد ذلك إفريقية، وخطب له ببعض الأندلس، فقصد الإفرنج الأعلام ظنًّا أنَّ السلطان تحتها، فأثروا في المسلمين أثرًا قبيحًا، فلم يَرُعْهم إلّا والسلطان يعقوب قد أشرف عليهم بعد كَسْر شوكتهم، فهزمهم شرَّ هزيمة، وهرب الأذفونش في طائفة يسيرة، وهذه وقعة الأرك الشهيرة الذكر.

وحكي أنّ الذي حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفًا، وأمّا الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد، ولم يُسْمع بعد وقعة الزلاقة بمثل وقعة الأرك هذه، وربما صرّح بعض المؤرخين بأنها أعظم من وقعة الزلاقة.

وقيل: إنّ فل[2] الإفرنج هربوا إلى قلعة رباح، فتحصّنوا بها، فحاصرها السلطان يعقوب حتى أخذها، وكانت قبلُ للمسلمين، فأخذها العدوّ، فردّت في هذه المرة، ثم حاصر طُلَيطلة، وقاتلها أشدّ قتال، وقطع أشجارها، وشَنَّ الغارات على أرجائها، وأخذ من أعمالها حصونًا، وقتل رجالها، وسَبَى حريمها، وخرّب منازلها، وهدم أسوارها، وترك الإفرنج في أسوإ حال، ولم يبرز إليه أحد من المقاتلة، ثم رجع إلى إشبيلية، وأقام إلى سنة ٥٩٣، فعاد إلى بلاد الفرنج، وفعل فيها الأفاعيل، فلم يقدر العدوّ على لقائه، وضاقت على الإفرنج الأرض بما رَحُبَت، فطلبوا الصلح، فأجابهم إليه، لما بلغه من ثورة الميرقي عليه بإفريقية قَرَاقُوش مملوك بني أيوب سلاطين مصر والشام.

ثم توفي السلطان يعقوب سنة ٥٩٥.

---

(١) هو يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حفص، وقد حكم إفريقية من سنة ٦٢٥ هـ إلى سنة ٦٤٧ هـ. وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث.

(٢) فَلُّ القوم: بقاياهم بعد هزيمتهم. لسان العرب (فلل).

وما يقال «إنه ساح في الأرض، وتخلّى عن الملك، ووصل إلى الشام، ودفن بالبِقَاع» لا أصل له، وإنْ حَكَى ابن خلّكان بعضه.

ومِمَّنْ صرّح ببطلان هذا القول الشريف الغَرْناطي في شرح مقصورة حازم، وقال: إنَّ ذلك من هَذَيان العامة، لِوَلُوعهم بالسلطان المذكور.

وولي بعده ولده محمد الناصر المشؤوم على المسلمين، وعلى جزيرة الأندلس بالخصوص، فإنه جمع جموعًا اشتملت على ستمائة ألف مقاتل فيما حكاه صاحب «الذخيرة السنية، في تاريخ الدولة المَرينية»[1] ودخله الإعجاب بكثرة مَنْ معه من الجيوش، فصافَّ الإفرنج، فكانت عليه وعلى المسلمين وقعة العقاب المشهورة التي خلا بسببها أكثر المغرب، واستولى الإفرنج على أكثر الأندلس بعدها، ولم يَنْجُ من الستمائة ألف مقاتل غير عدد يسير جدًا لم يبلغ الألف فيما قيل، وهذه الوقعة هي الطامّة على الأندلس، بل والمغرب جميعًا، وما ذاك إلاّ لسوء التدبير، فإنَّ رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفّ بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيّات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، واللّه غالب على أمره، وكانت وقعة العقاب هذه المشؤومة سنة ٦٠٩، ولم تقم بعدها للمسلمين قائمة تحمد.

ولما مات الناصر سنة عشرين وستمائة ولي بعده ابنُه يوسف المستنصر، وكان مُولَعًا بالراحة، فضعفت الدولة في أيامه، وتوفي سنة ٦٢٠.

فتولى عم أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن، فلم يحسن التدبير، وكان إذ ذاك بالأندلس العادل[2] بن المنصور، فرأى أنه أحَقُّ بالأمر، فاستولى على ما بقي في أيدي المسلمين من الأندلس بغير كُلْفة. ولَمّا خُلع عبد الواحد وخُنق بمراكش ثارت الإفرنجُ على العادل بالأندلس، وتصافَّ معهم، فانهزم ومَنْ معه من المسلمين هزيمة شنعاء، فكانت الأندلس قرحًا على قرح، فهرب العادل، وركب البحر يروم مراكش، وترك بإشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس، ودخل العادل مراكش بعد خطوب، ثم قبض عليه الموحِّدون، وقدموا

---

(١) الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (ص ٤١).

(٢) هو أبو محمد عبد اللّه بن يعقوب المنصور، خليفة الموحدين بمراكش؛ ولي الأمر سنة ٦٢١ هـ، وتوفي سنة ٦٢٤ هـ، بعد حكم دام ثلاث سنين وثمانية أشهر وتسعة أيام. الحلل الموشية (ص ١٢٣).

يحيىٰ[1] بن الناصر صغير السّنّ غير مجرب للأمور، فادَّعى حينئذ الخلافة أبو العلاء[2] إدريس بإشبيلية، وبايعه أهلُ الأندلس، ثم بايعه أهل مراكش وهو مقيم بالأندلس، فثار على أبي العلاء بالأندلس الأمير المتوكل محمد بن يوسف الجُذَامي، ودعا إلى بني العباس، فمال الناس إليه، ورجعوا عن أبي العلاء، فخرج عن الأندلس ـ أعني أبا العلاء ـ وترك ما وراء البحر لابن هود. ولم يزل أبو العلاء يتحارب مع يحيىٰ بن الناصر إلى أن قتل يحيىٰ، وصفا الأمر لأبي العلاء بالمغرب، دون الأندلس، ثم مات سنة ٦٣٠[3].

وبويع ابنه الرشيد[4]، وبايعه بعض أهل الأندلس، ثم توفي سنة ٦٤٠.

وولي بعده أخوه السعيد[5]، وقُتل على حصن بينه وبين تِلِمْسان سنة ٦٤٦.

وولي بعده المرتضى[6] عمر بن إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن، وفي سنة ٦٦٥ دخل عليه الواثق المعروف بأبي دبوس[7]، ففرَّ، ثم قُبض، وسِيق إلى الواثق، فقتله، ثم قتل الواثقَ بنو مَرِين سنة ٦٦٨، وبه انقرضت دولة بني عبد المؤمن، وكانت من أعظم الدول الإسلامية، فاستولى بنو مَرِين على المغرب. وأمّا المتوكل ابن هود، فملك معظم الأندلس، ثم كثرت عليه الخوارج قريب موته، وقَتَله غدرًا وزيرُه ابن الرميمي بألمرية، واغتنم الإفرنج الفرصة بافتراق الكلمة، فاستولوا على كثير مِمّا بقي بأيدي المسلمين من البلاد والحصون.

(١) هو المعتصم بالله أبو زكريا يحيىٰ بن الناصر محمد بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي؛ ولي ملك المغرب سنة ٦٢٩ هـ، وتوفي سنة ٦٣٣ هـ، فكانت مدته تسع سنين. الحلل الموشية (ص ١٢٥).

(٢) مرَّ التعريف بأبي العلاء إدريس والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث.

(٣) في الحلل الموشية (ص ١٢٥): سنة ٦٢٩ هـ.

(٤) هو أبو محمد بن المأمون أبي العلاء إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي؛ ولي الحكم سنة ٦٣٣ هـ، وتوفي سنة ٦٤٠ هـ، فكانت مدته عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة أيام. الحلل الموشية (ص ١٢٥).

(٥) هو أبو الحسن علي بن المأمون بن أبي العلاء إدريس بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن؛ ولي سنة ٦٤٠ هـ، وتوفي سنة ٦٤٦ هـ. الحلل الموشية (ص ١٢٦).

(٦) ولي المرتضى عمر الخليفة الموحدي الحكم بمراكش سنة ٦٤٦ هـ، وتوفي سنة ٦٦٥ هـ. الحلل الموشية (ص ١٢٦ ـ ١٢٧).

(٧) هو أبو العلاء إدريس، لقب بأبي دبوس لأنه كان في بلاد الأندلس لا يفارق الدبوس، فشهر به؛ ولي الحكم سنة ٦٦٥ هـ، وتوفي سنة ٦٦٨ هـ، فكانت مدته سنتين وأحد عشر شهرًا وعشرة أيام. الحلل الموشية (ص ١٢٧ ـ ١٢٨).

ثم آل الأمر إلى أن ملك بنو الأحمر، وخطب ببعض[1] الأندلس لأبي زكريا الحَفْصي صاحب إفريقية، وقد سبق الكلام على أكثر المذكور هنا، وأعدناه لتناسق الحديث، ولما في بعضه من زيادة الفائدة على البعض الآخر، وذلك لا يخفى على المتأمّل، وقد بسطْنا في الباب الثالث أحوال ابن هود وابن الأحمر وغيرهما، رحم اللّه تعالى الجميع!

ثم استفحل ملك يعقوب بن عبد الحق صاحب المغرب وحضرة ملك فاس، فانتصر به أهل الأندلس على الإفرنج الذين تكالَبُوا عليهم، فاجتاز إلى الأندلس وهزم الإفرنج أشدّ هزيمة، حتى قال بعضهم: ما نصر المسلمون من العقاب حتى دخل يعقوب المريني وفتك في بعض غزواته بملك من النصارى يقال له ذونته، ويقال: إنه قتل من جيشه أربعين ألفًا، وهزمهم أشدّ هزيمة، ثم تتابعت غزواته بالأندلس وجَوَازه للجهاد، وكان له من بلاد الأندلس رندة والجزيرة الخضراء وطريف وجبل طارق وغير ذلك، وأعزّ اللّه تعالى به الدين، بعد تمرّد الفرنج المعتدين.

ولَمّا مات ولي بعده ابنُه يوسف بن يعقوب، ففرَّ إليه الأذفونش ملك النصارى لائذًا به، وقَبَّل يده، ورَهَنَ عنده تاجه، فأعانه على استرجاع ملكه.

ولم يزل ملوك بني مَرين يعينون أهل الأندلس بالمال والرجال، وتركوا منهم حصّة معتبرة من أقارب السلطان بالأندلس غزاة، فكانت لهم وقائع في العدو مذكورة، ومواقف مشكورة، وكان عند ابن الأحمر منهم جماعة بغَرْنَاطة، وعليهم رئيس من بيت ملك بني مَرين يسمّونه شيخ الغزاة.

ولَمّا أفضى الملك إلى السلطان الكبير الشهير أبي الحسن المريني، وخلص له المغرب وبعضُ بلاد الأندلس أمر بإنشاء الأساطيل الكثيرة برسم الجهاد بالأندلس، واهتمّ بذلك غاية الاهتمام، فقضى اللّه تعالى أن استولى الإفرنج على كثير من تلك المراكب بعد أخذهم الجزيرة الخضراء، وكان الإفرنج جمعوا جموعًا كثيرة برسمِ الاستيلاء على ما بقي للمسلمين بالأندلس، فاستنفر أهلُ الأندلس السلطان أبا الحسن المذكور، فجاء بنفسه إلى سبتة فُرْضَة المجاز ومحلّ أساطيل المسلمين، فإذا بالإفرنج جاءوا بالسفن التي لا تُحْصَى، ومنعوه العُبورَ، وأغاثه أهل الأندلس حتى استولوا على الجزيرة الخضراء، وأنكوه في مراكبه أعظم نكاية، ولله الأمر.

---

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٨٥): «وخطب ببعض أهل الأندلس. .».

وقد أفصح عن ذلك كتابٌ صدَر من السلطان أبي الحسن المذكور إلى سلطان مصر والشام والحجاز الملك الصالح ابن الملك الناصر محمد ابن الملك المنصور قلاوون الصالحي الألفي، رحم اللّٰه تعالى الجميع!.

وهذه نسخة الكتاب المذكور الذي خاطب به أمير المسلمين السلطان أبو الحسن المريني المذكور ملكُ المغرب، رحمه اللّٰه تعالى، السلطانَ الملك الصالح ابن السلطان الملك الشهير الكبير الناصر محمد بن قلاوون، ووصل إلى مصر في النصف - وقيل: في العشر الأواخر - من شعبان المكرم سنة ٧٤٥ بعد البَسْملة والصلاة: من عند [عبد اللّٰه](١) أمير المسلمين، المُجَاهد في سبيل اللّٰه رب العالمين، المنصور بفضل اللّٰه المتوكل عليه، المعتمد في جميع أمورِه لديه، سلطان البرين، حامي العُدْوتين، مؤثر المرابَطة والمُثَاغرة(٢)، مُوَازر حزب الإسلام حَقَّ الموازرة، ناصر الإسلام، مُظاهر دين الملك العَلّام، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، فخر السلاطين، حامي حَوْزة الدين، ملك البَرَّين، إمام العُدْوَتين، مُمَهِّد البلاد، مُبَدِّد شمل الأعاد، مُجَنِّد الجنود، المنصور الرايات والبنود(٣)، محطّ الرحال، مبلغ الآمال، أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، حَسَنة الأيام، حُسام الإسلام، أبي الأملاك، مُشْجي(٤) أهل العناد والإشراك، مانع البلاد، رافع علم الجهاد، مُدَوِّخ أقطار الكفار، مُصْرِخ من ناداه للانتصار، القائم للّٰه بإعلاء دين الحقّ، أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أخلص اللّٰه لوجهه جهاده! ويَسَّرَ في قهر عُداة الدين مُرَاده!.

إلى محلّ ولدنا الذي طلع في أفق العلاءِ بَدْرًا تمًّا، وصَدَع بأنواع الفخار فجلا ظلامًا وظُلْمًا، وجَمَع شملَ المملكة الناصرية فأعلى منها علمًا، وأحيًا لها رَسْمًا، حائط الحرمين، القائم بحفظ القبلتين، باسط الأمان، قابض كف العُدْوان، الجزيل النوال، الكفيل تأمينه بحياطة النفوس والأموال، قطب المجد وسِمَاكه، حِبُّ الحمد ومِلاكه، السلطان الجليل، الرفيع الأصيل، الحافل العادل، الفاضل الكامل، الشهير الخطير، الأضخم الأفخم، المُعان

---

(١) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٦٧).
(٢) المثاغرة: المرابطة في الثغور لقتال العدو. لسان العرب (ثغر).
(٣) البنود: جمع بند وهو العَلَمُ. لسان العرب (بند).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٨٦): «شجا».

المؤزر، المؤيد المظفر، الملك الصالح أبو الوليد إسماعيل، ابن محل أخينا الشهير علاؤه، المستطير في الآفاق ثناؤه، زين الأيام والليال، كمال عين إنسان المجد وإنسان عين الكمال، وارث الدول، النافث بصحيح رأيه في عُقود أهل الملل والنِّحل، حامي القبلتين بعدله وحُسامه، النامي في حفظ الحرمين أجْرُ اضطلاعه بذلك وقيامه، هازم أحزاب المعاندين وجيوشها، هادم الكنائس والبِيَع فهي خاوية على عروشها، السلطان الأجلّ، الهمام الأحفل، الأفخم الأضخم، الفاضل العادل، الشهير الكبير، الرفيع الخطير، المجاهد المرابط، المُقْسط عدله في الجائر والقاسط، المؤيّد المظفر، المنعم المقدّس المطهّر، زين السلاطين، ناصر الدنيا والدين، أبي المعالي محمد، ابن الملك الأرضى، الهمام الأمضى، والد السلاطين الأخيار، عاقد لواء النصر في قهر الأرمن والفرنج والتتار، ومُحْيِي رسوم الجهاد، مُعْلي كلمة الإسلام في البلاد، جمال الأيام، ثِمَال الأعلام، فاتح الأقالم(١)، صالح ملوك عصره المتقادم، الإمام المؤيد، المنصور المسدد، قسيم أمير المؤمنين فيما تقلّد، الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون، مكن اللّه له تمكين أوليائه، ونَمَّى دولته التي أطلعها له(٢) السعد شمسًا في سمائه، وأحسن إيزاعَه للشكر أن جعله وارث آبائه!.

سلام كريم يفاوحُ زهرُ الرُّبا مَسْراه، وينافح نسيم الصَّبا مجراه، يصحبه رضوان يدوم ما دامت تقلُّ الفَلَكَ حركاتُه، ويتولّاه روح وريحان تحييه به رحمة اللّه وبركاته.

أمّا بعدَ حمدِ اللّه مالك الملك، جاعل العاقبة للتقوى صَدْعًا باليقين ودفعًا للشكّ، وخاذل مَنْ أسرَّ في النفاق النجوى فأصرَّ على الدخن والإفك، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد رسوله الذي مَحا بأنوار الهُدَى ظُلَم الشّرك، ونبيه الذي ختم به الأنبياء وهو واسطة ذلك السِّلك، ودَحَا بِهِ حجّة الحقّ فمادت بالكفرة محمولة الأفلاك وماجت بهم حاملة الفلك، والرضا عن آله وصحبه الذين سلكوا سبيل هداه فسلك في قلوبهم أجمل السُّلْك، وملكوا أعِنَّة هواهم فلزموا من مَحَجَّة الصواب أنجح السلك، وصابروا في جهادِ الأعداء فزاد خلوصهم مع الابتلاء والذهبُ يزيد خلوصًا على السَّبْك، والدعاء لأولياء الإسلام، وحُمَاته الأعلام، بنصرٍ لمضائه في العدا أعظم الفَتْك، ويسر بقضائه درك آمال الظهور وأحْفِلْ بذلك الدرك، فكتبْناه إليكم ـ كتب اللّه لكم رسوخ القدم وسبوغ النعم ـ مِنْ حضرتنا بمدينة فاس

---

(١) الأقالم: أي الأقاليم.

(٢) كلمة «له» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٨٧).

المحروسة، وصُنْعُ اللَّه سبحانه يعرّف مذاهب الألطاف، ويكيف مواهب تلهج الألسنة في القصور عن شكرها بالاعتراف، ويصرف من أمره العظيم، وقضائه المتَلَقَّى بالتسليم، ما يتكوّن بين النون والكاف، ومكانكم العتيد سلطانه، وسلطانكم المجيد مَكانُه، وولاؤكم الصحيح برهانه، وعلاؤكم الفسيح في مجال الجلال مَيدَانُه. وإلى هذا زاد اللَّه سلطانكم تمكينًا، وأفاد مقامكم تحصينًا وتحسينًا، وسلك بكم مِنْ سَنَن من خَلَفتموه سبيلاً مبينًا.

فلا خفاء بما كانت عقدته أيدي التقوى، ومهّدته الرسائل التي على الصفاءِ تُطْوَى، بيننا وبين والدكم نَعَّم اللَّه روحه وقَدَّسَه، وبقربه مع الأبرار في علِّيين آنسَهُ، من مواخاة أُحْكمت منها العهود تالية الكتب والفاتحة، وحفظ عليها محكم الإخلاص معوّذتاها المحبة والنيّة الصالحة، فانعقدت على التقوى والرضوان، واعتضدت بتعارف الأرواح عند تنازح الأبدان، حتى استحكمت وُصْلة الولاء، والتأمت كلحمة النسب لحمة الإخاء، فما كان إلاّ وشيكًا من الزمان، ولا عجب قصر زمن الوصلة أن يشكوه الخلان، ورد وارد[1] رنق المشارب، وحقّق قول «ومَنْ يسأل الركبان عن كلِّ غائب» أنبأ باستئثار اللَّه تعالى بنفسه الزكية، وإكنان درّته السنيّة، وانقلابه إلى ما أعدّ له من المنازل الرضوانية، بجليل ما وقر لفقده في الصدور، وعظيم ما تأثّرت له النفوس لوقوع ذلك المقدور، حنانًا للإسلام بتلك الأقطار، وإشفاقًا من أن يعتور قاصدي بيت اللَّه الحرام من جراء الفتن عارضُ الإضرار، ومساهمة في مصاب الملك الكريم، والولي الحميم، ثم عميت الأخبار، وطُويت طي السجلِّ الآثار، فلم نَرَ مخبرًا صدقًا، ولا معلمًا بمن استقرّ له ذلكم الملك حقًّا. وفي أثناء ذلك حفزنا[2] للحركة عن حضرتنا استصراخُ أهل الأندلس وسلطانها، وتواتر الأخبار بأنَّ النصارى أجمعوا على خراب أوطانها، ونحن أثناء ذلكم الشأن، نستخبر الوراد من تلكم البلدان، عمّا أجلى عنه ليل الفتن بتلكم الأوطان، فبعد لأْيٍ وقعنا منها على الخبير[3]، وجاءنا بوقاية حَرَم اللَّه بكم البشير، وتعرفنا أنّ الملك استقرّ منكم في نِصَابه، وتداركه اللَّه تعالى منكم بفاتح الخير من أبوابه، فأطفأ بكم نار الفتنة وأخمدها، وأبرأ من أدواء النفاق ما أعلَّ البلاد وأفسدها، فقام سبيلُ الحجّ سابلاً، وتعبَّدَ طريقه لمن جاء قاصدًا وقافلاً، ولَمَّا احتفَّتْ بهذا الخبر القرائن، وتواتر بنقل الحاضر له والمعاين، أثار حفظ الاعتقاد البواعث،

(١) كلمة «أورد» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٨٩): «أحفزنا».

(٣) اعتمد هنا على المثل: «على الخبير وَقَعْتَ» أو «على الخبير سَقَطْتَ». مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٤).

والودّ الصحيح تجرُّه حقًّا الموارث، فأصدرنا لكم هذه المخاطبة المتفننة الأطوار، الجامعة بين الخبر والاستخبار، الملبسة من العزاء والهناء ثوبي الشعار والدثار، ومثل ذلكم الملك رضوان اللّه عليه من تجلُّ المصائب لفقدانه، وتحلّ عرا الاصطبار بموته وَلَاتَ حِين أوانه، لكن الصبر أجمل ما ارتداه ذو عقل حصين، والأجر أولى ما اقتناه ذو دِينٍ متين، ومثلكم من لا يخفُّ وَقاره، ولا يشفُّ عن ظهور الجزع الحادث اصطباره، ومَنْ خلفكم فما مات ذِكْرُه، ومن قمتم بأمره فما زال بل زاد فخره، وقد طالت والحمد للّه العيشة الراضية بالحقب، وطاب بين مَبْدَاه ومُحْتَضره هنيئًا بما من الأجر اكتسب، وصار حميدًا إلى خير المُنْقَلب، ووفد من كرم اللّه على أفضل ما منح موقنًا ووهب، فقد ارتضاكم اللّه بعدَه لحِياطة أرضه المقدّسة، وحماية زُوَّار بيته مُقيلة أو مُعَرِّسة[1].

ونحن بَعْدَ بَسْط هذه التعزية، نهنيكم بما خوّلكم اللّه أجمل التهنية، وفي ذات اللّه الإيراد والإصدار، وفي مَرْضاته سبحانه الإضمار والإظهار، فاستقبلوا دولة ألقَى العِزُّ عليها رِوَاقه، وعقد الظهورُ عليها نِطَاقَه، وأعطاها أمانُ الزمان عقْدَه وميثاقَه، ونحن على ما عاهدنا عليه الملك الناصر رضوان اللّه عليه من عهود مُوَثَّقة، وموالاة مُحَقَّقَة، وثناء كمائمه عن أذكى من الزهر غبَّ القطر مُفَتَّقة. ولم يغب عنكم ما كان من بعثنا المصحفين الأكرمين اللذين خطتهما منّا اليمين، وأوَت بهما الرغبة من الحرمين الشريفين إلى قَرَار مَكين، وإنه كان لوالدكم الملك الناصر تولّاه اللّه برضوانه، وأورده موارد إحسانه، في ذلكم من الفعل الجميل، والصنع الجليل، ما ناسب مكانه الرفيع، وشاكله فضله من البرّ الذي لا يضيع، حتى طَبَّقَ فعلُه الآفاقَ ذِكْرًا، وطوّق أعناق الوُرَّاد والقُصَّاد برًّا، وكان من أجمل ما به تَحَفَّى وأتحف، وأعظم ما بعَرْفِه إلى رضا الملك العلّام في ذلك تعرَّف، إذنه للمتوجهين إذ ذاك في شراء رِباع تُوقَفُ على المصحفين، ورسم المراسم المباركة بتحرير ذلك الوقف مع اختلاف الجدِيدَيْن[2]، فجرتْ أحوالُ القراء فيهما بذلك الخراج المستفاد، رَيثما يصلحهم من خراج ما وقفناه عليهم بهذه البلاد، على ما رَسَمه، رحمة اللّه عليه، من عناية بهم متّصلة، واحترام في تلك الأوقاف فوائدُها به متوفّرة متحصِّلة، وقد أمرنا مؤدِّيَ هذا لكمالكم،

---

(١) مُعَرِّسة: نازلة للاستراحة؛ يقال: عَرَّس المسافرون إذا نزلوا في السَّفَر من آخر الليل للاستراحة ثم يرتحلون. مختار الصحاح (عرس).

(٢) الجديدان: الليل والنهار. مختار الصحاح (جدد).

وموفده على جلالكم، كاتبنا الأسنى الفقيه الأجلّ، الأحظى الأكمل، أبا المجد، ابن كاتبنا الشيخ الفقيه الأجلّ الحاج الأتقى، الأرضى الأفضل، الأحظى الأكمل، المرحوم أبي عبد اللّه بن أبي مدين حفظ اللّه عليه رتبته، ويَسَّر في قصد البيت الحرام بغيته، بأن يتفقّد أحوال تلك الأوقاف، ويتعرّف تصرّف الناظر عليها وما فعله من سداد وإسراف، وأن يتخيّر لها مَنْ يرتضى لذلك، ويحمد تصرّفه فيما هنالك، وخاطَبْنا سلطانكُم في هذا الشأن، جريًا على الودّ الثابت الأركان، وإعلامًا بما لوالدكم، رحمه اللّه تعالى، في ذلك من الأفعال الحِسان، وكمالُكم يقتضي تخليدَ ذلكم البرّ الجميل، وتجديدَ عمل ذلكم الملك الجليل، وتشييد ما اشتمل عليه من الشكر الأصيل، والأجر الجزيل، والتقدّم بالإذن السلطاني في إعانة هذا الوافد بهذا الكتاب، على ما يتوخّاه في ذلك الشأن من طرُق الصواب، وثناؤنا عليكم الثناء الذي يفاوحُ زهر الرُّبا، ويطارح نغم حمام الأيك مطربًا. وبحسب المصافاة، ومقتضى الموالاة، نشرح لكم المتزايدات، بهذه الجهات، وننبّئكم بموجب إبطاء إنفاذ هذا الخطاب على ذلكم الجناب: وذلك أنه لَمَّا وصلنا من الأندلس الصَّريخ، ونادى منادٍ للجهاد عزمًا لمثل ندائه يُصِيخ[١]، أنبأنا أنَّ الكفار قد جمعوا أحزابهم من كلِّ صَوب، وحتم عليهم باباهُم اللعينُ التناصرَ من كلِّ أوْب، وأن تقصد طوائفهم البلاد الأندلسية بإيجافها، وتَنْقُص بالمنازلة أرضَها من أطرافها؛ ليمحوا كلمة الإسلام منها، ويُقَلِّصوا ظِلَّ الإيمان عنها، فقدَّمنا من يشتغل بالأساطيل من القُوَّاد، وسِرْنا على إثرهم إلى سبتة مُنْتَهَى المغرب الأقصى وباب الجهاد، فما وصلْناها إلاَّ وقد أخذ أخذه العدو الكفور، وسدَّت أجفان الطواغيت على التعاون مَجازَ العُبور، وأتوا من أجفانهم بما لا يُحْصَى عددًا، وأرصدوها بمجمع البحر حيث المجاز إلى دفع العدا، وتقلّصوا عن الانبساط في البلاد، واجتمعوا إلى الجزيرة الخضراء أعادها اللّه بكل مَنْ جمعوه من الأعاد، لكنّا مع انسداد تلك السبيل، وعدم أمورٍ نستعين بها في ذلكم العمل الجليل، حاولْنا إمدادَ تلكم البلاد بحسب الجهد، وأصْرَخْنَاهم[٢] بمن أمكن من الجند، وجهزّنا أجفانًا[٣] مختلسين فرصة الإجازة، تتردّد على خطر بمن جهّز

(١) يُصيخ: يسمع. محيط المحيط (صوخ).

(٢) أصْرَخْناهم: نَصَرْناهم، أغَثْناهم. محيط المحيط (صرخ).

(٣) الأجفان: جمع جَفْن وجَفْنة، والجفن أو الجفنة سفينة حربية دائرية شبيهة بالقصعة، من سفن الغزو والحرب، اهتمَّ بها المغرب الإسلامي وكثر استعمالها لها. كذلك استعمل الجفن، إلى جانب الحروب، في نقل المتاجر. السفن الإسلامية على حروف المعجم (ص ٢٣ ـ ٢٧) وتكملة المعاجم العربية (جـ٢ ص ٢٣١).

للجهاد جهازه، وأمرنا لصاحب الأندلس من المال، بما يجهّز به حركته لمداناة محلّة حزب الضلال، وأجرينا له ولجيشه العطاء الجزل مشاهرة، وأرضخنا(١) لهم في النوال ما نرجو به ثواب الآخرة، وجعلت أجفاننا تتردّد في ميناءِ السواحل، وتَلِجُ أبوابَ الخوف العاجل، لإحراز الأمْن الآجل، مشحونة بالعُدَد الموفورة، والأبطال المشهورة، والخيل المسَوَّمة، والأقوات المقوَّمة، فمن ناجٍ حارب دونه الأجل، وشهيد مضى لما عند اللّه عزَّ وجلّ، وما زالت الأجفان تتردّد على ذلك الخطر، حتى تلف منها سبع وستون قطعة غزوية(٢) أجرُها عند اللّه يُدَّخَرَ، ثم لم نقنع بهذا العمل في الأمداد، فبعثنا أحد أولادنا أسعدهم اللّه تعالى مساهمةً به لأهل تلك البلاد، فلقي مِنْ هَول البحر وارتجاجه، وإلحاح العدوّ ولَجاجه(٣)، ما به الأمثال تُضْرَب، وبمثله يُتَحَدّث ويُسْتغرب، ولمّا خلص لتلك العُدْوَة بمن أبقته الشدائد، نزل بإزاء الكافر الجاحد، حتى كان منه بفرسخين أو أدنى، وقد ضرب بطعن(٤) يُصَابح العدو ويماسيه بحرب بها يُمْنَى.

وقد كان من مددنا بالجزيرة جيش شريت شَرَارته، وقويت في الحرب إدارته، يَبْلُون البلاء الأصدق، ولا يبالون بالعدوّ وهم منه كالشامة البيضاء في البعير الأورق(٥)، إلاَّ أنَّ المطاولة بحصرها في البحر مدّة ثلاثة أعوام ونصف، ومنازلتها في البر نحو عامين معقودًا عليها الصف بالصف، أدَّى إلى فناء الأقوات في البلد(٦)، حتى لم يبق لأهله قُوت نصف شهر مع انقطاع المَدَد، وبه من الخلق ما يُرْبي على عشرة آلاف دون الحُرَم والولد، فكتب إلينا سلطانُ الأندلس يرغب في الإذن له في عقد الصلح، ووقع الاتفاقُ على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح، فأذنَّا له فيه الإذنَ العام، إذ في إصراخه وإصراخ مَنْ بقُطْره من المسلمين توخَّينا ذلك المرام، هنالك دُعِي النصارى إلى السلم فاستجابوا، وقد كانوا علموا فناء القوت وما استرابوا، فتمّ الصلح إلى عشر سنين، وخرج مَنْ بها من

(١) أَرْضَخْنا لهم: أعطيناهم. لسان العرب (رضخ).

(٢) تضاف لفظة «جفن» إلى صفة «غزوي» كما تضاف إلى صفَتَيْ «بحري» و«حربي». السفن الإسلامية (ص ٢٧).

(٣) اللَّجاجَة: العناد في الخصومة والتمادي فيها. لسان العرب (لجج).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٢): «بعطن».

(٥) البعير الأورق: الذي في لونه بياض إلى سواد. محيط المحيط (ورق).

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٢): «بالبلد».

فرسان ورجال وأهل وبنين، ولم يرزأوا مالاً ولا عُدَّة[1]، ولا لقوا في خروجهم غير النزوح[2] عن أول أرض مسّ الجلد ترابها شدة، ووصلوا إلينا فأجزلنا لهُمُ العطاء، وأسليناهم عمّا جرى بالحِباء، فمِنْ خَيْلٍ تزيد على الألف عِتَاقُها، وخِلَع تربي على عشرة آلاف أطواقها، وأموال عمّت الغنيَّ والفقير، ورعاية شملت الجميع بالعيش النَّضير، وكف اللَّه ضر الطواغيت عمّا عداها، وما انقلبوا بغير مَدَرة عفا رَسْمُها وصم صداها.

وقد كان من لطف اللَّه حين قضى بأخذ هذا الثغر، أنْ قَدَّر لنا فتح جبل طارق من أيدي الكفر، وهو المُطِلُّ على هذه المَدَرَة، والفرصة منها إن شاء اللَّه متيَسِّرَة، حتى يفرق عَقْد الكفار، ويفرج بهذه الجهة منهم مجاورو هذه الأقطار، فلولا إجْلاَبُهم من كلِّ جانب، وكونهم سدّوا مسلك العبور بما لجميعهم من الأجفان والمراكب، لما بالَيْنَا بإصعاقهم، ولحللنا بعون اللَّه عَقْدَ اتفاقهم، ولكن للموانع أحكام، ولا رادَّ لما جرت به الأقلام، وقد أمرنا لذلك الثغر بمزيد المَدَد، وتخيَّرْنا له ولسائر تلك البلاد العُدَد والعَدَد، وعُدْنا لحضرتنا فاس لتستريح الجيوش من وَعْثَاء[3] السفر، وترتبط الجياد وتنتخب العدد لوقت الظهور المنتظر، وتكون على أُهْبَة الجهاد، وعلى مَرْقَبَة الفرصة عند تمكّنها في الأعاد. وعند عودنا من تلك المحاولة، تيسر الركب الحجازي مُوَجِّهًا إلى هنالكم رَوَاحِله، فأصدرْنا إليكم هذا الخطاب، إصدار الودّ الخالص والحب اللُّباب، وعندنا لكم ما عند أحْنَى الآباء[4]، واعتقادُنا فيكم في ذات اللَّه لا يخشى جديدُه من البلاء، وما لكم من غَرَض بهذه الأنحاء، فموفًّى قصدُه على أكمل الأهواء، موالى تتميمهُ على أجمل الآراء، والبلاد باتحاد الودّ متحدة، والقلوبُ والأيدي على ما فيه مرضاة اللَّه عزَّ وجلَّ منْعَقِدة، جعل اللَّه ذلكم خالصًا لربِّ العباد، مدخورًا ليوم التَّناد[5]، مسطورًا في الأعمال الصالحة يوم المعاد، بمنِّه وفضله، وهو سبحانه وتعالى يصل إليكم سعدًا تتفاخر به سعود الكواكب، وتتضافر على الانقياد له صدورُ المواكب، وتتقاصر عن نيل مجده متطاولات المناكب، والسلام الأتمّ يخصّكم كثيرًا أثيرًا ورحمة اللَّه وبركاته، وكتب في يوم الخميس السادس والعشرين لشهر صفر المبارك من عام خمسة وأربعين وسبعمائة، وصورة العلامة، وكتب في التاريخ المؤرخ.

(١) لم يرزأوا مالاً ولا عُدّة: أي لم يفقدوا مالاً ولا عدّة. لسان العرب (رزأ).
(٢) في طبعة دار صادر: «النزوع».
(٣) الوَعْثاء: المشقّة والتعب. محيط المحيط (وعث).
(٤) أَحْنَى الآباء: أشدُّ الآباء حنوًّا وعطفًا. لسان العرب (حنا).
(٥) يوم التناد: يوم القيامة.

ونسخة الجواب عن ذلك من إنشاء خليل الصفدي شارح «لامية العجم» في سادس شهر رمضان سنة خمس وأربعين وسبعمائة، بعد البسملة، في قطع النصف بقلم الثلث: عبدُ اللَّه ووَليه، صورة العلامة، ولده إسماعيل بن محمد السلطان الملك الصالح السيد العالم العادل المؤيد المجاهد المرابط المُثَاغر(١) المظفر المنصور عماد الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، محيي العدل في العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، ملك العرب والعجم والترك، فاتح الأقطار، واهب الممالك والأمصار، إسكندر الزمان، مملك أصحاب المنابر والأسِرَّة والتخوت والتيجان، ظلُّ اللَّهِ في أرضه، القائم بسنّته وفَرْضِه، مالك البحرين، خادم الحرمين الشريفين، سيّد الملوك والسلاطين، جامع كلمة الموحِّدين، وليُّ أمير المؤمنين، أبو الفداء إسماعيل ابن السلطان الشهيد السعيد الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي الفتح محمد بن السلطان الشهيد السعيد الملك المنصور سيف الدنيا والدين قلاوون، خلّد اللَّه تعالى سلطانه! وجعل الملائكة أنصاره وأعوانه! يخصُّ المقامَ العالي الملك الأجلَّ الكبير المجاهدَ المؤيد المرابط المثاغر المعظّم المكرّم المظفّر المعمّر الأسعد الأصعد الأوحد الأمجد الأنجد، السني السري المنصور أبا الحسن علي ابن أمير المسلمين أبي سعيد ابن أمير المسلمين أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق، أمدّه اللَّه بالظفر، وقَرَن عزمه بالتأييد في الآصال والبُكَر!.

سلام وَشَّتِ البروقُ وشائِعَه(٢)، وادَّخرت الكواكبُ ودائِعَه، واستوعب الزمان ماضيه ومستقبله ومضارعه، وثناء اتّخذ النفحاتِ المكيّةَ طلائعه، ونبّه للتغريد في الروض سَوَاجعه، وجَلّى في كأسه من الشفق المحمر مُدامَه ومن النجوم فَوَاقعه.

أما(٣) بعدَ حمدِ اللَّه على نعم أدّت لنا الأمانة في عَود سلطنة والدنا الموروثة، وأجلستنا على سرير مملكة زَرَابِيُّها(٤) بين النجوم مبثوثة، وأحسنت بنا الخلف عن سلف عهودُه في الأعناق غيرُ منكورة ولا منكوثة، وصلاتِه على سيّدنا محمد عبده ورسوله، وعلى

---

(١) المُثاغِرُ: المرابط بالثغر للقاء العدو وقتاله. لسان العرب (ثغر).

(٢) الوشائع: جمع وشيعة وهي اللفيفة أو القصبة يجعل فيها النسّاج لحمة الثوب للنسج، والمراد هنا النسيج. محيط المحيط (وشع).

(٣) كلمة «أما» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٤).

(٤) الزَّرابيُّ: البُسُط والنمارق. محيط المحيط (زرب). وفي التنزيل الكريم: ﴿ وزَرابيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. سورة الغاشية ٨٨، الآية ١٦.

آله وصحبه الذين بلغ بجهادهم في الكفرة غاية أمله وسُوله، صلاةً تحطُّ بالرضوان سيولها، وتجرّ بالغفران ذيولها، ما تراسَلَ أصحاب، وتواصَلَ أحباب، ويوضح للعلم الكريم، ورودَ كتابكم العظيم، وخطابكم الفائق على الدّرّ النظيم، تفاخر الخمائلَ سطورُه، ويَصْبغ خدَّ الورد بالخجل منثورُه، ويحكي الرياض اليانعة فالألفاتُ غصونه والهمزات عليها طيورُه، ويَخْلع على الآفاق حُلَل الأيام والليالي، فالطِّرس صباحه والنِّقْس[1] دَيجُوره، لفظه يطرب، ومعناه يعرب فيغرب، وبلاغته تدلّ على أنه آية لأنّ شمس بيانها طلعت من المَغْرِب، فاتّخذْنا سطوره رَيحانًا، ورَجَّعْنا ألفاظه ألحانًا، وَرَجعنا إلى الجدّ فشبَّهْنا ألفاتِهِ بظلال الرماح، ووَرَقه بصِقال الصُّفَّاح، وحروفه المفرقة بأفواه الجِراح، وسطوره المنتظمة بالفرسان المزدحمة في يوم الكفاح، وانتهينا إلى ما أودعتموه من اللفظ المسجوع، والمعنى الذي يطرب طائرهُ المسموع، والبلاغة التي فضح المتطبعَ بيانُها المطبوع.

فأمّا العزاء بأخيكم الوالد قدّس اللّه رُوحَه وسقى عهده، وأحسن لسَلفه خَلَفنا بعده، فلَنا برسول اللّه أُسوة حسنه، ولولا الوثوق بأنه في عِدَّة الشهداء ما رأى القلبُ قرارَه ولا الطرفُ وَسَنَه، عاش سعيدًا يملك الأرض، ومات شهيدًا يَفُوزُ بالجنّة يوم العَرْض[2]، قد خلّد اللّه ذكره يسير مسير الشمس في الآفاق، ويوقف على نَضارة حدائقه نظراتِ الأحداق، وورثنا منه حسن الإخاء لكم، والوفاء بعهود مودّة تشبه في اللطف شمائلكم، وأمّا الهناء بوراثة ملكه، والانخراط مع الملوك في سِلْكه، فقد شكرْنا لكم مَنْحَى هذه المنحَة، وقابلْناها بثناء يُعَطِّر النسيمَ في كل نَفْحَه، ووقفْنا عليها حمدًا جعل الودّ علينا إيراده وعلى أنفاس سَرْحَة الروض شَرْحَه، وتحقّقْنا به حسن ودّكم الجميل، وكريم إخائكم الذي لا يَمِيدُ طودُ رسوخه ولا يميل.

وأمّا ما ذكرتموه من أمر المصحفين الشريفين اللذين وقفتموهما على الحرَمَينِ المنيفين، وأنكم جهزتم كاتبكم الفقيه الأجلَّ الأسنى الأسمى أبا المجد ابنَ كاتبكم أبي عبد اللّه بن أبي مَدْين أعزّه اللّه تعالى لتفقد أحوالهما، والنظر في أمر أوقافهما، فقد وَصَل المذكور بمن معه في حِرْزِ السلامة وأكَرَمْنا نُـزُلَهُمْ، وسهلْنا بالترحيب سُبُلَهُم، وجمعْنا على بذل الإحسان إليهم شَمْلَهم، وحضر المذكور بين أيدينا وقربناه، وسمعْنا كلامه وخاطبْناه،

---

(١) النِّقْسُ: المداد الذي يكتب به. لسان العرب (نقس).

(٢) يوم العرض: يوم القيامة.

وأمرنا في أمر المصحفين الشريفين بما أشرتم، ورسمنا لنوابنا في نواحي أوقافهما بما ذكرتم، وهذا الوقف المبرورُ جارٍ على أحسن عادة ألفها، وأثبت قاعدة عرفها، مَرْعِيَّ الجوانب، محمّي المنازل والمضارب، آمن من إزالة رَسْمِه، أو إزالة حكمه، بَدْرُه أبدًا في مطالع تمه، وزهره دائمًا يرقص على[1] كمّه، لا يزداد إلَّا تخليدًا، ولا إطلاق ثبوته إلَّا تقييدًا، ولا عُنُقُ اجتهاده إلَّا تقليدًا[2]، جَرْيًا على قاعدة[3] أوقاف ممالكنا، وعادة تصرفاتنا في مسالكنا، وله مزيد الرعاية، وإفادة الحماية، ووفادة العناية.

وأمّا ما وصفتموه من أمر الجزيرة الخضراء وما لاقاه أهلُها، ومُني به من الكفار حَزْنُها وسَهْلُها، فإنه شقَّ علينا سماعه الذي أنكى أهل الإيمان، وعدَّد به نُوَبَ[4] الزمان، كلّ قلب بأنامل الخفقان، وطالما فزتم بالظفر، ورزقتم النصر على عدوّكم فجرَّ ذيل الهزيمة وفَرّ، ولكن الحروب سِجال، وكلّ زمان لدوائه دولة ولرجائه رجال، ولو أمكنت المساعدةُ لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المسوّمة، وسالت على عدوّكم أباطحُهُم بقسّينا المعوّجة وسهامنا المقوّمة، وكحلنا عيونَ النجوم بمَرَاود[5] الرماح، وجعلنا ليلَ العجاج ممزّقًا ببروق الصفاح، واتّخذنا رؤوسهم لصوالج القوائم كُرَات، وفَرَجْنا مضايق الحرب بتوالي الكَرّات، وعطفنا عليهم الأعِنَّة، وخُضْنا جداول السيوف ودُسْنا شوك الأسِنَّة، وفلقْنا الصخرات بالصرخات، وأسَلْنا العبرات بالرعبات، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاول؟ وأين الثريا من يد المتناول؟ وما لنا غير إمدادكم بجنود الدعاء الذي نرفعه نحن ورعايانا، والتوجُّه الصادق الذي تعرفه ملائكة القبول من سجايانا.

وأمّا ما فقدتموه من الأجفان التي طرقها طيف التلاف، وأَمَّ حَرَمَ فِنائها الفَناء وطاف به بعد الإلطاف، فقد روّع هذا الخبر قلبَ الإسلام، ونوّع له الحزن على اختلاف الإصباح والإظلام، وهذه الدار ما يخلو صَفْوُها من كدر القدر، وطالما أنامت بالأمن أوّل الليل وخاطبت بالخَطْب في السَّحَر، ولكن في بقائكم ما يُسْلي من خَطْب العَطَب، ومع سلامة نفسكم الكريمة فالأمر هيّن؛ لأنَّ الدرَّ يفدي بالذهب.

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٦): «في كمّه».

(٢) التقليد: وضع القلادة. لسان العرب (قلد).

(٣) في طبعة دار صادر: «على عادة أوقاف ممالكنا، وقاعدة تصرفاتنا..».

(٤) في طبعة دار صادر (ص ٣٩٧): «ذنوب الزمان».

(٥) المراود: جمع مرود وهو المِيلُ يُكْتَحَلُ به. محيط المحيط (رود).

وأمّا ما رأيتموه من الصلح فرأي عَقْده مبارك، وأمر ما فيه فارط عزم وإن كان فيتدارك، والأمر يجيء كما يجب لا كما نحبّ، والحروبُ يزورها نصرها تارة ويغبّ، ومع اليوم غدًا، وقد يردُّ اللّه الردى، ويعيد الظفر بالعدا.

وأمّا عودكم إلى فاس المحروسة طلبًا لإراحة مَنْ عندكم من الجنود، وتجهيزًا لمن يَصِل من عندكم إلى الحجاز الشريف من الوفود، فهذا أمر ضروري التدبير، سروري التشمير؛ لأنَّ النفوس تملّ وَثِيرَ المهاد، فكيف ملازمة صَهَوَات الجياد؟ وتسأم من مجالسة الشَّرْب، فكيف بممارسة الحرب؟ وتُعرض عن دوام اللّذّة، فكيف بمباشرة المنايا الفَذَّة[1]؟ وهذا جَبَل طارق الذي فتح اللّه به عليكم، وساق هديَ هديته إليكم، لعلّه يكون سببًا إلى ارتجاع ما شَرَد، وحَسْمًا لهذا الطاغية الذي مَرَد، وردًّا لهذا النازل الذي قدم ورد الصبر لما ورد، فعادة الألطاف الإلٰهية بكم معروفة، وعَزَماتكم إلى جهات الجهاد مَصْرُوفة، وقد تفاءلنا لكم من هذا الجبل بأنه طارق خير من الرحمن يَطْرُق، وجبل يَعْصِم من سهم يمرّ من قِسِيِّ الكفّار ويمرق.

وأمّا ما منحتموه من الخيل العتاق، والملابس التي تطلع بدور الوجوه من مشارق الأطواق، والأموال التي زكَتْ عند اللّه تعالى ونمت على الإنفاق، فعلى اللّه عزَّ وجلَّ خَلَفُها، ولكم في منازل الدنيا والآخرة سَرَفُها[2] وشَرَفها، وإليكم تُسَاق هدايا أثنيتها[3] وتحفكم تحفها، وإذا وصل وفدكم الحاج، وأنار له بوجه إقبالنا عليهم ليلُهم الداج، كانوا مقيمين تحت ظل إكرامنا، وشمول إسعافنا لهم وإنعامنا، يتَخَوَّلُونَ تحفًا أنتم سببها، ويتناولون طرفًا في كؤوس الاعتناء بهم تنضد حبَبُها، وإذا كان أوانُ الرحيل إلى الحج فَسَحْنَا لهم الطريق، وسهلنا لهم الرفيق، وبلَّغْناهم بحول اللّه تعالى مُناهم من مِنَى، وسؤلهم مِمَّن إذا زاروا حجرته الشريفة حازوا الراحة من العنا، وفازوا بالغنى، وإذا عادوا عاملناهم بكلِّ جميل ينسيهم مشقّة ذلك الدَّرْب، ويخيِّل إليهم أنْ لا مسافة لمسافر بين الشرق والغرب، وغمرناهم بالإحسان في العَود إليكم، وأمرناهم بما يُنْهُونه شفاهًا لديكم، وعناية اللّه تعالى تحوط ذاتكم، وتوفّر لأخذ الثار حُمَاتكم، وتخصّكم بتأييد تنزلون رَوضَه الأنضر، وتَجْنُون به

---

(١) المنايا الفذّة: التي لا مثيل لها لقساوتها.

(٢) كلمة «سرفها» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٨).

(٣) الأثنية: جمع ثناء. محيط المحيط (ثنى).

ثمر النصر اليانع من ورق الحديد الأخضر، وتتحفكم بسعد لا يَبْلَى قَشِيبُه، وعزّ لا يمحو شبابَهُ مَشِيبه، وتحيّته المباركة تغاديكم وتُرَاوحكم، وتفاوحكم أنفاسها المعنبرة وتنافحكم، بمنّه وكرمه، انتهى.

ورأيت بخطِّ منشيء هذا الجواب الصلاح الصَّفَدي، رحمه اللّه تعالى، إثر ذكره ما نصُّه: أمّا بعد حمد اللّه تعالى على نعمائه، وصلاته على سيّدنا محمد عبده ورسوله خاتم أنبيائه، فقد قرأ الشيخُ الإمام العالم العامل العلاّمة المفيد القدوة عزّ الدين أبو يعلى حمزة ابن الرئيس الكبير الفاضل القاضي قطب الدين موسى بن أحمد ابن شيخ السلامية الأحمدي ـ أمتع اللّه بفوائده! ـ الكتابَ الوارد من سلطان المغرب الملك المجاهد المرابط أبي الحسن المَرِيني صاحب مراكش تغمّده اللّه تعالى برحمته والجوابَ عنه عن السلطان الشهيد الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد قدّس اللّه تعالى رُوحَهما من إنشائي، وأنا أسمع ذلك جميعًا من أولهما إلى آخرهما، قراءةً أطربت السمع لفصاحتها، وأمالت العِطْف لرجاحتها: [السريع]

وأخْجَلَتْ وُرق الحمى باللوى إنْ صَدَحَتْ في ذروة الغصنِ
تكادُ مِنْ لطْفٍ ومِنْ رقّةٍ تدخلُ في الأذْنِ بلا إذْنِ

وذلك في مجلس واحد في ذي القعدة سنة ٧٥٦، بالجامع الأموي بدمشق المحروسة، فإنْ رأى رواية ذلك عني فله علوّ الرأي في تشريفي بذلك، وكتبه خليل بن أيبك الصفدي الشافعي عفا اللّه عنه! انتهى.

وكان السلطان أبو الحسن المريني المذكور كتب ثلاثة مصاحف شريفة بخطّه، وأرسلها إلى المساجد الثلاثة[١] التي تُشَدُّ إليها الرحال، ووقف[٢] عليها أوقافًا جليلةً، كتب توقيعه سلطان مصر والشام بمسامحتها من إنشاء الأديب الشهير جمال الدين ابن نُبَاتة المصري، ونصّ ما يتعلّق به الغرض منه هنا قوله: وهو الذي مَدَّ يمينه بالسيف والقلم فكُتِبَ في أصحابها، وسطر الختمات الشريفة فأيَّدَ اللّه حزبَه بما سطر من أحزابها، واتّصلت[٣] ملائكة النصر بلوائه تغدو وتروح، وكثرت فتوحه لأملياء الغرب فقالت أوقاف الشرق لا بدّ

(١) المساجد الثلاثة هذه هي المسجد الحرام، ومسجد النبي، ﷺ في المدينة المنورة، والمسجد الأقصى.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٣٩٩): «وأوقف».
(٣) في الطبعة نفسها (ص ٤٠٠): «واتّصلت أخبار ملائكة..».

للفقراء من فتوح، ثم وصلت ختمات شريفة كتبها بقَلمه المجيد المجدي، وخَطَّ سطورها بالعربي وطالما خط في صفوف الأعداء بالْهِنْدِي[1]، ورتب عليها أوقافًا تجري أقلام الحساب[2] في إطلاقها وطَلَقها، وحبس أملاكًا شامية تحدث بنعم الأملاك التي سرت من مغرب الأرض إلى مشرقها، واللّه تعالى يمتع مَنْ وقف هذه الختمات بما سطر له في أكرم الصحائف، وينفع الجالس من ولاة الأمور في تقريرها ويتقبّل من الواقف، انتهى.

قلت: وقد رأيت أحد المصاحف المذكورة، وهو الذي ببيت المقدس، وربعته في غاية الصنعة.

وقال بعض المشارقة في حقّ السلطان أبي الحسن، ما صورته: ملك أضاء المغرب بأنوار هلاله، وجرت إلى المشرق أنواء نواله، وطابت نَسَماتُه، واشتهرت عَزَمَاتُه، كان حسن الكتابة، كثير الإنابة، ذا بلاغة وبراعة، وشهامة وشجاعة، كتب بخطِّه ثلاثة مصاحف ووقَفَها على المساجد الثلاثة، أقام في الملك عشر سنين وسبعة أيام، ثم صُرف بولده أبي عنان بعد حروب يطول شرحها، انتهى من كتاب «نزهة الأنام».

ولَمّا ذكر الإمام الخطيب أبو عبد اللّه بن مرزوق في كتابه «المسند الصحيح الحسن، من أخبار السلطان أبي الحسن» أمرَ الربعة التي أرسلها السلطانُ أبو الحسن بخطِّه قال ما ملخّصه: وأرسل معها للسلطان الملك الناصر بن قلاوون صاحب الديار المصرية من أحجار الياقوت العظيم القدر والثمن ثمانمائة وخمسة وعشرين، ومن الزمرد مائة وثمانية وعشرين، ومن الزبرجد مائة وثمانية وعشرين، ومن الجوهر النفيس الملوكي ثلثمائة وأربعة وستين، وأرسل حُلَلًا كثيرة منها مذهبة ثلاثة عشر، ومن الإناق عشرين مذهبة، ومن الخلادي ستة وأربعين، ومن القنوع ستة وعشرين مذهبة، ومن المحررات المختمة ثمانمائة، ومن الرصان عشرين شقة، والأكسية المحرّرة أربعة وعشرين، والبرانس المحرّرة ثمانية عشر، والمشففات مائة وخمسين، وأحارم الصوف المحررة عشرين، ومن شقق الملف الرفيع ستة عشر، ومن الفضالي المنوعة والفرش والمخاد المنبوق والحلل ثمانمائة، وأوجه اللحف المذهبة عشرين، وحائطان حلة وحنابل مائة واثني عشر كلّها حرير[3]، وفرش جلد مخروز

---

(١) أي بالسيف المصنوع في الهند.

(٢) في طبعة دار صادر: «الحسنات».

(٣) شرح دوزي أكثر هذه الألفاظ في ملحق المعاجم العربية، واستمدَّ معانيها من النص.

بالذهب والفضة، ومن السيوف المحلاة بالذهب المنظم بالجوهر عشرة، والسروج عشرة بركب ذهب ومهاميز ذهب كذلك، وثلاث ركب فضة، وستة مزججة ومذهبة، ومضمتان من ذهب مِمّا يليق بالملوك، وشاشية حرير مطوقة بذهب مكلّل بالجوهر، ومن لزمات الفضة عشرة، وسرج مخروزة بالفضة عشرة، وعشر علامات معشّشة مذهبة، وعشر رايات مذهبة، وعشر براقع مذهبة، وعشر أمثلة مرقومة، وثلاثين جلدًا شرك، وأربعة آلاف درقة لمط منها مائتان بنهود الذهب وثمانية عشر بنهود الفضة، وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها أربعة أبواب، وقبّة أخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلّة مذهبة، وهي حرير أبيض ومرابطها حرير ملوّن وعمودها عاج وآبنوس، وأكبارها من فضة مذهبة، ومن البزاة الأحرار المنتقاة أربعة وثلاثين، ومن عِتاق الخيل العِراب ثلثمائة وخمسًا[1] وثلاثين، ومن البغال الذكور والإناث مائة وعشرين، ومن الجمال سبعمائة، وتوجهت مع هذه الهدية أمم برسم الحجّ مع الرَّبْعة المكرمة، وأعطى الحرة أم أخته أم ولد أبيه مريم ثلاثة آلاف وخمسمائة ذهبًا، ولقاضي الركب ثلثمائة وكسوة، ولقائد الركب أربعمائة وكساوى متعدّدة وبغلات، وللرسول المعين للهدية ألفًا، ولشيخ الركب أحمد بن يوسف بن أبي محمد صالح خمسمائة، ولجماعة الضعفاء من الحجاج ستمائة، وبرسم العطاء للعرب ثلاثة آلاف وثمانمائة، ولشراء رَبْعٍ[2] ستة عشر ألفًا وخمسمائة ذهبًا، انتهى.

وذكر في الكتاب المذكور أنّ السلطان أبا الحسن الموصوف أهدى هدايا غير هذه لكثير من الملوك، ومنها لصاحب الأندلس صلة وصدقة وهدية[3] في مرات، ومنها لملوك النصارى بعد هداياهم، ومنها لسلاطين السودان كصاحب مالي، ومنها لصاحب إفريقية، ومنها لصاحب تلمسان، انتهى.

وقال مؤرّخ مصر المقريزي في كتاب «السلوك» في سنة ٧٣٨ ما نصُّه: وفي ثاني عشرين من رمضان قدمت الحرة من عند السلطان أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب المريني، صاحب فاس، تريد الحجّ، ومعها هدية جليلة إلى الغاية، نزل لحملها من الإصطبل السلطاني ثلاثون قطارًا من بغال النقل سوى الجمال، وكان من جملتها أربعمائة

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠١): «وخمسة وثلاثين».

(٢) في طبعة دار صادر (ص ٤٠٢): «ربع» بالباء.

(٣) كلمة «وهدية» ساقطة من طبعة دار صادر.

فرس منها مائة حِجْرَةٍ[1] ومائة فحل ومائتا بغل، وجميعها بسُرُج ولجم مسقطة بالذهب والفِضّة، وبعضها سُرُجُها وركبها كلُّها ذهب، وكذلك لجمها، وعدّتها اثنان وأربعون رأسًا، منها سرجان من ذهب مرصّع بجوهر، وفيها اثنان وثلاثون بازًا، وفيها سيفٌ قُرابُه[2] ذهب مرصع، وحياصتُهُ[3] ذهب مرصع، وفيها مائة كساء، وغير ذلك من القماش العال، وكان قد خرج المهمندار إلى لقائهم، وأنزلهم بالقرافة قريب مسجد الفتح، وهم جمع كثير[4] جدًا، وكان يوم طلوع الهدية من الأيام المذكورة، ففرق السلطان الهدية على الأمراء بأسْرِهم على قدر مراتبهم، حتى نفدت كلّها سوى الجواهر واللؤلؤ فإنه اختصّ به، فقدرت قيمة هذه الهدية ما يزيد على مائة ألف دينار، ثم نُقِلَت الحرة إلى الميدان بمن معها، ورتّب لها من الغنم والدجاج والسكر والحلوى والفاكهة في كل يوم بكرةً وعشيةً ما عمهم وفضل عنهم، فكان مرتبهم كل يوم عدة ثلاثين رأسًا من الغنم، ونصف إرْدَبّ[5] أرز، وقنطار حب رمان، وربع قنطار سكر، وثماني[6] فانوسيات شمع، وتوابل الطعام، وحمل إليها برسم النفقة مبلغ خمسة وسبعين ألف درهم، وأجرة حمل أثقالهم مبلغ ستين ألف درهم، ثم خلع على جميع مَنْ قدم مع الحرة، فكانت عدة الخلع مائتين وعشرين خلعة على قدر طبقاتهم، حتى خلع على الرجال الذين قادوا الخيول، وحمل إلى الحرة من الكسوة ما يجل قدره، وقيل لها أنْ تُمْلي ما تحتاج إليه ولا يعوزها شيء، وإنما تريد عناية السلطان بإكرامها وإكرام مَنْ معها حيث كانوا، فتقدّم السلطان إلى النشو وإلى الأمير أحمد أقبغا بتجهيزها اللائق بها، فقاما بذلك، واستخدما لها السقائين والضوية، وهَيَّئا كلّ ما تحتاج إليه في سفرها من أصناف الحلاوات والسكر والدقيق والبقسماط، وطلبا الحمالة لحمل جهازها وأزودتها، وندب السلطان للسفر معها جمال الدين متولي الجيزة، وأمره أن يرحل بها في مركب لها بمفردها قدام المحمل، ويمتثل كل ما تأمر به، وكتب لأميرَيْ مكة والمدينة بخدمتها أتم خدمة.

---

(١) الحِجْرة: الأنثى من الخيل، وهي بلغة العامة، والكلام الفصيح: الحِجْر، بدون هاء. محيط المحيط (حجر).

(٢) قُراب السيفِ: غِمْدُه. لسان العرب (قرب).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٨٦): «وحياصة».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠٢): «كبير».

(٥) الإرْدَبُّ: مكيال ضخم بمصر. محيط المحيط (أردب).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «وثمان».

وقال في سنة خمس وأربعين وسبعمائة ما نصُّه: وفي نصف شعبان قدمت الحرة أخت صاحب المغرب في جماعة كثيرة، وعلى يدها كتاب السلطان أبي الحسن يتضمّن السلام، وأنْ يدعو له الخطباء في[1] يوم الجمعة ومشايخ الصلاح وأهل الخير بالنصر على عدوّهم، ويكتب إلى أهل الحرمين بذلك، وذلك أنّ في السنة الخالية كانت بينه وبين الفرنج وقعة عظيمة قُتل فيها ولده، ونصره اللّه تعالى بمنّه على العدو، وقتل كثيرًا منهم، وملكوا منهم الجزيرة الخضراء، فعمر الفرنج مائتي شيني، وجمعوا طوائفهم، وقصدوا المسلمين، وأوقعوا بهم على حين غفلة، فاسْتُشْهِد عالم كثير، ونجا أبو الحسن في طائفة من ألزامه بعد شدائد، وملك الفرنج الجزيرة، وأسروا وسَبَوا وغنموا شيئًا يجلّ وصفه، ثم مضوا إلى جهة غَرْنَاطَة، ونصبوا عليها مائة منجنيق حتى صالحهم أهلها على قطيعة يقومون بها، وتهادنوا مدة عشر سنين؛ انتهى كلامه.

وقد تقدّم نصّ هذا الكتاب الموجّه من السلطان أبي الحسن فليراجع قريبًا.

وقال ابن مرزوق في «المسند الصحيح الحسن» بعد كلام ما ملخّصُه: وكان ـ يعني السلطان أبا الحسن ـ مجتهدًا في الجهاد بنفسه وحرمه، وجاز للأندلس برسم ذلك بنفسه، وأظهر آثاره الجميلة، ومنها ارتجاع جبل الفتح ليد المسلمين بعد أن أنفق عليه الأموال، وصرف إليه الجنود والحشود، إذ كان من عمالته هو والجزيرة ورندة، ونازلته جيوشه مع ولده وخواصّه وضيّقوا به إلى أن استرجعوه ليد المسلمين، وأنفق على بنائه أحمال مال، واعتنى بتحصينه، وبنى حصنه وأبراجه وسوره وجامعه ودوره ومخازنه، ولمّا كاد يتمّ ذلك نازله العدو برًّا وبحرًا، فصبر المسلمون صبر الكرام، فخيّب اللّه تعالى أملَ العدوّ، وعاد خاسرًا، والمنّة للّه، فرأى أن يحصّن سفح الجبل بسور محيط به من جميع جهاته حتى لا يطمع عدوٌّ في منازلته، ولا يجد سبيلاً للتضييق عند محاصرته، ورأى الناس ذلك من المحال، فأنفق الأموال، وأنصف العمّال، فأحاط بمجموعه إحاطة الهالة بالهلال، وأمّا بناؤه للمحاسن والطوالع فأمرٌ غير مجهول؛ انتهى.

وقد رأيتُ أنْ أذكر هنا بعض إنشاء لسان الدين بن الخطيب في شأن ما يتعلّق بجبل الفتح وغيره من بلاد الأندلس، وحال العدوّ الكافر، وما ينخرط في هذا السلك: فمن ذلك

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠٣): «الخطباء يوم الجمعة وخطبها ومشايخ..».

على لسان سلطانه يخاطب به أحد السلاطين من أولاد السلطان أبي الحسن المريني، ونصُّه:

المقامُ الذي يُصْرِخُ ويُنْجِد[1]، ويُتْهِم في الفضل ويُنْجِد[2]، ويُسْعف ويُسعد، ويبرق في سبيل اللَّه ويرعد، فيأخذ الكفرَ من عزماته المقيمُ المُقْعِد، حتى ينجز من نصر اللَّه تعالى المَوعِد، مقامُ محلّ أخينا الذي حُسنُ الظنِّ بمجده جميل، وحَدُّ الكفر بسَعْده كَليل، وللإسلام فيه رجاء وتأميل، ليس للقلوب عنه مَميل، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللَّه تعالى وعزمه الماضي لصَولة الكفر قامعًا، وتدبيره الناجح لشَمْل الإسلام جامعًا، ومُلْكه الموفَّق لنداء اللَّه مطيعًا سامعًا، معظم مقداره، وملتزم إجلاله وإكباره، المعتدُّ في اللَّه بكرم شيمته وطيب نِجَاره، المستظهر على عدوّ اللَّه بإسراعه إلى تدمير الكافر وبداره.

سلام كريم عليكم ورحمة اللَّه وبركاته، أَمَّا بعدَ حمد اللَّه مجيب دعوة السائل، ومُتَقَبّل الوسائل، ومُتِيح النعم الجلائل، مُريح مَنْ عامله في هذا الوجود الزائف الزائل، والأيام القلائل، بالمتاع الدائم الطائل، والنعيم غير الحائل[3]، ومقيم أَوَدِ الإسلام المائل، بأولي المكارم من أوليائه والفضائل، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد رسوله المنقذ من الغوائل، المُنْجي من الرَّوع الهائل، الصادع بدَعْوة الحقِّ الصائل، بين العشائر والْفَصَائل، الذي ختم به وبرسالته ديوان الرسل والرسائل، وجَعَله في الأواخر شرف الأوائل، فحبه كنز العائل، والصلاة عليه زكاة القائل، والرضا عن آله وصحبه وعِتْرته وحزبه تيجان الأحياءِ والقبائل، المتميزين بكرم السجايا وطيب الشمائل، والدعاء لمقام أخوّتكم في البُكَر والأصائل، بالسعد الصادق المخايل، والصنع الذي تتبرّج مواهِبُه تبرّج العقائل، والنصر الذي تهز له الصِّعاد[4] المُلْد عِطف المترانح المتخايل، فإنّا كتبْناه إليكم كتب اللَّه لكم عِزًّا يانع الخمائل، ونَصْرًا يكفل للكتائب المدوّنة في الجهاد ومرضاة ربّ العباد بِسَرْد المسائل وإقناع السائل، من حَمْرَاء غَرْنَاطة، حرسها اللَّه تعالى! ولا زائد بفضل اللَّه سبحانه إلّا استبصار في التوكل على من بيده الأمور، وتسبب مشروع تتعلّق به بإذن اللَّه تعالى أحكام

---

(١) يُصْرِخُ: يغيث. يُنْجِدُ: يغيث. لسان العرب (صرخ) و (نجد).

(٢) يُنْجد: يدخل نجدًا. يتهم: يدخل تهامة.

(٣) الحائل: الزائل. لسان العرب (حول).

(٤) الصِّعاد: جمع صعدة وهي القناة المستوية المستقيمة. لسان العرب (صعد).

القدر المقدور، ورجاء فيما وعد به من الظهور، يتضاعف على توالي الأيام وترادف الشهور، والحمد لله كثيرًا كما هو أهله، فلا فضل إلاَّ فَضْله، ومقامكم المعروف محلّه، الكفيلُ بالإرواء نَهَلُه وعَلُّه، وإلى هذا وَصَل اللّه تعالى سعدكم، وحرس مجدكم، ووالى النعم عندنا وعندكم، فإننا في هذه الأيام، أهمنا من أمر الإسلام، ما رنّق الشرابَ[1] ونغص الطعامَ، وذاد المنامَ[2]، لما تحققنا من عمل الكفر على مكايدته، وسعي الضُّلاَّل - واللّه الواقي - في استئصال بقيّته، وعقد النوادي للاستشارة في شانه، وشروع الحيل في هدّ أركانه، ومَنْ يؤمَّل من المسلمين لدفع الردى وكشف البلوى وبثّ الشكوى، وأهله - حاطهم اللّه تعالى وتولاّهم، وتمّم عوائد لطفه الذي أولاهم، فهو مولاهم - في غفلة ساهون، وعن المغبة[3] فيه لاهون، قد شغلتهم دنياهم عن دينهم، وعاجلُهم عن آجلهم، وطولُ الأمل، عن نافع العمل، إلاَّ مَن نَوَّرَ اللّه تعالى قلبَه بنور الإيمان وتململ بمناصحة اللّه تعالى والإسلام تململ السليم[4]، واستدل بالشاهد[5] على الغائب، وصرف الكفر إلى مطالب الأمم النوائب، فلمّا رأينا أنّ الدولة المرينية التي على مر[6] الأيام شَجَا العِدَا، ومتوعّد من يكيد الهدى، وفِئة الإسلام التي إليها يتحيّز، وكَهْفُه الذي إليه يلجأ، قد أذن اللّه تعالى في صلاح أمورها، ولَمِّ شَعْثِها، وإقامة صغاها[7]، بأن صَرَف اللّه تعالى عنها هَنَات الغدر، وأراحها من مسّ الضرّ، وردَّ قوسَها إلى يد باريها، وصيَّر حقّها إلى وارثها، وأقام لرَعْي مصالحها مَنْ حَسُنَ الظنُّ بحَسَبه ودينه، ورُجِي الخير من ثمرات نُصْحه، ومَنْ لم يُعْلم إلاَّ الخيرُ من سَعْيِه والسداد من سيرته، ومَنْ لا يستريب المسلمون بصحّة عقده، واستقامة قصده، أردْنا أن نخرج لكم عن العهدة في هذا الدين الحنيف الذي وَسَمَتْ دعوته وجوه أحبابكم شملهم اللّه تعالى بالعافية، وتشبثت به أنفسُ مَنْ صار إلى اللّه تعالى من السلف تغمّدهم اللّه بالرحمة والمغفرة، وفي هذا القطر الذي بلاده ما بين مكفول يجب رَعْيُه طبعًا وشرعًا، وجار يلزم حقّه دينًا ودنيا وحميّة وفضلاً، وعلى الحالين فعليكم بعد اللّه المُعَوَّل، وفيكم المؤمَّل، فأرْعُونا

(١) رَنَّقَ الشرابَ: كَدَّرَهُ. لسان العرب (رنق).
(٢) ذادَ المنامَ: طرده. لسان العرب (ذود).
(٣) المغبّة: العاقبة، النهاية. محيط المحيط (غبب).
(٤) السليم: اللديغ أو الجريح الذي أشرف على الهلاك. محيط المحيط (سلم).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٩٠): «بالمشاهد».
(٦) في الطبعة نفسها: «ممرّ».
(٧) الصَّغَى: المَيْلُ. محيط المحيط (صغا).

أسماعَكم(١) المباركة نَقُصَّ عليكم ما فيه رضا اللّه، والمَنْجَاة من نكيره، والفخر والأجر وحفظ النعم، والخلف في الذرية، بهذا وعدت الكتب المنزلة، والرسل المرسلة: وهو أنّ هذا القطر الذي تعددت فيه المحاريب(٢) والمنابر، والراكع والساجد، والذاكر والعابد، والعالم واللفيف، والأرملة والضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام، وشحّت الأيدي به منذ أعوام، وسلم إلى عبدة الأصنام، وقوبلت ضرائره بالأعذار، والمواعيد المستغرقة للأعمار، وإنْ عَرَضت شواغل وفتن، وشَوَاغب وإحن(٣)، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته، ولا يذهب المعروف بكليته: [الطويل]

ولا بُدَّ من شَكْوَى إلى ذي مروءة   يُوَاسِيك أو يُسْلِيك أو يَتَوَجَّعُ

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف وتصرف عن الواجب لم يفتح المقدَّسُ والدُكم جبلَ الفتح وهو مُنازل أخاه بسجلماسةَ، ولا أمدَّه ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش، وبالأمْس بعثنا إلى الجبل وشمانه(٤) في جملة ما أهمنا مبلغ جهد وسدَاد من عَوَز، وقد فضلت عن ضرائرنا أموال فُرضت من أجل اللّه على عباده، وطعام سَمَحْنا به على الاحتياج إليه في سبيل جهاده، فلم يسهم المتغلّب منها لجانب اللّه بحبّة، ولا أقطعه منها ذرة مستخفًّا به جلَّ وعلا، متهاونًا بنكيره الذي هو أحقُّ أن يخشى، فضاعت الأمور. واختلَّت الثغور، وتشذَّبت الحامية، وتبدَّدت العُدد، وخَلَت المخازن، وهلكت بها الجرذان(٥)، وعظمت بها حسرة الإسلام، أضعاف ما عظمت حبرته أيام ما كانت تكفلها همم الملوك الكرام والخلفاء العظام، والوزراء والنصحاء، والأشياخ الأمجاد، قدَّس اللّه تعالى أرواحهم! وضاعف أنوارهم! ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس وركاب الجهاد وحسنة بني مَرين ومآثر آل يعقوب وكرامة اللّه للسلطان المقدَّس أبي الحسن والد الملوك وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تَرِدُ على قبره مع الساعات والأنفاس وُفُودُ الرحمة، وهدايا الزلْفَة، وريحان الجنّة، فلولا أنكم على علم من أحواله لشَرَحْنا المجمل، وشكلنا المهمل، إنما هو اليوم

(١) أرعونا أسماعكم: أي اسمعونا جيدًا.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠٧): «المحارب». ومحاريب ومحارب: جمع مِحْراب. لسان العرب (حرب).

(٣) الإحن: جمع إحنة وهي الحقد. محيط المحيط (أحن).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٩١): «وسماته».

(٥) في الطبعة نفسها: «الجراذن».

شيخ مائد[1]، وطلل بائد، لولا أنَّ اللَّه تعالى شغل العدا عنه بفتنة لم يصرف وجهه إلّا إليه، ولا حوّم طيره إلّا عليه، ولكان بصَدَد أن يتّخذهُ الصليب دارًا، وأن يقرّ به عينًا، والعُدوة فضلاً عن الأندلس، قد أوسعها شرًّا، وأرهق ما يُجاوره عُسْرًا، نسأل اللَّه تعالى بنور[2] وجهه أن لا يسوّد الوجوه بالفَجْع فيه، ولا يسمع المسلمين الثكلة، وما دونه فهو ـ وإن أنعش بالتعليل عليله، ووقع بالجهد خلقه ـ لحم على وَضَم[3]، إلّا أن يصل اللَّه تعالى وقايته، ويوالي دفاعه وعصمته، لا إلَه إلّا هو الولي النصير، وما زلنا نشكو إلى غير المصمّت، ونمدّ اليد إلى المُدْبر عن اللَّه المعرض، ونخطب له زكاة الأموال من المباني الضخمة، والخزائن الثرَّة، والأهْرَاء الطامية، والحظّ التافه من المفترض برسمه، فتمضي الأيام لا تزيد الضرائر فيها إلّا ضيقًا، ولا الأحوال إلّا شدَّة، ولا الثغر إلّا ضعة، ولا نعلم أنّ نظرًا وقع له ولا فكرًا أعمل فيه إلّا ما كان من تسخير رعيّته الضعيفة، وبُلالة مجباه السخيفة، في بناء قصر بمنت ميور[4] من جباله: [الخفيف]

شاده مَرْمَرًا وجَلَّله كلْـ ـسًا فللطَّير في ذَرَاهُ وُكورُ[5]

جلب إليه الزليج، واختلفت فيه الأوضاع في رأس نِيقٍ، لأمل نَزْوَة، وسوء فكرة، فلمّا تمّ أقطع الهجران، فهو اليوم ممتنع البوم وحظّ الخراب، فلا حول ولا قوة إلّا باللَّه، حتى جاء أمر اللَّه خالي الصحيفة من البرّ، صفر اليد من العمل الصالح، نعوذ باللَّه من ذلك[6]، ونسأله الإلهام والسَّداد، والتوفيق والرشاد، وقد بذلنا جَهْدَنا قولاً وفعلاً، ومَوعظة ونصحًا، واستدعينا لتلك الجهة صدقة المسلمين محمولة على أكتاد[7] العباد الضعفاء الذين كانت صدقات فاتحيه رضي اللَّه تعالى عنهم ترفدهم، ونوافله[8] تتعهّدهم، فما حرك ذلك الجؤار[9] حلوبًا، ولا استدعى مطلوبًا، ولا رفدًا مجلوبًا، فإلى متى تُنْضَى ركاب الصبر وقد

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠٨): «شبح ماثل».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٩٢): «بنوره وجهه».
(٣) الوَضَم، بالفتح: خشبة الجزّار يقطع عليها اللحم. محيط المحيط (وضم).
(٤) مونت ميور: كلمة إسبانية وهي Monte Mayor وتعني الجبل الأكبر.
(٥) البيت لعدي بن زيد بن أيوب العبادي، وهو في الشعر والشعراء (ص ١٥١).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٠٩): «من نكيره».
(٧) الأكتاد: جمع كتد وهو مجتمع الكتفين من الإنسان أو الفرس. لسان العرب (كتد).
(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٩٣): «ونوافلهم».
(٩) الجؤار: رفع الصوت بالدعاء. لسان العرب (جأر).

بلغ الغاية، واستنفد البلالة، بعد أن أعاد اللّه تعالى العهد، وجبر المال، وأصلح السعي، وأجرى ينابيع الخير، وأنشق رياح الإقالة. وجُمْلَة ما نريد أن نقرّره فهو الباب الجامع، والقصد الشامل، والداعي والباعث: أنَّ صاحب قَشْتالة لَمّا عاد إلى ملكه، ورجع إلى قطره، جرت بيننا وبينه المراسلة التي أسفرت بعدم رضاه عن كَدْحنا لنصره، ومظاهرتنا إياه على أمره، وإن كُنّا قد بلغْنا جهدًا، وأبعدنا وُسْعًا، وأجلت عن شروط ثقيلة لم نقبلْها، وأغراض صعبة لم نكملها، ونحن نتحقّق أنه إمّا أن تهيج حفيظته[1]، وتثور إحْنَته[2]، فيكشف وجه المطالبة مستكثرًا بالأمة التي داس بها أهل قشتالة، فراجع أمره غلابًا، وحقه ابتزازًا واستلابًا، أو يصرفها ويهادن المسلمين بخلال ما لا يدع جهة من جهة دينه الغريب إلّا عقد معها صلحًا، وأخذ عليها بإعانتها إياه عهدًا، ثم تفرّغ إلى شفاء غليله، وبلوغ جهده، ولا شكّ أنها تجيبه صَرْفًا لبأسه عن نحورها، ومُقَارضة كما وقع بأطريرة من مضيق صدورها، ومؤسف جمهورها، وكل من له دين ما فهو يحرص على التقرّب إلى مَنْ دانه به وكلفه وطائفَ تكليفٍ، رجاء لوعده وخوفًا من وعيده، وباللّه ندفع ما لا نطيق من جموع تداعت من الجزر ووراء البحور والبر المتّصل الذي لا تقطعه الرفاق، ولا تحصي ذرعه الحُذّاق، وقد أصبحنا بدار غُربة، ومحلّ روعة، ومفترس نبوة، ومظنة فتنة، والإسلام عدده قليل، ومنتجعه في هذه البقعة جديب، وعهده بالإرفاد والإمداد من المسلمين بعيد، ﴿ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أو أَخْطَأْنا ﴾[3] إلى آخر السورة.

وإذا تداعت أمم الكفر نصرة لدينها المكذوب، وحميّة لصليبها المنصوب، فمن يستدعى لنصر دين اللّه وحفظ أمانة نبيّه إلّا أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر اللّه تعالى تملأ الآفاق، وكلمة الإسلام قد عَمَّت الرُّبا والوِهاد، إنما الإسلام غريق قد تشبَّثَ بأهدابكم، يناشدكم اللّه في بقية الرمَق، وقبل الرمي تُرَاش السهام[4]، وهذا أوان الاعتناء، واختيار الحماة، وإعداد الأقوات، قبل أن يضيق المجال، وتمنع الموانع، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم مُقَرِّرًا الضرورة، منهيًا الرغبة، مذكرًا بما يقرب عند اللّه، مذكِّرًا لذمام الإسلام، جالبًا على مَنْ وراءهم بحول اللّه تعالى من المسلمين البشرى التي

---

(١) الحفيظة: الغضب. لسان العرب (حفظ).

(٢) الإحنة: الغضب. لسان العرب (أحن).

(٣) سورة البقرة ٢، الآية ٢٨٦.

(٤) قبل الرمي تراش السهام: مثل، ومعناه أنه يجب الاستعداد للأمر والتهيؤ له.

تشرح الصدور، وتسني الآمال، وتستدعي الدعاء والثناء، فالمؤمن كثير بأخيه، ويد اللَّه مع الجماعة، والمسلمون يَدٌ على مَنْ سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، والتعاون على البرّ والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور، وحقّ الجار مشهور، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب[1]، وكما راع المسلمين اجتماع كلمة الكفر، فنرجو أن يروِّع الكفر من العزّ باللَّه، وشَدِّ الحيازيم في سبيل اللَّه، ونفير النفرة لدين اللَّه، والشعور لحماية[2] الثغور وعمرانها، وإزاحة عللها، وجلب الأقوات إليها، وإنشاء الأساطيل، وجبر ما تلف من عدة البحر، أمور تدلّ على ما وراءها، وتخبر بمشيئة اللَّه تعالى عما بعدها، ﴿ وما تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيرَ الزادِ التَّقْوَى ﴾[3]. ومن خطب عليٍّ رضي اللَّه تعالى عنه: أَمَّا بعد، فإن الجهاد باب من أبواب الجنّة، فمن تركه رهبة ألبسه اللَّه تعالى سِيمَا الخسفِ، ووَسَمه بالصَّغار، وما بعد الدنيا إلّا الآخرة، وما بعد الآخرة إلّا إحدى دارَي البقاء، أفي اللَّه شكّ؟ ﴿ ومَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فأولئكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ﴾[4] والاعتناء بالجبل عنوان هذا الكتاب، ومقدمة هذا الباب، والغفلة عنه منذ أعوام قد صيّرتنا لا نقنع باليسير، وقد أبرمته المواعيد، وغَيَّر رسومه الانتظار، ومن المنقول «ارْحَمُوا السائلَ ولو جاء على فرس»، والإسراف في الخير أرجح في هذا المحلّ من عكسه، وكان بعض الأجواد يقول وقد أقتر[5]: اللهم هَبْ لي الكثير، فإن حالي لا تقوم على القليل، وعسى أن يكون النظر له بنسبة الغفلة عنه، والامتعاض له مكافئًا للإزراء به، وخلو البحر يغتنم لإمداده وإرفاده، قبل أن يثوب نظر الكفر إلى قطر المدد وسدّ البحر، ومن ضيع الحزم ندم، ولا عذر لمن علم، واللَّه عزّ وجلّ يطلع من قبلكم على ما فيه شفاء الصدور، وجَبْر القلوب، وشَعْب الصدوع، وما نقص مال من صدقة، وطعام الواحد كالاثنين[6]، والدين دينكم، والبلاد بلادكم، ومحلّ رباطكم وجهادكم، وسُوق حسناتكم، ﴿ فمنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يَرَهُ. ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾[7] وقد قلدنا العهد الحفيظ علينا،

---

(١) يعتمد هنا على الحديث الشريف: «وما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٠): «في حماية..».

(٣) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٧.

(٤) سورة الحشر ٥٩، الآية ٩.

(٥) أَقْتَرَ: ضاق عيشه. لسان العرب (قتر).

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ١٩٥): «كافي الاثنين».

(٧) سورة الزلزلة ٩٩، الآيتان ٧، ٨.

المصروف العناية بفضل اللّه تعالى إلينا، واللّه المستعان، وعليه التكلان؛ والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته؛ انتهى.

وفي اعتقادي أنّ هذا المكتوب للسلطان أبي فارس عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن الْمَرِيني؛ وأنّ المراد بالمتغلّب الوزير عمر بن عبد اللّه الذي ظفر به أبو فارس المذكور واستقلّ بالملك بعد محو أثره؛ حسبما ذكَرْناه في غير هذا المحلّ؛ واللّه سبحانه أعلم.

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه في استنهاض عزم صاحب فاس السلطان المريني لنصرة الأندلس، ما نصُّه: المقام الذي يؤثر حظّ اللّه إذا اختلفت الحظوظ وتعدّدت المقاصد، ويشرع الأدنى منه إذا تفاضلت المشارع وتمايزت الموارد، وتشمل عادةُ حلمِهِ وفضله الشارد، ويَسَع وارفُ ظلّه الصادرَ والوارد، والغائب والشاهد، ويعيد من نصر اللّه للإسلام العَوائد، ويسدُّ الذرائع ويدرُّ الفوائد، مقامُ محلّ أخينا الذي حسنت في الملك سِيَرُه، وتعاضد في الفضل خُبْره[1] وخَبَرُه، ودلّت شواهد مداركه للحقوق، وتغمده للعقوق، على أنّ اللّه تعالى لا يهمله ولا يَذَره، فسِلْكُ فخره متّسقةٌ دررُهُ، ووجْهُ مُلْكِهِ شادخةٌ غُـرَرُه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا أبقاه اللّه رفيعًا علاؤه! هامية لديه مِنَنُ اللّه تعالى وآلاؤه! مزدانة بكواكب السعد سماؤه! محروسةً بعزّ النصر أرجاؤه! مكملاً من فضل اللّه تعالى في نصر الإسلام، وكَبْت عبدة الأصنام، أملُه ورجاؤه! معظم قدره الذي يحقّ له التعظيم، وموقر سلطانه الذي له الحسب الأصيل والمجد الصَّميم، الداعي إلى اللّه تعالى باتِّصال سعادته حتى ينتصف من عدوّ الإسلام الغريم[2]، ويُتَاح على يد سلطانه الفتح الجسيم، فلان؛ سلام كريم، طيب عميم، ورحمة اللّه وبركاته.

أمَّا بعدَ حمدِ اللّه الذي لا يُضيع أجر من أحسن عملاً، ولا يخيب لمن أخلص الرغبةَ إليه أملاً، ومُوفِي مَنْ ترك له حقّه أجره المكتوب متمّمًا مكملاً، وجاعل الجنّة لمن اتّقاه حقّ تقاته نُزُلاً، ملك الملوك الذي جلَّ وعلا، وجبار الجبابرة الذي لا تجدُون عن قدره مَحيصًا[3] ولا من دونه مَوئلاً، والصلاةِ والسلام على سيّدنا ومولانا محمد الذي أنزل اللّه

---

(١) الخُبْر، بضم الخاء وسكون الباء: الاختبار. لسان العرب (خبر).

(٢) الغريم: الخصم. لسان العرب (غرم).

(٣) محيصًا: محيدًا. لسان العرب (حيص).

تعالى عليه الكتاب مُفَصَّلاَ، وأوضح طريق الرشد وكان مُغْفَلاَ، وفتح باب السعادة ولولاه كان مُقْفَلاَ، والرضا عن آله وأصحابه، وعِتْرَتِهِ وأحزابه، الذين ساهموه فيما مَرَّ وما حَلا، وخَلَفُوه من بعد بالسِّيَر التي راقت مجتلى، ورفعوا عمادَ دينِه فاستقام لا يعرف مَيَلا، وكانوا في الحلم والعفو مثلاً، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يلفى نصّه صريحًا لا متأوّلاَ، والصنع الذي يبهر حالاً ومستقبلاَ، والعِزّ الذي يَرْسُو جبلاَ، والسعد الذي لا يبلغ أمدًا ولا أجلاَ، فإنّا كتبْناه إليكم أصْحَبَ اللّه تعالى ركابكم حلف[1] التوفيق حِلاًّ ومُرْتَحَلا، وعرّفكم عَوَارف اليُمْن الذي يثير جَذَلاَ، ويدعو وافد الفتح المبين فيرد مستعجلاَ، من حمراء غَرْنَاطة حرسها اللّه تعالى ولا زائد بفضل اللّه سبحانه ثم بما عندنا من التشيّع لمقامكم حرس اللّه تعالى سلطانه، ومَهَّد أوطانه، إلاّ الخير الذي نسأل بعده تحسين العُقْبَى[2]، وتوالي عادة الرحمى، والحمد للّه على التي هي أزكى، وسدل جناح الستر الأضفى[3]، وصلة اللطائف التي هي أكفل وأكفى، وأبرُّ وأوفى، ومقامكم عندنا العُدَّة التي بها نصول ونُرْهِب، والعمدة التي نُطِيل في ذكرها ونُسْهِب، وقد أوفدنا عليكم كلّ ما زاد لدينا، أو فتح اللّه تعالى به علينا، ونحن مهما شدّ المخنّق بكم نستنصر، أو تراخى ففي ودّكم نستبصر، أو فتح اللّه تعالى فأبوابكم نهني ونبشّر، وقرّرْنا عندكم أنَّ العدوّ في هذه الأيام توقّف عن بلاد المسلمين فلم تصل منه إليها سَرِيَّة، ولا بطشت له يد جَرِيَّة[4]، ولا افترعت من تلقائه ثَنِيَّة، ولا ندري ألمكيدة تُدَبَّرُ، أم آراء تُنقض بحول اللّه وتُتَبَّر[5]؟ أو لشاغل في الباطن لا يظهر؟ وبعد ذلك وردت على بابنا مِنْ بعض كبارهم، وزعماء أقطارهم، مخاطبات يندبون فيها إلى جنوحها للسلم في سبيل النصح، لأيادٍ سلفت مِنّا لهم قررها، ورسائل ذكرها، فلم يَخْفَ عنّا أنه أمر دُبِّر بلَيل، وخبية تحت ذيل، فظهر لنا أن نَسْبُر الغَور، ونستفسر الأمر، فوجّهنا إليه ـ على عادتنا مع سلفه ـ لنعتبر ما لديه، وننظر إلى بواطن أمره، ونبحث عن زَيد قومه وعَمْره، فتأتّى ذلك وجرّ مفاوضة في الصلح أَعَدْنا لأجلها الرسالة، واستشعرْنا البَسَالة، ووازنّا الأحوال واختبرْنا، واعتززْنا في الشروط ما قَدَرْنا، ونحن نرتقب ما يخلق اللّه تعالى من مهادنة تحصل

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٢): «حليف».

(٢) العُقْبَى: العاقبة، النهاية. لسان العرب (عقب).

(٣) الأَضْفَى: الأكثر زيادة وسعة. لسان العرب (ضفا).

(٤) جَرِيَّة: أصلها: جريئة، فقلب الهمزة ياء ثم أدغمها في الياء.

(٥) تُتَبَّرُ: تُهْلك: لسان العرب (تبر).

بها الأقوات المهيّأة للانتساف، وتسكن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف، ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العِجَاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يظهر اللّٰه تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز فيما أردناه، وشموخ الأنف فيما أصدرْناه، إلاَّ ما أشَعْنا من عزمكم على نُصْرة الإسلام، وارتقاب خفوق الأعلام، والنهوض إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأنّ الأرض حميّةً للّٰه تعالى قد اهتزَّتْ، والنفرة قد غلبت النفوس واستفزّت، واستظهرنا بكتبكم التي تضمّنت ضرب المواعد، وشمّرت عن السواعد، وأنّ الخيل قد أطلقَتْ إلى الجهاد في سبيل اللّٰه الأعِنَّة، والثنايا سدتها بروق الأسِنَّة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والأموال قد سمح بها المسلمون، وهذه الأمور التي تمشت بقريبها أو بعيدها أحوال الإسلام، والأماني المعدة لتزجية[1] الأيام، ثم اتّصل بنا الخبر الكارث[2] بما كان من حَور العزائم المؤمنة بعد كَورها[3]، وتسويف مواعد النصرة بعد استشعار فَورِها، وأنّ الحركة مُعْمَلة إلى مراكش الجهة التي في يديكم زمامُها، وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامُها، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطلبكم إنْ تركتموه، ولا يمنعكم إنْ طرقتموه وعَرَكتموه، فسُقِط في الأيدي الممدودة، واختلفت المواعد المحدودة، وخسئت الأبصار المرتقبة، ورجفت المعاقلُ الأشِبَة[4]، وساءت الظنون، وذَرَفَت العيون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يعتبر، وقالوا: هذا لا يمكنُ حيث الدينُ الحنيف، والملك المنيف، والعلماء الذين أخذ اللّٰه تعالى ميثاقهم، وحَمَّل النصيحة أعناقهم، هذا المفترض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يأباه اللّٰه تعالى والإسلام، وتأباه العلماء الأعلام[5]، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والأكابر، فبادرْنا نستطلع طلع هذا النبإ الذي إذا كان باطلاً فهو الظنّ، وللّٰه المنّ، وإن كان خلافه لرأي ترجَّحَ، وتنفَّقَ بقرب الملك وتبجّح، فنحن نوفد كلّ من يقدم إلى اللّٰه تعالى بهذا القطر في شفاعة، ويمدّ إليه كَفَّ ضَرَاعة، ومن يُوسَمُ بصَلاحٍ وعبادة، ويَقْصِد في الدين بَثَّ إفادة، يتطارحون عليكم في نقض ما أُبرم، ونسخ ما أُحكم، فإنكم تجنون به على من

---

(١) تزجية الأيام: دَفْعُها برفق. لسان العرب (زجا).

(٢) الخبر الكارث: الذي يشتدّ له الحزن لشدّته وقسوته. لسان العرب (كرث).

(٣) الحَوْرُ: النقصان. الكَوْر: الزيادة. لسان العرب (حور) و (كور).

(٤) الأشبة: الملتفة، وأراد هنا: القوية.

(٥) في طبعة دار صادر: «والأعلام».

استنصركم عكسَ ما قَصَد، وتحلُّون عليه ما عَقَد، وهب العذر يُقبل في عدم الإعانة، وضرورة الاستعانة والاستكانة، أيُّ عذر يُقْبل في الاطِّراح، والإعراض الصُّراح[1]؟ كأنّ الدين غير واحد، كأنّ هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد، كأنّ ذمام الإسلام غير جامع، كأنّ اللَّه غير راءٍ ولا سامع، فنحن نسألكم باللَّه الذي تَسَاءلُونَ به والأرحام، ونأنف لكم من هذا الإحجام، ونتطارح عليكم أن تتركوا حظّكم في أهل تلك الجهة حتى يحكم اللَّه بيننا وبين العدو الذي يتكالَبُ علينا بإدباركم، بعد ما تضاءل لاستنفاركم، ولا نكلفكم غير اقتراب داركم، وما سامكم المسلمون بها شَطَطًا، ولا[2] حملوكم إلاَّ قَصْدًا وسطًا، وما ذهبتم إليه لا يفوت، ولا يبعد وقد تجاورت البيوت، إنما الفائت ما وراءكم، من حديث تأنف من سماعه أودَّاؤكم، ودين يشمت به أعداؤكم، فأسعفوا بالشفاعة فيمن بتلك الجهة المراكشية قَصْدنا، وحاشا إحسانكم أن يرى[3] فيه رَدَّنا، وأنتم بعدُ بالخيار فيما يجريه اللَّه على يديكم من قَدَرِه، أو يلهمكم إليه من نَصْره، وجوابكم مرتقب بما يليق بكم، ويجمل بحسبكم، واللَّه سبحانه يصل سعدكم، ويحرص مجدكم، والسلام الكريم عليكم ورحمة اللَّه تعالى وبركاته.

ومن إنشاء لسان الدين أيضًا في مخاطبة سلطان فاس والمغرب على لسان سلطان غرناطة فيما يقرب من الأنحاء السابقة، ما نصُّه:

المقامُ الذي أقمارُ سعدِهِ في انتظام واتِّساق، وجيادُ عزِّه إلى الغاية القصوى ذاتُ استباق، والقلوب على حبّه ذات اتفاق، وعِناية اللَّه تعالى عليه مديدة الرِّواق، وأياديه الجمة في الأعناق، ألزم من الأطواق، وأحاديث مجده سَمَرُ النوادي وحديث الرفاق، مقامُ محلِّ أبينا الذي شأنُ قلوبنا الاهتمامُ بشأنه، وأعظم مطلوبنا من اللَّه تعالى سعادة سلطانه، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللَّه تعالى والصنائع الإلَهية تحطّ ببابه، والألطاف الخفية تُعَرِّسُ في جنابه، والنصر العزيز يحفُّ بركابه، وأسباب التوفيق متّصلة بأسبابه، والقلوب الشجيّة لفراقه مسرورة باقترابه[4]، معظم سلطانه الذي له الحقوق المحتومة، والفواضل المشهورة المعلومة، والمكارم المسطورة المرسومة، والمفاخر

(١) الصُّراح: الخالص الذي لا شائبة فيه. لسان العرب (صرح).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٥): «وما».
(٣) في الطبعة نفسها: «يرضى».
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٦): «بإيابه».

المنسوقة المنظومة، الداعي إلى اللّٰه تعالى في وقاية ذاته المعصومة، وحفظها على هذه الأمة المرحومة، الأمير عبد اللّٰه يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر:

سلام كريم، طيب برٌّ عميم، كما سَطَعَتْ في غَيهَب الشدة أنوار الفرج، وهبَّت نواسم ألطاف اللّٰه عاطرة الأرَج، يخصّ مقامَكم الأعلى، ورحمة اللّٰه وبركاته.

أَمَّا بعدَ حمدِ اللّٰه جالي الظُّلَم بعد اعتكارها، ومُقِيل الأيام من عِثارها، ومُزَيِّن سماء الملك بشموسها المحتجبة وأقمارها، ومريح القلوب من وَحْشة أفكارها، ومنشىء سحاب الرحمة على هذه الأمة بعد افتقارها، وشدّة اضطرابها واضطرارها، ومُتَدارِكها باللطف الكفيل بتمهيد أوطانها وتيسير أوطارها، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله صفوة النبوّة ومُخْتَارها، ولُبَاب مجدها السامي ونِجَارها[1]، نبيِّ الملاحم وخائض تَيَّارها، ومُذْهِب رسوم الفتن ومطفىء نارها، الذي لم تَرُعْهُ الشدائد باضطراب بحارها، حتى بلغت كلمة اللّٰه ما شاءت من سطوع أنوارها، ووضوح آثارها، والرضا عن آله وأصحابه الذين تمسّكوا بعهده على إجلاء الحوادث وإمرارها، وباعُوا نفوسَهم في إعلاء دَعْوته الحنيفية، وإظهارها، والدعاءِ لمقامكم الأعلى باتّصال السعادة واستمرارها، وانسحاب العناية الإلٰهية وإسدال أستارها، حتى تقف الأيام ببابكم موقف اعتذارها، وتعرض على مَثابتكم ذنوبَها راغبة في اغتفارها، فإنّا كتبْناه إليكم ـ كتب اللّٰه تعالى لكم أوفىٰ ما كَتَبَ لصالحي الملوك من مواهب إسعاده، وعَرَّفكم عوارف الآلاء في إصدار أمركم الرفيع وإيراده، وأجرى الفَلَك الدوّار بحكم مراده، وجعل العاقبة الحسنى كما وعد به في محكم كتابه المبين للصالحين من عباده ـ من حمراء غَرْنَاطة حرسها اللّٰه تعالى، وليس بفضل اللّٰه الذي عليه في الشدائد الاعتماد، وإلى كَنَف فضله الاستناد، ثم ببركة جاه نبيّنا الذي وضح بهدايته الرشاد، إلّا الصنائع التي تُشام بَوَارقُ اللطف من خلالها، وتخبِرُ سيماها بطلوع السعود واستقبالها، وتَدُلّ مخايل يمنها على حسن مآلها، للّٰه الحمد على نعمه التي نرغب في كمالها، ونستدرُّ عذب زُلالها، وعندنا من الاستبشار باتّساق أمركم وانتظامه، والسرور بسعادة أيامه، والدعاء إلى اللّٰه تعالى في إظهاره وإتمامه، ما لا تَفي العبارةُ بأحكامه، ولا تتعاطى حَصْرَ أحكامه، وإلى هذا أيّد اللّٰه تعالى أمركم وعلاه، وصان سلطانكم وتولّاه، فقد علم الحاضر والغائب،

---

(١) النِّجارُ: الأصل والحسب. لسان العرب (نجر).

وخلص الخلوص الذي لا تغيره الشوائب، ما عندنا من الحب الذي وضحت منه المذاهب، وأننا لَمّا اتّصل بنا ما جرت به الأحكام من الأمور التي صحبت مقامكم فيها العناية من اللّه والعِصْمَة، وجعل على العباد والبلاد الوقاية والنعمة، لا يستقرّ بقلوبنا القَرار، ولا تتأتى بأوطاننا الأوطار، تشوّقًا لما تُتِيحه لكم الأقدار، ويبرزه من سعادتكم الليلُ والنهار، ورجاؤنا في استئناف سعادتكم يشتدّ على الأوقات ويَقْوَى، علمًا بأن العاقبة للتقوى، وفي هذه الأيام عُمِّيت الأنباء، وتكالبت في البر والبحر الأعداء، واختلفت الفصولُ والأهواء، وعاقت الوارد(١) الأنواء، وعلى ذلك من فضل اللّه الرجاء، ولو كنّا نجد للاتّصال بكم سببًا، أو نلفي لإعانتكم مذهبًا، لما شغلنا البعد الذي بيننا اعترض، والعدو بساحتنا في هذه الأيام رَبَض، وكان خديمكم الذي رفع من الوفاء رايةً خافقة، واقتنى منه في سوق الكساد بضاعة نافقة، الشيخُ الأجلُّ الأوفى، الأودُّ الأخلص الأصفى، أبو محمد بن أحبانا سنّى اللّه مأموله، وبلّغه من سعادة أمركم سُولَه، وقد ورد على بابنا، وتحيّز إلى اللحاق بجنابنا، ليتيسّر له من جهتنا القدوم، ويتأتّى له بإعانتنا الغرضُ المَرُوم، فبينما نحن ننظر في تتميم غرضه، وإعانته على الوفاء الذي قام بمفترضه، إذ اتّصل بنا خبرُ قرقورتين من الأجفان التي استعنتم بها على الحركة، والعزيمة المقترنة بالبركة، حطّت إحداهما بمرسى المُنَكَّبِ والأخرى بمرسى ألمَرِيَّة، في كنف العناية الإلّهية، فتلقَّينا من الواصلين فيها الأنباء المحققة بعد التباسها، والأخبار التي يُغْني نصُّها عن قياسها، وتعرفنا ما كان من عزمكم على السفر، وحركتكم المعروفة باليُمن والظفر، وأنكم استخرتم اللّه تعالى في اللحاق بالأوطان التي يؤمِّنُ قدومُكم خائفَها، ويؤلف طوائفها ويسكن راجفها، ويصلح أحوالها، ويسكن أهوالها، وأنّكم سبقتم حركتها بعشرة أيام مستظهرين بالعزم المبرور، والسعد الموفور، واليمن الرائق السفور، والأسطول النصور، فلا تسألوا عن انبعاث الآمال بعد سكونها، ونهوض طيور الرجاء من وُكُونها(٢)، واستبشار الأمة المحمدية منكم بقرّة عيونها، وتحقّق ظنونها، وارتياح البلاد إلى دعوتكم التي ألبستها ملابسَ العدل والإحسان، وقلّدتها قلائد السِّيَرِ الحِسان، وما منها إلاّ من باح بما يخفيه من وَجْدِه، وجهر بشكر اللّه تعالى وحمده، وابتهل إليه في تيسير غرض مقامكم الشهير وتتميم قَصْده، واستئناس نور سعده، وكم مطل الانتظار بديون آمالها، والمطاولة من اعتلالها. وأمّا نحن فلا تسألوا عَمَّن استشعر دنوّ حبيبه، بعد طول مغيبه، إنما

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٨): «الوُرّاد».
(٢) الوُكُون: جمع وَكْن وهو عشّ الطائر. لسان العرب (وكن).

هو صدر راجَعَه فؤاده، وطَرْفُ ألفه رُقاده[1]، وفكر ساعده مراده، فلمّا بلغنا هذا الخبر بادرنا إلى إنجاز ما بذلنا لخديمكم المذكور من الوعد، واغتنمنا ميقات هذا السعد، ليصل سَبَبُه بأسبابكم، ويسرع لحاقه بجنابكم، فعنده خِدَمٌ نرجو أن ييسّر اللّه تعالى أسبابها، ويفتح بنيّتكم الصالحة أبوابها، وقد شاهد من امتعاضنا لذلك المقام الذي ندين له بالتشيّع الكريم الوداد، ونصل له على بعد المزار ونزوح الأقطار سَبَبَ الاعتداد، ما يغني عن القلم والمداد، وقد ألقينا إليه من ذلك كلّه ما يلقيه إلى مقامكم الرفيع العماد، وكتبنا إلى من بالسواحل من ولاتنا نحدُّ لهم ما يكون عليه عملهم في بِرٍّ من يرد عليهم من جهة أُبوّتكم الكريمة، ذات الحقوق العظيمة والأيادي الحديثة والقديمة، وهم يعملون في ذلك بحسب المراد، وعلى شاكلة جميل الاعتقاد، ويعلم اللّه تعالى أننا لو لم تعق العوائق الكبيرة، والموانع الكثيرة، والأعداء الذين دُهِيَتْ بهم في الوقت هذه الجزيرة، ما قدّمنا عملاً على اللحاق بكم، والاتّصال بسببكم، حتى نوفي لأبوّتكم الكريمة حقّها، ونوضح من المسرّة طرقها، لكن الأعذار واضحة وضوحَ المثل السائر، واللّه العالم بالسرائر، وإلى اللّه تعالى نبتهل في أن يوضح لكم من التيسير طريقًا، ويجعل السعد لكم مصاحبًا ورفيقًا، ولا يعدمكم عناية منه وتوفيقًا، ويتمّ سرورنا عن قريب بتعرف أنبائكم السارّة، وسعودكم الدارّة، فذلك منه سبحانه غايَةُ آمالنا، وفيه إعمال ضراعتنا وابتهالنا[2]، هذا ما عندنا بادرنا لإعلامكم به أسرعَ البِدَار، واللّه تعالى يوفد علينا أكرم الأخبار، بسعادة ملككم السامي المقدار، وييسّر ماله من الأوطار، ويصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته، انتهى.

وكان طاغية النصارى الملعون لكثرة ما مارس من أمور ملوك الأندلس وسلاطين فاس كثيرًا ما يدسُّ لأقارب الملوك القيامَ على صاحب الأمر، ويزين له الثورة، ويعِدُه بالإمداد بالمال والعدّة، وقَصْدُه بذلك كلّه توهين المسلمين، وإفساد تدبيرهم، ونسخ الدول بعضها ببعض، لما له في ذلك من المصلحة، حتى بلغ أبعده اللّه تعالى من أمله الغاية.

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب ـ رحمه اللّه تعالى! ـ عن سلطان الأندلس إلى سلطان فاس المريني، يعتذر عن فرار الأمير أبي الفضل المريني الذي كان مُعْتَقَلاً بغرناطة، فتحيّل الطاغية في أمره حتى خرج طالبًا للملك، ما نصّه:

(١) الرُّقاد: النوم. لسان العرب (رقد).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤١٩): «وسؤالنا».

المقام الذي شهد الليلُ والنهارُ بأصالة سعادته، وجرى الفَلك الدوَّار بحكم إرادته، وتعود الظفَرَ بمن يناويه فاطَّرد والحمد للّه جريان عادته، فوليُّه متحقّق لإفادته، وعدوّه مرتقب لإبادته، وحُلَل الصنائع الإلَهية تَضْفُو على أعطاف مَجَادته، مقامُ محلّ أخينا الذي سَهْمُ سعده صائب، وأملُ مَنْ كاده خاسر خائب، وسير الفلك المدار في مرضاته دائب، وصنائعُ اللّه تعالى له تصحبها الألطاف العجائب، فسيّان شاهد منه في عصمة وغائب، السلطانُ الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّه تعالى مُسَدِّد السهم! ماضي العزم! تجلُّ سعوده عن تصوّر الوَهْم! ولا زال مرهوبَ الحدّ ممتثل الرسم! موفور الحظّ من نعمة اللّه تعالى عند تعدّد القَسْم! فائزًا بفلج الخصام عند لَدَدِ[1] الخصم! معظم قدره، وملتزم برّه، المبتهج بما يسببه اللّه تعالى له من إعزاز نصره، وإظهار أمره، فلان.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، ومَثَابتكم[2] الفُضْلَى، التي حازت في الفخر الأمَدَ البعيد، وفازت من التأييد والنصر بالحظّ السعيد، ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

أمّا بعد حمد اللّه الذي فَسَحَ لملككم الرفيع في العزِّ مَدَى، وعرّفه عوارف آلائه وعوائد النصر على أعدائه يومًا وغَدَا، وحرس سماء علائه بشُهُب من قَدَره وقضائه ﴿ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهابًا رَصَدًا ﴾[3] وجعل نجح آماله[4] وحُسن مآله قياسًا مطَّردًا، فربَّ مريدٍ ضرّه ضرّ نفسه وهادٍ إليه أهْدَى وما هَدَى، والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد نبيّه ورسوله الذي ملأ الكون نورًا وهُدًى، وأحيا مَرَاسم الحقّ وقد صارت طرائقَ قِدَدًا[5]، أعلى الأنام يَدًا، وأشرفهم مَحْتِدًا[6]، الذي بجاهه نلبس أثواب السعادة جُدُدًا، ونظفر بالنعيم الذي لا ينقطع أبدًا، والرضا عن آله وأصحابه الذين رفعوا لسماء سنّته عمدًا، وأوضحوا من سبيل اتّباعه مقصدًا، وتقبّلوا شيمَه الطاهرة رُكّعًا وسُجّدًا، سيوفًا على من

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٠٥): «لدّ». واللَّدَدُ: شدّة الخصومة. محيط المحيط (لدد).

(٢) المثابة: المكان الذي يرجع إليه الإنسان، والمراد هنا الوطن. محيط المحيط (ثوب).

(٣) سورة الجن ٧٢، الآية ٩.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٢١): «أعماله».

(٥) القِدَدُ: جمع قِدّة وهي الفرقة من الناس هوى كل واحد على حِدته، أي إنها صارت فِرقًا مختلفة الأهواء. ومنه قول اللّه تعالى: ﴿وَكُنّا طرائقَ قِدَدًا﴾. سورة الجن ٧٢، الآية ١١.

(٦) المَحْتِدُ: الأصل. لسان العرب (حتد).

اعتدى، ونجومًا لمن اهتدى، حتى علت فروعُ ملّته صُعُدًا[1]، وأصبح بناؤها مديدًا مخلدًا، والدعاء لمقامكم الأسمى بالنصر الذي يتوالى مثنى ومَوْحَدًا، كما جمع لملككم ما تفرّق من الألقاب، على توالي الأحقاب، فجعل سيفكم سَفّاحًا وعلمكم منصورًا ورأيكم رشيدًا وعزمكم مؤيدًا، فإنّا كتبناه إليكم ـ كتب اللّه تعالى لكم صنعًا يشرح للإسلام خَلَدًا، ونصرًا يقيم للدين الحنيفِ أوَدًا[2]، وعزمًا يملأ أفئدة الكفر كَمَدا، وجعلكم مِمّن هيّأ له من أمره رَشَدًا، ويسّر لكم العاقبة الحسنى كما وعد به في كتابه العزيز واللّه أصدق مَوعِدا ـ من حَمْراء غَرْنَاطة حرسها اللّه ولا زائد بفضل اللّه سبحانه إلاّ استطلاع سعودكم في آفاق العناية، واعتقاد جميل صنع اللّه في البداية والنهاية، والعلم بأنّ ملككم تحدّى من الظهور على أعدائه بآية، وأجرى جياد السعد في ميدان لا يحدّ بغاية، وخرق حجاب المعتاد بما لم يظهر إلاّ لأصحاب الكرامة والولاية، ونحن على ما علمْتم من السرور بما يهزّ لملككم المنصور عِطْفًا، ويُسْدِل عليه من العصمة سِجْفًا[3] نقاسمه الارتياح لمواقع نعم اللّه تعالى نصفًا ونصفًا، ونعقد بين أنباء مسرّته وبين الشكر للّه حِلْفًا، ونَعُدُّ التشيّع له مِمّا يُقَرِّبُنا إلى اللّه زُلْفى، ونؤمل من إمداده ونرتقب من جهاده وقتًا يكفل به الدين ويُكْفَى، وتروى غُلل[4] النفوس وتشفى. وإلى هذا وصل اللّه سعدكم، ووالى نصركم وعضدكم، فإنّا من لَدُنْ صَدَرَ عن أخيكم أبي الفضل ما صدر من الانقياد لخُدَع الآمال، والاغترار بموارد الآل[5]، وفال[6] رأيه في اقتحام الأهوال، وتورّط في هفوة حار فيها حيرةَ أهل الكلام في الأحوال، وناصب من أمركم السعيد جبلاً قضى اللّه له بالاستقرار والاستقبال، ومن ذا يزاحم الأطواد ويزحزح الجبال؟ وأخلف الظن مِنّا في وفائه، وأضمر عملاً استأثر عنّا بإخفائه، واستعان من عدو الدين بمُعِين قلّما يُورَى[7] لمن استنصر به زَنْد، ولا خَفَق لمن تولاّه بالنصر بَنْد، وإنّ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٠٦): «صُعْدَ».

(٢) الأوْدُ: الاعوجاج؛ أقام أَوَدَه: جعله مستقيمًا. لسان العرب (أود).

(٣) السِّجْفُ: السِّتْر. محيط المحيط (سجف).

(٤) الغُلَلُ: جمع غُلّة وهي العطش أو شدّته. محيط المحيط (غلل).

(٥) الآلُ: السراب. محيط المحيط (آل).

(٦) فالَ رأيُهُ: ضعف. محيط المحيط (فال).

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٢٢): «يري». وَرَى الزندَ ووري يري: خرجت ناره. محيط المحيط (ورى).

الطاغية أعانه وأنجده ورأى أنه سهمٌ على المسلمين سدّده وعَضْبٌ[1] للفتنة جَرَّده، فسخر لـه الفُلك، وأمـل أن يستخدمـه بسبب ذلك الملك، فـأورده الهلك والـظُّلَم الحلك، علمْنـا أنَّ طِرْفَ سعادته كاب، وسحاب آماله غير ذات انسكاب، وقدم غِرّته[2] لم يستقرّ من السداد في غَرْز ركاب، فإنّ نجاح أعمـال النفوس مـرتبط بنيَّاتهـا، وغايـات الأمور تـظهر في بـداياتهـا، وعوائد اللّه تعالى فيمن نازع قدرته لا تُجهل، ومَنْ غالب أمر اللّه خاب منـه المُعَوَّل. فبينمـا نحن نـرتقب خسار تلك الصفقـة المعقودة، وخمـود تلك الشعلة الموقـودة، وصلنـا كتـابكم يشرح الصدور ويشرح الأخبار، ويُهْدِي طرف المسرّات على أكفّ الاستبشار، ويعرب بلسان حال المسارعة والابتدار، عن الـودّ الواضـح وُضُوحَ النهـار، والتحقّق بخلوصنا الـذي يعلمه عالم الأسرار، فأعاد في الإفادة وأبدى، وأسدى من الفضائـل الجلائـل ما أسْـدَى، فعلم منه مآل مَنْ رام أن يقدح زنـد الشتات من بعـد الالتئام، ويثيـر عجَاجـة المنازعـة من بعد ركـود القَتَام[3]، هيهات تلك قلادة اللّه تعالى التي ما كان يتركها بغيـر نظام، ولم يـدر أنكم نصبتم لـه من الحـزم حِبَـالـة لا يُفْلِتها قَنيص[4]، وسَـدَّدتم لـه من السعـد سهمًـا مـا لــه عنـه من مَحيص[5]، بما كان من إرسال جوارح الأسطول السعيد في مَطَاره، حائلاً بينه وبين أوطاره، فمـا كان إلّا التسميـة والإرسال، ثم الإمسـاك والقتال، ثم الاقتيـات والاستعمال، فيـا له من زجر استنطق لسان الوجود فجدله، واستنصر البحر فخذلـه، وصارع القـدر فجدَّ لـه لما جـدَّ له، وإنّ خدامكم استولوا على ما كان فيـه من مؤمل غـاية بعيـدة، ومنتسب إلى نسبة[6] غيـر سعيدة، وشانىء غمرته من الكفار، خدام الماء وأولياء النار، تحكمت فيهم أطراف العـوالي وصدور الشِّفار[7]، وتحصل منهم من تخطّاه الحمام في قبضة الإسار، فعجبنا من تيسير هذا المرام، وإخماد اللّه لهذا الضِّرام، وقلْنا: تكييف لا يحصل في الأوهام، وتسديد لا تستطيـع إصابتَه السهام، كلّما قدح الخلاف زندًا أطفأ سعدُكم شُعْلته، أو أظهر الشتات ألمًـا أبرأ يمنُ طـائركم علّتـه، ما ذاك إلّا لنيّـة صدقت معـاملتها في جنب اللّه تعـالى وصحّت، واسترسلت

---

(1) العَضْب: السيف القاطع. محيط المحيط (عضب).
(2) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٠٧): «عزّته».
(3) القَتام، بالفتح: الغبار. لسان العرب (قتم).
(4) القنيص: الصيد. لسان العرب (قنص).
(5) المحيص: المَحيد والمهرب. محيط المحيط (حيص).
(6) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٢٣): «نصبة».
(7) العوالي: جمع عالية وهي الرمح. الشِّفار: جمع شفرة، وهي السيوف.

بـركتها وسَحَّت، وجهـاد نذرتمـوه إذا فـرغت شـواغلكم وتمت، واهتمـام بـالإسـلام يكفيـه الخطوب التي أهَمَّتْ، فنحن نهنيكم بمنح اللَّه ومننه، ونسأله أن يلبسكم من إعانتـه[١] أوقى جُنَنِه[٢]، فأملنا أن تطّرد آمالكم، وتنجح في مرضاة اللَّه أعمـالكم فمقامكم هـو العمدة التي يُدْفَعُ العدوُّ بسلاحها، وتنبلج ظلمات صفـاحها، وكيف لا نُهَنيكم بصنـع على جهتنا يعـود، وبآفاقنا تطلع منه السعود، فتيّقنوا ما عنـدنا من الاعتقـاد الذي رسـومه قـد استقلّت واكتفت، ودِيمَةُ بساحة الودّ قـد وَكَفَتْ، واللَّه عزّ وجـلّ يجعل لكم الفتـوح عادة، ولا يعـدمكم عنايـة وسعـادة، وهو سبحـانه يعلي مقـامكم، وينصر أعـلامكم، ويهني الإسلام أيـامكم، والسلام الكريم يخصّكم، ورحمة اللَّه وبركاته. انتهى.

وكان سلطان الأندلس في الأزمان المتأخـرة كثيرًا مـا يشم أرَجَ الفَرَج في سِلْم الكفـار ومهادنتهم، حيث لم يقدر في الغالب على مقاومتهم؛ ولذلك لمـا قُتل السلطان أبـو الحجاج الذي كان لسان الدين كـاتبه ووزيـره، وقام بـالأمر بعـده ابنه محمـد الغني باللَّه الـذي ألقى مقاليده للسان الدين ـ أكَّدَ أمر السلم، وانتظر[٣] ما يبرمه القضاء الجزم، والقدر الحتم.

ومن إنشاء لسان الدين في ذلك على لسان الغني مخاطبًا لسلطان فاس والمغـرب أبي عنان ما صورته:

المقـام الذي يغني عن كـلّ مفقود بـوجوده، ويهـزّ إلى جميل العـوائد أعـطاف بـأسـه وجوده، ونستضيء عند إظلام الخطوب بنور سعوده، ونرث من الاعتماد عليه أسنى ذُخْر يرثه الولد عن آبائه وجدوده، مقام محلّ أبينا الذي رَعْيُ الأذمة شـانه، وصلة الـرعي سجية انفـرد بها سلطانه، ومواعد النصر ينجزها زمانـه، والقول والفعـل في ذات اللَّه تعالى تكفلت بهمـا يده الكريمة ولسانُه، وتطابق فيهمـا إسراره وإعـلانه، السلطان الكـذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللَّه تعالى محروسًا من غِيَرِ[٤] الأيام جَنَابُه، موصـولةً بـالوقـاية الإلٓهيـة أسبابه، مسدولاً على ذاته الكريمة ستر اللَّه تعالى وحِجَابه، مصروفًا عنه من صروف[٥] القدر

---

(١) في طبعة دار صادر: «عنايته».
(٢) الجُنَنُ: جمع جُنَّة وهي السُّتْرة وكلّ ما وقى من سلاح. محيط المحيط (جنن).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٠٩): «وانتظم».
(٤) غِيَرُ الأيام: أحداثها المتغيرة. لسان العرب (غير).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٢٤): «صرف».

مـا يعجز عن ردّه بَـوَّابُه، ولا زال ملجـأ تنفق لديـه الوسـائل التي تـدخرهـا لأولادهـا أوليـاؤه وأحبابه، ويسطر في صحف الفخر ثوابه، وتشتمل على مكارم الدين والدنيا أثوابـه، وتتكفّل بنصر الإسلام وجبر القلوب عند طوارق الأيام كتائبه وكُتّابه، معـظّمُ ما عَـظُم من حقّه السـائر من إجلاله وشكـر خلالـه على لاحـب[١] طرقـه، المستضيء في ظلمة الخـطب بنور أُفقـه، الأميـرُ عبدُ اللّه محمـد ابن أميـر المسلمين أبي الحجـاج ابن أميـر المسلمين أبي الـوليـد بن فرج بن نصر:

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ مقامكم الأعلى، ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

أَمَّـا بَعْـدَ حمـدِ اللّه الـذي لا رادَّ لأمـره ولا معـارضَ لفعله، مصـرف الأمـر بقــدرتـه وحكمته[٢] وعدله، الملك الحقّ الذي بيده مِلَاك الأمر كلّه، مقدر الآجال والأعمار فلا يتأخّر شيء عن ميقاته ولا يَبْرَحُ عن محلّه، جاعل الدنيا مناخ قُلَعَة لا يغتبط العاقل بمائه ولا بظلّه، وسبيل رحلة فما أكثب ظعنه من حلّه[٣]، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانـا محمد صَفْـوة خلقه وخيرة أنبيائه وسيد رُسْله، الذي نعتصم بسببه الأقوى ونتمسّك بحَبْله، ونمدّ يد الافتقار إلى فضله، ونجاهد في سبيله مَنْ كذب به أو حاد عن سُبْله، ونصل إليه ابتغاء مـرضاتـه ومن أجله، والرضا عن آلـه وأحزابـه وأنصاره وأهله، المستـولين من ميدان الكمـال على خصله، والدعاء لمقـامكم الأعلى بعزّ نصـره ومضاء فضله، فـإنّا كتبنـاه إليكم ـ كتب اللّه تعالى لكم وقاية لا تطرق الخطوبُ حمـاها، وعصمـة ترجـع عنها سهـام النوائب كلّمـا فوّقهـا[٤] الدهـر ورماها، وعنايةً لا تغيّر الحوادث اسمها ولا مُسَمَّاها، وعزًّا يزاحم أجرام الكـواكب منتماهـا ـ من حمراء غَرْنَـاطة حـرسها اللّه تعـالى ونعمُ اللّه سبحانـه تتواتـر لدينـا دفعًا ونفعًـا، وألطافُـه نتعـرفها وتـرًا وشَفْعًا[٥]، ومقـامكم الأبوي هـو المستند الأقـوى، والمورد الـذي تَـرِدُه آمـال الإسلام فتَرْوَى، وتَهْوِي إليه أفئدتهم فتجد مـا تَهْوَى، ومَثَـابتكم العُدَّة التي تـأسّست مبانيهـا على البِرِّ والتقوى. وإلى هذا وصل اللّه تعالى سعدكم، وأبقى مجـدكم، فإننـا لما نعلم من مساهمة مجـدكم التي تقتضيها كـرام الطبـاع وطباع الكـرم، وتدعـو إليها ذمم الـرعي ورَعْي

---

(١) الطريق اللاحب: الواضح. لسان العرب (لحب).

(٢) في طبعة دار صادر: «بحكمته وقدرته».

(٣) أكثب: أقرب. الظعن: الارتحال. الحلُّ: النزول والإقامة. لسان العرب (كثب) و (ظعن) و (حلل).

(٤) يقال: فَوَّق السَّهْمَ إذا سدَّده وجهّزه للرمي. لسان العرب (فوق).

(٥) وترًا: فردًا. شفعًا: زوجًا. لسان العرب (وتر) و (شفع).

الذمم، نعرفكم بعد الدعاء لملككم بدفاع اللّه تعالى عن ارتقائه، وإمتاع المسلمين ببقائه، بما كان من وفاة مولانا الوالد نفعه اللّه تعالى بالشهادة التي ألبسه حلّتها، والشهادة التي في أعماله الزكية كتبها، والدرجة العالية التي حتمها له وأوجبها، وبما تصير إلينا من أمره، وضم بنا من نَشْره، وسَدَل على مَنْ خلفه من ستره، وإنها لعبرة لمن ألقى السمع، وموعظة تهزّ الجمع وترسل الدمع، وحادثة أجمل اللّه سبحانه فيها الدفع، وشرح مجملها وإن أخرس اللسانَ هولُها، وأسلم العبارة قوّتها وحَوْلُها، أنه رضي اللّه تعالى عنه لما برز لإقامة سنّة هذا العيد، مستشعرًا شعارَ كلمة التوحيد، مظهرًا سِمَةَ الخضوع للمولى الذي تَضْرَع بين يديه رقابُ العبيد، آمنًا بين قومه وأهله، متسربِلاً في حُلَل نعم اللّه تعالى وفضله، قرير العين باكتمال عزّه واجتماع شمله، قد احترس بأقصى استطاعته، واستظهر بخُلْصان طاعته، والأجَلُ المكتوبُ قد حضر، والإرادة الإلّهية قد أنفذت القضاء والقدر، وسجد بعد الركعة الثانية من صَلاته، أتاه أمرُ اللّه لميقاته، على حين الشبابُ غضٌّ جلبابُهُ، والسلاح زاخرٌ عُبابُه، والدين بهذا القطر قد أينع بالأمن جنابه، وأمْرُ من يقول للشيء كُنْ فيكون قد بلغ كتابه، ولم يرعه وقد اطمأنّت بذكر اللّه تعالى القلوب، وخلصت الرغبات إلى فضله المطلوب، إلاّ شَقيٌّ قيضه اللّه لسعادته غير معروف ولا منسوب، وخبيث لم يكن بمعتبر ولا محسوب، تخلَّلَ الصفوف المعقودة، وتجاوز الأبواب المسدودة، وخاض الجموع المشهودة، والأمم المحشورة إلى طاعة اللّه المحشودة، لا تدل العينَ عليه شارةٌ ولا بِزَّة، ولا تحمل على الحذر من مثله أنَفَة ولا عزة، وإنما هو خبيث ممرور، وكلب عقور، وحيّة سمّها وَحِيٌّ[(١)] محذور، وآلة مُصَرَّفة لِيَنْفُذَ بها قدر مقدور، فلمّا طعنه وأثبته، وأعلق به شَرَكَ الحَيْن[(٢)] فما أفلته، قبض عليه من الخلصان الأولياء مَنْ خَبَر ضميره، وأحكم تقريره، فلم يُجب عند الاستفهام جوابًا يُعْقل، ولا عثر منه على شيء عنه يُنْقل، لطفًا من اللّه أفاد براءة الذمم، وتعاورته للحِينِ أيدي التمزيق، وأتبع شِلْوه بالتحريق، واحتمل مولانا الوالد رحمه اللّه تعالى إلى القصر وبه ذَمَاء[(٣)] لم يلبث بعد الفتكة العُمَرية إلاّ أيسر من اليسير، وتخلف الملك ينظر من الطَّرْف الحسير، وينهض بالجناح الكسير، وقد عاد جمع السلامة إلى التكسير، إلاَّ أنَّ اللّه تعالى تدارك هذا القطر الغريب بأن أقامنا مقامه لوقته وحِينِه، ورفع بناء

---

(١) الوَحِيُّ: المسرع؛ يقال موتٌ وَحِيٌّ، والسمّ الوحيُّ: السريع الفتك. لسان العرب (وحى).

(٢) الحَيْن، بفتح الحاء وسكون الياء: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٣) الذَّماء، بفتح الذال والميم: بقية الروح في المذبوح. محيط المحيط (ذمى).

عماد ملكه ولَمَّ شَعَث دينِه، وكان جميع من حضر المشهد من شريف الناس ومشروفهم، وأعلامهم ولفيفهم، قد جمعه ذلك الميقات، وحضر الأولياء الثقات، فلم تختلف علينا كلمة، ولا شذّت منهم عن بيعتنا نفس مسلمة، ولا أُخيف بريّ، ولا حُذر جريّ، ولا فُري فَرِيّ، ولا وقع لبس، ولا استوحشت نفس، ولا نَبَضَ للفتنة عرق، ولا أُغفل للدين حقّ، فاستند النقل إلى نصّه، ولم يعدم من فقيدنا غيرُ شخصه، وبادرْنا إلى مخاطبة البلاد نمهّدها ونسكّنها، ونقرر الطاعة في النفوس ونمكّنها، وأمرنا الناسَ بها بكف الأيدي، ورَفْعِ التعدّي، والعمل من حفظ شروط المسالمة المعقودة بما يُجْدِي، ومَنْ شَرِهَ منهم للفرار، عاجلناه بالإنكار، وصرفنا على النصارى ما أوصاه مصحبًا بالاعتذار، وخاطبنا صاحبَ قَشْتَالة نرى ما عنده في صلة السلم إلى أمدها من الأخبار، واتّصلت بنا البيعات من جميع الأقطار، وعَفَّى على حزن المسلمين بوالدنا ما ظهر عليهم بولايتنا من الاستبشار، واستَبَقُوا تطير بهم أجنحةُ الابتدار، جعلنا اللّه تعالى مِمَّنْ قابل الحوادث بالاعتبار، وكان على حَذَر من تصاريف الأقدار، واختلاف الليل والنهار، وأعاننا على إقامة دينه في هذا الوطن الغريب المنقطع بين العدو الطاغي والبحر الزخّار، وألهمنا من شكره ما يتكفل بالمزيد من نعمه، ولا قطع عنّا عوائدَ كرمه. وإن فقدنا والدنا فأنتم لنا من بعدِهِ الوالد، والذخر الذي تكرم منه العوائد، والحُبُّ يتوارث كما ورد في الأخبار التي صحت منها الشواهد، ومَنْ أعَدَّ مثلكم لبنيه، فقد تيسّرت من بعد الممات أمانيه، وتأسّست قواعد ملكه وتشيّدت مبانيه، والاعتقاد الجميل مَوْصُول، والفروع لها في التشيع إليكم أصول، وفي تقرير فخركم محصول، وأنتم رِدْءُ[1] المسلمين بهذه البلاد المسلمة الذي يعينهم بإرفاده، وينصرهم بإنجاده، ويعامل اللّه تعالى فيها بصدق جهاده.

وعندما استقرّ هذا الأمر الذي تبعت المحنة فيه المنحة، وراقت من فضل اللّه تعالى ولطفه فيه الصفحة، وأخذنا البيعة من أهل حضرتنا بعد استدعاء خواصّهم وأعيانهم، وتزاحمت على رَقِّها[2] المنشور خطوطُ أيمانهم، وتأصّلت قواعدُ ألفاظها ومعانيها في قلوبهم وآذانهم، وضمنوا الوفاء بما عاهدوا اللّه عليه وقد خَبَر سَلَفُنا والحمد للّه وفاء ضمانهم، بادرنا تعريفَ مقامكم الذي نعلم مساهمته فيما ساء وسرّ وأحلى وأمرّ، عملاً بمقتضى

---

(١) الرِّدْءُ: العون والناصر. محيط المحيط (ردأ).

(٢) الرَّقُّ، بفتح الراء وتشديد القاف: جلد رقيق يكتب عليه. لسان العرب (رقق).

الخلوص الذي ثبت واستقرّ، والحب الذي ما مال يومًا ولا ازوَرّ[1] وما أحق تعريف مقامكم بوقوع هذا الأمر المحذور، وانجلاء ليله عن صبح الصنع البادي السُّفور، وإنْ كنّا قد خاطبنا من خدامكم من يبادر إعلامكم بالأمور، إلاّ أنه أمرٌ له ما بعده، وحادث يأخذ حدّه، ونبعث إلى بابكم مَنْ شاهد الحال ما بين وقوعها إلى استقرارها رأي العِيان، وتولى تسديد الأمور بأعماله الكريمة ومقاصده الحِسان، ليكون أبلغ في البر وأشرح للصدر وأوْعَبَ[2] للبيان، فوجّهنا إليكم وزير أمرنا، وكاتب سرّنا، الكذا أبا فلان، وألقينا إليه من تقرير تعويلنا على ذلك المقام الأسنى، واستنادنا من التشيّع إليه إلى الركن الوثيق المبنى، ما نرجو أن يكون له فيه المقام الأعنى، والثمرة العذبة المَجْنَى، فلاهتمامه بهذا الغرض الأكيد الذي هو أساس بنائنا، وقامع أعدائنا، آثرنا توجيهه على توفّر الاحتياج إليه، ومَدار الحال عليه، والمرغوبُ من أبوّتكم المؤملة أنْ يتلقّاه قبولُها بما يليق بالملك العالي، والخلافة السامية المعالي، والله عزّ وجلّ يديم أيامكم لصلة الفضل المتوالي، ويحفظ مجدكم مِنْ غِيَر الأيام والليالي، وهو سبحانه يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، ويوالي نصركم وعضدكم، والسلام الكريم يخصّكم، ورحمة الله وبركاته؛ انتهى.

وقوله في هذه الرسالة «فوجهنا إليكم وزير أمرنا ـ إلى آخره» هو لسان الدين رحمه الله تعالى! إذ هو كان الوزير إذ ذاك والسفير في هذه القضية، ومن صفحات هذا الكلام يتّضح لك ما نال لسانُ الدين، رحمه الله تعالى، من الرياسة والجاه ونفوذ الكلمة بالأندلس وبالمغرب، رحمه الله تعالى! وقد أكرمه السلطان أبو عنان في هذه الوفادة وغيرها غاية الإكرام، وكان المقصود الأعظم من هذه الوفادة استعانة سلطان الأندلس الغني بالله بالسلطان أبي عنان على طاغية النصارى، كما ألمعْنا بذلك في الباب الثاني من القسم الثاني الذي يتعلّق بلسان الدين.

وكان السلطان أبو عنان ابن السلطان أبي الحسن معتنيًا بالأندلس غاية الاعتناء، وخصوصًا بجبل الفتح، حتى إنه بلغ من اعتنائه[3] به أن أمَّرَ عليه ولده أبا بكر السعيد، وهو الذي تولّى الملك بعده.

---

(١) ازْوَرّ: عدل وانحرف. لسان العرب (زور).

(٢) أوعب: اسم تفضيل من الفعل أوعب؛ يقال: أَوْعَبَ الشيءَ إذا جمعه. لسان العرب (وعب).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٢٩): «من اهتمامه».

ومن إنشاء لسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّٰه تعالى، على لسان سلطانه ما خاطب به الأميرَ السعيد المذكور إذْ قَلَّده والده جبل الفتح، وهو:

الإمارةُ التي أشرق في سماء الملك شِهابُها، واتّصلت بأسباب العزّ أسبابها، واشتملت على الفضل والطهارة أثوابها، وأُجِيلت قِدَاحُ المفاخر فكان إلى جهة اللّٰه تعالى انتدابها، إمارةُ محلِّ أخينا الذي تأسّس على مرضاة اللّٰه تعالى أصيلُ فخره، واتّسم بالمُرَابط المجاهد على اقتبال سنِّه وجِدّةِ عمره[١]، وبَدَأ بفضل الجهاد صحيفةَ أَجره، وافتتح بالرباط والصلاح ديوانَ نهيه وأمره، لما يَسَّره من سعادة نَصْبَته وحباه من عزّ نصره، الأمير الأجلّ الأعزّ الأرفع الأسنى الأطهر الأظهر الأمنع الأصعد الأسمى الموفق الأرضى، محلّ أخينا العزيز علينا، المُهْدَاة أنباء مأمول جواره إلينا، أبي بكر السعيد ابن محلّ والدنا الذي مقاصدُه للإسلام وأهله على مرضاة اللّٰه تعالى جارية، وعزائمه على نَصْر الملّة الحنيفية متبارية، السلطان الكذا أبو عنان ابن السلطان الكذا أبي الحسن ابن السلطان الكذا أبي سعيد ابن السلطان يعقوب بن عبد الحق، أبقاه اللّٰه تعالى سديدة آراؤه ناجحة أعماله، مُيَسَّرة أغراضُه من فضل اللّٰه تعالى متمّمة آماله، رَحيبًا[٢] في العدل مَجَاله، يَكنُفُهُ من اللّٰه تعالى ومحل أبينا غمامٌ وارفةٌ ظلالُه، هامرٌ نوالُه، حتى يرضي اللّٰه تعالى مِصَاعه[٣] بين يديه ومِصَاله[٤]، وتمضي في الأعداء أمام رايته المنصورة نِصاله، أخوه المسرور بقربه، المنطوي على مضمر حبّه، أمير المسلمين محمد ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نَصْر.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ أخوّتكم الفضلى، وإمارتكم التي آثارُ فضلها بحول اللّٰه تُتْلَى، ورحمة اللّٰه تعالى وبركاته.

أَمَّا بعدَ حمدِ اللّٰه على ما كيّف من ألطافه المشرقة الأنوار، ويَسَّره لهذه الأوطان بنصرته من الأوطار، فكلّما دَجَتْ بها شدّة طلع الفرج عليها طلوع النهار، وكلّما اضطرب

---

(١) يريد أن يقول إنه شجاع رغم صغر سنّه، وأن شجاعته قد حصرها في جهاد العدو والمرابطة في الثغور في سبيل اللّٰه تعالى.

(٢) الرَّحيب: الفسيح الواسع. لسان العرب (رحب).

(٣) المِصاع، بكسر الميم: المضاربة بالسيوف؛ يقال: مَصَعَ فلانًا إذا ضربه بالسيف. محيط المحيط (مصع).

(٤) المِصال: جرح العدوّ والإيقاع به؛ يقال: مصل الجرحُ إذا سال منه شيء يسير. محيط المحيط (مصل).

منهـا جانب أعـاده بفضل اللّه تعـالى مَنْ أقامـه لذلـك واختاره إلى حـال السكـون والقَـرار، والصلاة والسلام على سيِّدنا ومولانا محمد رسوله المصطفى المختار، الذي أكد عليه جبريل صلوات اللّه عليـه حقَّ الجوار، حتى كـاد يُلْحقه بـالوسـائل والقُـرَب الكِبار، الـذي وصـانـا بالالتئام، واتّصال اليد في نُصْرة الإسلام، فنحن نقابل وَصاته بالبِدَار[1]، ونجري على نهجه الواضح الآثار، ونرتجي باتّباعه الجمعَ بين سعادة هذه الدار وتلك الدار[2]، والرضا عن آلـه وأصحابه، وأنصاره وأحزابه، أكرم الآل والأصحـاب والأحزاب والأنصـار، الذين كـانوا كمـا أخبـر اللّه تعالى عنهم على لسـان الصـادق الأخبـار، رُحَمَـاء بَيْنَهُمْ أشِـدَّاء على الكُفّـار[3]، والدعاء لإمارتكم السعيدة بالتوفيق الذي تجري به الأمورُ على حسب الاختيار، والعز المنيـع الذِّمار[4]، والسَّعْد القويم المَدار، والوقاية التي يأمن بها أهلُها من الشرار، فـإنّا كتبنـاه إليكم ـ كتب اللّه تعـالى لكم أسنى ما كتب لـلأمراء الأرضيـاء الأخيـار، ومتعكم من بقـاء والـدكم بالعدة العظمى والسيرة الـرحمى والجلال الـرفيع المقـدار ـ من حَمْراء غَـرْناطـة حرسهـا اللّه تعالى ولا زائد بفضل اللّه سبحانه ثم ببركة سيِّدنا ومولانـا محمد رسـوله، ﷺ، الـذي أوضح برهانه إلاّ ألطاف باهرة، وعناية من اللّه تعالى باطنة وظاهرة، وبشارة بـالقبول واردة وبـالشكر صادرة، واللّه تعالى يصل لدينا نعمه، ويوالي فضله وكرمه. وإلى هذا فإننا اتّصل بنا في هذه الأيام ما كان من عنايـة والدكم محـلِّ أبينا أبقـاه اللّه تعالى بهـذه البلاد المستنـدة إلى تأميـل مجده، وإقطاعها الغايـة التي لا فوقهـا من حسن نظره وجميـل قصده، وتعيينكم إلى المقـام بجبل الفتح إبلاغًا في اجتهـاده الديني وجـدّه، فقلْنا: هـذا خبر إن صـدق مُخْبره، وتحصَّـل منتظره، فهو فخر تجدّدت أثوابه، واعتناء تفتّحت أبوابه، وعمل عنـد اللّه تعالى ثـوابه، فـإن الأندلس ـ عصمها اللّه تعـالى ـ وإن أنجدتـه عُدَدُه وأمـواله، ونجحت في نصـرهـا مقـاصـده الكريمة وأعماله، لا تدري موقـع النظر لهـا من نفسه، وزيـادة يومـه في العنايـة على أمسه، حتى يسمح لها بولده، ويخصّها بقرّة عينه وفِلْذَة كبده، فلمّا ورد منه الخبر، الذي راقت منـه الحِبَر، ووضحت من سعادتـه الغُرَر، بـإجازكم البحـر، واختياركم في حـال الشبيبة الفخـر،

---

(١) الوَصاة، بالفتح: الوصيّة. البِدار: المبادرة والمسارعة. لسان العرب (وصى) و (بدر).

(٢) هذه الدار: أي الدنيا. تلك الدار: أي الآخرة.

(٣) هـذا من قول اللّه تعـالى: ﴿ محمدٌ رسـولُ اللّهِ والذين معـه أَشِدّاءُ على الكُفّـارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ ﴾. سـورة الفتح ٤٨، الآية ٢٩.

(٤) الذِّمار، بكسر الذال: كل ما يلزم الإنسان حفظه والدفاع عنه. لسان العرب (ذمر).

وصدق مَخِيلة الدين فيكم، واستقراركم في الثغر الشهير الذي افتتحه سيفُ جدّكم واستنقذه سعدُ أبيكم، سررنا بقرب المزار، ودنوّ الدار، وقابلنا صنع اللّه تعالى بالاستبشار، ووثقنا وإن لم نَزَلْ على ثقة من عناية اللّه تعالى وعناية محلٍّ والدنا بهذه الأقطار، وحمدنا اللّه تعالى على هذه الآلاء[1] المشرقة، والنعم المُغْدِقة، والصنائع[2] المتألّقة، بادرنا نهنّي أُخُوّتكم أولاً بما يسرّه اللّه تعالى لكم من سلامة المجاز، ثم بما منحكم اللّه تعالى من فضل الاختصاص بهذا الغرض والامتياز، فإمارتكم الإمارة التي أخذت بأسباب السماء، وركبت إلى الجهاد في سبيل اللّه تعالى جياد الخَيْل والماء، وأصبحت على حال الشبيبة شَجًا في حلوق الأعداء، ونحن أحقُّ بهذا الهناء، ولكنها عادة الود وسُنَّة الإخاء، فاللّه عزَّ وجلَّ يجعله مَقْدَمًا ميمونَ الطائر، متهلّل البشائر، تتهلَّلُ بصنع اللّه بعده وجوه القبائل والعشائر، ويجري خبر سعادتكم مجرى المثل السائر، ويشكر محلّ والدنا فيما كان من اختياره، ومزيد إيثاره، ويجازيه جزاء من سمح في ذاته بمظنّة ادِّخاره، ومذ رأينا أنّ هذا الغرض لا يجتزى[3] فيه بالكتابة، دون الاستنابة، وجّهنا لكم من يقوم بحقّه، ويجري من تقرير ما لدينا على أوضح طُرْقِه، وهو القائد الكذا، ومَجْدُكم يُصْغِي لما يلقيه، ويقابل بالقبول ما من ذلك يؤدّيه، واللّه تعالى يصل سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام؛ انتهى[4].

وكان الطاغية الملعون أيام السلطان أبي عنان، رحمه اللّه تعالى، نَازَلَ جبل الفتح ثم كفى اللّه تعالى شرّه في ذلك التاريخ.

ومن إنشاء لسان الدين على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب أبا عنان سلطان فاس والمغرب وذلك بما نصُّه:

المقامُ الذي رمى له الملكُ الأصيل بأفلاذه، وأدّى منه الإسلام إلى ملجئه الأحمى ومَلَاذه، وكفلت السعودُ بإمضاء أمره المطاع وإنفاذه، وشأى[5] حَلْبَة الكرم فكان وحيد آحاده وفَذَّ أفذاذِه، وابتدع غرائب الجود فقال لسان الوجود: نعمت البدعة هٰذه، مقامُ محلِّ أخينا الذي أركانُ مجدِه راسية راسخة، وغُرَر عزّه بادية باذخة، وأعلام فخره سامية شامخة، وآيات

---

(١) الآلاء: النِّعم، واحدتها الأَلَى. محيط المحيط (ألا).

(٢) الصنائع: جمع الصنيعة وهي الإحسان. لسان العرب (صنع).

(٣) يجتزى: أصلها: يجتزأ. ويجتزأ: يكتفى. لسان العرب (جزأ).

(٤) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢١٩).

(٥) شأى: سبق. لسان العرب (شأى).

سعده محكمة ناسخة، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاهُ اللّه تعالى يجري بسَعْده الفَلَك، ويجلى بنور هديه الحَلك، ويسطّر حسنات ملكه المَلَك، ويشهد بفضل بأسه ونداه النادي[1] والمعترك، مُعَظِّمُ حقوقه التي تأكد فرضها، المُثْنِي على مكارمه التي أعيا الأوصافَ البليغةَ بعضُها، أميرُ المسلمين عبد اللّه يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصّ أخوّتكم الفُضْلَى، ورحمة اللّه وبركاته.

أمّا بعد حمد اللّه الذي هيّأ لملّة الإسلام، بمظاهرة ملككم المنصور الأعلام، إظهارًا وإعزازًا، وجعل لها العاقبة الحسنى بِيُمْن مقامكم الأسنى تصديقًا لدعوة الحقّ وإنجازًا، وسَهّل لها بسعدكم كلّ صَعْب المرام وقد سامتها صروف الأيام ليًّا[2] وإعوازًا، وأتاحَ لها منكم وَلِيًّا يسومُ أعداءَها استلابًا وابتزازًا، ويسكن آمالها وقد استشعرت انحفازًا، حمدًا يكون على حُلَل النعم العميمة والآلاء الكريمة طرازًا، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي بهرت آياته وضوحًا وإعجازًا، واستحقّت الكمالَ صفاتُه حقيقة لا مجازًا، ونبيِّه الذي بَيَّنَ للخلق أحكام دينه الحقّ امتناعًا وجَوَازًا، ويَسَّر لهم وقد ضلّوا في مفاوز[3] الشّكِّ مفازًا، والرضا عن آله وأصحابه المستولين على ميادين فضائل الدنيا والدين اختصاصًا بها وامتيازًا، فكانوا غيوثًا إن وجدوا مَحْلاً وليوثًا إن شهدوا برازًا، والدعاءِ لمقام أخوّتكم الأسمى بنصر على أعدائه تُبْدِي له الجياد الجُرْدُ ارتياحًا والرماح المُلْدُ اهتزازًا، وعزّ يطأ من أكناف البسيطة وأرجائها المحيطة سهلاً وعَزَازًا[4]، ويُمْن يشمل من بلاد الإيمان أقطارًا نازحة ويعمّ أحْوَازًا، وسَعْد تجول في مَيدَان ذكره المذاع أطراف ألسنة اليراع إسهابًا وإيجازًا، وفخر يجوب جيوبَ الأقطار جَوبَ المثل السيّار عراقًا وحجازًا، ولا زالت كتائبُ سَعْدِه تنتهز فرص الدهر انتهازًا، وتوسع مَمْلَكاتِ الكفر انتهابًا واحتيازًا، فإنّا كتبْناه إلى مقامكم - كتب اللّه تعالى لكم سعدًا ثابت المراكز، وعزًّا لا تلينُ قَنَاته في يد الغامز، وثناء لا يثني عِنان سُراه عرض المفاوز، وصنعًا رحيب الجوانب رغيب الحوائز[5] - من حمراء غَرْنَاطة حرسها

(١) النادي: المكان يُجْتَمَعُ فيه للتشاور أو للسمر. لسان العرب (ندا).

(٢) اللَّيُّ: المَطْلُ؛ يقال: لوى فلانًا دَيْنَهُ لَيًّا إذا مَطَلَه. محيط المحيط (لوى).

(٣) المفاوز: جمع مفازة وهي الصحراء الواسعة التي لا ماء فيها. لسان العرب (فوز).

(٤) العَزازُ، بالفتح: الصعب، ضدُّ السهل. لسان العرب (عزز).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٢٠): «الجوائز» بالجيم المعجمة.

اللّه تعالى وفضله، عزّ وجلّ، قد أدال العسر يسرًا وأحال القبض بسطًا، وقَرَّبَ نوازحَ الآمال بعد أن تناءت ديارها شَحْطَا[1]، ورَاضَ مركبَ الدهر الذي كان لا يلين لمن استمطى[2]، وقرَّب غريم الرجاء في هذه الأرجاء وكان مشتطًا، والتوكّل عليه سبحانه وتعالى قد أحكم منه اليقين والاستبصار المبين رَبْطًا، ومشروط المزيد من نعمه قد لزم من الشكر شرطا، ومقامكم هو عُدَّة الإسلام إذا جدّ حِفاظُه، وظلّه الظليل إذا لفح للفكر شُوَاظه، وملجؤه الذي تنام في كنَف أمنه أيقاظُه، ووَزَرُه الذي إلى نصره تمدّ أيديه وتشير ألحاظه، ففي أرجاء ثنائه تَسْرَحُ معانيه وألفاظه، ولخُطَب تمجيده وتحميده يقول قُسُّه[3] وتحتفل عُكَاظه، وتَشَيُّعنا إلى ذلك الجناب الكريم طويل عريض، ومقدمات ودِّنا إيّاه لا يعترضها نقيض، وأفلاك تعظيمنا له ليس لأوْجِهَا الرفيع حضيض، وأنوار اعتقادنا الجميل فيه يشف سواد الحبر عن أوجهها البيض. وإلى هذا ـ ألبسكم اللّه تعالى ثوب السعادة المعادة فضفاضا، كما صرف ببركة إيالتكم الكريمة على ربوع الإسلام وجوهَ الليالي والأيام وقد ازورَّتْ إعراضا، وبسطت آمالها وقد استشعرت انقباضا ـ فإننا ورد علينا كتابكم الذي كرم أنحاء وأغراضًا، وجالت البلاغة من طِرْسِه الفصيح المقال رياضًا، ووردت الأفكار من معانيه الغرائب وألفاظه المُـزْرِية بِدُرَر النحور والتَّرائب بحورًا صافيةً وحِياضًا، فاجتلينا منه حلّة من حلل الودّ سابغة، وحجّة من حُجَج المجد بالغة، وشمسًا في فَلَك السعد بازغة، الذي بَيَّنَ المقاصد الكريمة وشَرَحَها، وجلا الفضائل العميمة وأوضَحَها، فما أكرم شيم ذلك الجلال وأسمحها، وأفضل خلال ذلك الكمال وأرجحها، حثثتم فيه على إحكام السلم التي تحوط الأنفس والحريم بسياج، ويُدَاوى القطر العليل منها بأنجع علاج، والحال ذات احتياج، وساحَةُ الجبل عَصَمَه اللّه تعالى ميدان هياج، ومُتَبَوَّأ أعْلاَج[4]، ومظنة اختلاف للظنون[5] الموحشة واختلاج، فحضر لدينا محتملُه وزيرُكم الشيخ الأجلّ الأعظم الموقّر الأسمى الخاصّة الأحظى أبو علي ابن الشيخ الوزير الأجلّ الحافل الفاضل المجاهد الكامل أبي عبد اللّه بن محلّى والشيخ الفقيه الأستاذ الأعرف الفاضل الكامل أبو عبد اللّه ابن الشيخ الفقيه الأجلّ العارف الفاضل الصالح

---

(١) الشَّحْطُ: البُعْدُ. لسان العرب (شحط).

(٢) استمطى الدابة: أراد أن يمتطيها. لسان العرب (مطا).

(٣) هو قُسّ بن ساعدة الإيادي، أحد مشاهير خطباء العرب في الجاهلية.

(٤) الأعلاج: جمع عِلْج وهو الرجل الضخم من الكفار. لسان العرب (علج).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٤): «الظنون».

المبارك المبرور المرحوم أبي عبد اللّه الفشْتَالي[1]، وصل اللّه سبحانه سعادتهما، وحرس مَجَادتهما، حالّين من مراتب ترفيعنا أعلى محلّ الإعزاز، وواردين على أحلى القبول الذي لا تُشاب حقيقَتُه بالمجاز، عملاً بما يجب علينا لمن يصل إلينا من تلك الأنحاء الكريمة والأحواز، فتلقّينا ما اشتملت عليه الإحالة السلطانية من الودّ الذي كَرُمَ مفهومًا ونصًّا، والبرّ الذي ذهب من مذاهب الفضل والكمال الأمَدَ الأقصى، وقد كان سبقهما صنع اللّه جلّ جلاله بما أخلف الظنون، وشرح الصدور وأقرّ العيون، فلم يصلا إلينا إلاّ وقد أهلك اللّه تعالى الطاغية، ومزّق أحزابه الباغية، نعمة منه سبحانه وتعالى ومنّة ملأت الصدور انشراحًا، وعمّت الأرجاء أفراحًا، وعنوانًا على سعد مقامكم الذي راق غُرَرًا في المكرمات وأوضَاحًا، ومد يده إلى سهام المواهب الإلّهية فحاز أعلاها قِدَاحًا، فتشوّفت نفوسُ المسلمين إلى ما كانت تؤمله من فضل اللّه تعالى وترجوه، وبدت في القضية التي أشرتم بأعمالها الوُجوه، وانبعثت الآمال إلى[2] ما آلت إليه هذه الحال انبعاثًا، والتاثت أمور العدو قَصَمَه اللّه تعالى التياثًا[3]، وانتقض غزله من بعد قوّته بفضل اللّه تعالى أنكاثًا، واحتملت المسألة التي تفضلتم بعرضها وأشرتم إلى فرضها مأخذًا وأبحاثًا، فألقينا في هذه الحال إلى رَسُولَيكم أعزّهما اللّه تعالى ما يُلْقيانه إلى مقامكم الأعلى، ومَثَابتكم الفُضْلَى، وما يتزيّد عندنا من الأمور فركائبُ التعريف بها إليكم محثوثة، وجزئياتها بين يدي مقامكم الرفيع مبثوثة، وقد اضطربت أحوال الكفر وفالت[4] آراؤه، واستحكم بالشتات[5] داؤه، وارتَجَّتْ بزلزال الفتن أرجاؤه، وتيسّرت آمالُ الإسلام بفضل اللّه تعالى ورجاؤه، وما هو إلاّ السعد يذلّل لكم صعب العدو ويَرُوضُه، واللّه سبحانه يهيىء لكم فضل الجهاد حتى تُقْضَى بكم فروضُه. وأمّا الذي لكم عندنا من الخلوص الصافية شرائعُه، والثناء الذي هو الروض تأرَّجَ ذائعُه، فأوضحُ من فَلَق الصبح إذا أشرقت طلائعه، جعله اللّه تعالى في ذاته، ووَسِيلةً إلى مرضاته! ورسولاكم يشرحان لكم الحال بجزئياته، ويقرران ما عندنا من الودّ الذي سطع نور آياته، وهو سبحانه وتعالى يصل لكم سعدًا ساميَ المراتب والمراقي، ويجمع لكم بَعْدَ بُعْدِ المدى

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٢٢): «القشتالي» بالقاف.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٥): «بما آلت».

(٣) التياثًا: التباسًا؛ يقال: الْتاثتِ أمورُهُ إذا اختلطت والتبست. لسان العرب (لوث).

(٤) فالتْ آراؤه: ضعفت. محيط المحيط (فيل).

(٥) الشَّتات، بالفتح: التفرّق. محيط المحيط (شتت).

وتمهيد دين الهدى بين نعيم الدنيا والنعيم الباقي، والسلام عليكم ورحمة اللّٰه وبركاته. انتهى.

وأبين من هذا في القضية كتابٌ آخر من إنشاء لسان الدين، رحمه اللّٰه تعالى، صورته:

من أمير المسلمين عبد اللّٰه يوسف ابن أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر، إلى محلِّ أخينا الذي نُثْنِي على مَجَادته أكرمَ الثناء، ونجدّد له ما سلف بين الأسلاف الكرام من الولاء، ونُتْحِفُه من سعادة الإسلام وأهله بالأخبار السارّة والأنباء، السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا، أبقاه اللّٰه تعالى رفيعَ المقدار، كريمَ المآثر والآثار، وعَرَّفَه من عَوَارف فضلِه كلَّ مُشْرِق الأنوار، كفيلٍ بالحسنى وعُقْبَى الدار.

سلام كريم، برّ عميم، يخصّ جلالكم الأرفع، ورحمة اللّٰه وبركاته.

أَمَّا بَعْدَ حمدِ اللّٰه على عَميم آلائه، وجزيل نَعْمائه، مُيَسِّر الصعب بعد إبائه، والكفيل بتقريب الفرج وإدْنائه، له الحمد والشكر ملء أرضه وسمائه، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد خاتم رسله الكرام وأنبيائه، الهادي إلى سبيل الرشد وسَوَائه[1]، مُطْلِع نور الحقّ يجلو ظُلَم الشكّ بضيائه، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه وخُلَفَائه، السائرين في الدنيا والآخرة تحت لوائه، الباذلين نفوسَهم في إظهار دينه القويم وإعلائه، والدعاء لمقامكم بتيسير أمله من فضل اللّٰه سبحانه ورجائه، واختصاصه بأوفر الحظوظ من اعتنائه، فإنّا كتبْناه إليكم - كتبكم اللّٰه تعالى فيمن ارتضى قولَه وعمله من أوليائه، وعرّفكم عوارف السعادة المعادة في نهاية كلّ أمر وابتدائه - من حمراء غَرْنَاطة - حرسها اللّٰه تعالى! - ولا زائد بفضل اللّٰه سبحانه ثم ببركة سيّدنا ومولانا محمد رسوله الكريم الذي أوضح برهانه، وعظم أمره ورفع شانه، ثم بما عندنا من الودّ الكريم وتجديد العهد القديم لمقامكم أعلى اللّٰه تعالى سلطانه، إلاّ الخير الهامي السحاب، والتيسير[2] المتين الأسباب، واليمن المفتّح الأبواب، والسعد الجديد الأثواب، ومقامكم معتمد بترفيع الجناب، متعهّد بالودّ الخالص

(١) يقال: استوى الشيء إذا اعتدل واستقام، ويقال: صراط سويّ أي معتدل مستقيم، وسواء الرشد: استقامته أو وسطه. لسان العرب (سوا).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٧): «واليسر».

والاعتقاد اللُّباب[1]، معلوم له[2] فضل الدين وأصالة الأحساب. وإلى هذا وَصَل اللّه تعالى سعدكم مديد الأطناب، ثاقب الشِّهاب، وأطلع عليكم وجوه البشائر سافرةَ النقاب، فإنه قد كان بلغكم ما آلت الحالُ إليه بطاغية قَشْتَالة الذي كَلِبَ على هذه الأقطار الغربية من وراء البحار، وما سامها من الأوصاب[3] والأضرار، وأنه جرى في ميدان الإملاء والاغترار، ومُحِّصَ المسلمون على يده بالوقائع العظيمة الكبار، وأنه نكث العهد الذي عَقَده، وحلّ الميثاق الذي أكَّدَه، وحمله الطمعُ الفاضح على أن أجْلَبَ على بلاد المسلمين بخيله ورَجْلِه، ودَهَمَها بتيّار سَيْله وقِطَع ليله، وأمل أن يستولي على جبل الفتح الذي يدعى منه فتحُها، وطلع للملّة المحمدية صُبْحُها، فضيقه حصارًا، واتَّخذه دارًا، وعندما عظم الإشفاق، وأظلمت الآفاق، ظهر فينا لقدرة اللّه تعالى الصنعُ العجيب، ونزل الفرجُ القريب، وقَبِلَ الدعاءَ السميعُ المجيب، وطرق الطاغية، جندٌ من جنود اللّه تعالى أخذه أخذةً رابية، ولم يبق له من باقية، فهلك على الجبل حَتْف أنفه، وغالته غوائلُ حَتْفِه، فتفرّقت جموعه وأحزابه، وانقطعت أسبابه، وتعجل لنارِ اللّه تعالى مآبه، وأصبحت البلاد مستبشرة، ورحمة اللّه منتشرة، ورأينا أنَّ هذه البشارة التي يأخذ منها كلّ معلم بالنصيب الموفور، ويشارك فيما جلبته من السرور، أنتم أولى مَنْ نُتْحِفُه بطيب رَيَّاها، ونطلع عليه جميلَ مُحَيّاها، لما تقرّر عندنا من دينكم المتين، وفضلكم المبين، وعملكم في[4] المساهمة على شاكلة صالحي السلاطين، فما ذلك إلّا فضل نيّتكم للمسلمين في هذه البلاد، وأثر ما عندكم من جميل الاعتقاد. وقد ورد علينا رسولكم[5] القائد أبو عبد اللّه محمد بن أبي الفتح، أعزّه اللّه تعالى! مقرِّرًا ما لديكم من الودّ الراسخ القواعد، والخلوص الصافي الموارد، الواضح الشواهد، وأثنى على مكارمكم الأصيلة، وألقى ما عندكم من المذاهب الجميلة، فقابلنا ذلك بالشكر الذي يتّصل سببه، ويتّضح مذهبه، وسألنا اللّه أن يجعله ودًّا في ذاته، ووسيلة إلى مرضاته، وتعرَّفنا ما كان من تفضلكم بالطريدة المفتوحة المؤخر، وما صدَرَ عن الرئيس المعروف بالناظر من خدام دار الصنعة بألمرية من قبح محاولته، وسوء معاملته، فأمرنا بقطع

---

(١) اللُّباب: الخالص. لسان العرب (لبب).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٧): «له من فضل..».

(٣) في الطبعة نفسها: «من الإرهاق».

(٤) في الطبعة نفسها: «من المساهمة».

(٥) في الطبعة نفسها: «وقد ورد رسولنا إليكم القائد..».

جرايته، وثقافِه بمطمورة القصبة جزاء لجنايته، ولولا أننا توقفنا أن يكون عظيم عقابه ممّا لا يقع من مقامكم بوفقه، لمشهور عفافه ورفقه، لجعلْناه نكالاً لأمثاله، وعبرة لأشكاله، وقد وجّهنا جفنًا سفريًا لإيساق الخيل التي ذكرتم، وإيصال ما إليه من ذلك أشرتم، ويكمل القصد إن شاء اللّه تعالى تحت لحظ اعتنائكم، وفضل وَلائكم. هذا ما تزيد عندنا عرّفناكم به، عملاً على شاكلة الودّ الجميل، والولاءِ الكريم الجملة والتفصيل، فعرِّفونا بما يتزيد عندكم يكن من جملة أعمالكم الفاضلة، ومكارمكم الحافلة، واللّه تعالى يَصِلُ سعدكم، ويحرس مجدكم، والسلام الكريم عليكم ورحمة اللّه وبركاته؛ انتهى.

ومن إنشاء لسان الدين فيما يتعلّق بالأندلس وانقطاعها، وأنها لا غِنى لها عن العُدْوة وغير ذلك، ما صورته:

المقامُ الذي بنور سعادته تنجلي الغَمَّاء وتتّصل النعماء، مَنْ نيّتُهُ قد حصل منها لجانب اللّه تعالى الانتماء، واتّفقف منها المسمَّياتُ والأسماء، مقامُ محلّ أبينا الذي تتفيأ هذه الجزيرة الغربية أفياء نيّته الصالحة وعمله، وتثق بحسن العاقبة اعتمادًا على وعد اللّه تعالى المنزل على خيرة رُسُلِه، وتجتني ثمار النُّجح من أفنان آرائه المتألّقة تألّق الصبح حالَيْ رَيثِه[1] وعَجَله، وتتعرّف حالَي المودود والمكروه عارفة الخير والخيرة من قبله، أبقاه اللّه تعالى يحسم الأدواء كلّما اسْتَشْرَتْ، ويحلي موارد العاقبة[2] كلّما أَمَّرَتْ، ويعفِّي على آثار الأطماع الكاذبة مهما خدعت بخُلّبها وغرّت، ويضمن سعدُه عودةَ الأمور إلى أفضل ما عليه استقرّت، معظّم مقامه الذي هو بالتعظيم حقيق، وموقّر ملكه الذي لا يلتبس منه في الفخر والعزّ طريق، ولا يختلف في فضله العميم ومجده الكريم فريق.

أمّا بعدَ حمدِ اللّه المثيب المعاقب، الكفيل لأهل التقوى بحسن العواقب، المشيد بالعمل الصالح إلى أرفع المَرَاقي والمَرَاقب، يهدي من يشاء ويضلّ من يشاء فبقضائه وقدره اختلاف المسالك والمذاهب، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله الحاشر العاقب، ونبيّه الكريم الرؤوف الرحيم ذي المفاخر السامية والمناقب، والرضا عن آله وأصحابه وأنصاره وأحزابه الذين ظاهروه في حياته بإعمال السُّمْر العَوَالي والبِيض

---

(١) الرَّيْثُ: التمهّل. لسان العرب (ريث).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٩): «العافية».

القَواضب[1]، وخلفوه في أمته بخلوص الضمائر عن[2] شَوب الشوائب، فكانوا في سماء ملّته كالنجوم الثواقب، والدعاء لمقامكم الأسمى بالسعادة المعادة في الشاهد من الزمن والغائب، والنصر الذي يقضي بعزّ الكتائب، والصنع الذي تطلع من ثناياهُ غرر الصنائع العجائب، من حمراء غَرْناطة حرسها اللّه تعالى ولا زائد بفضل اللّه سبحانه ثم بما عندنا من الاعتداد بمقامكم أعلى اللّه تعالى سلطانه، وشمل بالتمهيد أوطانه، إلاّ تشيُّع ثابت ويزيد، وإخلاص ما عليه في ميدان الاستطاعة مزيد، وتعظيم أشرق[3] منه جيد، وثناء راق فوق رياضه تحميد وتمجيد. وإلى هذا وَصَلَ اللّهُ تعالى سعدكم، وحرس الطاهر الكريم مجدكم، فقد وصلنا كتابكم الذي هو على الخلوص والاعتقاد عُنْوان، وفي الاحتجاج على الرضا والقبول برهان، تنطق بالفضل[4] فصوله، وتشير إلى كرم العقد فروعه الزكية وأصوله، ويحقّ أن ينسب إلى ذلك الفخر الأصيل مَحْصُوله، عرفتمونا بما ذهب إليه عيسى بن الحسين من الخلاف الذي ارتكبه، وسبيل الصواب الذي انتكبه[5]، وتنبهون على ما حده الحقّ في مثل ذلك وأوجبه، حتى لا يصل أحد من جهتنا سببه، ولا يظاهره مهما ندبه، ولا يسعف في الإيواء طلبه، فاستوفينا ما استدعاه ذلك البيان الصريح وجَلَبه، وخطّه القلم الفصيح وكتبه، وليعلم مقامكم وهو من أصالة النظر غنيٌّ عن الإعلام، ولكن لا بُدَّ من الاستراحة بالكلام، والتنفث[6] بنَفَثَات الأقلام، أننا إنما نجري أمورنا مع هذا العدو الكافر الذي رُمينا بجواره، وبُلينا والحمد للّه بمصادمة تَيَّاره، على تعداد أقطاره، واتّساع بَرَارِيه وبحاره، بأن تكون الأمّة المحمدية بالعُدْوَتين تحت وفاق، وأسْوَاقُ النِّفاق غير ذات نَفاق، والجماهير تحت عهد من اللّه تعالى وميثاق، فمهما تعرّفنا أنّ اثنين اختلف منهما بالعدوتين عَقْد، ووقع بينهما في قبول الطاعة ردّ، ساءنا واقعه، وعَظُمت لدينا مَوَاقعه، وسألنا أنْ يتدارك الخرْقَ راقعُه، لما نتوقعه من التشاغل عن نصرنا، وتفرُّغ العدو إلى ضرنا، فكيف إذا وقعت الفتنة في صقعنا وقُطْرنا، إنما هي شعلة في بعض بيوتنا وقعت، وحادثة إلى جهتنا

(١) البِيْضُ القواضب: السيوف القاطعة.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٣٩): «عند».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٠): «أشرف». وكلا المعنيين حسن.
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٢٨): «بالفصل» بالصاد المهملة.
(٥) انتكبه: عدل عنه. لسان العرب (نكب).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٠): «والتنفّس».

أشرعت، وإن كان لسوانا لفظـها[1] فلنا معناها، وعلى وطننا يعـود جَناهـا، فنحن أحرص الناس على إطفائها وإخمادها، وأسعى في إصلاح فسادها، والمثابرة على كفّها واستئسادها، ومـا الظنّ بـدار فسد بـابُهـا، وآمـال رَثَّتْ أسبـابهـا، وجـزيـرة لا تستقيم أحـوالُ من بهـا إلاّ بالسكون، وسِلْمِ العدو المغرور المفتون، حتى تُقْضَى منه بإعانتكم الديون، وإنّ اضطـرابها إنما هو داء نستبصر[2] من رأيكم فيه بطبيب، وهَدَف خطب نرميه من عزمكم بسهم مصيب، وأمر نضرع في تداركه إلى سميع للدعاء مجيب، ونحن فيه يد أمام يدكم، ومقصدنا فيـه تَبَع لقصدكم، وتصرفنا على حدِّ إشارتكم جارٍ، وعزمنا إلى منتهى مرضاتكم مُتَبَـارٍ، وعَقْدُنـا في مشـايعة أمـركم غير متـوارٍ. وقد كنّـا لأول اتّصال هـذا الخبر، القبيـح العين والأثر، بـادَرْنـا تعريفكم بجميع ما اتّصل بنا في شانـه، ولم نطو عنكم شيئًـا من إسراره ولا إعـلانه، وبعثْنـا رسولنا إلى بابكم العلي نعتدُّ بسلطانه، ونرتجي تمهيـد هذا الـوطن بتمهيد أوطـانه، وبـادرنا بالمخاطبة مَن وجبت مخاطبته من أهل مربلة وأسطبونة نثبت بصـائرهم في الـطاعة ونقـويها، ونعدهم بتوجيـه من يحفظ جهاتهم ويَحميهـا، وعجلنا إلى بعضهـا مددًا من الـرماة والسـلاح ليكون ذلك عُدَّة فيها، وعملنا[3] ما أوجب اللّه تعالى من الأعمال التي يُزْلِفُ بها ويـرتضيها، وكيف لا نظاهر أمركم الذي هو العدة المذخورة، والفئة الناصرة المنصورة، والبـاطل سَـرَاب يَخْدَع، والحقّ إليه يُرْجَع، والبغي يُرْدِي ويَصْرَع، وكم تقدّم في الدهر منتزٍ شذَّ عن الطاعة، وخرج عن الجماعة، ومخالف على الدول، في العصور الأول، بهرج الحقُّ زائفَه، ورجمت شهبُ الأسنّة طائفَه، وأخذت عليه الضيقة وهـادهُ وتَنَائفـه[4]، فتقلّص ظلّه، ونَبَا به عن الحقّ محلّه، وكما قال يذهب الباطل وأهله، لا سيما وسعادة ملككم قد وطأت المسالك ومَهَّدَتها، وقهرت الأعداء وتعبـدتها، وأطفـأت جداول سيـوفكم النار التي أوقـدتها، وكـأنْ بالأمـور إذا أعملتم فيها رأيَكم السديد وقد عادت إلى خير أحـوالها، والبـلاد بِيُمْن تدبيـركم قد شفي مـا ظهر من اعتلالها، وعلى كل حال فإنما نحن إلى تكميل مرضاتكم مبـادرون، وفي أغراضكم الدينية واردون وصادون، ولإشاراتكم التي تتضمّن الخير والخيرة منتـظرون، عندنـا من ذلك عقائد لا يحتمـل نَصُّها التـأويل، ولا يقبـل صحيحها التعليـل، فلتكن أُبوّتكم من ذلـك على

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٢٩): «لفظهما».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤١): «نستنصر».

(٣) في الطبعة نفسها: «وعلمنا».

(٤) التنائف: جمع تَنُوفة وهي الأرض التي لا ماء فيها ولا إنسان. لسان العرب (تنف).

أوضح سبيل، فشمس النهار لا تحتاج إلى دليل، والله تعالى يُسَنّي لكم عوائد الصنع الجميل، حتى لا يَدَعَ عَزْمُكم مغصوبًا إلاّ ردّه، ولا ثَلْمًا في ثغر الدين إلاّ سَدَّه، ولا هدفًا متعاصيًا إلاّ هَدَّه، ولا عرقًا من الخلاف إلاّ حدّه[1]، وهو سبحانه يبقي ملككم ويصل سعده، ويُعْلي أمره ويحرس مجده، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة الله وبركاته؛ انتهى.

ومن إنشائه، رحمه الله تعالى، من جملة رسالة على لسان سلطانه أبي الحجاج يخاطب الرعايا، ما نصّ محلّ الحاجة منه:

وإلى هذا فقد علمتم ما كانت الحال آلت إليه من ضيقة البلاد والعباد بهذا الطاغية الذي جرى في ميدان الأمل جَرْيَ الجَمُوح، ودارت عليه خمرة النخوة والخُيَلاء مع الغَبُوق والصَّبُوح، حتى طمح بسكر اغتراره، ومُحِّصَ المسلمون على يده بالوقائع التي تجاوز منتهى مقداره، وتوجّهت إلى استئصال الكلمة مطامح[2] أفكاره، ووثق بأنه يطفيء نور الله بناره، ونازل جبلَ الفتح فشدّ مُخَنَّق حصاره، وأدار أشياعه في البر والبحر دَورَ السوار على أسواره، وانتهز الفرصة بانقطاع الأسباب وانبهام الأبواب، والأمور التي لم تجرِ للمسلمين بالعُدْوتين على مألوف الحساب، وتَكالَبَ التثليثُ على التوحيد، وساءت الظنون في هذا القطر الوحيد، المنقطع بين الأمة الكافرة والبحور الزاخرة والمرام البعيد، وإننا صابرنا بالله تعالى تيَّار سَيْله، واستضأنا بنور التوكّل عليه في جنح هذا الخطب ودُجُنَّةِ ليْله، ولجأنا إلى من بيده نواصي الخلائق، واعتلقنا[3] من حبله المتين بأوثق العلائق، وفسحنا مجالَ الأمل في ذلك الميدان المتضايق، وأخلصنا لله مُقِيلِ العثار ومؤوي أُولي الاضطرار قلوبَنا، ورفعنا إليه أمرنا ووقفنا عليه مطلوبنا، ولم نقصر مع ذلك في إبرام العزم، واستشعار الحزم، وإمداد الثغور بأقصى الإمكان، وبعث الجيوش إلى ما يلينا من بلاد على الأحيان، فرحم الله تعالى انقطاعنا إلى كرمه، والتجاءنا إلى حَرَمِهِ، فجلّى بفضله سبحانه ظُلَمَ الشدّة، ومدّ على الحريم والأطفال ظلال رحمته الممتدّة، وعرفنا عوارف الصنع الذي قدم به العهد على طول المُدَّة، ورماه بجيش من جيوش قدرته أغنى عن إيجاف[4] الركاب، واحتشاد الأحزاب،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٢): «جدَّه» بالجيم المعجمة. وجَدّه: قطعه. لسان العرب (جدد).

(٢) في طبعة دار صادر: «مطامع».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٢): «واعتقلنا».

(٤) إيجاف الركاب: إعمال الخيل وإجراؤها. لسان العرب (وجف).

وأظهر فينا قدرة ملكه عند انقطاع الأسباب، واستخلاص العباد والبلاد من بين الظُّفُر والناب، فقد كان جَعْجَعَ[1] على الحقّ بأباطيله، وسدّ المَجازَ بأساطيله، ورمى الجزيرة الأندلسية بشُؤْبُوب[2] شَرِّه، وصيّرها فريسة بين غربان بحره وعقبان بَرِّهِ، فلم يخلص إلى المسلمين من إخوانهم مرقبة إلاّ على الخطر الشديد، والإفلات من يد العدوّ العنيد، مع توفّر العزائم والحمد للّه على العمل الحميد، والسعي فيما يعود على الدين بالتأييد. وبينما شفقتنا على جبل الفتح تقيم وتقعد، وكَلَبُ الأعداء عليه يُبْرق ويرعد، واليأس والرجاء خصمان هذا يقرب وهذا يبعد، إذ طَلَع علينا البشيرُ بانفراج الأزْمَة، وحَلِّ تلك العَزْمَة، وموت شاه تلك الرقعة، وإبقاءِ اللّه تعالى على تلك البقعة، وأنه سبحانه أخذ الطاغية أكْمَلَ ما كان اغترارًا، وأعظم أنصارًا، وزلزلت[3] أرض عزّه وقد أصابت قَرَارًا، وأنّ شهاب سعده قد أصبح آفلاً، وعَلَم كبره انقلب سافلاً، وأنّ مَنْ بيده ملكوت السمٰوات والأرض طَرَقَه بحَتْفه، وأهلكه برغم أنْفِهِ، وأنّ محلّته عاجلها التَّبابُ والتَّبار[4]، وعاثت في مَنَازلها النار، وتمخّض عن سوء عاقبتها الليلُ والنهار، وأنّ حُمَاتها يخربون بيوتهم بأيديهم، وينادي بشتات الشمل لسانُ مناديهم، وتلاحق الفرسان من جبل الفتح المعقل الذي عليه من عناية اللّه تعالى رِوَاق مضروب، والرباط الذي مَنْ حاربه فهو المحروب، فأخبرت بانفراج الضيق، وارتفاع العائق لها عن الطريق، وبرء الداء الذي أشرق بالريق، وأنّ النصارى دمّرها اللّه تعالى جدت في ارتحالها، وأسرعت بِجِيفة طاغيتها إلى سوء مآلها وحالها، وسمحت للنار والنهب بأسلابها وأموالها، فبهرَنا هذا الصنعُ الإلٰهي الذي مهّد الأقطار بعد رجفانها، وأنام العيون بعد سُهاد أجفانها، وسألنا اللّه تعالى أن يُعِيننا على شكر هذه النعمة التي إن سُلِّطت عليها قُوَى البشر فضحتها، ورجحتها، ورأينا سرّ اللطائف الخفيّة كيف سريانُه في الوجود، وشاهدنا بالعيان أنوار اللطائف الإلٰهية والجود، وقلنا: إنما هو الفتح الأوّل شفِع بثان، وقواعد الدين الحنيف أُيدت من صنع اللّه تعالى ببُنْيَان، اللهمّ لك الحمد على نعمك الباطنة والظاهرة، ومننك الوافرة، إنك وليُّنا في الدنيا والآخرة. انتهى.

ومن إنشاء لسان الدين، رحمه اللّه تعالى، من أخرى مِمّا يتعلّق بضيق حال المسلمين بالأندلس ما صورته:

(١) جَعْجَعَ: اشتدَّ صوته. لسان العرب (جعجع).

(٢) الشؤبوب: الدفعة من المطر. وشؤبوب الشرّ: أي الشرّ القويّ المتدافع. لسان العرب (شأبب).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٣): «وزلزل».

(٤) التَّباب: الهلاك. التَّبار: الهلاك. محيط المحيط (تبب) و(تبر).

وإنْ تشوّفتم إلى أحوال هذا القطر ومَنْ به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا أننا في هذه الأيام ندافع من العدوّ تيارًا، ونكابر بحرًا زَخّارًا، ونتوقّع ـ إلاّ إن وقى اللّه تعالى ـ خطوبًا كِبارًا، ونمدّ اليد إلى اللّه تعالى انتصارًا، ونلجأ إليه اضطرارًا، ونستمدّ دعاء المسلمين بكلّ قطر استعدادًا به واستظهارًا[1]، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطارًا، وينشىء ريحَ رَوحِ اللّه طيبةً مِعْطارًا، فإذا[2] القومس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفَتَهُ لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغريبة المنقطعة منهم بجراد لا يُسدّ طريقها، ولا يُحْصى فريقها، التفّت على أخي صاحب قَشْتَالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكل يدًا واحدة على المسلمين، ومناصبةِ هذا الدين، واستئصال شأفة المؤمنين، وهي شدّة ليس لأهل هذا الوطن بها عَهْد، ولا عَرَفَها نجد ولا وَهْد[3]، وقد اقتحموا الحدود القريبة، واللّه تعالى وليُّ هذه الأمة الغريبة، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد من يُقَوّي الضعيف، ويدرأ[4] الخطب المخيف، ورَجَونا أن نكون مِمَّنْ قال اللّه تعالى فيهم ﴿ الذين قالَ لهُمُ الناسُ إنَّ الناسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوهُمْ فزادَهُمْ إيمانًا وقالوا حَسْبُنا اللّهُ ونِعْمَ الوكيلُ ﴾[5]، وهو سبحانه المرجو في حسن العقبى والمآل، ونَصْر فئة الهَدْي على فئة الضلال، وما قلَّ من كان الحقُّ كَنْزَهُ، ولا ذَلَّ مَن استمدّ من اللّه عِزَّه ﴿ قُلْ هل تَرَبَّصُونَ بنا إلاّ إحدى الحُسْنَيَينِ ـ الآية ﴾[6] ودعاء مَنْ قِبَلَكُم من المسلمين مَدَد موفور، واللّه سبحانه على كلّ حال محمود مشكور. انتهى.

ومن أخرى طويلة من جملتها ما صورته:

وقد اتّصل بنا الخبر الذي يوجب نصح الإسلام، ورَعْي الجوار والذِّمام، وما جعل اللّه تعالى للمأموم على الإمام، إيقاظكم من مَرَاقدكم المستغرقة، وجمع أهوائكم المتفرّقة، وتهييئكم إلى مُصَادمة الشدائد المُرْعِدة المبرقة، وهو أنّ كبير دين النصرانية الذي إليه

---

(١) استعدادًا به: أي نجعله عدّة لنا على العدو. استظهارًا: أي نستظهر به، أي نتقوّى. لسان العرب (عدد) و (ظهر).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٤): «فإنَّ».

(٣) النَّجْدُ: ما ارتفع من الأرض. الوهد: ضدُّ النَّجْد. لسان العرب (نجد) و (وهد).

(٤) يدرأ: يدفع. لسان العرب (درأ).

(٥) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٣.

(٦) سورة التوبة ٩، الآية ٥٢.

ينقادون، وفي مرضاته يُصادقون ويُعادون، وعند رؤية صليبه يكبرون ويسجدون، لما رأى الفتن قد أكلتهم خَضْمًا وقَضْمًا[1]، وأوسعتهم هضمًا، فلم تُبْقِ عَصَبًا ولا عظمًا، ونثرت ما كان نَظْمًا، أعمل نظره فيما يجمع منهم ما افترق، ويرفع ما طرق، ويرفو[2] ما مَزَّقَ الشتات وخرق، فرمى الإسلام بأمة عددها القَطْر المنثال، وأمرهم وشأنهم الامتثال، أن يدمثوا[3] لمن ارتضاه من أمته الطاعة، ويجمعوا في ملّته الجماعة، ويَطْلُع الكلّ على هذه الفئة القليلة الغريبة بَغْتَةً كقيام الساعة، وأقطعهم ـ قطع اللَّه تعالى بهم ـ العبادَ والبلاد، والطارف والتِّلاد[4]، وسوّغهم الحريم والأولاد، وباللَّه تعالى نستدفع ما لا نُطِيقه، ومنه نسأل عادة الفرج فما سُدَّتْ طريقه، إلاَّ أنّا رأينا غَفْلَة الناس مُؤْذنة البَوار[5]، وأشفقنا للدين المنقطع من وراء البحار، وقد أصبح مُضْغَة في لَهَوَات الكُفّار، وأردنا أن نهزّكم بالموعظة التي تكحل البصائر بِميلِ الاستبصار، فإن جبر اللَّه تعالى الخواطر بالضراعة إليه والانكسار، ونسخ الإعسار بالإيسار، وأنجد اليمين بأختها اليَسَار، وإلاَّ فقد تعين في الدنيا والآخرة حظ الْخَسار، فإن مَنْ ظهر عليه عدوّ دين اللَّه تعالى وهو من اللَّه مَصْروف، وبالباطل مشغوف، وبغير العرف معروف، وعلى الحُطام المسلوب عنه ملهوف، فقد تَلَّه[6] الشيطان للجَبين، وقد خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين، وَمَنْ نفذ فيه أوله قدر اللَّه عن أداءِ الواجب وبَذْل المجهود، وأفرد بالعبودية وَجْهَ الواحد الأحد المعبود، ووطّن النفسَ على الشهادة المبوِّئة دار الخلود، العائدة بالحياة الدائمة والوجود، أو الظهور على عدوِّه المحشور إليه المحشود، صبرًا على المقام المحمود، وبَيعًا من اللَّه تعالى تكون الملائكة فيه الشهود، حتى تعين يد اللَّه في ذلك البناء [المهدوم بقوة اللَّه و][7] المهدود، والسواد الأعظم الممدود، كان على أمريه بالخيار المردود ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بنا إلاّ إحدى الحُسْنَيَيْنِ ـ الآية ﴾[8]. انتهى.

---

(١) خضم الطعام: قطعه وأكله. القضم: التقطيع بأطراف الأسنان. لسان العرب (خضم) و (قضم).

(٢) يرفو: يرقع. لسان العرب (رفا).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٣٤): «يدمنوا».

(٤) الطارف: الجديد المستحدث. التِّلاد: القديم الموروث. لسان العرب (طرف) و (تلد).

(٥) البَوار: الهلاك. لسان العرب (بور).

(٦) تَلَّه: صَرَعَه، وتَلَّه للجبين: صرعه، ومنه قول اللَّه تعالى: ﴿ وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾. سورة الصافات ٣٧، الآية ١٠٣. انظر محيط المحيط (تلل).

(٧) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٦).

(٨) سورة التوبة ٩، الآية ٥٢.

وقال صاحب «مناهج الفكر» بعد وصفه لجزيرة الأندلس وأقطارها، ما صورته:

ولم تزل هذه الجزيرة منتظمة لمالكها في سلك الانقياد والوفاق، إلى أن طما بمُتْرَفِيها سيلُ العناد والنفاق، فامتاز كل رئيس منهم بصقع كان مَسْقطَ رأسه، وجعله مَعْقلاً يعتصم فيه من المخاوف بأفراسه، فصار كلٌّ منهم يشنّ الغارة على جاره، ويحاربه في عُقْر داره، إلى أن ضعفوا عن لقاء عدوّ في الدين يعادي، ويراوح مَعَاقلهم بالعَيث ويُغادي[1]، حتى لم يبق في أيديهم منها إلاّ ما هو في ضمان هدنة مقدّرة، وإتاوة في كلِّ عام على الكبير والصغير مُقَرّرة، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، وقَدَرًا في سابق علم اللّه مقدورًا، انتهى.

وهذا قاله قبل أن يستولي العدوّ على جميعها، واللّه وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

ولنرجع إلى ما كُنّا بصدده من أخذ النصارى قواعدَ الأندلس فنقول:

قد قَدَّمْنا أوائل هذا الباب أنّ طُلَيطلة أعادها اللّه تعالى من أول ما أخذ الكفار من المدن العظام بالأندلس.

قال ابن بسام[2]: لمّا توالت على أهل طُلَيطلة الفتن المظلمة، والحوادث المُصْطَلمة[3] وترادَفَ عليهم البلاء والجلاء، واستباح الفرنج لعنهم اللّه تعالى أموالهم وأرواحهم، كان من أعجب ما جرى من النوادر الدالّة على الخِذلان أنّ الحنطة كانت تقيم عندهم مخزونة خمسين سنة لا تتغيّر، ولا يؤثر فيها طول المدة بما يمنع من أكلها، فلمّا كانت السنة التي استولى عليها العدوّ فيها لم ترفع الغلّة من الأَنْدَر[4] حتى أسرع فيها الفساد، فعلم الناسُ أنّ ذلك بمشيئة اللّه تعالى لأمر أراده، من شمول البلوى، وعموم الضراء، فاستولى العدوّ على طليطلة، وأنزل مَنْ بها على حكمه، وخرج ابن ذي النون منها على أقبح صورة، وأفظع سيرة، ورآه الناس وبيده اصطرلاب يأخذ به وقتًا يَرْحَلُ فيه، فتعجّب منه المسلمون، وضحك عليه الكافرون، وبسط الكافر العدلَ على أهل المدينة،

---

(١) العيث: الإفساد. يغادي: يأتي باكرًا. لسان العرب (عيث) و(غدا).

(٢) الذخيرة (ق ٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٨)، والمقري ينقل عن ابن بسام بتصرّف كبير، أي إنه ينقل بالمعنى.

(٣) المصطلمة: المستأصلة. لسان العرب (صلم).

(٤) الأَنْدر: البيدر. لسان العرب (ندر).

وحبّب التنصّر إلى عامة طَغامها[1]، فوجد المسلمون من ذلك ما لا يُطَاق حَمْلُه، وشرع في تغيير الجامع كنيسةً في ربيع الأول سنة ست وتسعين وأربعمائة.

ومِمّا جرى في ذلك اليوم[2] أن الشيخ الأستاذ المغامي، رحمه اللّه تعالى، صار إلى الجامع، وصلّى فيه، وأمر مُريدًا له بالقراءة، ووافاه الفرنج، لعنهم اللّه تعالى، وتكاثروا لتغيير القبلة، فما جسر أحد منهم على إزعاج الشيخ ولا معارضته، وعصمه اللّه تعالى منهم، إلى أن أكمل القراءة، وسجد سجدة، ورفع رأسه، وبكى على الجامع بكاء شديدًا، وخرج ولم يعرض أحد له بمكروه. وقيل لملك النصارى: ينبغي أن تلبس التاج كمن كان قبلك في هذا الملك، فقال: حتى نأخذ قرطبتهم، وأعدّ لذلك ناقوسًا تأنّق فيه وفيما رَصَّعَ به من الجواهر، فأكذبه اللّه وأزعجه[3]. وورد أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين، فما قصر فيما أثر من إذلال المشركين، وإرغام الكافرين، واستدراك أمور المسلمين؛ انتهى ملخّصًا، وقد مَرَّ مطوّلاً.

وكانت قبلها وقعة بطرنة[4] سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أنّ الفرنج ـ خذلهم اللّه تعالى! ـ انتدبت منهم قطعة كثيفة، ونزلت على بَلَنْسِية في السنة المذكورة، وأهلها جاهلون بالحرب، مُعْرِضون[5] عن أمر الطعن والضّرب، مقبلون على اللّذّات من الأكل والشرب، وأظهر الفرنج الندم على منازلتها، والضعف عن مقاومة مَنْ فيها، وخَدَعوهم بذلك فانخدعوا، وأطمعوهم فطمعوا، وكمن[6] في عدة أماكن جماعة من الفرسان، وخرج أهل البلد بثياب زينتهم، وخرج معهم أميرهم عبد العزيز بن أبي عامر، فاستدرجهم العدو، لعنهم اللّه تعالى، ثم عطفوا عليهم فاستأصلوهم بالقتل والأسر، وما نجا منهم إلاّ من حَصَّنه أجَلُه، وخلص الأمير نفسه، ومِمّا حُفظ عنه أنه أنشد لَمّا أعياه الأمر: [الطويل]

خليليَّ، ليس الرأي في صَدْرِ واحدٍ   أَشيرا عليَّ اليومَ ما تَرَيانِ

---

(١) الطَّغام: أرذال الناس. لسان العرب (طغم).

(٢) الذخيرة (ق ٤ ص ١٦٨ ـ ١٦٩)، والمقري ينقل عن ابن بسام بالمعنى.

(٣) أزعجه: طرده وقلعه من مكانه. لسان العرب (زعج).

(٤) راجع خبر وقعة بطرنه Paterna في الذخيرة (ق ٣ ص ٨٥٤ ـ ٨٥٧) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٥٢).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٤٨): «مغترون».

(٦) في طبعة دار صادر: «وكَمَّنوا».

وفي أهل بَلَنْسِية يقول بعض الشعراء حين خرجوا في ثياب الزينة والترفه: [الكامل]

لبسوا الحديدَ إلى الوغى ولبِسْتُمُ   حُلَلَ الحريرِ عليكُمُ ألوانا
ما كان أقْبَحَهُمْ وأَحْسَنَكُمْ بها   لو لم يكنْ ببطرنةٍ ما كانا

قال ابن بسام[١]: وهكذا جرى لأهل طُليطلة، فإن العدوّ ـ خَذله اللّٰه تعالى! ـ استظهر عليهم، وقتل جماهيرهم، وكان من جملة ما غنمه الفرنج من أهلها لما خرجوا إليهم في ثياب الترفه ألف غفارة[٢] خارجًا عمّا سواها.

وقال ابن حيان[٣]: وكان تغلّب العدوّ ـ خذله اللّٰه تعالى! ـ على بَرْبَشْتَر قصبة بلد بُرْطانية، وهي تقرب من سرقسطة، سنة ست وخمسين وأربعمائة، وذلك أن جيش الأرذمليس[٤] نازلها وحاصرها، وقَصَّرَ يوسف بن سليمان بن هُود في حمايتها، ووكَلَ أهلَها إلى نفوسهم، فأقام العدو عليها أربعين يومًا، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلته، واتّصل ذلك بالعدو، فشدَّد القتالَ عليها والحصر لها حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مُدَرَّع، فدهش الناس، وتحصّنوا بالمدينة الداخلة، وجرت بينهم حروب شديدة قُتل فيها خمسمائة إفرنجي، ثم اتّفق أنّ القَناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سِرْبٍ[٥] موزون انهارت وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سدّت السِّرْب بأسره، فانقطع الماء عن المدينة، ويئس من بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم العدو الأمان، فلمّا خرجوا نكث بهم وغدر، وقتل الجميع إلّا القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه، وحصل للعدو من الأموال والأمتعة ما لا يحصى، حتى إنّ الذي خصّ بعضَ مُقَدِّمي العدو لحصنه ـ وهو قائد خيل رومة ـ نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارًا، ومن أوقار[٦] الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل، وقُدِّر من قُتل وأُسر مائة ألف نفس، وقيل: خمسون ألف نفس، ومن نوادر

---

(١) لم يرد هذا الخبر في الذخيرة (ق ٤ ص ١٦٤ ـ ١٦٨) عند الحديث عن فتح طليطلة.

(٢) الغفارة: منديل تغطي المرأة به رأسها. لسان العرب (غفر).

(٣) خبر ابن حيان في تغلب العدو على بربشتر نقله ابن بسام في الذخيرة (ق ٣ ص ١٧٩ ـ ١٩٠). والمقري ينقل بتصرّف.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٣٨): «الأرذمليس». وفي الذخيرة (ص ١٨١): «الأردمانيين».

(٥) في الذخيرة (ص ١٨٢): «بتقدير موزون».

(٦) الأوقار: جمع وِقْر وهو الحمل الثقيل. والمراد بأوقار الأمتعة: الأمتعة الثقيلة. محيط المحيط (وقر).

ما جرى على هذه المدينة لما فسدت القناة وانقطعت المياه أنّ المرأة كانت تقف على السور وتُنَادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها فيقول لها: اعطيني ما معك، فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره.

قال: وكان السبب في قتلهم أنه خَاف مَنْ يصل لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل لعنه اللّه تعالى، حتى قتل منهم نيفًا على ستة[1] آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بقي وأمر أن يخرجوا فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الحبال للخشية من الازدحام في الأبواب ومبادرة إلى شرب الماء، وكان قد تحيّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه وحاروا في نفوسهم، وانتظروا ما ينزل بهم، فلمّا خلت مِمَّنْ أُسر وقُتل وأُخرج من الأبواب والأسوار وهلك في الزحمة نودي في تلك البقية بأن يبادر كل منهم إلى داره بأهله، وله الأمان، وأُرهقوا وأُزعجوا، فلمّا حصل كل واحد منهم[2] بمن معه من أهله في منزله اقتسمهم الإفرنج لعنهم اللّه تعالى بأمر الملك، وأخذ كل واحد منهم[2] دارًا بمن فيها من أهلها، نعوذ باللّه تعالى.

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برؤوس الجبال، وتحصّنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمنهم الملك على نفوسهم، وبرزوا في صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر مِمَّنْ لم يشهد الحادثة، فقتلوهم إلاّ القليل مِمَّنْ نجا بأجله.

قال: وكان الفرنج، لعنهم اللّه تعالى، لمّا استولوا على أهل المدينة، يفتضُّونَ البكر بحضرة أبيها، والثَّيِّب[3] بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثلهَ قط فيما مضى من الزمان، ومَنْ لم يرض منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش[4] أعطاهن خَوَله وغلمانه يعيثون فيهنّ عيثة، وبلغ الكفَرَة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة. ولمّا عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخيّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثَّيِّبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الحسان ألوفًا عدّة حملهم معه

---

(١) هكذا في الذخيرة (ص ١٨٣). وفي طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٠): «نيفًا وستة...».

(٢) كلمة «منهم» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٠).

(٣) المرأةُ الثَّيِّب: نقيض البكر مطلقًا. محيط المحيط (ثيب).

(٤) الوَخْشُ: رذال الناس وسقاطتهم وصغارهم. محيط المحيط (وخش).

ليهديهم إلى مَنْ فوقه، وترك من رابطة خيله ببربشتر ألفا وخمسمائة، ومن الرجّالة ألفين. انتهى.

قال ابن حيان: وأختم هذه الأخبار الموقظة لقلوب أُولي الألباب بنادرة منها يُكْتَفَى باعتبارها عمّا سواها، وهي أنَّ بعض تجار اليهود جاء بَرْبَشْتَرْ بعد الحادثة ملتمساً فدية بناتِ بعض الوجوه مِمَّنْ نجا من أهلها حَصَلْنَ في سَهْم قومسٍ من الرابطة فيها كان يعرفه، قال: فهديت إلى منزله فيها، واستأذنت عليه، فوجدته جالسًا مكان رب الدار، مستويًا على فراشه، رافلاً في نفيس ثيابه، والمجلسُ والسرير كما خَلَّفهما[1] ربهما يوم محنته لم يغيّر شيئًا من رياشهما وزينتهما، ووصائفه مضمومات الشعور، قائمات على رأسه، ساعيات في خدمته، فرحَّبَ بي، وسألني عن قَصْدي، فعرَّفته وجهه، وأشرت إلى وفور ما أَبذله في بعض اللواتي على رأسه، وفيهنّ كانت حاجتي، فتبسّم[2] وقال بلسانه: ما أسرع ما طمعتَ فيمن عرضناه[3] لك! أعْرِضْ عَمَّنْ هنا وتعَرَّض لمن شئت مِمَّنْ صَيَّرْتُه لحصني من سَبْيِي وأسْرَايَ أُقَارِبْكَ فيمن شئتَ منهنّ، فقلت له: أمّا الدخول إلى الحصن فلا رأي لي فيه، وبقربك أَنِسْتُ، وفي كَنَفِكَ اطمأننتُ، فسُمْنِي ببعض من هنا فإني أصير إلى رغبتك، فقال: وما عندك؟ قلت: العينُ الكثيرُ الطيب والبز[4] الرفيع الغريب، فقال: كأنك تشهّيني ما ليس عندي، يا مجة[5]، ينادي بعض أولئك الوصائف، يريد «يا بهجة» فغيّره بعجمته، قومي فاعرضي عليه ما في ذلك الصندوق، فقامت إليه وأقبلت بِبِدَرِ الدنانير وأكياس الدراهم وأسفاط الحلي، فكشف وجعل بين يدي العلج حتى كادت تواري شخصه، ثم قال لها: أدني إلينا من تلك التخوت، فأدنت منه عدة من قطع الوشي والخزّ والديبَاج الفاخر مِمّا حار له ناظري وبُهِتَ، واسترذلْتُ ما عندي، ثم قال لي: لقد كثر هذا عندي حتى ما ألذ به. ثم حلف بإلآهِهِ أنه لو لم يكن عنده شيء من هذا ثم بذل له بأجمعه في ثمن تلك ما سَخَتْ بها يدي، فهي ابنة صاحب المنزل، وله حسب في قومه، اصطفيتها لمزيد جمالها لولادتي حسبما كان قومها يصنعون بنسائنا نحن أيام دولتهم، وقد ردّ لنا الكرة عليهم، فصرنا فيما

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥١) والذخيرة (ق ٣ ص ١٨٦): «تخلفهما».
(٢) في الذخيرة: «فابتسم».
(٣) في الذخيرة: «فيما أبرزناه..».
(٤) البَزُّ: الثياب، لسان العرب (بزز).
(٥) في الذخيرة (ق ٣ ص ١٨٧): «بجّة».

تراه، وأزيدك بأنّ تلك الخودَةَ[1] الناعمةَ، وأشار إلى جارية أخرى قائمة إلى ناحية أخرى، مغنية والدِهَا التي كانت تشدو له على نشواته، إلى أن أيقظناه من نوماته، يا فلانة، يناديها بلكنته، خذي عودك فغني[2] زائرنا بشَجْوك، قال: فأخذت العود، وقعدت تسويه، وإني لأتأمّل دمعها يقطر على خدّها، فتُسارق العلجَ مسحه، واندفعت تغني بشعر ما فهمته أنا فضلاً عن العلج، فصار من الغريب أن حَثَّ شربه هو عليه، وأظهر الطرب منه، فلمّا يئست مِمّا عنده قمت منطلقًا عنه، وارتَدْتُ لتجارتي سواه، واطَّلعت لكثرة ما لدى القوم من السبي والمغنم على ما طال عجبي به، فهذا فيه مقنع لمن تدبّره، وتذكر لمن تذكّره.

قال ابن حيان: قد أشفينا[3] بشرح هذه الحالة[4] الفادحة مصائب جليلة مؤذنة بوشك القُلعة طالما حذر أسلافنا لحاقها بما احتملوه عَمَّنْ قبلهم من أثارة، ولا شكّ عند ذوي الألباب أنّ ذلك مِمّا دهانا من داء التقاطع وقد أُمرنا بالتواصل والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك والتمادي عليه على شَفَا جُرُفٍ يؤدي إلى الهلكة لا محالة. انتهى ببعض اختصار.

وذكر بعده كلامًا في ذم أهل ذلك الزمان من أهل الأندلس، وأنهم يعلّلون أنفسهم بالباطل، وأنَّ من أدلّ الدلائل على جهلهم اغترارهم بزمانهم، وبعدهم عن طاعة خالقهم، ورَفْضَهم وصيَّةَ نبيّهم، وغفلتهم عن سَدِّ ثغورهم، حتى أطلّ عدوّهم الساعي لإطفاء نورهم، يجوس خلال ديارهم، ويستقري بساط بقاعهم، ويقطع كل يوم طرفًا، ويبيد أمة، ومَنْ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُمُوت عن ذكرهم، لُهَاة عن بثّهم[5]، ما إن سمع عندنا بمسجد من مساجدنا أو محفل من محافلنا، مُذَكِّرٌ لهم أو داع، فضلاً عن نافر إليهم أو ماشٍ لهم، حتى كأنهم ليسوا منّا أو كأنَّ بَثْقَهم[6] ليس بمُفْضٍ إلينا، وقد بخلنا عليهم بالدعاء بُخْلَنا عليهم بالغَناء، عجائبُ[7] فاتت التقدير، وعرضت للتغيير، ولله عاقبة الأمور، وإليه المصير.

ولقد صدق رحمه الله تعالى، فإنَّ البَثْقَ سرى إليهم جميعًا كما ستراه، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله.

---

(١) في الذخيرة: «الخَوْد». والخَوْدُ: المرأة الحسنة الخَلق الشابة أو الناعمة. محيط المحيط (خود).
(٢) هكذا في الذخيرة (ص ١٨٨). وفي طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٢): «تغني».
(٣) في الذخيرة: «أفشينا».
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٤٥٢): «الحادثة».
(٥) البَثُّ: شدّة الحزن. محيط المحيط (بثث).
(٦) البَثْقُ: الموضع المكسور من النهر لينبثق الماء، والجمع بُثُوقٌ. محيط المحيط (بثق).
(٧) في الذخيرة (ق ٣ ص ١٨٩): «عجائب مُغْرِبَةٌ فاتتِ..».

وقـال قبله[1]: إنَّ بربَشْتـر هذه تنـاسختها قـرون المسلمين منذ ثلثمـائة وثـلاث وستين سنة، من عهد الفتوح الإسلامية بجزيـرة الأندلس، فـرسخ فيهـا الإيمان، وتُـدُورس القرآن، إلى أنْ طرق الناعي بهـا قرطبتنـا صدر رمضـان من العام، فصـكّ الأسماع، وأطـار الأفئدة، وزلزل أرض الأندلس قاطبة، وصيّر لكلّ شغلاً يشغل الناس في التحدّث به، والتساؤل عنه، والتصوّر لحلول مثله، أيامًا لم يفارقوا فيها عادتهم من استبعاد الوَجَلِ، والاغترار بالأمل، والاستناد إلى أُمراء الفرقة الهَمَل، الذين هم منـه مما بين فَشَـل ووَكَل، يصـدّونهـم عن سواء السبيل، ويُلبّسون عليهم الدليل[2]. ولم تزل آفة الناس منذ خلقـوا في صنفين، هم كالملح فيهم الأمراء والفقهاء، بصلاحهم يَصْلُحُون، وبفسادهم يفسدون، فقد خصّ اللّٰه تعالى هـذا القرن الذي نحن فيه من اعوجـاج صِنْفَيهم لدينـا بما لا كفـاية لـه ولا مخلص منه، فـالأمراء القاسطون[3] قد نكبوا عن نهج الطريق ذيادًا عن الجماعـة، وَجَرْيًـا[4] إلى الفرقـة، والفقهاء أئمتهم صُمُوت عنهم، صُدوف عمّـا أكّده اللّٰه تعـالى عليهم من التبيين لهـم، قد أصبحـوا ما بين آكل من حَلْوَائهم، وخابط في أهوائهم، وبين مستشعرٍ مخَـافَتَهم، آخذٍ في التَّقِيـة من[5] صِـدقهم، وأولئك هم الأقلّون فيهم، فمـا القولُ في أرض فسـد ملحهـا الـذي هـو المصلح لجميع أغذيتها؟ وما هي إلاّ مُشْفية من بَوَارها[6]، ولقد طما العجب من أفعال هؤلاء الأمراء، لم يكن عندهم لهذه الحادثة إلاَّ الفزع لحفر الخنادق، وتعلية الأسوار، وشَدِّ الأركان، وتوثيق البنيـان، كاشفين لعَـدُوِّهـم عن السَّوْأة السَّـوْأى[7] من إلقائهم يـومئذ بـأيديهم إليـه: أمـورٌ[8] قبيحاتُ الصور، مؤذنات الصدور بأعجاز[9] الغير: [الوافر]

أمـورٌ لـو تَـدَبَّـرهـا حـكـيـمٌ   إذًا لـنَهَـى وَهَيَّـبَ مـا اسـتـطاعـا[10]

---

(1) النص في الذخيرة (ق ٣ ص ١٨٠ - ١٨١) والبيان المغرب (جـ ٣ ص ٢٥٤).

(2) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٣): «عليهم وضوح الدليل».

(3) القاسطون: الظالمون الجائرون. لسان العرب (قسط).

(4) في الذخيرة: «وحَوْشًا إلى الفرقة».

(5) في طبعة دار صـادر (جـ ٤ ص ٤٥٣): «في صـدقهم». وفي الـذخيـرة (ق ٣ ص ١٨١): «بـالبقيـة في صدقهم».

(6) البَوار، بالفتح: الهلاك. لسان العرب (بور).

(7) في الذخيرة: «السوءاء».

(8) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٤٤): «أمورًا».

(9) في الذخيرة: «بأعجاز تُحِلُّ الغير».

(10) البيت للقـطامي، وهو في ديـوانه (ص ٣٤) ببعض الاختـلاف عمّا هنـا. وفي طبعة عبـد الحميـد (جـ ٦ =

ثم قال ابن حيان[1]: فلمّا كان عقب جمادى الأولى سنة ٤٥٧ شاع الخبر بقرطبة برجوع المسلمين إليها، وذلك أن أحمد المقتدر بن هود المفرط فيها، والمتّهم على أهلها، لانحرافهم إلى أخيه، صَمَد لها مع إمداد[2] لحليفه عَبّاد، وسعى لإصمات سوء المقالة عنه، وقد كتب اللّٰه تعالى عليه منها ما لا يمحوه إلاّ عفوه، فتأهَّبَ لقصد بربشتر في جموع من المسلمين، فجالدوا الكفار بها جِلادًا ارتاب منه كلُّ جَبَان، وأعزّ[3] اللّٰه سبحانه أهل الحفيظة والشجعان، وحَمِيَ الوطيسُ بينهم إلى أنْ نصر اللّٰه تعالى أولياءه، وخذل[4] أعداءه، وولّوا الأدبار مقتحمين أبواب المدينة، فاقتحمها المسلمون عليهم، وملكوهم أجمعين، إلاّ من فَرَّ من مكان الوقعة، ولم يدخل المدينة، فأُجيل السيف في الكافرين، واستؤصلوا أجمعين، إلاَّ من استرقَّ من أصاغرهم، وفُدِيَ من أعاظمهم، وسَبَوا جميع من كان فيها من عيالهم وأبنائهم، وملكوا المدينة بقدرة الخالق البارىء، وأصيب في[5] منحة النصر المُتَاح طائفة من حُماة المسلمين الجادين في نصر الدين، نحو الخمسين، كتب اللّٰه تعالى شهادتهم، وقتل فيها[6] من أعداء اللّٰه الكافرين نحو ألف فارس وخمسة آلاف[7] راجل، فغسلها المسلمون من رِجْس الشّرْك، وجَلَوها من صدإ الإفك. انتهى.

وليت طليطلة البائسة اسْتُرجعت كهذه، ومع هذا فقد غلب العدوّ بعدُ على الكلّ، واللّٰه سبحانه المرجو في الإدالة.

وقال ابن اليسع: أخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرسونة[8] سنة أربع وعشرين وخمسمائة. ولمّا صار أمر بَلَنْسِيَةَ إلى الفقيه القاضي أبي أحمد بن جحاف قاضيها صيّرها لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فحصره بها القادر بن ذي النون الذي مكّن الأذفونش من

= ص ٢٤٤): «وهبَّب» بدل «وهيَّب».

(١) الذخيرة (ق ٣ ص ١٨٩ - ١٩٠).

(٢) في الذخيرة: «مَدَد».

(٣) في الذخيرة (ص ١٩٠): «وأغرى».

(٤) في الذخيرة: «وزلزل».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٤) والذخيرة (ق ٣ ص ١٩٠): «على منحة».

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٤٥): «وقتل فئة». وفي طبعة دار صادر (ص ٤٥٤): «وقتل فيه».

(٧) في الذخيرة (ص ١٩٠): «وخمسمائة راجل».

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٤٥): «طرشونة» بالشين المعجمة. وطرسونة، بالإسبانية Tarazona، مدينة بالأندلس، كانت مستقرّ العمّال والقواد بالثغر، تتبع لتطيلة. الروض المعطار (ص ٣٨٩).

طُلَيْطلة، فهجم عليه القاضي في لمّة من المرابطين، وقتله، ودفع ابن جحاف لما لم يعهد من تدبير السلطان، ورجعت عنه طائفة الملثّمين الذين[1] كان يعتدّ بهم، وجعل يستصرخ إلى أمير المسلمين فيبطىء عليه، وفي أثناء ذلك أنهض يوسفُ بن أحمد بن هود صاحبُ سرقسطة لذريق[2] الطاغية للاستيلاء على بَلَنْسِية، فدخلها، وعاهده القاضي ابن جحاف، واشترط عليه إحضار ذخيرة كانت للقادر ابن ذي النون، فأقسم أنها ليست عنده، فاشترط عليه أنه إنْ وجدها عنده قتله، فاتّفق أنه وجدها عنده، فأحرقه بالنار، وعاث في بَلَنْسِية، وفيها يقول ابن خَفَاجة حينئذ[3]: [الكامل]

عاثت بِسَاحَتِكِ الظُّبا يا دارُ ... ومَحَا محاسنك البِلَى والنارُ
فإذا تَرَدَّدَ في جَنابِكِ ناظرٌ ... طال اعتبارٌ فيك واستعبارُ[4]
أرضٌ تقاذَفَتِ الخطوبُ بأهلها ... وتمخّضت بخرابها الأقدارُ
كتبت يدُ الحدثان في عَرَصاتها[5] ... لا أنتِ أنتِ ولا الديارُ ديارُ

وكان استيلاء القنبيطور[6] ـ لعنه اللّه تعالى! ـ عليها سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وقيل: في التي قبلها، وبه جزم ابن الأبار قائلاً: فتم حصار القنبيطور[6] إياها عشرين شهرًا، وذكر أنه دخلها صلحًا، وقال غيره: إنه دخلها عَنْوة، وحرقها[7]، وعاث فيها، ومِمّن أُحرق فيها الأديب أبو جعفر ابن[8] الْبَنِّي الشاعر المشهور رحمه اللّه تعالى وعفا عنه، فوجّه أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلي ففتحها اللّه تعالى على يديه سن خمس وتسعين وأربعمائة، وتوالى عليها أمراء الملثمين، ثم صارت ليحيىٰ بن غانية الملثم حين ولي جميع شرق الأندلس، فقدَّم عليها أخاه عبد اللّه بن غانية. ولَمّا ثارت الفتنة في المائة السادسة أخرجه منها مروان بن عبد العزيز، إلى أن قام عليه جيش بَلَنْسِية سنة تسع وثلاثين

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ص ٢٤٥): «الذي».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٥): «ردريق».
(٣) ديوان ابن خفاجة بتحقيق د. مصطفى غازي (ص ٣٥٤)، ولم ترد الأبيات في الديوان طبعة دار بيروت التي نستعملها في التحقيق. ووردت أيضًا في الذخيرة (ق ٣ ص ١٠٠) والروض المعطار (ص ٩٧).
(٤) الاستعبار: سيلان الدموع. لسان العرب (عبر).
(٥) العَرَصات: جمع عَرْصة وهي ساحة الدار. لسان العرب (عرص).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٤٦): «القبنطور».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٦): «وأحرقها».
(٨) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

وخمسمائة، وبايعوا لابن عياض ملك شرق الأندلس، ففرّ مروان إلى ألمَرية، ثم رجعت بلنسية إلى أبي عبد اللَّه بن مَرْدَنيش ملك شرق الأندلس بعد ابن عياض، وقدَّم عليه أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش، إلى أن رجع أبو الحجاج إلى جهة بني عبد المؤمن، إلى أن ولي عليها السيد أبو زيد عبد الرحمن ابن السيد أبي عبد اللَّه بن أبي حفص ابن أمير المسلمين عبد المؤمن بن علي، فلمَّا ثار العادل بمُرْسِيَة تمنّع واعتزّ، وأظهر طاعة في باطنها معصية، ودام على ذلك مع أبي العلاء المأمون، وكان قائد الأعنّة المشار إليه في الدفاع عن بَلَنْسِية الأمير زيان بن أبي الحملات بن أبي الحجاج بن مَرْدَنيش، فأخرجه من بَلَنْسِية، وملكها، وفرّ السيد إلى النصارى. ولم يزل أمر بَلَنْسِية يضعف باستيلاء العدوّ على أعمالها إلى أنْ حصرها ملك بَرْشِلونة النصراني، فاستغاث زيانُ بصاحبِ إفريقية أبي زكريا بن أبي حَفْص(١)، وأوفد عليه في هذه الرسالة كاتبه الشهير أبا عبد اللَّه بن الأبار القضاعي صاحب كتاب «التكملة» و«إعتاب الكتاب» وغيرهما، فقام بين يدي السلطان منشدًا قصيدته السينية الفريدة التي فضحت مَنْ بَاراها، وكَبَا دونها مَنْ جاراها، وهي(٢): [البسيط]

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيلِ اللَّه أَنْدَلُسَا ... إنَّ السبيلَ إلى مَنْجَاتِها دَرَسَا
وهَبْ لها من عزيز النصر ما الْتَمَسَتْ ... فلم يزلْ منكَ عِزُّ النصرِ مُلْتَمَسَا
وحَاشِ(٣) مِمّا تعانيه حُشَاشَتَها ... فطالما ذاقتِ البلوى صباحَ مَسَا
يا للجزيرة أضحى أهلُها جَزَرًا ... للحادثات(٤) وأمسى جَدُّهَا تَعِسَا
في كل شارقة إلمامُ بارقة(٥) ... يعود مأتمها عند العدا عُرُسَا
وكلّ غاربةٍ إخجال شائبة(٦) ... تثني الأمانَ حِذارًا والسرورَ أسى
تقاسم الروم لا نالتْ مقاسمُهُمْ ... إلّا عقائلَها المحجوبةَ الأُنُسا

(١) هو أبو زكريا يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي حفص.
(٢) أورد ابن خلدون في كتاب العبر (م ٦ ص ٦٠١ ـ ٦٠٤) ٤٩ بيتًا من هذه القصيدة. وانظر أيضًا أزهار الرياض (جـ ٢ ص ٢٠٧). وقد مرَّ فقط مطلع هذه القصيدة في الجزء الثالث والجزء الرابع.
(٣) في العبر (ص ٦٠٢): «حاشي».
(٤) في العبر: «للنائبات».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٥٧): «بائقة».
(٦) في طبعة دار صادر والعبر: «إجحافُ نائبة».

وفـي بَلَنْـسـيـةٍ مـنـهـا وقـرطـبـةٍ ... مـا ينسفُ[1] النفسَ أو مـا يَنْـزِفُ النَّفَسَـا
مـدائـنٌ حـلّهـا الإشـراكُ مُـبْـتَـسِـمًـا ... جَـذْلانَ، وارتحـلَ الإيمـانُ مبتئسـا[2]
وصَيَّـرَتْهـا العـوادي العـائـثـات بهـا ... يستـوحشُ الـطَّرْفُ منهـا ضِعْفَ مـا أَنِسَـا
فمن دَسَـاكـر كـانـت دونهـا حـرسـا ... ومن كنـائس كـانـت قبلهـا كُنُسَـا[3]
يـا للمسـاجـد عـادتْ لـلعِـدا بِيَعًـا ... ولـلنـداء غـدا أثنـاءهـا جَـرَسَـا[4]
لهفي[5] عليهـا إلى استـرجـاعِ فـائِتِهـا ... مَـدارسًـا لـلمثـانـي أصبـحـتْ دُرُسَـا
وأَرْبُعًـا نمنمـت أيـدي الـربيـع لهـا ... مـا شِئْتَ من خِلَعٍ مَـوشِيـة وكُسَـا[6]
كـانـتْ حـدائـقَ لـلأحـداق مُـونِـقَـةً ... فـصَـوَّحَ النضـرُ من أدواحـهـا وعسـا
وحـالَ مـا حـولهـا من مَـنْـظَرٍ عَجِبٍ ... يستجلس[7] الـركبَ أو يستـركبُ الجلسـا
سِـرْعـانَ مـا عـاث جيشُ الكُفْـرِ واحَـرَبَـا ... عَيْثَ الـدَّبَى في مغـانيهـا التي كبسـا
وابـتـزَّ بِـزَّتَـهـا مِـمّـا تَـحَـيَّـفَـهـا ... تَحَيُّفَ الأَسَـدِ الضـاري لمـا افْتـرسـا
فـأيـن عيشٌ جَـنَـيْـنـاه بـهـا خَـضِـرًا؟ ... وأيـن عصـرٌ[8] جلينـاه بـهـا سلسـا
مـحـا محـاسِنَهـا طـاغٍ أُتيـح لهـا ... مـا نـامَ عن هَضْمِهـا حينًـا ولا نـعسـا
ورَجَّ أرجـاءهـا لـمَّـا أحـاط بـهـا ... فـغـادر الشُّـمَّ مـن أعـلامـهـا خُنـسـا
خَـلَا لـه الـجـوُّ فـامـتـدّتْ يـداه إلـى ... إدراكِ مـا لم تـطأ[9] رِجْـلاه مُخْـتَلِسـا
وأكـثـرَ الـزعمَ بـالـتـثـليث مُـنْـفَـرِدًا ... ولـو رأى رايـةَ الـتـوحيـد مـا نَـبَسَـا
صِـلْ حَبْلَهـا أيهـا المولى الـرحيم فمـا ... أبقى المِـرَاسُ لهـا حَبْـلاً ولا مَـرَسَـا
وأحْيِ مـا طمستْ منهـا الـعُـداة كمـا ... أَحْيَيْتَ من دعـوةِ المهـديِّ مـا طَمسـا
أيـامَ صـرتَ لـنصـر الـحقِّ مُسْتَبِقًـا ... وبِـتَّ مِنْ نـور ذاك الـهَـدْي مُقْـتَبِسـا

---

(١) في العبر: «ما يُذْهبُ».
(٢) في العبر: «مُنْبئسا».
(٣) الدساكر: جمع دسكرة وهي الصومعة. الكُنُسُ: جمع كِناس وهو بيت الظبي. محيط المحيط (دسكر) و (كنس).
(٤) في العبر (ص ٦٠٢): «وللنداء يُرى..». البِيَعُ: جمع بِيْعة وهي الكنيسة. النداء: أي الأذان.
(٥) في العبر: «لهفًا».
(٦) في العبر: وأربعًا غَنِمَتْ... خلع من موشية..».
(٧) في العبر: «يستوقف».
(٨) في العبر: (ص ٦٠٣): «غُصْنٌ جنيناه».
(٩) في العبر: «لم تَنَلْ».

وقُمْتَ فيها بأمر[1] اللَّه منتصرًا ... كالصارم اهتزّ أو كالعارض انْبَجَسَا
تمحو الذي كتبَ[2] التجسيم من ظُلَمٍ ... والصبحُ ماحيةٌ أنوارُهُ الغَلَسَا
وتقتضي الملكَ الجبّار مهجته ... يوم الوغى جهرة لا ترقُبُ الخلسا
هذي رسائلُها تدعوكَ من كَثَبٍ ... وأنتَ أفضلُ مَرْجُوٍّ لمن يَئِسا
وافَتْكَ جاريةٌ بالنُّجْح راجيةً ... منك الأمير الرضا والسيدَ النَّدُسَا[3]
خاضت خُضارَةَ يعليها[4] ويخفضها ... عُبابُه فتعاني اللين والشرسا
وربما سبحت والريح عاتيةٌ ... كما طَلَبْتَ بأقصى شَدِّهِ الفَرَسَا
تؤمّ يحيىٰ بن عبد الواحد بن أبي ... حفص مُقَبِّلة مِنْ تُرْبِهِ القدسا
ملك تَقَلَّدَتِ الأملاكُ طاعَتَهُ ... دينًا ودنيا فغَشَّاها الرضا لبسا
مِنْ كلِّ غادٍ على يُمْناه مُسْتَلِمًا ... وكلّ صادٍ إلى نُعْماه مُلْتَمِسَا
مؤيَّد لو رمى نجمًا لأَثْبَتَهُ ... ولو دعا أُفُقًا لَبَّى وما احتبسا
تاللَّه إنّ الذي تُزْجَى السعود له ... ما جال في خَلَدٍ يومًا ولا هَجَسا
إمارة يحمل[5] المِقْدارُ رايتها ... ودولة عزُّها يستصحب القَعَسَا
يُبْدي النهارُ من ضوئه شَنَبًا ... ويطلع الليلُ من ظَلْمائه لَعَسَا
ماضي العزيمة والأيام قد نكلت ... طَلْقُ المُحَيَّا ووجه الدهر قد عبسا
كأنه البدرُ والعلياءُ هالته[6] ... تَحِفُّ من حوله شُهْبُ القنا حَرَسَا
تدبيره وسع الدنيا وما وسعت ... وعُرْفُ معروفه وَاسَى الورى وأَسَا
قامتْ على العدل والإحسان دولته ... وأنشرت من وجود الجود ما رُمِسَا
مبارك هَدْيُه بادٍ سكينَتُهُ ... ما قام إلَّا إلى حسنى وما جلسا
قد نوّر اللَّه بالتقوى بصيرته ... فما يبالي طروقَ الخطب ملتبسا
بَرَى العصاة وراش الطائعين فقلْ ... في الليث مفترسًا والغيث مرتجسا[7]

(١) في العبر: «لأمر اللَّه».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٤٨): «كشف».
(٣) النَّدُسُ: الفطن السريع الفهم. لسان العرب (ندس).
(٤) خضارةُ: علمٌ للبحر. محيط المحيط (خضر). وفي العبر: «يعلوها ويخفضها».
(٥) في العبر: «تحمل».
(٦) في العبر: «حالته».
(٧) الغيث المرتجس: المطر الذي يصحبه رعد وبرق. لسان العرب (رجس).

ولم يغادرْ على سهلٍ ولا جبلٍ حَيًّا[1] لقاحًا إذا وافيته بخسا
فرُبَّ أصْيَدَ لا تلفى به صَيَدًا ورُبَّ أشوس لا تلقى له شوَسا
إلى الملائك ينمى والملوك معًا في نَبْعَة أثمرت للمجد ما غرسا
من ساطعِ النورِ صاغَ اللّه جوهره وصان صيقله أنْ يقرب الدَّنَسَا
له الثرى والثريّا خطّتان فلا أعزَّ من خطّتيه ما سما ورسا
حَسْبُ الذي باع في الأخطار يركبها إليه محياه أنَّ البيع ما وكسا
إنَّ السعيدَ امرؤ ألقى بحضرته عصاه محتزمًا بالعدل محترسا
فظلَّ يوطن من أرجائها حرمًا وبات يوقد من أضوائها قبسا
بشرى لعبد إلى الباب الكريم حَدَا آماله ومن العذب المعين حَسَا
كأنما يمتطي واليُمْن يصحبه من البحار طريقًا نحوه يَبَسَا
فاستقبل السعد وضّاحًا أسرَّته من صفحة فاض منها النورُ وانعكسا
وقَبَّلَ الجود طَفّاحا غواربه من راحة غاص فيها البحر وانغمسا
يا أيها الملكُ المنصورُ أنتَ لها علياءُ تُوسعُ أعداءَ الهُدَى تعسا
وقد تواترت الأنباءُ أنكَ مَنْ يُحْيِي بقتل ملوك الصُّفر [2] أندلسا
طَهِّرْ بلادَكَ منهمْ إنهمْ نَجِسٌ ولا طهارةَ ما لم تَغْسِلِ [3] النّجسا
وأوطىء الفَيلَقَ الجرّارَ أَرْضَهُمُ حتى يطأطىء رأسًا[4] كُلُّ من رأسا
وانصرْ عبيدًا بأقصى شَرْقِها شرقتْ عيونهم أدمعًا تهمي زكا وخسا[5]
هم شيعةُ الأمر وهي الدارُ قد نهكتْ داءً متى لم تُباشِرْ حَسْمَهُ انتكسا
فاملأ هنيئًا لك التأييدُ ساحتَها[6] جُرْدًا سَلاَهِبَ أو خَطِّيَّةً دعسا
واضْرِبْ لها موعدًا بالفتح تَرْقُبُهُ لَعَلَّ يومَ الأعادي قد أتى وعَسَى

---

(١) الحيُّ اللَّقاح: الذين لا يدينون للملوك. محيط المحيط (لقح).
(٢) ملوك الصُّفْر: ملوك نصارى الأندلس، وقد أطلق العرب على الروم اسم: «بني الأصفر».
(٣) في أزهار الرياض: «نغسل» بالنون.
(٤) في العبر: «رأس».
(٥) الزكا: الزوج من العدد. والخسا: الفرد من العدد. لسان العرب (زكا) و(خسا).
(٦) في العبر: «املأ هنيئًا لك التمكين..».

فبادر[1] السلطان بإعانتهم، وشحن الأساطيل بالمدد إليهم، من المال والأقوات والكُسَى، فوجدوهم في هُوّة الحصار، إلى أن تغلّب الطاغية على بَلَنْسِيَة، ورَجَعَ ابن الأبار بأهله إلى تونس، وكان تغلّب العدوّ على بَلَنْسِية صلحًا يوم الثلاثاء السابع عشر لصفر من سنة ست وثلاثين وستمائة، فهزَّتْ هذه القصيدة من الملك عِطْفَ ارتياح، وحرّكت من جَنانه أخفض جَناح، ولشغفه بها وحسن موقعها منه أمر شعراء حضرته بمجاوبتها، فجاوبها غير واحد. وحال العدو بين بلنسية وبينه، وتعاهد أهلُها مع النصراني على أن يسلّمهم في أنفسهم، وذلك سنة سبع وثلاثين وستمائة، أعادها اللّه تعالى للإسلام.

وكانت وقعة كُتُنْدَة[2] على المسلمين قبل هذا التاريخ بمدّة، وكتندة ـ ويقال «قُتُنْدَة» بالقاف ـ من حيّز دورقة من عمل سَرَقُسْطَة من الثغر الأعلى، وكانت الهزيمة على المسلمين جبرهم اللّه تعالى، قُتل فيها من المطوّعة نحو من عشرين ألفًا، ولم يُقْتَلْ فيها من العسكر أحد، وكان على المسلمين الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين الذي ألّفَ الفتحُ باسمه «قلائد العقيان» وكانت سنة أربع عشرة وخمسمائة، ومِمَّنْ حضرها الشيخُ أبو علي الصدفي السابق الذكر، وقرينه في الفضل أبو عبد اللّه بن الفراء خرجا غازيين، فكانا مِمَّنْ فُقد فيها.

وقال غير واحد: إن العسكر انصرف مفلولاً[3] إلى بَلَنْسِية، وإنّ القاضي أبا بكر بن العربيّ كان مِمَّنْ حضرها، وسئل مخلَصَه منها عن حاله، فقال: حال من ترك الخباء والعباء، وهذا مثل عند المغاربة معروف، يقال لمن ذهبت ثيابه وخيامه، بمعنى أنه ذهب جميعُ ما لديه.

ودخل العدو لوشة سنة اثنتين وعشرين وستمائة، مع السيد أبي محمد البياسي في الفتنة التي كانت بينه وبين العادل، فعاثوا فيها أشدَّ العَيث، ثم ردّها المسلمون إلى أن أُخذت بعد ذلك كما يأتي.

ودخل العدوّ مدينة أَلْمَرِيَّة يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، عَنْوَة.

---

(١) النص في العبر (م ٦ ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) خبر وقعة كتندة أو قتندة في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٦ ـ ١٧) ومعجم البلدان (جـ ٤ ص ٣١٠).

(٣) مفلولاً: منهزمًا، يقال: رجلٌ فَلٌّ وقومٌ فَلٌّ: أي منهزمون. محيط المحيط (فلل).

وحكى أبو زكريا الجعيدي[1] عن أبي عبد اللّه بن سعادة الشاطبي المعمر أنَّ أبا مروان بن ورد أتاه في النوم شيخ عظيم الهيئة فرمى يديه في عضديه من خلفه، وهزّه هزًّا عنيفًا حتى أرعبه، وقال له قُلْ: [الطويل]

أَلَا أيها المغرورُ وَيْحَكَ لا تَنَمْ فللّه في ذا الخَلْقِ أمرٌ قد انْبَهَمْ[2]
فلا بُدَّ أن يُرْزَوا بأمرٍ يسوءهم فقد أحدثوا جرمًا على حاكم الأُمَمْ[3]

قال: وكان هذا في سنة أربعين وخمسمائة، فلم يمض إلّا يسير حتى تغلّب الروم على ألمرية في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة، بعد تلك الرؤيا بعامين أو نحوهما.

وهو مِمّا حكاه ابن الأبار الحافظ في كتاب «التكملة» له.

وفي وقعة ألمرية هذه استشهد الرُّشَاطي[4] الإمام المشهور، وهو أبو محمد عبد اللّه بن علي بن عبد اللّه بن علي بن خلف بن أحمد بن عمر، اللَّخْمي، الرُّشاطي، المريي، وكانت له عناية كبيرة بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وهو صاحب كتاب «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار، في أنساب[5] الصحابة ورواة الآثار» أخذه الناس عنه، وأحسن فيه، وجمع وما قصّر، وهو على أسلوب كتاب أبي سعد بن السمعاني الحافظ المسمَّى بـ «الأنساب».

وولد الرُّشاطي سنة ٤٦٦ بقرية من أعمال مُرْسِية يقال لها أوريوالة[6] ـ بفتح الهمزة، وسكون الواو، وكسر الراء، وضمّ المثناة التحتية، وبعد الألف لام مفتوحة، وبعدها هاء ـ وتوفي شهيدًا بألمرية عند تغلّب العدوّ عليها صبيحة الجمعة العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢.

---

(١) هو يحيىٰ بن زكريا بن علي بن يوسف الجعيدي الأنصاري البلنسي، المتوفّى سنة ٦١٩ هـ. التكملة (رقم ٢٠٦٣).
(٢) انبهم: غمض. لسان العرب (بهم).
(٣) حاكم الأُمَم: هو اللّه تعالى جلّ جلاله.
(٤) ترجمة الرشاطي في المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ١٢٢) والمطرب (ص ٦١، ١٢٠) ووفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٠٦). والمقري ينقل هنا عن وفيات الأعيان.
(٥) في المعجم (ص ٢٢٣): «في أسماء الصحابة..».
(٦) أوريوالة، بالإسبانية Orihuela: مدينة على نهر مرسية، تبعد عنها حوالى ١٢ ميلًا، وبينها وبين البحر عشرون ميلًا. الروض المعطار (ص ٦٧).

والـرُّشاطي ـ بضم الـراء، وفتح الشين المخفّفـة ـ وذكر هـو أنَّ أحد أجـداده كـان في جسمه شامة كبيرة، وكانت حاضنته عجمية، فإذا لاعبته قالت: رُشاطـة(1)، وكثر ذلـك منها، فقيل له: الرُّشاطي؛ انتهى ملخّصًا من «وفيات الأعيان»، وبعضه بالمعنى.

وبعـد أخذ النصـارى ألمريـة هذه المـرة رجعت إلى ملك المسلمين، واستنقذهـا اللّٰه تعالى على يد الموحدين، وبقيت بـأيدي أهـل الإسلام سنين، وكـان أول الولاة عليهـا حين استولى عليها أميرُ المسلمين عبد المؤمن بن علي رجلاً يقال له يوسف بن مخلوف، فثار عليه أهل ألْمَرية، وقتلوه، وقدَّموا على أنفسهم الرميمي، فأخذها النصارى منـه عَنْوة كمـا ذكرنـا، وأُحصي عدد من سبي من أبكارها فكان أربعة عشر ألفًا.

وقال ابن حَبيش(2) آخر الحفاظ بالأنـدلس: كنت في قلعة ألمـرية لَمَّـا وقع الاستيـلاء عليها أعادها تعالى للإسلام، فتقدّمت إلى زعيم الروم السليـطين، وهو ابن بنت الأذفـونش، وقلت له: إني أحفظ نسبك منك إلى هرقل، فقال لي: قُلْ، فذكـرته لـه، فقال لي: اخـرج أنت وأهلك ومَنْ معك طلقاء بلا شيء.

وابن حبيش شيخ ابن دَحْيَة وابن حَوط اللّٰه وأبي الربيع الكلاعي، رحمهم اللّٰه تعالى!

ولَمَّا أُخِذَت ألمرية أقبل إليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ابنـا أمير المؤمنين فحصـرا النصارى بها، وزحـف إليهما أبو عبد اللّٰه بن مَرْدَنيش ملكُ شرق الأندلس محاربًا لهما، فكانا يقاتلان النصارى والمسلمين داخلاً وخارجًا، ثم رأى ابن مُردنيش العارَ على نفسه في قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى، فارتحل، فقال النصارى: ما رحل ابنُ مردنيش إلَّا وقد جـاءهم مدد، فاصـطلحوا، ودخـل الموحـدون المدينـة، وقد خـربت وضعفت، إلى أن أحيا رَمَقَهـا الـرئيسُ أبو العبـاس أحمد بن كمـال، وذلـك أنَّ أختـه أُخـذت سَبِيَّـةً في دخلة عبـد المؤمن لبجانة، فـاحتلت بقصره واعتنت بـأخيها، فـولاه بلده، فصلح به حـالها، وكـان جوادًا حسن المحاولة كثير الرفق، واشتهر من وُلاتها في مدة بني عبد المؤمن في المائة السابعة الأميـر أبو عمران بن أبي حفص عمّ ملك إفريقية أبي زكريا.

---

(1) في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٠٧): «رُشْطالة». ورشاطة: كلمـة إسبانيـة وهي Roseta، تصغير Rosa، وتعني الوريدة، تصغير وردة.

(2) هو أبو القاسم عبد الرحمن بن الأنصاري، الإمام الحافظ، نزيل مرسية. وحبيش هـو خالـه، نُسب إليه. ولد بألمرية سنة ٥٠٤ هـ. وتوفي سنة ٥٨٤ هـ. التكملة (رقم ١٦١٧).

ولَمَّا كانت سنة خمس وعشرين وستمائة وثارت الأندلس على مأمون بني عبد المؤمن بسبب قيام ابن هود بِمُرْسِيَة قام في ألمرية بدعوة ابن هود أبو عبد اللَّه محمد بن عبد اللَّه بن أبي يحيىٰ بن الرميمي، وجدُّه أبو يحيىٰ هو الذي أخذها النصارى من يده، ولَمَّا قام بدعوة ابن هود وفد عليه بِمُرْسِيَة وولّاه وزارته، وصرف إليه سياسته، وآل أمره معه إلى أن أغراه بأن يحصن قلعة ألمرية، ويجعلها له عدة، وهو يبغي ذلك عدة لنفسه، وترك ابن هود فيها جارية تَعَلَّق ابن الرميمي بها، واجتمع معها، فبلغ ذلك ابن هود، فبادر إلى ألمرية، وهو مضمر الإيقاع بابن الرميمي، فتغدّى به قبل أن يتعشّى به[1]، وأُخرج من قصره ميتًا، ووجّهه في تابوت إلى مُرْسِية في البحر، واستبدَّ ابن الرميمي بملك ألمرية، ثم ثار عليه ولده، وآل الأمر بعد أحوال إلى أن تملّكها ابنُ الأحمر صاحبُ غَرْناطة، وبقيت في يد أولاده بعده إلى أن أخذها العدوّ الكافر عندما طوي بساط بلاد الأندلس كما سننبّه عليه، واللَّه غالبٌ على أمره.

وما أحسن قول أبي إسحٰق إبراهيم بن الدباغ الإشبيلي في هزيمة العقاب بإشبيلية: [الوافر]

وقائلةٍ أراكَ تُطِيلُ فِكْرًا ... كأنَّكَ قد وَقَفْتَ لدى الحسابِ
فقلتُ لها أُفَكِّرُ في عقابٍ ... غَدَا سببًا لمعركة العقاب
فما في أرضِ أندلسٍ مُقامٌ ... وقد دَخَلَ البَلا مِنْ كلِّ بابِ

وقول القائد أبي بكر ابن الأمير ملك شِلْبَ أبي محمد عبد اللَّه ابن وزير[2] يخاطب منصور بني عبد المؤمن وقد التقى هو وأصحابه مع جماعة من الفرنج فتناصفوا، ثم كان الظفر للمسلمين[3]: [الطويل]

ولَمَّا تَلاقَينا جَرَى الطَّعْنُ بَيْنَنا ... فمنَّا ومنهمْ طائحون عديدُ

---

(١) هو مثل، والمراد أنه عاجله بالفتك قبل أن يستطيع الفتك به.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٥٥): «ابن وزيرها». وقد تقدم التعليق على أبي بكر بن أبي محمد ابن وزير الشلبي في هذا الجزء وأشرنا هناك إلى ما قاله عنه ابن الأبار في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٧٣).

(٣) تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء دون تغيير عمّا هنا. وأشرنا هناك إلىٰ ورودها في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٢٧٣).

وجـالَ غِـرارُ الـهـنـدِ فـيـنـا وفـيـهـمُ فـمـنّـا ومـنـهـم قـائـمٌ وحـصـيـدُ[1]
فـلا صَـدْرَ إلاّ فـيـه صَـدْرُ مُـثَـقَّـف[2] وحـولَ الـوريـدِ لـلحُـسـام ورود
صَبَـرْنـا ولا كهفٌ سـوى البِيض والْقَنَـا كـلانـا عـلى حَـرِّ الـجـلاد جـلـيـد
ولـكـنْ شَـدَدْنـا شَـدَّةً فـتـبـلَّدوا ومـن يَـتَـبَـلَّدْ لا يـزال يـحـيـد
فـولَّـوا ولـلسُّـمْـر الـطِّوال بـهـامـهـم ركـوعٌ ولـلبِـيض الـرِّقـاق سُـجُـودُ

وكان المذكور من فرسان الأندلس، وكان ابنه الفاضل أبو محمد غير مقصر عنه فروسيةً وقدرًا وأدبًا وشعرًا، وولّاه ناصر بني عبد المؤمن مدينة قصر أبي دانس في الجهة الغربية، وقتله ابن هود بإشبيلية، وزعم أنه يروم القيام عليه، ومن شعره قوله في ابن عمرو صاحب أعمال إشبيلية: [الكامل]

لا تيـأسنَّ مِـنَ الخـلافـة بـعـد مـا وَلِـيَ ابـنُ عـمـروٍ خـطَّةَ الأشـرافِ
تَـبًّـا لـدهـرٍ هـذه أفـعـالُـهُ يضـعُ النـوافـج فـي يَـدَيْ كَنَّـافِ

رجع ـ ودخل العدو كورة ماردة من محمد بن هود سنة ست وعشرين وستمائة، وكان مفتتح المصائب على يده، أعادها اللّٰه تعالى للإسلام! وهي قاعدة بلاد الجوف في مدة العرب والعجم، والحضرةُ المستجدّة بعدها هي مدينة بَطَلْيَوس، وبين ماردة وقرطبة خمسة أيام.

ومَلِكُ بَطَلْيَوسَ وماردة وما إليها المظفرُ محمدُ بن المنصور بن الأفطس مشهورٌ، وهو من رجال «القلائد» و«الذخيرة»، وهو أديب ملوك عصره بلا مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف الفائق، المترجم بـ«التذكر المظفري» خمسون مجلّدًا اشتمل على فنون وعلوم من مغازٍ وسِيَرٍ ومثلٍ وخبرٍ وجميع علوم الأدب، وقال يومًا: واللّٰه ما يمنعني من إظهار الشعر إلّا كوني لا أقول مثل قول أبي العشائر بن حمدان[3]: [الكامل]

أَقْـرَأْتُ[4] مـنـه مـا تخطُّ يَـدُ الـوَغَـى والـبِيضُ تـشْـكـل والأسـنَّـةُ تَـنْـقُطُ

---

(١) غِرار الهند: غِرار السيف المصنوع في الهند، وغِرارُ السيف: حَدُّه. القائم: الذي ما يزال دون حصاد، والمراد: الحَيّ. والحصيد: المحصود من الزرع، وأراد المقتول. وفي القرآن الكريم: ﴿منها قائمٌ وحَصِيدٌ﴾. سورة هود ١١، الآية ١٠٠.

(٢) المُثَقَّفُ: الرمح الذي أحسن تقويمه. لسان العرب (ثقف).

(٣) البيت في يتيمة الدهر (جـ ١ ص ٨٩).

(٤) في يتيمة الدهر: «لقرأت منها. . .».

وقول أبي فراس ابنِ عمِّه[1]: [الوافر]

وَجَــرَّرْنــا الـعــوالي فـي مـقــامٍ[2] تُـحَـدِّثُ عـنــه رَبَّــاتُ الـحِـجــالِ
كــأنَّ الـخيــلَ تَـعْلَمُ[3] مَـنْ عليـهـا فـفـني بَـعْضٍ عـلى بـعضٍ تَـعـالـي

فأين هذا من قولي.: [الوافر]

أَنِـفْـتُ مِـنَ الـمُـــدامِ لأنَّ عـقـلي أَعَــزُّ عَــلَـيَّ مِـنْ أُنْسِ الـمُـــدامِ
ولــم أرْتَــحْ إلــى روضٍ وزَهْــرٍ ولـكنْ لـلحمــائـل والـحُـســامِ
إذا لــم أمْـلِكِ الـشهــواتِ قَـهْــرًا فَلِمْ أبغـي الشـفـوفَ على الأنــام

وله رحمه اللّه تعالى: [المجتث]

يــا لَـحْـظَهُ زِدْ فُـتُـورًا تَــزِدْ عــليَّ اقـتــدارا
فــالـلحظُ كـالسيـفِ أَمْـضــا ه مــا يــرقُّ غِــرارا[4]

وابنه المتوكل من رجال «القلائد» و«المسهب» وكان في حضرة بَطَلْيَوس كالمعتمد بن عباد بإشبيلية، قد أناخت الآمال بحضرتهما، وشُدَّتْ رحال الأداب إلى ساحتهما، يتردّد أهل الفضائل بينهما كتردّد النواسم بين جَنَّتَينِ، وينظر الأدب منهما عن مُقْلَتَينِ، والمعتمد أشعر، والمتوكل أكتب.

رجع ـ وقال الفاضل الكاتب أبو عبد اللّه محمد الفازازي، وقيل: إنها وجدت برقعة في جيبه يوم موته: [الكامل]

الــرومُ تَضْــرِبُ في البــلاد وتغنمُ والجـور يـأخـذ مـا بَقي والمغْــرَمُ
والـمــالُ يــورَدُ كُـلُّه قـشـتــالــة والجنـدُ تسقط والــرعـيّــةُ تَسْـلَمُ
وذوو الـتعـين لـيس فيـهـم مُـسْـلم إلاّ مـعـيـن فـي الـفـســاد مُـسَـلِّمُ
أسفي عــلى تلك الـبــلادِ وأهلهـــا الـلَّه يلطف بــالـجمـيــع ويــرحم

---

(١) البيتان في شرح ديوان أبي فراس الحمداني (ص ١٣٣) ضمن قصيدة من ٣١ بيتًا.
(٢) في الديوان: «وعدتُ أجرُّ رمحي عن مقامٍ».
(٣) في الديوان: «تعرف».
(٤) غِرارُ السيف: حَدُّه. لسان العرب (غرر).

وقيـل: إنَّ هذه الأبيـات رُفعت إلى سلطان بلده، فلمَّا وقف عليهـا قال بعـد ما بكى: صدق رحمه اللَّه تعالى، ولو كان حيًّا ضربت عنقه!

وهذا الفازازي أخو الشاعـر الشهير الكـاتب الكبير أبي زيـد عبد الـرحمن الفازازي[1] صاحب «الأمداح» في سيد الوجود محمد[2] ﷺ، وهو كما قـال فيه بعضهم: صـاحب القلم الأعلى، والقِـدْح المعلَّى، أبرع من ألَّف وصنّف، وأبـدع من قَرَّط وشنّف، فقـد طـاع القلم لبنانه، والنظم والنثر لبيانه، كان نسيجَ وَحْـدِه رواية وأخبـارًا، ووحيد نَسْجـه رويّة وابتكـارًا، وفريد وقته خبرًا وإخبارًا، وصدر عصره إيرادًا وإصدارًا، صاحب فهـوم، ورافع ألـوية علوم، أمَّـا الأدب فلا يُسْبق فيـه مضمـاره، ولا يُشَقّ غبـاره، إن شـاء إنشاءً أنشى ووشّى، سـائـل الطبع، عذب النَّبْع، له في مدح النبي ﷺ، بدائع قـد خضع لهـا البيان وسلّم، أعجـز بتلك المعجزات نظمًا ونثرًا، وأوجز في تحبير تلك الآيات البينات فَجَلاَ سِحْرًا، ورفع للقوافي رايةَ استظهارٍ تخير فيها الأظهر، فعجم وعشر وشفع وأوتر، وأمّا الأصول فهي التي[3] من فروعه، في متفرّق منظومه ومنثور مجمـوعه، وأمـا النسب، فإلى حفـظه انتسب، وأمّا الأيـام والدول، ففي تـاريخه الأواخـر والأول، وقد سبـك من هـذه العلوم في منثـوره ومـوزونـه، مـا يشهـد بإضافتها إلى فنونـه، وله سمـاع في الحديث وروايـة، وفهم بقوانينـه ودراية، سمـع من أبي الـوليد اليـزيد بن عبـد الرحمن بن بقيّ القـاضي، ومن أبي الحسن جابـر بن أحمد القـرشي التاريخي، وهو آخر من حدّث عنه، ومن أبي عبد اللَّه التُّجِيبي كثيرًا وهو أول من سمـع عنه في حياة الحافظ أبي الـطاهر السِّلفي إذ قـدم عليهم تِلِمْسَان، وأجـازه الحافظ السهيلي وابن خلف الحافظ وغيرهما، وولد بعد الخمسين والخمسمائة، وتوفي بمراكش سنة ٦٣٧، رحمه اللَّه تعالى!. انتهى ملخصًا.

رجـع ـ ولَمَّا ثـارت الأندلس على طـائفة عبـد المؤمن كان الـوالي بجزيـرة مَيُورْقـة أبو يحيـىٰ بن أبي عمران التينمللي[4] فأخذها الفرنج منه، كذا قال ابن سعيد، وقـال ابن الأبار:

---

(١) هـو عبد الـرحمن بن يخلفتن بن أحمد اليجنشي الفـازازي؛ كاتب شـاعر، عـالم بالحـديث، مشارك في أصول الفقه، ذو معرفة بعلم الكلام. ولد بقرطبة ونشأ بها ثم سكن تلمسان. التكملة (رقم ١٦٤١).

(٢) كلمة «محمد» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٦٨).

(٣) كلمة «التي» ساقطة من طبعة دار صادر.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٥٩): «التيملي» بلامٍ واحدة.

إنها أُخذت يوم الاثنين الرابع عشر من صفر سنة سبع وعشرين وستمائة. وقال المخزومي[1] في تاريخ ميورقة: إنَّ سبب أخذها من المسلمين أنّ أميرها في ذلك الوقت محمد بن علي بن موسى كان في الدولة الماضية أحَدَ أعيانها، ووليها سنة ست وستمائة، واحتاج إلى الخشب المجلوب من يابسة، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية، فعلم بها والي طرطوشة، فجهّز إليها مَنْ أخذها، فعظم ذلك على الوالي، وحدّث نفسه بالغزو لبلاد الروم، وكان ذلك رأيًا مشؤومًا، ووقع بينه وبين الروم، وفي آخر ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وستمائة بلغه أن مسطحًا من برشلونة ظهر على يابسة، ومركبًا آخر من طرطوشة انضمّ إليه، فبعث ولده في عدة قطع إليه حتى نزل في[2] مرسى يابسة، ووجد فيه لأهل جنوة مركبًا كبيرًا، فأخذه وسار حتى أشرف على المسطح، فقاتله وأخذه، وظنَّ أنه غالب الملوك، وغاب عنه أنه أشأم من عاقر الناقة[3]، وأنَّ الروم لَمّا بلغهم الخبر قالوا لملكهم وهو من ذرية أذفونش: كيف يرضى الملك بهذا الأمر ونحن نقاتل بنفوسنا وأموالنا؟ فأخذ عليهم العهد بذلك، وجمع عشرين ألفًا من أهل البلاد، وجهّز في البحر ستة عشر ألفًا، وشرط عليهم حمل السلاح، وفي سنة ست وعشرين وستمائة اشتهر أمر هذه الغزوة فاستعدَّ لها الوالي، وميّز نيفًا على ألف فارس من فرسان الحضر والرعيّة مثلهم، ومن الرجالة ثمانية عشر ألفًا، وذلك في شهر ربيع الأول من السنة، ومن سوء الاتفاق أنَّ الوالي أمر صاحب شرطته أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فساقهم وضرب أعناقهم، وكان فيهم ابنا خاله، وخالهما أبو حفص بن سيري ذو المكانة الوجيهة، فاجتمعت الرعيّة إلى ابن سيري، فأخبروه بما نزل، وعزوه فيمن قُتل وقالوا: هذا أمر لا يطاق، ونحن كلّ يوم إلى الموت نساق، وعاهدوه على طلب الثأر، وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير دخل إلى الوالي، وأخبره بأنَّ الروم قد أقبلت، وأنه عدّ فوق الأربعين من القلوع، وما فرغ من إعلامه حتى ورد آخر من جانب آخر وقال: إن أسطول العدو قد تظاهر، وقال: إنه

---

(١) هو أبو المطرف ابن عميرة المخزومي، وقد مرَّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) كلمة «في» غير واردة في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٦٩).

(٣) عاقر الناقة: هو قُدار بن سالف الذي قتل ناقة صالح عليه الصلاة السلام فكان سببًا في دمار قومه، ويضرب به المثل في الشؤم فيقال: «أشأم من قُدار». لسان العرب ومحيط المحيط (شأم).

عدّ سبعين شراعًا، فصحّ الأمر عنده، فسمح لهم بالصفح والعفو، وعرفهم بخبر العدو، وأمرهم بالتجهّز، فخرجوا إلى دورهم، كأنما نُشِرُوا من قبورهم. ثم ورد الخبر بأنَّ العدوّ قرب من البلد، فإنهم عدّوا مائة و خمسين قلعًا، ولَمّا عبر وقصد المرسى أخرج الوالي جماعة تمنعهم النزول، فباتوا على المرسى في الرَّجل والخيل[1]. وفي الثامن عشر من شوال، وهو يوم الاثنين، وقع المصافُّ، وانهزم المسلمون، وارتحل النصارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحربية[2] الحزينة من جهة باب الكحل، ولم يزل الأمر في شدّة وقد أشرفوا على أخذ البلد، ولَمّا رأى ابن سيري أنَّ العدو قد استولى على البلد خرج إلى البادية، ولما كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر قاتلوا البلد قتالاً شديدًا، ولَمّا كان يوم الأحد أُخذ البلد، وأُخذ منه أربعة وعشرون ألفًا قُتلوا على دم واحد، وأُخذ الوالي وعُذِّب، وعاش بعد ذلك خمسة وأربعين يومًا، ومات تحت العذاب، وأما ابن سيري فإنه صعد إلى الجبل، وهو منيع لا يُنال مَنْ تحصَّن فيه، وجمع عنده ستة عشر ألف مقاتل، وما زال يقاتل إلى أن قُتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وجدّه من آل جَبَلة بن الأيهم الغساني[3]، وأما الحصون فأُخذت في آخر رجب سنة ثمان وعشرين وستمائة، وفي شهر شعبان لحق مَنْ نَجَا من المسلمين إلى بلاد الإسلام؛ انتهى ما ذكره ابن عميرة المخزومي ملخّصًا.

وكان بمَيُورْقَة جماعة أعلام وشعراء، ومن شعر ابن عبد الولي الميورقي[4]:
[الخفيف]

هل أَمَانٌ مِنْ لَحْظِكَ الفَتَّانِ ... وقوام يميلُ[5] كالخَيْزُرانِ
مهجتي منك في جحيم، ولكنَّ ... جُفُوني قد مُتِّعَتْ في جِنانِ
فَتَنَتْني لواحظٌ ساحراتٌ ... لستُ أخشى من فتنة الشيطانِ[6]

---

(١) الرَّجْلُ: جمع راجل وهو المقاتل وليس معه فرس، وأراد بالخيل: الفرسان. لسان العرب (رجل) و (خيل).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٧٠): «الحريبة». والحريبة: الغنيمة في الحرب. لسان العرب (حرب).

(٣) جبلة بن الأيهم الغساني هو آخر ملوك الغساسنة بالشام، وقد أسلم في خلافة عمر بن الخطاب ثم عاد إلى النصرانية وفرَّ إلى بلاد الروم، ومات بها سنة ٢٠ هـ. الأعلام (جـ ٢ ص ١١١ ومصادر حاشيته).

(٤) ترجمة ابن عبد الولي الميورقي وأبياته هذه في المغرب (جـ ٢ ص ٤٦٨).

(٥) في المغرب: «يميس».

(٦) في المغرب: «السلطان».

ولما استولى النصارى على مَيُورْقَةَ في التاريخ المتقدم ثار بجزيرة منورقة، وهي قريبة منها، الجواد العادل العالم أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي[1]، وكان وليها من قبل الوالي أبي يحيىٰ المقتول، وتصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، واشترط أن لا يدخل جزيرته أحد من النصارى، وضبطها أحسن ضبط. قال أبو الحسن علي بن سعيد: أخبرني أحد من اجتمع به أنه لقي منه برًّا حبّب إليه الإقامة في تلك الجزيرة المنقطعة، وذكر أنه ركب معه فنظر إلى حمالة سيف ضيقة وقد أثرت في عنقه، فأمر له بإحسان وغِنْباز[2]، وكتب معه: [البسيط]

حَمّالَةُ السيف تُوهِي جِيدَ حامِلِها ... لا سيما يومَ إسراعٍ وإنجازِ
وخيرُ ما استعمل الإنسانُ يومئذٍ ... لحسم علّتها إلباس غنبازِ

والغنباز عند أهل المغرب: صنف من الملبوس غليظ يستر العنق.

وأصل أبي عثمان من مدينة طلبيرة من غرب الأندلس، وقد أُلّفت باسمه التآليف المشهورة بالمغرب ككتاب «رَوح الشحر، وروح الشعر» وغيره.

وأخذ العدو منورقة بعد مدة.

وأخذ العدو جزيرة شقر صلحًا سنة تسع وثلاثين وستمائة في آخرها.

وأخذ العدو ـ دمّره اللّه تعالى! ـ مدينة سَرَقُسْطة يوم الأربعاء لأربع خَلَونَ من رمضان سنة اثنتي عشرة وخمسمائة.

وكان استيلاء الإفرنج على شرق الأندلس شاطبة وغيرها وإجلاؤهم مَنْ يشاركهم من المسلمين فيما تغلّبوا عليه منها في شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة.

وكان استيلاء العدو ـ دمّره اللّه تعالى! ـ على مدينة قُرْطُبة يوم الأحد الثالث والعشرين لشوال من سنة ست وثلاثين وستمائة.

---

(١) توفي سعيد بن حكم سنة ٦٨٠ هـ. وترجمته في المغرب (جـ ٢ ص ٤٦٩) واختصار القدح المعلى (ص ٢٨) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٣١٨) وأعمال الأعلام (القسم الثاني (ص ٢٧٤).

(٢) الغِنْبار: ثوب ذو كُمَّين مفتوح من قدام يلبسه الرجل والمرأة ويُعرف بالقنباز أيضًا، والجمع غنابيز. محيط المحيط (غنبز).

وكان تملك العدو مُرْسية صُلحًا ظهر يوم الخميس العاشر من شوال، قدم أحمد بن محمد بن هود ولد والي مرسية بجماعة من وجوه النصارى، فملّكهم إياها صلحًا، ولا حول ولا قوة إلّا باللّه [العلي العظيم!][(1)].

وحصر العدو إشبيلية سنة خمس وأربعين وستمائة. وفي يوم الاثنين الخامس من شعبان للسنة بعدها ملكها الطاغية صاحب قشتالة صلحًا بعد منازلتها حولًا كاملًا وخمسة أشهر أو نحوها.

وقال ابن الأبار في ترجمة أبي علي الشلوبين من «التكملة» ما صورته: وتوفي بين يدي منازلة الروم إشبيلية ليلة الخميس منتصف صفر سنة خمس وأربعين وستمائة، وفي العام القابل ملكها الروم.

وكانت وقعة أنيجة[(2)] التي قُتل فيها الحافظ أبو الربيع الكلاعي رحمه اللّه تعالى يوم الخميس لعشر بقين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وستمائة، ولم يزل رحمه اللّه تعالى متقدّمًا أمام الصفوف زحفًا إلى الكفار مقبلًا على العدو ينادي بالمنهزمين: أعن الجنة تفرّون؟ حتى قُتل صابرًا محتسبًا بَرَّدَ اللّه تعالى مضجعه! وكان دائمًا يقول: إنَّ منتهى عمره سبعون سنة لرؤيا رآها في صغره، فكان كذلك، ورثاه تلميذه الحافظ أبو عبد اللّه ابن الأبار بقصيدته الميمية الشهيرة التي أولها[(3)]: [الطويل]

ألِمَّا بأشلاء العُلاَ والمَكارم ... تُقَدُّ بأطرافِ الْقَنَا والصَّوارمِ

وعُوجَا عليها مأربًا وحفاوة ... مصارعَ غُصَّتْ بالطُّلا والجماجم[(4)]

نُحَيي وجوهًا في الجنان وجيهةً ... [بما لقيتْ حمرًا وجوهَ الملاحمِ][(5)]

[وأجسادَ إيمانٍ كساها نجيعُها][(5)] ... مجاسدَ من نسج[(6)] الظُّبى واللهاذمِ

---

(1) ما بين قوسين مركنين ساقط من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٧٢).

(2) وردت في الروض المعطار (ص ٤١): «أنيشة» وقال الحميري: أنيشة موضع على مقربة من بلنسية، فيه كانت الوقيعة بين أهل بلنسية والنصارى، واستشهد فيها أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي سنة ٦٣٤ هـ.

(3) القصيدة كاملة في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٩٠ ـ ٩٥) وعدد أبياتها مائة بيت وبيت. وورد منها ٥٨ بيتًا في تاريخ قضاة الأندلس (ص ١٢٠ ـ ١٢٢). وورد مطلعها فقط في الروض المعطار (ص ٤١).

(4) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٣): «مأربًا ومفازة». وفي الذيل والتكملة: «غُصَّتْ بالطُّلى».

(5) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٣).

(6) في الذيل والتكملة: «من حَوْك».

وهي طويلة.

ومن شعر الحافظ أبي الربيع المذكور[١]: [الطويل]

تـولـتْ[٢] ليـالٍ لـلغـوايـة جُـونُ ... ووافـى صبـاحٌ لـلرشـاد مبـيـن
ركـابُ شبـابٍ أزمعتْ عنـك رحـلةً ... وجيش مشيبٍ جَـهَّـزَتْـهُ مَـنُـونُ
ولا أكـذبُ الـرحمنَ فيمـا أُجِنُّـهُ ... وكيف لا يَـخْـفَـى عليـه جَـنِـينُ[٣]
ومـن لم يَـخَـلْ أنَّ الـريـاء يَشينـه ... فـمن مـذهـبي أنَّ الـريـاء يشيـن
لـقـد رِيـعَ قلبي للشبـاب وفَقْـدِهِ ... كمـا ريـعَ بـالعِلْق الفقيـد ضنينُ[٤]
وآلـمـني وَخْطُ الـمشيب بلمَّتي ... فـخُـطَّتْ بقلبي لـلشجـون فـنـون
وليـلُ شبـابي كـان أنْضَـرَ مـنـظرًا ... وآنَـقَ مـهـمـا لاحَـظَتْـهُ عـيـون
فـآهًـا[٥] على عيش تَـكَـدَّرَ صَفْـوُهُ ... وأُنسٍ خَـلاَ مـنـه صَفًـا وحُـجُـونُ
ويـا وَيْـحَ فَـودِي أو فـؤاديَ كـلّمـا ... تَـزَيَّـدَ شيبي كيف بَـعْـدُ يكـون
حـرامٌ عـلى قـلبي سُكُـونٌ بـغـرَّة ... وكيف مَـعَ الشيب المُمِضِّ سكون[٦]
وقـالـوا: شبـابُ المرء شُعْبَـةُ جِنَّـةٍ ... فما لي عـراني للمشيب[٧] جنـون
وقـالوا: شجـاكَ الشيبُ حدثـان ما أتى ... ولم يعلمـوا أنَّ الحـديث شجـون[٨]

وقال أيضًا[٩]: [الطويل]

أَمَـولَى المـوالـي ليس غَـيـرُكَ لي مـولـى ... ومـا[١٠] أحـدٌ يـا ربِّ مـنـك بِـذَا أَولـى
تَـبـاركَ وَجْـهٌ وُجِّـهَـتْ نـحـوه الـمـنـى ... فـأَوْزَعَـهـا شـكـرًا وأَوْسَـعَـهـا طَـولاَ

(١) القصيدة في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٨٨).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٤): «توالت».
(٣) في الذيل والتكملة: «وما يخفى». أُجِنُّهُ: أخفيه. الجنين: المخفيّ. لسان العرب (جنن).
(٤) العِلْق: النفيس من كل شيء. الضنين: البخيل. لسان العرب (علق) و (ضنن).
(٥) في الذيل والتكملة: «فآهٍ».
(٦) في الذيل والتكملة: «سكونٌ يقرُّه». والممضُّ: المؤلم. لسان العرب (مضض).
(٧) في المصدر نفسه: «بالمشيب».
(٨) أخذه من المثل: «الحديث ذو شجون». أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).
(٩) الأبيات في الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٨٧).
(١٠) في الذيل والتكملة: «وهل أحدٌ..».

وما هـو إلاّ وَجْـهُـكَ الـدائـمُ الـذي ... أقـلُّ حِـلىٰ عـليـائِـهِ يُـخْـرِسُ الـقـولا
تَـبَـرَّأْتُ مـن حـولـي إلـيـك وقـوتـي ... فـكنْ قـوتـي في مَـطْلبـي وكُنِ الـحَـولا[1]
وهَبْ لي الـرضـا مـا لي سـوى ذاك مُبْتَغًى ... ولـو لـقـيـتْ نـفـسـي عـلى نَـيـله الـهَـولاَ

وكان[2] ـ رحمه اللّه تعالى! ـ حافظًا للحديث، مُبَرِّزًا في نقده، تامّ المعرفة بطرقه، ضابطًا لأحكام أسانيده، ذاكرًا لرجاله، ريَّان من الأدب، خطب ببلنسية، واستقضي، وكان مع ذلك من أُولي الحزم والبسالة، والإقدام والجزالة، حضر الغزوات وباشر القتال بنفسه، وأبلى بلاء حسنًا، وروى عن أبي القاسم بن حَبيش وطبقته، وصنَّف كتبًا منها «مصباح الظُّلَم» في الحديث، و«الأربعون» عن أربعين شيخًا لأربعين من الصحابة، و«الأربعون السباعيّة» و«السباعيّات» من حديث الصدفي[3]، و«حلية الأمالي، في الموافقات والعوالي» و«تحفة الوُرَّاد، ونجعة الرُّوَّاد»[4] و«المسلسلات» و«الإنشادات» و«كتاب الاكتفاء في مغازي رسول اللّه، ﷺ، ومغازي الثلاثة الخلفاء» و«ميدان السابقين، وحلبة الصادقين المصدقين» في غرض كتاب الاستيعاب، ولم يكمله، «والمعجم» فيمن وافقت كنيته كنية[5] زوجه من الصحابة، و«الإعلام، بأخبار البخاري الإمام» و«المعجم، في مشيخة أبي القاسم بن حَبيش» و«برنامج رواياته»[6] و«جني الرطب، في سني الخطب» و«نكتة الأمثال، ونَفْثَة السحر الحلال» و«جهد النصيح[7]، في معارضة المعري في خطبة الفصيح» و«الامتثال، لمثال المبهج في ابتداع الحكم واختراع الأمثال» و«مفاوضة القلب العليل، ومنابذة الأمل الطويل، بطريقة المعري في ملقى السبيل» و«مجاز فتيا[8] اللحن للاحن الممتحن» مائة مسألة ملغزة، و«نتيجة الحب الصميم، وزكاة المنثور والمنظوم، في مثال النعل النبوية على لابسها أفضل الصلاة والسلام»، قال ابن رشيد: لو قال: وزكاة النثير والنظيم لكان أحسن، وله كتاب «الصحف المنشرة، في القطع المعشرة» و«ديوان رسائله»

---

(١) الحَوْلُ: القوة. لسان العرب (حول).
(٢) الذيل والتكملة (جـ ٤ ص ٨٥ ـ ٨٧) والمقري ينقل بتصرف.
(٣) هو أبو علي الصدفي.
(٤) في الذيل والتكملة: «وتحفة الرواد في العوالي البدلية الإسناد».
(٥) كلمة «زوجه» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٥).
(٦) في الذيل والتكملة: «برنامج مروياته».
(٧) في المصدر نفسه: «وجهد النصيح وحظّ المنيح من معارضة..».
(٨) في طبعة عبد الحميد: «مجاز فتى».

سفر[١]، و «ديوان شعره» سفر[٢]. وكتب إلى الأديب الشهير أبي بحر صَفْوان بن إدريس المرسي عقب انفصاله عن بلنسية سنة ٥٨٧: [الطويل]

أحنُّ إلى نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ في نَجْدِ … وماذا الذي يغني حنينيَ أو يُجدِي
وقد أوطنوها وادِعِينَ وخَلَّفُوا … محبَّهمُ رهن الصبابة والوجد
تَبَيَّنَ بالبينِ اشتياقي إليهمُ … ووجدي فساوى ما أجِنُّ[٣] الذي أُبْدِي
وضاقت عليَّ الأرض حتى كأنها … وشاحٌ بِخَصْرٍ أو سوارٌ على زند
إلى اللّه أشكو ما أُلاقي من الجوى … وبعض الذي لاقيته من جَوًى يُرْدِي
فراقُ أخلّاء وصَدُّ أحِبَّة … كأنَّ صروفَ الدهر كانت على وعد
فيا سَرْحَتَيْ نجدٍ، نداء مُتَيَّمٍ … له أبدًا شوق إلى سرحتَيْ نجد
ظمئتُ فهل طَلٌّ يُبَرِّدُ لوعتي؟ … ضحيت[٤] فهل ظلٌّ يسكن من وجدي
ويا زمنًا قد بانَ غيرَ مُذَمَّم … لعلَّ لأنس قد تَصَرَّمَ مِنْ رَدِّ
ليالِيَ نجني الأنس من شجر المنى … ونقطف زهرَ الوصل من شجر الصدِّ
وسَقْيًا لإخوان بأكناف حاجرٍ … كرام السجايا لا يحولون عن عهد
وكم لي بنجد من سريٍّ ممجَّد … ولا كابن إدريس أخي البشر والمجد
أخو همّة كالزهر في بُعْدِ نيلها … وذو خُلُقٍ كالزهر غِبَّ الحَيَا العِدِّ[٥]
تَجَمَّعَتِ الأضدادُ فيه حميدةً … فمن خلق سبط ومن حسب جعد
أيا راحلاً أودى بصبري رحيلُه … وفلّل من عزمي وَثَلَّم من حَدِّي
أتعلم ما يلقى الفؤاد لِبُعْدكم؟ … ألَا مذ نأيتم ما يُعيد ولا يُبْدي
فيا ليت شعري هل تعود لنا المُنى … وعيشٌ كما نَمْنَمْتُ حاشيتَيْ بُرد
عسى اللّه أن يُدْني السرورَ بقربكم … فيبدو، ومنّا الشملُ منتظمُ العِقْد

---

(١) في الذيل والتكملة: «سفر متوسط».
(٢) في المصدر نفسه: «سُفَيْر».
(٣) أُجِنُّ: أخفي. لسان العرب (جنن).
(٤) ضحيتُ: أصابتني الشمس عند الصباح. لسان العرب (ضحا).
(٥) غِبَّ الحيا: بعد الحيا، والحَيَا: المطر. والعِدّ: الجاري الذي لا ينقطع. لسان العرب (غبب) و (حيا) و (عدد).

وقال الحافظ القاضي أبو بكر بن العربي في «أحكام القرآن»[١] عند تفسير قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُوا خِفافًا وثِقالاً ﴾[٢] ما صورته: ولقد نزل بنا العدوّ - قصمه اللّه تعالى! - سنة سبع وعشرين وخمسمائة، فجاس ديارَنا، وأسر جيرتَنا، وتوسّط بلادنا في عَـدَدٍ حدّد الناس عدده فكان كثيرًا، وإن لم يبلغ ما حدوده، فقلت للوالي والمولى عليه: هـذا عدوّ اللّه قـد حصل في الشَّـرَك والشبكة، فلتكنْ عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج إليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد في جميع الأقطار، فيحاط بهم[٣]، فإنه هالك لا محالة، وإن[٤] يسّركم اللّه له فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصي القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبًا يأوي إلى وِجَاره[٥]، وإن رأى المكيدة بجاره، فإنّا للّه وإنّا إليه راجعون، وحسبنا اللّه ونِعْمَ الوكيل!. انتهى[٦].

ولا خفاء أنَّ هذا كان قبل أخذ العدو الجزيرة[٧] وشرق الأندلس وسَرَقُسْطة ومَيُورْقة وغيرها مِمّا قدمْنا ذكره، والبدايات، عُنْوَانٌ على النهايات.

وقال أبو جعفر الوقشي البلنسي[٨] نزيل مالقة يمدح أمير المؤمنين يوسف ابن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن علي: [الطويل]

أَبَتْ غيرَ ماءٍ بالنخيلِ وُرُودا ... وهامتْ به عذبَ الجِمَامِ بَرُودَا
وقالت لحاديها أثَمَّ زيادةٌ ... على العشر في وِرْدِي له فأزيدا
غلبتكِ ما هذا القنوعُ وما أنا ... عهدتكِ لا تثنين عنه وريدا
أنونًا إذا ما كنتِ منه قريبةً ... وضبًّا إذا ما كان عنكِ بعيدا[٩]

---

(١) أحكام القرآن (جـ ٢ ص ٩٤٣).
(٢) سورة التوبة ٩، الآية ٤١.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٧٧): «به».
(٤) في الطبعة نفسها: «إن».
(٥) الوِجار: جِحْرُ الضَّبُع وغيرها. محيط المحيط (وجر).
(٦) كلمة «انتهى» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٧).
(٧) في طبعة عبد الحميد: «العدو شرق الأندلس..».
(٨) هو أحمد بن عبد الرحمن الوقشي، وزير ابن همشك وممدوح الرصافي البلنسي المتوفّى سنة ٥٧٢ هـ. المغرب (جـ ٢ ص ٢٥٧، ٣٤٣).
(٩) النون: الحوت. الضّبُّ: من حيوان البَرِّ. لسان العرب (نون) و(حوت).

رِدِي[1] حضرة المَلْكِ الظليل رواقُهُ		لعمري ففيها تحمدين ورودا
بحيثُ إمام الدين يوسع فَضْله		جميعَ البرايا مبدئًا ومُعِيدا
أعاد إليها الأنسَ بعد شروده		وأحْيَا لنا ما كان منه أُبيدا
ولَيَّنَ أيامَ الزمان بعدله		وكانت حديدًا في الخطوب حديدا
فلا ليلة إلَّا يروقك حسنها		ولا يومَ إلَّا عاد يفضل عيدا

ومنها يصف حال الأندلس ويبعث على الجهاد:

أَلَا ليت شعري هل يمدّ لي المدى		فأُبْصِرَ شملَ المشركين طريدا
وهل بَعْدُ يقضى في النصارى بنصرة		تغادرهم للمُرْهَفَاتِ[2] حصيدا
ويغزو أبو يعقوبَ في شنتَ ياقب		يُعِيدُ عميدَ الكافرين عميدا[3]
ويلقي على إفرنجهم عبءَ كلكل		فيتركهم فوقَ الصعيد هُجودا[4]
يغادرهم جَرْحَى وقَتْلَى مبرحًا		ركوعًا على وجه الفلا وسُجُودا
ويفتكُّ مِنْ أيدي الطغاة نواعمًا		تبدلن من نظمِ الحجول قُيُودا
وأقبلن في خشن المسوح وطالما		سحبن من الوشي الرقيق بُرُودَا
وغَبَّرَ منهنَّ الترابُ ترائبًا		وخدّد منهنّ الهجيرُ خدودا[5]
فحقّ لدمعي أنْ يَفيض لأزرقٍ		تملَّكها دُعْجَ المدامعِ سودا
ويا لهف نفسي من معاصم طَفْلَة		تجاورُ بالقِدِّ الأليم نهودا[6]
ويا أسفي[7] ما إن يزال مُرَدَّدًا		على شملِ أعياد أُعيد بَديدا
وآهًا بمدّ[8] الصوت منتحبًا على		خلوِّ ديار لو يكون مفيدا

(١) رِدي: فعل أمر لفعل «ورد».
(٢) المُرْهَفات: أي السيوف الحادّة.
(٣) عميدًا: شديد الحزن. لسان العرب (عمد).
(٤) الكلكل: الصدر. هجودًا: نُوَّمًا. لسان العرب (كلكل) و (هجد).
(٥) الترائب؛ جمع تريبة وهي موضع القلادة من الصدر. خدَّد: قلَّص، شنَّج. الهجير: شدة الحَرّ. لسان العرب (ترب) و (خدد) و (هجر).
(٦) الطَّفْلة، بفتح الطاء وسكون الفاء: الرخصة الناعمة. القِدُّ: السَّيْرُ من جلد غير مدبوغ. محيط المحيط (قدد).
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٧٨): «ويا أسفًا».
(٨) في الطبعة نفسها: «تمدُّ».

وقال في آخرها، وهو مِمَّا استحسنه الناس:

حملتُ إليـه من نـظامي قـلادة　　يـلقِّبـهـا أهـلُ الكـلام قـصيـدا
غَـدَتْ يومَ إنشـاد القـريض وحيـدة　　كمـا قصدتْ في المعلوات وحيـدا

ولَمَّا تمهّدت الأندلس لعبد المؤمن وبنيه كان لهم فيها وقائع مع عدوّ الدين، واجتاز إليها عبدُ المؤمن. ثم لَمَّا ولي بعده ملكَه ابنُه يوسف دخل الأندلس سنة ٥٦٦، وفي صحبته مائة ألف فارس من العرب[١] والموحِّدين، فنزل بإشبيلية، فخافه الأمير أبو عبد اللّٰه محمد بن سعد بن مَرْدَنيش صاحبُ شرق الأندلس؛ مُرْسِية وأعمالها وما انضاف إليها، فحمل على قلبه، فمرض، فمات، وشرع السلطان يوسف في استرجاع بلاد المسلمين من أيدي الفرنج، فاتّسعت مملكته بالأندلس، وأغارت سراياه على طُلَيطلة إذ هي قاعدة ملكهم، ثم إنه حاصرها، فاجتمعت طائفة الفرنج عليه، واشتدَّ الغلاء في عسكره، فرحل عنها، وعاد إلى حضرة ملكه مراكش المحروسة.

ولم يزل أهل الأندلس بعد ظهور النصارى ـ دمَّرهم اللّٰه تعالى! ـ على كثير منها يستنهضون عزائم الملوك والسوقة لأخذ الثار، بالنظم والنثار، فلم ينفعهم ذلك حتى اتّسع الخرق، وأعضل الداءُ أهلَ الغرب والشرق، فمن القصائد الموجهة في ذلك قولُ بعضهم لما أُخذت بلنسية يخاطب صاحب إفريقية أبا زكريا ابن[٢] عبد الواحد بن أبي حفص: [الكامل]

نـادَتْـكَ أنـدلسٌ فَـلَبِّ نـداءهـا　　واجعـلْ طـواغيتَ الصليب فـداءهـا
صـرخَتْ بـدعـوتـك العليّـة فـأَجْبُهـا　　من عـاطفـاتـك مـا يقي حَـوبَـاءَهـا[٣]
واشـددْ بجلبـك جُـرْدَ خيلك أَزْرَهـا　　تـردّد عـلى أعـقـابـهـا أرزاءهـا
هـي دارك الـقـصـوى أوتْ لإيـالـة　　ضمنت لهـا مـع نصـرهـا إيـواءهـا
وبهـا عبـيـدك لا بقـاء لـهم سـوى　　سُبُـل الضَّـراعـة يسلكـون سـواءهـا
خـلعت قـلوبـهـم هـنـاك عـزاءهـا　　لـمـا رأت أبصـارهـم مـا سـاءهـا

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٦٩): «المغرب».
(٢) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ص ٢٧٠).
(٣) الحوباء: النفس. محيط المحيط (حوب).

دُفِعُوا لأبكار الخطوب وعُونِها[١] ... فهمُ الغداةَ يصابرون عناءها
وتنكرت لهمُ الليالي فاقتضت ... سَرَّاءها وقضتهمُ ضرّاءها
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا ... لم يضمن الفتحُ القريب بقاءها
رِشْ أيها المولى الرحيم جناحَها ... واعقدْ بأرشية النجاة رِشاءها[٢]
أشفى على طرف الحياة ذَماؤها[٣] ... فاستبقِ للدين الحنيف ذَماءها
حاشاك أن تفنى حُشاشتها وقد ... قَصَرَتْ عليك نداءها ورجاءها
طافَتْ بطائفةِ الهُدى آمالها ... تَرْجُو بيحيىٰ المرتضى إحياءها
واستشرفتْ أمصارها لإمارة ... عقدت لنصر المستضام لواءها
يا حسرتي لعقائل معقولة ... سئمَ الهُدَى نحو الضلال هداءها
إيهٍ بلنسية وفي ذكراكِ ما ... يمري الشؤون[٤] دماءها لا ماءها
كيف السبيل إلى احتلال معاهد ... شبَّ الأعاجمُ دونها هَيجَاءها[٥]
وإلى رُبًا وأباطح لم تَعْرَ من ... حُلَلِ الربيع مصيفَها وشتاءها
طاب المعرَّسُ والمَقِيلُ خلالها ... وتطلّعت غُرَرُ المُنَى أثناءها
بأبي مدارسُ كالطلول دوارسٌ ... نسخت نواقيسُ الصليب نِدَاءها[٦]
ومصانع كسف الضلال صباحها ... فيخاله الرائي إليه مساءها
ناحتْ بها الورقاءُ[٧] تسمعُ شَدْوَها ... وغدت تُرَجِّعُ نوحها وبكاءها
عجبًا لأهلِ النارِ حَلُّوا جنَّةً ... منها تمدّ عليهمُ أفياءها
أَمْلَتْ لهم فتعجّلوا ما أمّلوا ... أيامهم لا سُوِّغوا إملاءها
بُعْدًا لنفسٍ أبصرتْ إسلامَها ... فتوكفت عن حزبها إسلاءها
أمَّا العلوج فقد أحالوا حالها ... فَمَنِ المطيقُ عِلاجَها وشِفاءها

---

(١) العُونُ: جمع عوان وهي المرأة المتوسطة في السّنّ. والمراد المصيبة التي ذاق الناس مرارتها غير مرّة. لسان العرب (عون).

(٢) راش جناحُهُ: أنبت. الأرشية: جمع رِشاء وهو الحبل. لسان العرب (ريش) و (رشا).

(٣) الذَّماء: بقية الروح في المذبوح. محيط المحيط (ذمى).

(٤) الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين. محيط المحيط (شأن).

(٥) الهيجاء: الحرب. محيط المحيط (هيج).

(٦) المراد بالنداء: الأذان.

(٧) الورقاء: الحمامة. محيط المحيط (ورق).

أَهْـدَى إليهـا بـالـمكـاره جـارح ... لـلكـفـر كـرّه مـاءهـا وهـواءهـا
وكـفـى أَسًـى أنَّ الـفـواجـع جَـمَّـةٌ ... فـمتـى يـقـاوم أسْـوُهـا أسـواءهـا
هـيهـات فـي نـظر الإمـارة كفُّ مـا ... تخشـاه، ليت الشكـر كـان كفاءهـا
مـولاي هـاكَ مُـعـادة أنـبـاءهـا ... لـتنيـل منـكَ سـعـادة أبنـاءهـا
جـرِّدْ ظُـبَـاكَ لمحـو آثـارِ الـعِـدا ... تقتـلْ ضَـرَاغِمَهـا وَتَسْبِ ظبـاءهـا
واسْتَـدْعِ طـائفـةَ الإمام لغـزوهـا ... تسبقْ إلى أمثـالهـا استـدعـاءهـا
لا غـرو أن يـعـزى الـظهـور لـملَّةٍ ... لم يبـرحـوا دون الـورى ظُهـراءهـا
إنَّ الأعـاجـمَ لـلأعـاربِ نـهـبـةٌ ... مهمـا أمـرت بغـزْوِهـا أحيـاءهـا
تـالـلّه لـو دَبَّـتْ لـهـا دُبّـابُـهـا ... لَـطَوَتْ عليهـا أَرْضَهـا وسمـاءهـا
ولـو استقـلَّتْ عـوفهـا لـقتـالـهـا ... لاستقبلتْ بـالمقـربـات عفـاءهـا
أَرْسِـلْ جـوارحهـا تجئك بصيـدهـا ... صيـدا ونـادِ لـطحنهـا أرحـاءهـا
هُبُّـوا لها يـا معشرَ التـوحيـد قـد ... آنَ الـهـبـوبُ وأحْـرِزُوا عَـلْيـاءهـا
إنَّ الحفـائظ[1] مـن خـلالكـمُ التي ... لا يـرهـبُ الـداعي بـهنَّ خـلاءهـا
هي نكـتـة المَـحْيـا فـحيَّـهَـلًا بهـا ... تجـدوا سَناهـا في غـدٍ وسنـاءهـا
أَوْلَـوا الجـزيـرة نصـرةً إنَّ الـعـدا ... تبغـي على أقـطارهـا استيـلاءهـا
نُقصت بـأهـل الشِّـرْك من أطـرافهـا ... فـاستحفـظوا بـالمؤمنين نَمـاءهـا
حـاشـاكمُ أن تضـمـروا إلغـاءهـا ... فـي أزمـة أو تضمـروا إقـصـاءهـا
خـوضـوا إليهـا بحرهـا يصبحْ لكم ... رَهْـوًا[2] وجـوبـوا نحوهـا بَيْداءهـا
وافى الصـريـخ مثـوِّبًـا[3] يـدعـو لهـا ... فلتجملوا قـصـد الثـواب ثَـواءهـا
دار الـجهـاد فـلا تـفتـكـم سـاحـةٌ ... سـاوت بها أحيـاؤهـا شهـداءهـا
هـذي رسـائـلهـا تُنـاجي بـالتي ... وقـفت علـيهـا رَيْثَـهـا ونجـاءهـا
ولـربـمـا أنهـت سـوالـب لـلنُّهـى ... مـن كـائـنـات حـمّلت أنـهـاءهـا
وفـدت على الـدار العـزيـزة تجتني ... آلاءهـا أو تـجـتـلي آراءهـا
مستسقيـات من غيـوث غيـاثـهـا ... مـا وَقْـعُـه يتقـدَّمُ استـسقـاءهـا

(١) الحفائظ: جمع حفيظة وهي الغضب. لسان العرب (حفظ).
(٢) رَهْوًا: ساكنًا.
(٣) مُثَوِّبًا: مرجّعًا. لسان العرب (ثوب).

قـد أَمِنَتْ فـي سبلهـا أهـواءهـا إذ سَـوَّغَتْ فـي ظـلِّهـا أهـواءهـا
وبـحسبهـا أنَّ الأمـيـر الـمـرتـضـى مُـتَـرَقِّبٌ بـفـتـوحـهـا آنـاءهـا
فـي اللّه مـا يـنـويـه مـن إدراكـهـا بـكَـلاَءة يَـفْـدِي أَبِـي أكـلاءهـا
بـشـرى لأنـدلس تـحـبُّ لـقـاءهُ ويـحـبُّ فـي ذات الإلّـه لـقـاءهـا
صـدق الـرواة الـمخبـرون بـأنـه يَشْفي ضَنـاهـا أو يُعيـدُ رُوَاءهـا
إن دوَّخ الـعـربُ الصعـابَ مـقـادة وأبـى عـليـهـا أن تـطيـع إبـاءهـا
فكـأنْ بفَيْلقـه الـعَـرَمْـرَمِ فـالقًـا هـامَ الأعـاجم نـاسفًـا أرجـاءهـا
أنـذرهُمُ بـالبـطشـة الكبـرى فقـد نـذرت صـوارمُـهُ[1] الـرقـاق دمـاءهـا
لا يـعـدم الـزمـن انـتصـار مـؤيـد تـتـسـوغ الـدنـيـا بـه سَـرَّاءهـا
مـلك أمـدّ الـنَّـيِّـريـن[2] بـنـوره وأفــاده لألاؤه لألاءهــا
خـضعت جبـابـرة الـمـلوك لـعـزِّهِ ونضت بكفٍّ صـغـارهـا خُيَـلاءهـا
أبـقـى أبـو حـفص إمـارتـه لـه فسمـا إلـيهـا حـامـلاً أعبـاءهـا
سَـلْ دَعْـوَةَ الـمـهـديِّ عـن آثـاره تُـنْبـيـك أنَّ ظُبَـاه قُـمْنَ إزاءهـا
فغـزا عـداهـا واسـتـرقَّ رقـابـهـا وحمى حمـاهـا واسـتـردَّ بـهـاءهـا
قبضت يـداه على البسيـطة قبضـة قـادت لـه فـي قِـدِّهِ أُمـراءهـا
فعلى المشـارق والـمغـارب ميسمٌ لـهـداه شـرَّف وَسْمُـه أسـمـاءهـا
تـطمـو بتـونسهـا بحـارُ جيـوشِـهِ فـيـزور زاخـرُ مـوجـهـا زَوْراءهـا
وسع الـزمـان فضـاق عنـه جـلالَـةً والأرض طـرًّا ضنكَـهـا وفضـاءهـا
مـا أزمـع الإيـغـالَ في أكـنـافـهـا إلاَّ تـصـيَّـد عَـزْمُـه زُعَـمَـاءهـا
دانـت لـه الـدنـيـا وشُـمُّ مـلوكـهـا فـاحتـلَّ من رُتَبِ العُـلا شمّـاءهـا
ردَّت سـعـادتـه عـلى أدراجـهـا لـيـل الـزمـان ونهنهـت غُلَواءهـا[3]
إن يـعتـم الـدول العـزيـزة بـأسـه فـالآن يـولـي جـوده إعـطاءهـا
تقـع الجـلائـلُ وهـو راسٍ راسـخٌ فـيهـا يـوقِّـع لـلسعـود جـلاءهـا
كـالـطود في عصف الـريـاح وقصفهـا لا رَهْـوَهـا يخشى ولا هـوجـاءهـا

---

(١) الصوارم: جمع صارم وهو السيف. لسان العرب (صرم).
(٢) النَّيِّران: هما الشمس والقمر.
(٣) الغُلَواء: الغلوّ. محيط المحيط (غلا).

سـامي الـذوائب فـي أعـزِّ ذؤابـة | أعلت على قِمم النجـوم بنـاءهـا
بـركـت بكـلِّ مـحلَّةٍ بـركـاتُـهُ | شفعًـا يبـادر بـذلهـا شفعـاءهـا
كـالغيث صَبَّ على البسيطة صَوبَهُ | فسقى عمـائـرهـا وجـاد قَـواءَهـا
ينميـه عبـد الـواحـد الأرضَى إلى | عليـا فتمنح[1] بـأسَهـا وسخـاءهـا
في نَبْعـة كـرمت وطـابت مغـرسًـا | وسَمَتْ وطـالـتْ نضـرة نـظراءهـا
ظهـرت لمحتـدهـا السمـاء وجـاوزت | لسـرادقـات فخـارهـا جـوزاءهـا
فئـة كـرام لا تـكـفُّ عـن الـوغـى | حتى تـصـرَّعَ حـولهـا أكفـاءهـا
وتكبُّ فـي نـار القـرى فـوق الـذرا | مـن عـزّة أُلـويَّـهـا وكَـبـاءهـا
قـد خلَّقـوا الأيـام طيبَ خـلائـقٍ | فـثـنت إليـهم حـمـدهـا وثـنـاءهـا
يَنْضُـونَ في طلب الـنفـائس أَنـفُسًـا | حبسـوا على إحـرازهـا إمضـاءهـا
وإذا انتضـوا يـوم الكـريهـة بِيضَهُمْ | أبصـرتَ فيهم قـطعهـا ومَضـاءهـا
لا عـذر عنـد المكـرمـات لهم متى | لـم تستبـن لِعُـفـاتـهـم عـذراءَهـا
قـومُ الأميـرِ فمـن يقـوم بـمـا لهـم | من صـالحـات أفحمت شعـراءهـا
صفحًـا جميـلاً أيهـا الملك الـرضي | عن محكمـات لم نُطِقْ إحصـاءهـا
تـقـف القـوافي دونهـنّ حسـيـرةً | لا عِيَّهـا تُـخْـفِـي ولا إعيـاءهـا
فـلعـلَّ عليـاكـم تسـامـح راجيًـا | إصـغـاءهـا ومُـؤمِّـلاً إغـضـاءهـا

ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها اللّه تعالى للإسلام: [الوافر]

لِـثُكْـلِكِ كـيـف تـبـتسـمُ الـشـغـورُ | ســرورًا بـعـد مـا بئست[2] ثـغـورُ
أمـا وأبـي مـصـاب هُـدَّ مـنـه | ثَـبِيـرُ الـديـن فـاتَّصـل الـثبـور[3]
لقـد قُصِـمَتْ ظهـورٌ حيـن قـالـوا | أمـيـرُ الكـافـريـن لـه ظُـهُـورُ
تـرى في الـدهـر مسـرورًا بـعيشٍ | مـضـى عـنّـا لِـطِيَّـتـه الـسـرور
ألـيس بـهـا أبـيٌّ الـنـفس شهـم | يُـديـرُ عـلى الـدوائـر إذ تـدور

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٧٤): «فتجنح».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٨٣): «سُبيت». والثغور في القافية: جمع ثغر وهو الموضع القريب من العدو. لسان العرب (ثغر).
(٣) ثبير: هو أعلى جبال مكة وأعظمها. الروض المعطار (ص ١٤٩). والثبور: الهلاك. لسان العرب (ثبر).

لـقــد خضـعتْ رقــابُ كُـنَّ غُلْبًـا[1] | وزال عــتــوُّهــا ومَـضَــى الـنــفــور
وهــانَ عــلى عــزيــز الـقــوم ذلٌّ | وســامــح في الحــريـم فتى غَيُــور
طــليــطلةٌ أبــاحَ الـكُــفْــرُ مـنـهــا | جِـمــاهــا، إنَّ ذا نــبــأٌ كـبـيــرُ
فــليس مـثــالــهــا إيــوانُ كـســرى | ولا مـنـهــا الـخَـوَرْنَـقُ والـسَّـديـر
مُـحَـصَّـنـةٌ مُـحَـسَّـنَـةٌ بَـعِـيـدٌ | تـنــاوُلُـهــا ومَـطْلَبُـهــا عَـسـيــر
ألـم تَـكُ مـعـقــلاً لـلديـن صَعْبًـا | فـذلَّـلـه كـمــا شـاء الـقَــديــر
وأخــرج أَهْـلَهــا مـنـهــا جـمـيـعًـا | فـصــاروا حيثُ شـاء بهـم مـصـيــرُ
وكــانــت دارَ إيــمــانٍ وعــلمٍ | مـعــالِمُـهــا التي طُـمِسَتْ تُـنـيـرُ
فــعــادتْ دارَ كُـفْـرٍ مُـصْـطَفـاةٍ | قــد اضــطربـتْ بـأهليـهــا الأمــورُ
مـســاجِـدُهــا كـنـائِسُ، أيُّ قَـلْـبٍ | عــلى هــذا يَـقِـرُّ ولا يـطيــرُ
فــيــا أَسَـفــاهُ يــا أَسَـفــاهُ حُـزْنًــا | يُـكَــرَّرُ مــا تَـكَــرَّرَتِ الـدهــورُ!
ويـنـشـر كـلَّ حـسـن لـيس يـطوى | إلـى يــومٍ يـكــون بـه الـنـشــور
أُدِيلَتْ قــاصـراتُ الـطَّرْف[2] كـانت | مَـصُـونـاتٍ مســاكـنُهــا الـقصــور
وأدركــهــا فــتــورٌ فــي انــتـظار | لِـسِـرْبٍ فـي لــواحــظه فـتــور
وكــان بــنــا وبــالـقـيـنـات أولــى | لــو انـضمَّـت على الـكــلّ الـقبــور
لـقــد سَخِـنَتْ بـحــالـتـهـنّ عَـيـنٌ | وكـيــف يَـصـحُّ مـغـلـوبٌ قــريــر
لئــن غِـبْـنــا عــن الإخــوان إنَّــا | بــأحــزانٍ وأشــجــانٍ حُـضُــورُ
نُــذُورٌ كــان لــلأيــام فــيــهــم | بـمُهْـلَكِهِـم[3] فـقــد وفـت الـنــذور
فــإن قُـلْـنــا الـعـقــوبـة أدركـتـهــم | وجــاءهُـمُ مــن الـلَّـه الـنـكـيــر
فــإنَّــا مــثـلهــم وأشــدُّ مـنـهــم | نـجــورُ وكـيـف يـسـلم مـن يـجــور
أنــأمــنُ أن يـحــلَّ بـنــا انـتـقــام | وفـيـنــا الـفسـق أجـمــع والـفـجــور
وأكْــلُ لــلحــرام ولا اضــطرار | إلـيــه فـيَـسْـهُـلَ الأمــرُ الـعـسـيــر
ولــكــن جــرأةٌ فــي عُـقْـر دار | كــذلــك يـفعــلُ الكلبُ الـعَـقُــور

---

(١) الغُلْبُ: جمع أغلب وهو الغليظ الرقبة. محيط المحيط (غلب).

(٢) قاصراتُ الطَّرْف: النساء اللواتي لا تمددن عيونهنّ إلى غير أزواجهنّ، واحدتها قاصرة. محيط المحيط (قصر).

(٣) المُهْلَكُ: الهلاك. لسان العرب (هلك).

يـزولُ الـسـتـرُ عـن قـومٍ إذا مـا | عـلى العصيـان أُرْخِيَتِ السـتـور
يـطولُ عـليَّ لـيـلي، ربّ خـطب | يـطول لـهولـهِ الليلُ القصيـر
خـذوا ثأرَ الـديـانـةِ وانْصُـرُوهـا | فقـد حـامَتْ عـلى القَتْلَى النسـورُ
ولا تـهـنـوا وسُلُّوا كـلَّ عَضْـبٍ[1] | تـهـابُ مضـاربًـا عنـه النحـور
ومـوتـوا كُلُّكُـمْ فـالـمـوتُ أولى | بـكـمْ مـن أن تُـجـارُوا أو تَـجُـورُوا
أصـبـرًا بـعـد سـبي وامـتـحـان | يُـلامُ عـليـهـمـا القـلبُ الصبـورُ
فـأمُّ الـصـبـر مِـذْكـار وَلُـودٌ | وأُمُّ الـصـقـرِ مِـقـلاتٌ نَـزُورُ[2]
نـخـور إذا دُهـيـنـا بـالـرزايـا | ولـيـس بـمـعـجـبٍ بَقَـرٌ يـخـور
ونـجبن ليس نـزأر، لـو شجعنـا | ولـم نـجـبـن لـكـان لـنـا زئـيـر
لـقـد سـاءت بـنـا الأخبـارُ حتى | أمـات الـمخـبـرين بـهـا الخبـيـرُ
أتَـتْـنـا الـكُـتْـبُ فـيـهـا كـلُّ شـرّ | وبـشَّـرَنـا بـأنْـحسنـا البَشِيـرُ
وقِـيـلَ تجـمّـعـوا لـفـراقِ شـمـلٍ | طـلـيـطلةُ تَـمَـلَّكَـهـا الـكَـفُـورُ
فَـقُـلْ في خـطّة فـيـهـا صَـغـارٌ | يشيبُ لِكَـرْبهـا الـطفـل الصغيـر
لـقـد صَـمَّ الـسـمـيـعُ فلم يُعَـوِّلْ | على نبـإٍ كـمـا عَـمِيَ الـبـصيـرُ
تـجـاذبـنـا الأعـادي بـاصـطـنـاع | فـيـنـجـذِبُ الـمُـخَـوَّلُ والـفـقـيـر
فبـاقٍ في الـديـانـة تـحت خـزي | تُـثَـبِّـطُه الـشُّـوَيْـهَـةُ والـبـعـيـر
وآخـرُ مـارقٌ هـانـتْ عـلـيـه | مـصـائبُ ديـنـه فله الـسـعـيـر
كَـفَى حُـزْنًـا بـأن الـنـاس قـالـوا | إلـى أيـن الـتـحـوّلُ والـمـسـيـرُ
أنـتـرك دُورَنـا ونـفـرُّ عـنـهـا | ولـيـس لـنـا وراء الـبـحـر دُورُ
ولا ثَـمَّ الـضِّـيـاعُ تـروقُ حُـسْـنًـا | نـبـاكـرُهـا فـيـعـجبـنـا الـبكـور
وظـلٌّ وارفٌ وخـريـرُ مـاءٍ | فـلا قـرٌّ هـنـاك ولا حَـرورُ[3]
ويـؤكـلُ من فـواكـهـهـا طَـرِيٌّ | ويُـشْـرَبُ مـن جـداولـهـا نـمـيـر
يُـؤَدَّى مَـغْـرَمٌ فـي كـلّ شـهـرٍ | ويُـؤْخَـذُ كـلَّ صـائفـةٍ عُـشُـورُ

---

(١) العَضْبُ: السيف القاطع. لسان العرب (عضب).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٨٥): «فأمّ الشكل مِذْكار». والمذكار: التي عادتها ولادة الذكور. الولود: الكثيرة الولد. النَّزُور: القليلة الولد. لسان العرب (ذكر) و (ولد) و (نزر).
(٣) القُرُّ: البرد. الحَرُورُ: الحرّ الدائم. محيط المحيط (قرر) و (حرر).

فهم أحمى لحوزتنا وأولى ... بنا وهُمُ الموالي والعشير
لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ ... وغَرَّ القومَ باللَّه الغَرُورُ
فلا دينٌ ولا دُنيا ولكن ... غرورٌ بالمعيشةِ ما غرور
رَضُوا بالرقِّ يالَلَّه ماذا ... رآهُ وما أشار به مُشير
مَضَى الإسلامُ فابْكِ دمًا عليه ... فما يَنْفي الجَوَى الدَّمْعُ الغزير
ونُحْ واندُبْ رفاقًا في فلاة ... حيارى لا تحطُّ ولا تسير
ولا تَجْنَحْ إلى سِلْمٍ وحارِبْ ... عَسَى أنْ يُجْبَرَ العَظْمُ الكَسيرُ
أنعمى عن مراشدنا جميعًا ... وما إن منهمُ إلَّا بصير
ونلقى واحدًا ويفرُّ جَمْعٌ ... كما عن قانصٍ فَرَّتْ حمير[1]
ولو أنا ثبتنا كان خيرًا ... ولكن ما لنا كرم وخِيرُ[2]
إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ ... فليس بنافع عددٌ كثير
ألَا رجلٌ له رأيٌ أصيلٌ ... به مِمَّا نحاذِرُ نَسْتجير
يكرُّ إذا السيوف تناولَتْهُ ... وأين بنا إذا وَلَّتْ كرور
ويطعن بالقنا الخَطَّار حتى ... يقول الرمح ما هذا الخطير
عظيم أن يكون الناسُ طُرًّا ... بأندلسٍ قتيلٌ أو أسير
أذكّر بالقراع الليث حرصًا ... على أن يقرع البَيضَ الذكورُ[3]
يبادر خَرْقَها قَبْلَ اتّساع ... لخطبٍ منه تنخسف البدورُ
يوسِّع للذي يلقاه صدرًا ... فقد ضاقتْ بما تلقى صدورُ
تنغَّصَت الحياةُ فلا حياةٌ ... وودّع جيرة إذ لا مجيرُ
قليلٌ فيه هَمٌّ مستكنٌّ ... ويومٌ فيه شَرٌّ مستطير[4]
ونرجو أن يُتِيحَ اللَّهُ نصرًا ... عليهمْ، إنه نِعْمَ النَّصِيرُ

---

(١) القانص: الصياد، وقد يراد به السبع. وفي القرآن الكريم: ﴿ كأنهم حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ من قَسْوَرَةٍ ﴾. سورة المدثر ٧٤، الآيتان ٥٠، ٥١ ولسان العرب (قنص).

(٢) الخِيْرُ، بكسر الخاء: الكرم. لسان العرب (خير).

(٣) البَيْضُ، بفتح الباء: جمع بَيْضة وهي الخوذة. الذكور: جمع ذكر وهو السَّيْفُ. لسان العرب (بيض) و (ذكر).

(٤) المستكنُّ: المستتر. الشَّرُّ المستطير: المنتشر. لسان العرب (سكن) و (طير).

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي[1] رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

لِـكـلِّ شـيءٍ إذا مـا تَـمَّ نُـقْـصَـانُ ... فـلا يُـغَـرَّ بـطيبِ الـعيش إنـسـانُ
هي الأمورُ، كما شاهَدْتَها، دُوَلٌ[2] ... مَـنْ سَـرَّهُ زمـنٌ سـاءته أزمـان
وهـذه الـدار لا تُـبْـقِـي عـلى أحـد ... ولا يـدوم عـلى حـال لـهـا شـانُ
يُمـزِّقُ الـدهـرُ حتمًا كـلَّ سـابغـةٍ ... إذا نَبَتْ مشـرفيـاتٌ وخُرْصـانُ[3]
وينـتضـي كـلَّ سيـف لـلفنـاء ولـو ... كـان ابن ذي يـزن والغمـد غـمـدان
أيـن الملوك ذوو التيـجـان من يـمنٍ؟ ... وأيـن منـهـم أكـاليـل وتـيـجـان
وأيـن مـا شـاده شَـدَّادُ فـي إرمٍ؟ ... وأين مـا ساسـه في الفـرس سَـاسَـانُ
وأيـن مـا حـازه قـارون مـن ذهـب؟ ... وأيـن عـادٌ وشـدَّادٌ وقـحـطان
أتـى عـلى الـكـلِّ أمـرٌ لا مَـرَدَّ لـه ... حتى قضـوا فكـأنَّ الـقـوم مـا كـانـوا
وصـار مـا كـان من مُـلْكٍ ومـن مَـلِكٍ ... كمـا حكى عن خيـال الـطيف وَسْنـانُ
دارَ الـزمـانُ عـلى دَارًا وقـاتِـلِهِ[4] ... وأمَّ كـسـرى فـمـا آواه إيـوان
كـأنمـا الصعب لـم يسهـل لـه سبب ... يـومًـا ولا مـلك الـدنيـا سـليمـانُ
فـجـائـعُ الـدهـرِ أنـواعٌ مـنـوَّعـة ... ولـلزمـانِ مَـسَـرَّاتٌ وأحـزانُ
ولـلحـوادثِ سُـلْوانٌ يُـسَـهِّـلُهـا ... ومـا لـمـا حـلَّ بـالإسـلام سُـلْوانُ
دَهَـى الـجـزيـرةَ أمـرٌ لا عـزاء لـه ... هـوى لـه أُحُـدٌ وانـهـدَّ ثـهـلان[5]
أصـابهـا العين في الإسـلام فـارتـزأت[6] ... حـتـى خـلت مـنـه أقـطارٌ وبـلـدان

---

(١) هو صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن علي بن شريف النفزي، من أهل رندة، يكنى أبا الطيب وأبا البقاء. توفي سنة ٦٨٤ هـ. الإحاطة (جـ٣ ص ٣٦٠) والذيل والتكملة (جـ ٤ ص ١٣٧).

(٢) دولٌ: متداولة. لسان العرب (دول).

(٣) السابغة: الدروع. المشرفيات: السيوف. الخُرصان: الرماح. لسان العرب (سبغ) و(شرف) و(خرص).

(٤) قاتل دارا: هو الإسكندر الأكبر.

(٥) أُحُدُ: جبل بظاهر مدينة النبي، ﷺ. الروض المعطار (ص ١٣). ثهلان: جبل باليمن، والعرب تضرب المثل به في الثقل فتقول: أثقل من ثهلان. الروض المعطار (ص ١٥١).

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٨٧): «فامتحنت».

فاسأل بَلَنْسية ما شأن مُرْسِية ... وأين شاطبة أم أين جَيَّانُ
وأين قُرْطبةٌ دارُ العلوم، فكم ... من عالم قد سَمَا فيها له شان
وأين حمصُ[1] وما تحويه من نُزَهٍ ... ونهرها العذب فَيَّاضٌ وملآن
قواعد كنّ أركانَ البلاد فما ... عسى البقاءُ إذا لم تَبْقَ أركان
تبكي الحنيفية البيضاء[2] من أسفٍ ... كما بكى لفراق الإلْفِ هَيمانُ
على ديارٍ من الإسلام خالية ... قد أقفرتْ ولها بالكفر عُمْرانُ
حيث المساجد قد صارتْ كنائسَ ما ... فيهنَّ إلّا نواقيس وصُلْبان
حتى المحاريبُ تبكي وهي جامدة ... حتى المنابرُ ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظةٌ ... إن كنت في سِنَةٍ فالدهرُ يقظان
وماشيًا مرحًا يلهيه موطنه ... أَبَعْدَ حِمْصٍ تغرُّ المرء أوطانُ
تلك المصيبة أنْسَتْ ما تقدَّمها ... وما لها مَعَ طولِ الدهر نسيان
يا راكبين عتاقَ الخيل ضامرةً ... كأنها في مجال السبق عِقْبان
وحاملين سيوفَ الهندِ مُرْهَفةً ... كأنها في ظلام النَّقْعِ نيران
وراتعينَ وراء البحر في دَعَةٍ ... لهم بأوطانهم عِزٌّ وسلطان
أعندكم نبأ مِنْ أهلِ أندلس ... فقد سرى بحديثِ القوم رُكْبانُ
كم يستغيثُ بنا المُسْتَضْعَفُونَ وهم ... قَتْلَى وأَسْرَى فما يهتزُّ إنسان
ماذا التقاطعُ في الإسلام بينكُمُ ... وأنتمُ يا عبادَ الله إخوان
أَلَا نفوسٌ أبِيّاتٌ لها هِمَمٌ؟ ... أما على الخير أنصارٌ وأعوان
يا من لذلة قومٍ بعد عزّهمُ ... أحالَ حالَهمُ كُفْرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكًا في منازلهم ... واليومَ هم في بلاد الكفر عبْدانُ
فلو تراهم حيارى لا دليلَ لهم ... عليهمُ من ثياب الذّلِّ ألوان
ولو رأيتَ بُكاهم عند بيعهمُ ... لهالَكَ الأمرُ واستهوتك أحزانُ
يا رُبَّ أمٍّ وطفلٍ حيل بينهما ... كما تَفَرَّقُ أرواحٌ وأبدان
وطَفْلة[3] مثل حسن الشمس إذ طلعتْ ... كأنما هي ياقوتٌ ومَرْجانُ

---

(١) حمص: هي إشبيلية، وكانوا قد شبهوا إشبيلية بحمص عندما نزلها أهل حمص قادمين من الشام.

(٢) الحنيفية البيضاء: الإسلام.

(٣) الطَّفْلة، بفتح الطاء: الرخصة الناعمة. لسان العرب (طفل).

يقودها العلجُ للمكروه مكرهةً | والعينُ باكيةٌ والقلبُ حيران
لمثل هذا يذوبُ القلبُ من كمد | إن كان في القلب إسلامٌ وإيمانُ

انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بأيدي بعض[1] الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مِمَّا أُخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، وما اعتمدته منها نقلته من خَطّ مَنْ يوثق به على ما كتبته، ومَنْ له أدنى ذوق علم أنَّ ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة، وغالبُ ظنِّي أنَّ تلك الزيادة لما أُخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون هِمَمَ الملوك بالمشرق والمغرب فكأنَّ بعضهم لَمَّا أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، وقد بينت ذلك في «أزهار الرياض»[2] فليراجع.

وصالح بن شريف الرندي صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس، ومن بديع نظمه قوله[3]: [السريع]

سَلِّمْ على الحيِّ بذات العَرارْ | وحَيِّ من أجل الحبيب الدِّيَارْ
وخَلِّ مَنْ لامَ على حُبِّهم | فما على العُشّاق في الذّلِّ عارْ
ولا تقصِّر في اغتنام المُنَى | فما ليالي الأنس إلَّا قصار
وإنما العيشُ لمن رامَهُ | نفسٌ تدارى وكؤوس تُدار
ورَوحُه الراحُ وريحانه | في طيبه بالوصل أو بالعُقار
لا صبرَ للشيء على ضدِّه | والخمرُ والهَمُّ كماءٍ ونار
مُدَامةٌ مُدْنِيَةٌ للمُنَى | في رقَّة الدمعِ ولون النُّضار
مِمّا أبو ريق أباريقها | تنافست فيها النفوس الكبار
مُعِلَّلتي والبرء من علّتي | ما أطيب الخمرة لولا الخُمار
ما أحسنَ النارَ التي شكلُها | كالماء لو كفّ شرار الشرار
وبي وإن عُذِّبْتُ في حُبِّه | ببعده عن اقترابِ المَزار
ظبيٌ غريرٌ نام عن لوعتي | ولا أذوقُ النومَ إلَّا غِرارْ[4]

---

(١) كلمة «بعض» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٨٨).

(٢) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٤٧).

(٣) بعض هذه القصيدة في الإحاطة (جـ ٣ ص ٣٦٦ - ٣٦٧).

(٤) إلَّا غِرارًا: إلَّا قليلًا، والغِرارُ في الأصل: القليل من النوم. لسان العرب (غرر).

ذو وجنةٍ كأنها روضةٌ قد بُهِرَ الوردُ بها والبهار
رَجَعْتُ للصبوة في حُبِّه وطاعةِ اللهوِ وخلعِ العذار
يا قومُ، قولوا بذمام الهوى أهكذا يفعلُ حبُّ الصغار
وليلةٍ نَبَّهْتُ أجفانَها والفجرُ قد فَجَّرَ نهرَ النهارْ
والليلُ كالمهزوم يوم الوَغَى والشُّهبُ مثلُ الشُّهب[1] عند الفرار
كأنما اسْتَخْفَى السُّها خيفَةً وطُولِبَ النجمُ بثأرٍ فثارْ
لِذاكَ ما شابت نواصي الدُّجا وطَارَحَ النسرُ أخاه فطار
وفي الثريّا قمرٌ سافرٌ عن غرّة غَيَّر منها السفار[2]
كأنَّ عنقودًا تثنَّى به[3] إذ صار كالعُرْجُونِ عند السِّرار
كأنّها تَسْبكُ ديناره وكَفُّها يفتلُ منه السوار[4]
كأنما الظلماءُ مظلومةٌ تَحَكَّمَ الفجرُ عليها فجار
كأنما الصبحُ لِمُشْتاقِهِ عِزٌّ[5] غِنًى من بعد ذُلٍّ افتقار
كأنما الشمسُ وقد أشرقتْ وَجْهُ أبي عبد الإلَه اسْتَنارْ
محمدٌ محمدٌ كاسمه شخصٌ له في كلٍّ معنى يشار
أمَّا المعالي فهو قُطْبٌ لها والقطبُ لا شكَّ عليه المَدار
مُؤَثَّل المجدِ صريح العُلا مُهَذَّبُ الطبعِ كريمُ النِّجار[6]
تُزْهَى به لخم وساداتها وتنتمي قيسٌ له في الفخار
يفيضُ من جود يديه على عافيه ما منه تحارُ البحار
اليُمْنُ من يُمْناه حُكم جرى واليُسْرُ من شيمةِ تلكَ اليسار
أخٌ صَفَا منه لنا واحدٌ فالدهرُ مِمّا قد جنى في اعتذار
فإنْ شَكَرْنا فَضْلَهُ مرةً فقد سكرنا من نَداه مرار

(١) الشهب: جمع أشهب وهو الجواد الذي يخالط بياضَهُ سوادٌ. لسان العرب (شهب).
(٢) في الإحاطة: «الشِّفار».
(٣) في الإحاطة: «عنقودًا بها ماثلٌ».
(٤) في الإحاطة: «تَفَتَّل منه سوارٌ».
(٥) في الإحاطة (ص ٣٦٧): «إقبال دنيا بعد ذلٍّ».
(٦) النِّجار، بكسر النون: الحسب. لسان العرب (نجر).

ونـحـن مـنـه فـي جـوار الـعُـلا تَـدورُ لـلـسـعـدِ بـنـا مـنـه دارْ
الـحـافظُ الـلّـه وأسـمـاؤه لـذلـك الـجـارِ وذاك الـجـوارْ

رجع - وقد رأيت أن أثبت هنا رسَالةً خاطب بها الكاتبُ البارعُ القاضي أبو المطرِّف ابن عميرة المخزومي الشيخَ الحافظ أبا عبد اللّه بن الأبار، يذكر له أخذ العدو مدينة بَلَنْسية وهي(1): [الطويل]

أَلَا فَـيئَـةٌ(2) لـلدَّهْـرِ تـدنـو بـمـن نـأى وبُـقْـيـا يـرى منـهـا خـلافَ الـذي رأى
ويـا مَنْ عـذيـري منـه(3) يَـغْـدِر مَنْ أوَى إلـيـه ولا يـدري سـوى خُـلْفِ مـن وأى(4)
ذخـائـر مـا فـي البَـرِّ والبَـحْـر صيـدُهُ فـلا لـؤلـؤا أبـقـى عـلـيـه ولا وأى

أيها الأخ الذي دُهش ناظري لكتابه، بعد أن أدهش خاطري من إغبابه، وسرّني من بشره إيماض، بعد أن ساءني من جهته إعراض، جرت على ذكره الصلة فقوَّمَ قِدْحَ نَبْعَتها، وروّى أكناف قلعتها(5)، وأحدث ذكرًا من عهدنا الماضي فنَقَّط وجه عروسه، وشعشع خمر كؤوسه، وسقى بماء الشبيبة ثراه، وأبرز مثال(6) مرآة الغريبة مرآه، فبورك فيه أحوذِيًّا وصَلَ رحمه، وكسا منظره من البهجة ما كانَ حَرَمَه، وحَيّا اللّه تعالى منه وليًّا على سالف عهدي تمادى، وبشعار ودّي نادى، وبَيَّنَ الإحسانَ شيمتُه، وأبان والبيانُ لا تنجاب عنه دِيمَتُه، ولا تغلو بغير قلمِهِ قيمتُه، واعتذر عن كلمة تمنى تبديلها، ودعوة ذكر وجوم النادي لها، ثم أرسلها تَرجُف بوادرها من خيفة، وتوغر بوَغْمٍ(7) صدور(8) قلم وصحيفة، وتنذر من ريحانة قريش أن تمنعه عرفها، وتحدق إليه طَرْفَها، واتّقى غارة على غِرَّة، من الناجي برأس طِمِرَّة، ولم يأمن هجران المهاجر بعد وَصْله، وعكر عكرمة المغطي بحلْمه على أبي جهله، وعند

---

(1) قال ابن عميرة هذه الرسالة بمناسبة استيلاء العدو على بلنسية سنة ٦٣٦ هـ. وقد ورد بعض هذه الرسالة في الروض المعطار (ص ٩٨).
(2) فيئة: عودة ورجوع. لسان العرب (فيأ).
(3) ضمير «منه» يعود للدهر.
(4) وأى: وعد. لسان العرب (وأى).
(5) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩١): «تلعتها».
(6) في الطبعة نفسها: «مثل».
(7) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٨٤): «زعم». والوَغْمُ: الحقد. لسان العرب (وغم).
(8) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩١): «صدر».

ذكر كتيبة خالد أجحم[١]، وذكر يوم أحاطت به فارس فاستلحم[٢]، فاعتذر عَمّا قال، وأضمر الحذر إلَّا أن يقال، فمَهْلاً أيها الموفي على عَلَمِه، النافث بسحر قلمه، أتظنُّ منزلتك في البلاغة ومَهْيَعُها لاحب[٣]، ومنزعها بالعقول لاعب، تسفل وقد ترفّعت، أو تخفى وإن تلفّعت، عرفناكِ يا سَودَة، وشهرت حلَّةَ عطارِدٍ الملاحةُ والجودة، فلم حين تهيب الأخ الأوحد من قُصَيٍّ غطاريفَها[٤]، ولو استثار من حفائظها تالدها وطريفها[٥]، لم يذكر يد قومه عند أبيها، وقد رام خطّة أشرف على تأبّيها، حين أهاب بكم لِمُهِمِّه، ودعا منكم أخاه لأُمِّه، ولولا ذلك لما خلا له وَجْهُ الكعبة، ولا خلص من تلك المضايق الصعبة، وبأن أعرتموه نجدتكم الموصوفة، غلب على ما كان بأيدي صُوفَه، فكيف نجحد اليد عند عَمِّنا، أو نشحذ أسنَّة الألسنة لذمِّنا، أو كيف نلقاكم بجدّنا[٦]، وأبوكم أبو[٧] بكر مَعَدُّنا، وما تَيا مُنْكم إلى سبأ بن يشجب، وإن أطلنا فيه التعجّب، بالذي يقطع أرْحَامَنا، ويمنع اشتباكنا والتحامَنا، بعد أن شددنا فعالنا بفعالكم، ورأينا أقدامنا في نِعالكم، ولو شئتم توعّدتم بأسود سؤددكم عند الإقدام، وإلحاح إلحاقكم في ضَرْب الْهام، لكن نقول إنَّ قومنا لَكِرام، ولو شاءوا كان لنا منهم شِرَّةٌ وعُرام. وأعود من حيث بدأ الأخ الذي أبثّه شوقي، وأتطعّم حلاوة عشرته باقية في حاسة ذوقي، طارَحَني[٨] حديث مَوردٍ جَفَّ، وقطين خَفَّ، فيا للّه لأتراب دَرَجُوا، وأصحاب عن الأوطان خرجوا، قصّتِ الأجنحة وقيل طيروا، وإنما هو القتل أو الأسر أو تسيروا، فتفرّقوا أيدي سَبا، وانتشروا[٩] ملء الوهاد والرُّبَا، ففي كلِّ جانبٍ عَويلٌ وزَفْرة، وبكل صدر غليلٌ وحَسْرَة، ولكلِّ عين عِبْرة، لا ترقأ من أجلها عَبْرَة. داء خامر بلادنا حين أتاها، وما زال بها حتى سَجَّى على موتاها، وشَجَا ليومها الأطول كهلها وفتاها،

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٨٥): «أحجم».

(٢) في الطبعة نفسها: «فاستلجم».

(٣) المهيع: الطريق البيّنة الواسعة. اللاحب: الواضح. لسان العرب (هيع) و (لحب).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «غطارفها». والغطاريف: جمع غِطْريف وهو السيد الشريف. لسان العرب (غطرف).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «وطارفها».

(٦) في الطبعة نفسها: «بحدنا» بالحاء المهملة.

(٧) كلمة «أبو» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٨) من هنا في الروض المعطار (ص ٩٨).

(٩) في الروض المعطار: «وانتشروا على الوهاد..».

وأنذر[1] بها في القوم بُحْران أنيجة[2]، يوم أثاروا أُسدها المهيجة، فكانت تلك الحطمة طَلَّ الشؤبوب[3]، وباكورة البلاء المصبوب، أثكلتنا إخوانًا أبكانا نعيُّهم، ولله أحْوَذِيُّهم وألْمَعِيُّهُمْ، ذاك أبو ربيعنا[4]، وشيخ جميعنا، سعد بشهادة يومه، ولم يَرَ ما يسوءه في أهله وقومه، وبعد ذلك أخذ من الأمِّ بالمُخَنَّق، وهي بَلَنْسية ذات الحُسْن والبهجة والرونق، وما لبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان، وأخرج من جسدها روح الإيمان، فبَرِحَ الخفاء، وقيل: «على آثار مَنْ ذهب العَفاء»، وانعطفت النوائب مفردة ومركّبة كما تعطف الفاء، فأودت الخفّة والحَصافة، وذهب الجِسْرُ والرصافة، ومزّقت الحلة والشملة، وأوحشت الجرف[5] والرملة، ونزلت بالحارة[6] وقعة الحَرَّة، وحصلت الكنيسة[7] من جآذرها وظبائها على طول الحسرة، فأين تلك[8] الخمائل ونَضْرتها، والجداول وخضرتها، والأندية وأرَجُها، والأودية ومُنْعَرجُها، والنواسم وهبوب مُبْتَلِّها، والأصائل وشحوب معتلِّها، دار ضاحكت الشمسُ بَحْرها وبُحَيرتَها، وأزهار ترى من أدمع الطَّلِّ في أعينها تردُّدَها وحَيْرتَها، ثم زحفت كتيبة الكفر بزُرقها وشُقْرها، حتى أحاطت بجزيرة شقرها[9]، فآها[10] لمسقط الرأس هوى نجمُه، ولفادح الخطب سرى كَلْمُه، ويا لجنَّة أجرى الله تعالى النهر تحتها، وروضة أجاد أبو إسحٰق[11] نَعْتَها، وإنما كانت داره التي فيها دبَّ، وعلى أوصاف محاسنها أكبَّ، وفيها أتته منيته كما شاء وأحبَّ، ولم تعدم بعده محبين قشيبهم إليها ساقوه، ودمعهم عليها أراقوه. وقد أثبتُّ من النظم ما يليق بهذا الموضع، وإن لم يكن له ذلك الموقع: [الطويل]

---

(١) في الروض: «أنذر في القوم..».

(٢) البُحْران: التغيّر الذي يحدث للمريض دفعةً في الأمراض الحادّة. محيط المحيط (بحر). ويريد هنا أن المرض الذي أصاب أنيجة كان إنذارًا بما بعدها من سقوط بلنسية. وأنيجة أو أنيشة كانت عندها الموقعة التي قتل فيها أبو الربيع ابن سالم الكلاعي سنة ٦٣٤ هـ.

(٣) الشؤبوب: الدفعة من المطر. محيط المحيط (شأب).

(٤) هو أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعي، الذي قتل في موقعة أنيجة.

(٥) في الروض: «الحرة».

(٦) في الروض: «بالجارة».

(٧) يعدّد أبو المطرف بن عميرة هنا المعالم البارزة في بلنسية.

(٨) كلمة «تلك» غير واردة في الروض المعطار.

(٩) هي جزيرة شقر القريبة من بلنسية، مسقط رأس أبي المطرف ابن عميرة، ومسقط رأس ابن خفاجة.

(١٠) في الروض: «فآهٍ».

(١١) هو أبو إسحٰق ابن خفاجة، وهو من جزيرة شُقْر.

أقلُّوا ملامي أو فقولوا وأكثروا ... مَلُومُكُمُ عَمّا به ليس يُقْصِرُ
وهل غيرُ صَبٍّ ما تَنِي[1] عبراتُهُ ... إذا صعدتْ أنفاسُهُ تتحدّر
يَحِنُّ وما يُجْدِي عليه حنينُهُ ... إلى أَرْبُعٍ مَعْرُوفُها مُتَنَكَّرُ
ويَنْدِبُ عهدًا بالمشقَّرِ فاللِّوى ... وأين اللِّوَى منه وأين المُشَقَّرُ
تَغَيَّرَ ذاك العهدُ بعدي وأهله ... ومن ذا على الأيام لا يَتَغَيَّرُ[2]
وأَقْفَرَ رَسْمُ الدار إلَّا بقيّةً ... لسائلها عن مثل حاليَ تُخْبَرُ
فلم تَبْقَ إلَّا زفرة إثر زفرة ... ضلوعي لها تنقدُّ أو تتفطّرُ
وإلَّا اشتياقٌ لا يزالُ يَهُزُّني ... فلا غايةٌ تدنو ولا هو يَفْتُرُ
أقولُ لساري البرق في جنح ليلة ... كلانا بها قد بات يبكي ويَسْهَرُ
تَعَرَّضَ مجتازًا فكان مذكِّرًا ... بعهد اللوى، والشيء بالشيء يُذْكَرُ
أتأوي لقلبٍ مثل قلبك خافقٍ ... ودمع سفوح مثل دمعك[3] يقطرُ
وتحملُ أنفاسًا كَومْضِكَ نارها ... إذا رُفعت تبدو لمن يتنوَّرُ
يقرُّ لعيني[4] أن أُعاين من نأى ... لما أبصرته منكَ عيناي تبصر
وأنْ يتراءاك الخليط الذين هُمْ ... بقلبي وإن غابوا عن العين حُضَّرُ
كفى حَزَنًا أنا كأهل مُحَصَّبٍ ... بكلِّ طريق قد نفرنا ونَنفرُ
وأنَّ كِلَينا مِنْ مَشُوقٍ وشائقٍ ... بنار اغتراب في حَشاه تسعَّرُ
أَلَا ليت شعري والأمانيُّ ضلّة ... وقَولي أَلَا يا ليت شعري تحيُّرُ
هل النهرُ عقد للجزيرة مثل ما ... عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهرُ
وهل للصَّبا ذيلٌ عليه تجرُّه ... فَيَزْوَرُّ عنه موجُهُ المتكسّر
وتلك المغاني هل عليها طلاوة ... بما راقَ منها أو بما رقَّ تسحرُ
ملاعبُ أفراسِ الصَّبابةِ والصِّبا ... تروحُ إليها تارةً وتبكّرُ

---

(١) تني: تفتر وتضعف. لسان العرب (ونى).
(٢) أخذ عجز البيت من قول كثير عزة: [الطويل]
وقد زَعَمَتْ أني تَغَيَّرْتُ بعدها ... ومَنْ ذا الذي يا عَزُّ لا يَتَغَيَّرُ
الأغاني (جـ ٩ ص ٣٦).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩٤): «مثل قطرك».
(٤) في الطبعة نفسها: «بعيني».

وقبليَّ ذاكَ النهرِ كانت معاهدٌ بها العيش مطلولُ الخميلة أخضرُ
بحيثُ بياضُ الصبحِ أزرارُ جيبِه تطيبُ وأرْدَانُ النسيم تُعطر
ليالٍ بماء الورد ينضحُ ثوبُها وطيبُ هواء فيه مسكٌ وعنبر
وبالجبل الأدنى هناك خُطًا لنا إلى اللهو لا تكبو ولا تتعثر[١]
جَناب بأعلاه بَهارٌ ونرجسٌ فأبيضُ مُفْتَرُّ الثنايا وأصفرُ
ومَوردنا في قلب قلتٍ[٢] كمقلةٍ حِذارًا علينا من قَذى العين تستر
وكم قد هبطنا القاع نذعر وَحْشَه ويا حسنه مستقبلاً حين يذعرُ
نقودُ إليه طائعًا كلَّ جارح له منخرٌ رحبٌ وخصرٌ مُضَمَّرُ
إذا ما رميناهُ به عبثت به مدلّلةٌ[٣] الأطرافِ عنهنّ تكسّرُ
تضمُّ لأروى النِّيقِ حزَّانَ سهلها وقد فُقدت فيها مهاةٌ وجؤذر[٤]
كذاك إلى أن صاح بالقوم صائحٌ وأنذر بالبين المُشَتِّتِ منذر
وفَرَّقهم أيدي سَبًا وأصابهم على غِرَّةٍ منهم قَضاء مقدَّرِ

ونعود إلى حيث كُنّا من تبدّد شمل الجيرة، وطَيِّ بساط الجزيرة:

أَمَّا شاطبة فكانت من قصبتها شوساء[٥] الطرف، وببطحائها عروسًا في نهاية الظرف، فتخلّى عن الذروة مَنْ أخلاها، وقيل للكافر: شأنَكَ وأعلاها، فقبل أن تضع الحرب أوزارها، كَشَطَ[٦] عنها إزارها، فاستحلَّ الحرمة أو تأوّلها، وما انتظر أقصر المدة ولا أطولها، وأما تُدْمير فجاد عودها على الهَصْر[٧]، وأمكنت عَدُوها من القَصْر، فداجى الكفر الإيمان، وناجى الناقوس الأذان، وما وراءها من الأصقاع التي باض الكفرُ فيها وفرَّخ، وأنزل بها ما أنسى التاريخ ومَنْ أرَّخ، فوصفكم على الحادثة فيها أتى، وفي ضمان القدرة الانتصاف من

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٨٨): «لا نكبو ولا نتعثّر».
(٢) القَلْتُ: النقرة في الجبل يستنقع فيها الماء، والجمع قِلات. محيط المحيط (قلت).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٢٩٥): «مؤلّلة».
(٤) النِّيقُ: أرفع موضع في الجبل. والجؤذر: ولد البقرة الوحشية. محيط المحيط (نوق) و (جأذر).
(٥) الشوساء: الرافعة رأسها تكبّرًا.. لسان العرب (شوس).
(٦) كَشَط عنها إزارها: رفعه عنها. لسان العرب (كشط).
(٧) هَصْرُ العود: كَسْرُهُ. لسان العرب (هصر).

عدوّ عثا وعَتَا[١]، وإنّا لنرجوها كرة تفكُّ البلادَ من أسرِها، وتجبرها بعد كَسْرِها، وإن كانت الدولة العامرية منعت بالقراع ذِمارها[٢]، ورفعت على اليَفاع[٣] نارها، فهذه العمرية بتلك المنقبة أخلق، والعدوّ لها أهيب ومنها أفرق، وما يستوي نسب مع البقل نَبَت، وبالمستفيض من النقل ما ثَبَت، وآخر علت سماؤه على اللمس، ورَسَا ركنه في الإسلام رُسُوَّ قواعِده الخمس، وكان كما قال أبو حنيفة في خبر المسيح: جاءنا مثل الشمس، والأيام العمرية هي أمُّ الوقائع المحكية، ومن شاء عدّها من اليرموكية إلى الأركية، وهذه الأيام الزاهرة هي زبدة حلاوتها، وسجدة تلاوتها، وإمامتها العظمى أيَّدها اللّه تعالى، تُمْهِلُ الكافر مدة إملائه، ثم تشفي الإسلام من دائه، وتطهّر الأرض بنجس دمائه، بفضل اللّه تعالى، المرجو زيادة نعمه قبلها وآلائه. راجعت سيدي مؤدّيًا ما يجب أداؤه، ومقتديًا وما كلُّ أحدٍ يحسُنُ اقتداؤه، وإنما ناضلت ثُعَليًّا[٤]، وعهدي بالنضال قديم، وناظرت جدليًّا، وما عندي للمقال تقديم، وأطعْتُه في الجوابِ ولقريحتي يعلم اللّه تعالى نُكول، ورَوِيتي لولا حقّ المسألة بطير الحوادث المرسلة عَصْفُ مأكول، أتمّ اللّه تعالى عليه آلاءه، وحفظ مودّته وولاءه، ومتع بِخُلَّته الكريمة أخلاءه، بمنّه، والسلام؛ انتهت الرسالة.

ورأيت في رحلة ابن رشيد لَمّا ذكر أبا المطرِّف ما صورته: وأمّا الكتابة فقد كان حامل لوائها، كما قال بعض أصحابنا: ألان اللّه تعالى له الكلام، كما ألان الحديد لداود عليه السلام، وأخبرني شيخنا أبو بكر أنَّ شيخه أبا المطرف رأى رسول اللّه ﷺ في النوم، فأعطاه حزمة أقلام، وقال: استعن بهذه على كتابتك، أو كما قال ﷺ؛ انتهى.

وبعد كتبي لهذه الرسالة رأيتُ أن أذكر رسالة الحافظ ابن الأبار التي هذه جوابٌ عنها، وهي من غرض ما نحن فيه فلنقتبس نور البلاغة منها، وهي:

---

(١) عثا: أفسد. عتا: تجبَّر. لسان العرب (عثا) و (عتا).

(٢) القراع: القتال. الذِّمار، بكسر الذال: كل ما يجب أن يحميه المرء من عِرْض وغيره. لسان العرب (قرع) و (ذمر).

(٣) اليَفاع، بالفتح: التلُّ وما ارتفع من الأرض. محيط المحيط (يفع).

(٤) ثُعَليًّا: نسبة إلى بني ثُعَل، وهم قوم من العرب ضُرب بهم المثلُ في رمي السهام وإصابة الهدف. وهم الذين عناهم امرؤ القيس بقوله: [المديد]

رُبَّ رامٍ من بني ثُعَلٍ   مُتْلِجٍ كَفَّيهِ في قُتَرِهْ

ديوان امرىء القيس (ص ١٢٣) ولسان العرب (ثعل).

سيدي وإن وَجَمَ[1] لها النادي، وجمجم[2] بها المنادي، ذلك لصغرها عن كبره في المعارف الأعلام، وصدرها يوغر صدور الصحائف والأقلام، وأُعيذ رَيحانة قريش، أن تروح من حفيظتها في جيش، قد هابتها مَغاوير كلِّ حي، وأجابتها الغطاريف[3] من قُصَيّ، تدلف بين يديها كتيبة خالد، وتحلف لا قدحت نار الهيجاء بزَنْد صالد، أو تنصف من غامطها، وتقذف به وسط غُطامطها[4]، لا جرم أني من جريمتي حَذِر، وعَمّا وضحت به قيمتي للمجد معتذر، إلاَّ أن يصوح[5] من الروض نبته وجَنّاته، ويصرح بالقبول حلمه وأَناته، الحديث عن القديم شُجُون[6]، والشأن بتقاضي الغريم شؤون، فلا غرو أن أُطارحه إياه، وأُفاتحه الأمل في لُقْياه، ومن لي بمقالة مستقلّة، أو إخالة[7] غير مُخِلّة، أبت البلاغة إلاَّ عمادها، ومع ذلك فسأنبيء[8] عمادها، درجت اللِّدات والأتراب[9]، وخرجت الرومُ بنا إلى حيث الأعراب، أيام دفعنا لأعظم الأخطار، وفجعنا بالأوطان والأوطار، فإلامَ نداري بَرْحَ الألم، وحَتّام نساري النجم في الظلم؟ جمع أوصاب ما لهُ من انفضاض، ومضض اغتراب شذّ عن ابن مُضاض[10]، فلو سمع الأول بهذا الحادث، ما ضرب المثل بالحارث[11]، يا للَّه من جلاء ليس به يَدان، وثناء قلّما يُسْفر عن تَدان، وعد الجدّ العاثر لقاءه فأنجز، ورام الجَلْد الصابر انقضاءه فأعجز، هؤلاء الأخَوَان، مكثهم لا يمتع به أوان، وبينهم كَنْبَتِ الأرض ألوان، بين هائم بالسُّرَى، ونائم في الثرى، من كلِّ صنديد بطل، أو منطيق غير ذي خَطَإٍ ولا

(١) وجم النادي: عجز عن الكلام وسكت. لسان العرب (وجم).

(٢) جَمْجَمَ: لم يُبَيِّنْ كلامه. لسان العرب (جمجم).

(٣) الغطاريف: جمع غِطْريف وهو السيد الشريف. محيط المحيط (غطرف).

(٤) الغُطامط: الموج المرتفع. لسان العرب (غطمط).

(٥) يصوح: ييبس. لسان العرب (صوح).

(٦) أخذه من المثل: «الحديث ذو شجون» أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).

(٧) الإخالة: تفرّسُ الخير وتوسّمه. محيط المحيط (خول).

(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩٧): «فاستنبيءُ».

(٩) اللِّدات: جمع لِدَة وهو الذي وُلد معك. والأتراب: جمع تِـرْب وهو المساوي في السّنّ. لسان العرب (ولد) و (ترب).

(١٠) هو الحارث بن مضاض الجرهمي، وقد قال قصيدة بكى فيها تفرّق قومه، ولكن شتّان ما بينها وبين ما قيل في شأن بلنسية.

(١١) هو الحارث بن مضاض المشار إليه سابقًا.

خَطَل، قامت عليه النوادب، لمّا قعدت به[1] النوائب، وهجمت بيوتها لمَنْعاه الجماجم والذوائب، وأمّا الأوطان المحبَّبُ عهدها بحكم الشباب، المشبَّبُ فيها بمحاسن الأحباب، فقد ودّعنا معاهدها وَداعَ الأبد، وأخنى عليها الذي أخنى على لُبَد، أسلمها الإسلام، وانتظمها الانتثار والاصطلام، حين وقعت أنسُرُها الطائرة، وطلعت أنْحُسُها الغائرة، فغلب على الجَذَل الحزن، وذهب مع المسكن السَّكَن: [البسيط]

كزعزع الريحِ صَكَّ الدوحَ عاصفُها ... فلم يَدَعْ مِنْ جَنًى فيها ولا غُصُنِ

واهًا وواهًا يموتُ الصبر بينهما ... موت المحامد بين البخلِ والجبُنِ

أين بَلَنْسية ومَغَانيها، وأغاريد وُرْقِها[2] وأغانيها؟ أين حُلَى رُصافتها وجِسْرها، ومنزلا عطائها ونَصْرها؟ أين أفياؤها تندى غَضارة، وذكاؤها تبدو من خُضارة[3]؟ أين جداوِلُها الطفّاحة وخمائلها؟ أين جنائنها[4] النفّاحة وشمائلها؟ شذ[5] ما عطل من قلائد أزهارها نحرُها، وخلعت شعشعانيةَ ضحاها بحيرتُها وبحرُها، فأية حيلة لا حيلة في صرفها مع صرف الزمان، وهل كانت حتى بانت إلاّ رَوْنَق الحقّ وبشاشة الإيمان، ثم لم يلبث داء عقرها، أن دبَّ إلى جزيرة شقرها، فَأَمَرَّ[6] عَذبُها النَّمير، وذَوَى غُصنها النَّضِير، وخَرِسَت حمائم أدْواحِها، وركدت نواسم أرواحها[7]، ومع ذلك اقتحمت [من الأيام][8] دانية، فَنَزَحَتْ قطوفُها وهي دانية، ويا لشاطبة وبطحائها، من حَيفِ الأيام وإنحائها، ولَهْفاه[9] ثم لَهْفَاه على تُدْمِيرَ وتِلاعها، وجَيَّان وقِلاعها، وقرطبة ونواديها، وحمص وواديها، كلّها رُعي كَلَؤُها، ودهي بالتفريق والتمزيق مَلَؤُها، عض الحصار أكثرها، وطمس الكفر عينها وأثَرَها، وتلك إلبيرة بصَدَدِ البوار، وريّة في مثل حَلْقَة السِّوار، ولا مرية في ألمرية وخفضها على الجوار،

---

(١) كلمة «به» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩٧).

(٢) الوُرْقُ: جمع وَرْقاء وهي الحمامة. لسان العرب (ورق).

(٣) خُضارةُ: عَلَمٌ للبحر غير منصرف للعلمية والتأنيث. محيط المحيط (خضر).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٤٩٨): «جنائبها».

(٥) في الطبعة نفسها: «شدَّ».

(٦) أَمَرَّ: أصبح مُرًّا. لسان العرب (مرر).

(٧) الأرواح: جمع ريح.

(٨) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٩٢).

(٩) في طبعة دار صادر: «والهفاه».

إلى بنيات، لواحق بالأمهات، ونواطق بهاك لأولِ ناطق[1] بهات. ما هذا النفخ بالمعمور؟ أهو النفخ في الصُّور؟ أم النَّفْر عاريًا من الحجّ المبرور؟ وما لأندلس أُصيبت بأشرافها، ونُقِصت من أطرافها؟ قوّض عن صوامعها الأذان، وصَمَّتْ بالنواقيس فيها الآذان، أَجَنَتْ ما لم تَجْنِ الأصقاع؟ أعَقَّتِ الحقّ فحاق بها الإيقاع؟ كلّا بل دانت للسُّنَّة، وكانت من البدع في أحصن[2] جُنة: هذه المروانية مع اشتداد أركانها، وامتداد سُلْطانها، ألقت حُبَّ آل النبوّة في حبّات القلوب، وألوت ما ظفرت من خلعهِ ولا قلعهِ بمطلوب، إلى المرابطة بأقاصي الثغور، والمحافظة على معالي الأمور، والركون إلى الهضبة المنيعة، والروضة المريعة[3]، من مُعاداة الشيعة، وموالاة الشريعة، فليت شعري بم استوثق تمحيصها؟ ولم تعلق بعموم البلوى تخصيصها؟ اللهمّ غَفْرًا طالما ضرّ ضجر، ومن الأنباء ما فيه مُزْدَجَر، جرى بما لم نُقَدِّرْه المقدور، فما عسى أن ينفث به الصدور؟ وربّنا الحكيم العليم، فحسبنا التفويض له والتسليم، ويا عجبًا لبني الأصفر أنسيت مَرْجَ الصفَّر، ورميها يوم اليرموك بكل أغلب[4] غَضَنْفَر؟ دَعْ ذا فالعهد به بعيد، ومن اتَّعظ بغيره فهو سعيد، هلَّا تذكرتِ العامرية وغزواتها، وهابتِ العامرية وهَبَواتها[5]؟ أمّا الجزيرة بخيلها محدقة، وبأحاديث فتحها مصدقة، هذا الوقت المرتقب، والزمان الذي زجيت له الشهور والحِقَب، وهذه الإمامة أيّدها اللّه تعالى هي المنقذة من أسْرها، والمنفذة لسلطانها مراسمَ نَصْرها، فيتاح الأخذ بالثار[6]، ويُزاح عن الجنّة أهل النار، ويعلم الكافر لمن عُقْبى الدار. حاورتُ سيدي بمثار الفاجي الفاجع، وحاولت برء الجوى من جوابه بالعلاج الناجع، وبودِّي لو تقع في الأرجاء مُصَاقبة، فترفع من الأرْزاء[7] معاقبة، أليس لديه أسْوُ[8] المكلوم، وتدارك المظلوم؟ وبيديه أزِمَّة المنثور والمنظوم، خيال يختر في إقناع إياد، وصوغ ما لم يخطر على قلب زيد ولا بخاطر

---

(١) في الطبعة نفسها: «هاتف».
(٢) في طبعة عبد الحميد: «أحسن».
(٣) المريعة: الخصيبة. لسان العرب (ريع).
(٤) الأغلب: الغليظ الرقبة. لسان العرب (غلب).
(٥) الهبوات: جمع هَبْوة وهي الغبرة. محيط المحيط (هبا).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٩٣): «بالنار».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٩٣): «الإزراء».
(٨) أَسْوُ المكلوم: مداواة المجروح. لسان العرب (سوا) و (كلم).

زياد، بُسَّت[1] الجبال الطوامع لما بست وأبو فتحها[2]، وغيضت البحار الطوافح فمن يعبأ بالركايا وَمتْحها، أين أبو الفضل بن العميد من العماد الفاضل؟ وصَمْصَامة عمرو من قلمه الفاضل؟، هذا مِدْرَهُها الذي فعل الأفاعيل، وأحمدها[3] الذي سما على إبراهيم وإسماعيل[4]، وهما إماما الصناعة، وهماما البراعة واليراعة، بهما فخْرُ مَنْ نطق بالضاد، وبسببهما حسدت الحروف الصاد، لكن دفعهم بالراح، وأعرى مُدَرَّعَهم من المراح، وشرف دونهم ضعيف القصب على صُمِّ الرماح، أبقاه اللّه تعالى وبيانه صادق الأنواء، وزمانه كاذب الأسواء، ولا زال مكانه مجاوزًا ذُؤابة الجوزاء، وإحسانه مكافأً بأحسن الجزاء؛ والسلام.

وقد عَرَّفْتُ بابن الأبار في «أزهار الرياض» بما لا مزيد عليه، غير أنِّي رأيتُ هنا أن أذكر فصولاً مجموعة من كلامه في كتابه المسمَّى بـ «درر السمط، في خبر السبط».

قال رحمه اللّه تعالى[5]: رحْمَةُ اللّه وبركاته عليكم أهل البيت، فروع النبوّة والرسالة، ويَنَابيع السماحة والبسالة، صفوة آل أبي طالب، وسَرَاة[6] بني لؤي بن غالب، الذين جاءهم[7] الروح الأمين، وحَلَّاهم الكتابُ المبين، فقُلْ في قوم شَرَعُوا الدين القَيِّم، ومنعوا اليتيم أن يُقْهر والأيِّم، ما قُدَّ من أديم آدَمَ أطيبُ من أبيهم طينة، ولا أخذت الأرض أجمل من مساعيهم زينة، لولاهم ما عُبِدَ الرحمن، ولا عُهِد الإيمان، وعُقِد الأمان، ذؤابة غير أُشابة[8]، فضلهم ما شَانه نقصٌ ولا شابه، سراة محلّتهم سرّ المطلوب، وقرار[9] محبّتهم حَبّاتُ القلوب، أذهب اللّه عنهم الرجس، وشرّف بخلقهم الجنس، فإنْ تميزوا فبشريعتهم

---

(١) بُسَّتِ الجبالُ: فُتِّتَتْ، وفي القرآن الكريم: ﴿ وبُسَّتِ الجبالُ بَسًّا ﴾. سورة الواقعة ٥٦، الآية ٥. ولسان العرب (بسس).

(٢) هو أبو الفتح البستي.

(٣) هو أحمد بن عميرة المخزومي، يريد أنه تفوّق في النثر على هؤلاء الكُتّاب.

(٤) إبراهيم: هو أبو إسحٰق الصابي. وإسماعيل: هو الصاحب بن عباد.

(٥) درر السمط في خبر السبط (الورقة ١).

(٦) في درر السمط: «وسرارة».

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٠٠) «حباهم». وفي درر السمط: «حياهم».

(٨) الأشابة، بضم الهمزة: الأخلاط من الناس؛ يقال: ائتشب القوم إذا اختلطوا واجتمعوا. محيط المحيط (أشب).

(٩) في طبعة دار صادر: «وقرارة».

البيضاء، أو تحيّزوا فلعشيرتهم الحمراء، من كل يَعْسُوب الكتيبة[1]، منسوب لنجيب ونجيبة، تِجَارُه الكرم، وداره الحرم، نَمَتْهُ العَرّانين من هاشم أبي[2] النسب الأصرح الأوضح[3]، إلى نبعةٍ فَرْعُها في السماء ومغرسها سُرَّة الأبطح، أولئك السادة أحَبِّي وأُفَدِّي، والشهادة بحبهم أُوْفي وأؤدِّي، ومن يكتمها فإنه آثمٌ قلبه.

فصل[4] ـ ما كانت خديجة لتأتي بخِدَاج[5]، ولا الزهراء لِتَلِدَ إلاَّ أزاهرَ كالسِّراج، مثل النحلة لا تأكل إلاَّ طَيِّبًا، ولا تضع إلاَّ طَيِّبًا، خلدت بنتُ خُوَيْلد ليزكو عقبها من الحاشر العاقب[6]، ويَسْمُو مَرْقبها على النجم الثاقب، لم تَجُدْ[7] بمثلها المَهَارى، ولم يلد له غيرها من المهارى، آمَتْ[8] من بعولتها قبله، لتصل السعادة بحبلها حَبْله، مِلاَك العمل خواتمه، رُبَّ رَبَّات حِجَال، أنفذ من فحول رجال[9]: [الوافر]

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عَيْبٌ ولا التذكيرُ فَخْرٌ للهلالِ

هذه خديجة من أخيها حزام أحزم، ولشعار الصدق من شعارات القص ألزم، ركنت إلى الركن الشديد، وسُدِّدَت للهدى كما هديت للتسديد، يوم نبىء خاتم الأنبياء، وأُنبىء بالنور المنزل عليه والضياء.

فصل[10] ـ وكان قبيل المبعث بين يدي لَمِّ الشعث، يثابر على كلِّ حسنى وحسنة، ويجاور شهرًا من كل سَنَة، يتحرّى حِراء بالتعهد، ويزجي تلك المدة في التعبّد، وذلك

---

(١) اليعسوب: أمير النحل وذكرها والرئيس الكبير. محيط المحيط (عسب).
(٢) في طبعة دار صادر: «إلى النسب..».
(٣) كلمة «الأوضح» ساقطة من درر السمط.
(٤) النص في درر السمط (الورقة ١٥).
(٥) الخِداج، بكسر الخاء: النقصان. مختار الصحاح (خدج).
(٦) الحاشر العاقب: من أسماء رسول الله، ﷺ. محيط المحيط (حشر) و(عقب).
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٠١): «لم تَجُدْ».
(٨) آمَتْ: أصبحت أيّمًا، والأيّم هي التي فقدت زوجها. القاموس المحيط (أيم).
(٩) البيت للمتنبي وهو في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (ص ٢٩٥) من قصيدة رثاء والدة سيف الدولة، وقد مرَّ في الجزء الثالث.
(١٠) درر السمط (الورقة ١٨).

الشهر المقصور على التبرر[١]، المقدور فيه رفع التضرّر، شهر رمضان، المنزل[٢] فيه القرآن، فبيناه، لا ينام قلبه وإن نامت عيناه، جاءه المَلك مبشرًا بالنُّجح، وقد كان لا يرى رؤيا إلّا جاءت كفلَق الصبح، فغمره بالكَلاءة، وأمره بالقراءة، وكلّما تحبس له غَطَّه ثم أرسله، وإذا أراد اللّه بعبد خيرًا عسله[٣]: [الطويل]

تريدين إدراك[٤] المعالي رخيصةً ولا بدَّ دون الشُّهْد من إبَرِ النحلِ

كذلك حتى عاذ بالأرق من الفرق، وقد عَلِقَ فاتحة العَلَق، فلا يجري غيرها على لسانه، وكأنما كتبت كتابًا في جَنانه[٥].

فصل[٦] ـ ولَمَّا أصبح يؤمُّ الأهل، وتوسط الجبل يريد السهل، وقد قضى الأجل، وما نضا الوجل، نوجِيَ بما في الكتاب المسطور، ونودي كما نودي موسى من جانب الطُّور، فعرض له في طريقه، ما شغله عن فَرِيقه، فرفع رأسه متأمّلًا، فأبصر الملك في صورة رجل متمثّلًا، يُشَرِّفه بالنداء، ويعرفه بالاجتباء[٧]، وإنما عضد خبر الليلة بعيان اليوم، وأُرِيَ في اليقظة مصداق ما أُسمع في النوم، ليحق اللّه الحقّ بكلماته، وعلى ما ورد في الأثر، وسردَ رُوَاة السِّير، فذلك اليوم كان عيد فطرنا الآن وغير بِدْع ولا بعيد، أن يبدأ الوحي بعيد كما خُتم بعيد ﴿ اليومَ أَكْمَلْتُ لكمْ دِينَكُمْ ﴾[٨] فبهت عليه السلام لما سمع نداءه ورَاءَه[٩]، وثبت لا يتقدّم أمامه ولا يرجع وراءه: [الكامل]

وَقَفَ الهوى بي حيثُ أنتِ، فليس لي مُتَقَدَّمٌ عنه ولا متأخَّرُ[١٠]

(١) التبرّر: التعبد. لسان العرب (برر).

(٢) في درر السمط: «الذي أنزل».

(٣) البيت للمتنبي من قصيدة مديح وهو في ديوانه (ص ٥٦٠).

(٤) في العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب: «لُقْيانا».

(٥) الجَنان، بالفتح: القلب. لسان العرب (جنن).

(٦) درر السمط (الورقة ٢٠).

(٧) الاجتباء: الاصطفاء والاختيار. لسان العرب (جبا).

(٨) سورة المائدة ٥، الآية ٣.

(٩) الراء: هنا بمعنى الرؤية، مقلوب عن «رآه».

(١٠) البيت لأبي الشيص الخزاعي، وعجزه مقلوب، وصوابه هكذا:

متأخَّرٌ عنه ولا مُتَقَدَّمُ

الشعر والشعراء (ص ٧٢٢) والأغاني (جـ ١٦ ص ٤٣٥) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٤٠٢).

ثم جعل في الخوف والرجاء[1]، لا يقلِّبُ وجهه في السماء، إلَّا تعرّض له في تلك الصورة، وعرض عليه ما أعطاه اللَّه سبحانه من السورة، فيقف موقف التوكل، ويمسك حتى عن التأمّل[2]: [الطويل]

تتوق إليك النفسُ ثم أردُّها ... حياء، ومثلي بالحياء حقيقُ
أذود سوام[3] الطرف عنك، وما له ... إلى أحد إلَّا إليك طريق

فصل[4] ـ وفَطِنَتْ خديجة لاحتباسِهِ، فأمعنت في التماسه، تزوّجوا الودود الولود، ولفورها بل لفوزها بعثت في طلبه رُسُلَها، وانبعثت تأخذ عليه شعاب مكة وسُبُلَها: [البسيط]

إنَّ المُحِبَّ إذا لم يُسْتَزَرْ زارا

طال عليها الأمد، فطار إليها الكمد، والمحبّ حقيقه، من لا يفيق فيقه، بالنفس النفيسة سماحُه وجودُه، وفي وجود المحبوب الأشرف وُجُودُه[5]: [الطويل]

كأنَّ بلاد اللَّه ما لم تكن بها ... وإن كان فيها الخلق طُرًّا بلاقعُ
أُقَضِّي نهاري بالحديث وبالمُنى ... ويجمعني والهمَّ بالليل جامع
نهاري نهار الناس حتى إذا دجى ... ليَ الليلُ هَزَّتْني إليك المضاجع
لقد نبتت في القلب منك محبَّةٌ ... كما نبتت في الراحتين الأصابع

فصل[6] ـ وبعد لأْيٍ ما ورد عليها، وقعد مضيفًا إليها، فطفقت بحكم الإجلال تمسح أركانه، وتفسح مجال السؤال عَمَّا خلف له مكانه، فباح لها بالسِّرِّ المغيب، وقد لاح وسم الكرامة على الطيب المطيب، فعلمت أنه الصادق المصدوق، وحكمت بأنه السابق لا المسبوق، اتّقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللَّه، وما زالت حتى أزالت ما به من الغُمَّة، وقالت: إني لأرجو أن تكون نبيّ هذه الأمة: [البسيط]

---

(١) في درر السمط: «بين الرجاء والخوف».
(٢) البيتان لمجنون ليلى وهما في ديوانه (ص ٢٠٧).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٩٦): «سواد». وفي الديوان: «أردّ سواء».
(٤) درر السمط (الورقة ٢٤).
(٥) ينسب هذا الشعر إلى مجنون ليلى وهو في ديوانه (ص ١٨٥) كما ينسب إلى ابن الدمينة وهو في ديوانه (ص ٨٨).
(٦) درر السمط (الورقة ٢٦).

إني تَفَـرَّسْتُ فيـك الخيـرَ أعـرفُـه والـلّه يعـلم أنْ مـا خـانني البَـصَـرُ
أنـتَ النـبيُّ ومَـنْ يحـرم شـفـاعتـه يـوم الحسـاب فقـد أزرى بـه القَـدَرُ

لا ترهب فسوف تبهر، وسَيَبْدُو أمرُ اللّه تعالى ويظهر، أنتَ الذي سجعت به الكهـان، ونزلت له من صَوَامعها الرهبان، وسـارت بخبر كـرامته الـركبان، أنت الـذي ما حَمَلَتْ أخفَّ منه حامل، ودَرَّتْ ببركتهِ الشاةُ فإذا هي حافل[1]: [المنسرح]

وأنتَ لَمَّـا وُلِـدْتَ أَشْـرَقَتِ الـ أرضُ وضـاءتْ بـنـورك الأُفُقُ
فنحنُ في ذلـك الـضيـاء وفـي النـور وسُـبْـلَ الـرشـاد تختـرقُ

فصل[2] ـ وما لبثت أن غلقت أبوابها، وجمعت عليها أثوابهـا، وانطلقت إلى وَرَقَـةَ بن نوفل، تطلبه بتفسير ذلك المجمـل، وكان يـرجع إلى عقـل حَصِيف[3]، ويبحث عَمَّنْ يُبْعَثُ بالدين الحنيف، فاستبشر به ناموسًا[4]، وأخبر أنه الذي كان يـأتي موسى، فـازدادت إيمانًـا، وأقامت على ذلك زَمَانًا، ثم رأت أن خبـر الواحـد قد يلحقـه التفنيد، ودَرَتْ أنَّ المجتهـد لا يجوز له التقليد، طلبُ العلم فريضـة على كل مسلم، فـرجعت أدراجها في ارتيـاد الإقناع، وأُلقيَ في روعها إلقاء الخمار والقناع، فهناك وَضَحَ لها البرهان، وصَحَّ لها[5] أنَّ الآتي مَلَكٌ لا شيطان: [الطويل]

تـدلّى[6] عليـه الـروحُ مـن عنـد ربّـه يـنـزّلُ مـن جـوّ الـسـمـاء ويـرفـعُ
نـشـاورُه فيـمـا نُـريـدُ وقَـصْـدُنـا إذا مـا اشـتهـى أنّـا نـطيـعُ ونـسـمـعُ

فصل[7] ـ سبقت لها من اللّه تعالى الحسنى، فصنعت حَسَنًا وقـالت حُسْنًا، ومن يؤمن باللّه يهدِ قلبه، ما فتر الوحي بعدها، ولا مـطل الحَقُّ الحيُّ وعدهـا، وعد اللّه لا يخلف اللّه

---

(١) حافل: كثيرة اللبن. لسان العرب (حفل).
(٢) درر السمط (الورقة ٣٠).
(٣) العقل الحصيف: الجيد. لسان العرب (حصف).
(٤) الناموس: الوحي. لسان العرب (نمس).
(٥) في درر السمط: «وصَحَّ لديها».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٢٩٨): «تولّى».
(٧) درر السمط (الورقة ٣٢).

وعده، دانت لحب ذي الإسلام[1]، فحياها الملَكُ بالسَّلام، من الملك السَّلام، مَنْ كان للَّه كان اللَّه له، أغنت غَناء الأبطال، فغناها[2] لسان الحال: [البسيط]

هــل تـذكـرين فَـدَتْـكِ النفسُ مجلسَنـا ... يــوم التقـينـا فـلم أنــطقْ من الـحَصَــرِ
لا أرفَــعُ الــطرف حــولي من مــراقبــة ... بُقيًـا[3] عليَّ، وبعضُ الحزم في الحــذر

يُسِّرت لاحتمال الأذى والنصَب، فبشرت ببيت في الجنّة من قَصَب، هـل [4] أمنت إذ آمنت من الرعب، حتى غنيت عن الشبع بما في الشعب: [البسيط]

لا تَـحْسَـبِ المـجـدَ تـمـرًا أنـتَ آكـلُهُ ... لن تَبْلُغَ المجـدَ حتى تَلْعَـقَ الصَّـبِـرَا[5]

وَاهًا لها احتملت عضّ الحصار، وما أطاقت فَقْدَ النبي[6] المختار[7]: [الوافر]

يــطولُ الــيـومُ لا ألـقــاك فــيــه ... وشَـهْـرٌ[8] نلتـقي فـيــه قـصـيــرُ

والحبيبُ سَمْعُ المحبِّ وبصره، وله طول محياه وقصره: [الرمل]

أنــتَ كــلُّ الـنــاسِ عــنــدي فــإذا ... غِـبْـتَ عـن عـيــنـيَ لــم أَلْـقَ أحــدْ

مكثت للرياسة[9] مواسية وآسية، فثلثت في بحبوحـة الجنّة مـريم وآسية[10]، ثم ربعت البَتُولُ[11] فبرعت، نطقت بذلك الآثار وصدعت، خير نساء العالمين أربع.

---

(١) في الدرر: «دانت بالحق دين الإسلام».
(٢) في الدرر: «فغَنَّتْها لُسُنُ».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «بَقِّي».
(٤) في درر السمط: «ما أمنت».
(٥) البيت لبعض العرب وهو في الأمالي في لغة العرب (جـ ١ ص ١١٣).
(٦) كلمة «النبيّ» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٠٥).
(٧) البيت لجميل بثينة وهو في ديوانه (ص ١٠٨) وروايته في الديوان هي:
يــطولُ الـيــومُ إن شـحــطتْ نــواهــا ... وحَــوْلٌ، نــلـتـقــي فـيــه، قـصـيــرُ
(٨) في درر السمط: «وحول».
(٩) في المصدر نفسه: «للرسالة».
(١٠) ثلثت: كانت ثالثة. مريم: هي مريم بنت عمران، أمّ عيسى ابن مريم. آسية: هي بنت مزاحم زوجة فرعون.
(١١) ربعت: كانت رابعة. البتول هنا: فاطمة الزهراء رضي اللَّه عنها.

فصل[1] ـ إلى البَتُول سِير بالشرف التالد، وسيق الفخر بالأم الكريمة والوالد، حلت في الجيل الجليل، وتحلّت بالمجد الأثيل، ثم تولّت إلى الظل الظليل[2]: [الوافر]

وليس يَصِحُّ في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهارُ إلى دليلِ

وأبيها إن أم أبيها، لا تجد لها شبيهاً، نثرة النبيّ، وطلبة الوصي، وذات الشرف المستولي على الأمَدِ القَصِي، كلُّ ولدِ الرسول دَرَجَ في حياته، وحملت هي ما حملت من آياته، ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء، لا فرع للشجرة المباركة مِنْ سواها، فهل جَدْوَى أوفر من جَدْواها؟ واللّه أعلم حيث يجعل رسالاته، حُفَّت بالتطهير والتكريم، وزُفَّت إلى الكفؤ الكريم، فوردا صفو العارفة والمنّة، وولَدَا سيدَيْ شباب أهل الجنّة، عوضت من الأمتعة الفاخرة، بسيدي الدنيا[3] والآخرة، ما أثقل نحوها ظهرًا، ولا بذل غير درعه مَهْرًا، كان صِفْرَ اليدين من البيضاء والصفراء، وبحالة لا حيلة معها في إهداء الحلّة السِّيَراء[4]، فصاهره الشارع وخالَلَهُ. وقال في بعض[5] صعلوك لا مال له، نرفع درجات من نشاء.

فصل: [الطويل]

أتنتهبُ الأيامُ أفلاذَ أحمد ... وأفلاذُ مَنْ عاداهمُ تتعدّدُ
ويَضْحَى ويَظْمَا أحمد وبناته ... وبنْتُ زِيَادٍ وِرْدُها لا يُصَرَّدُ[6]
أفي دينه في يمنه في بلاده ... تضيقُ عليهم فُسْحَةٌ تتورَّدُ
وما الدين إلّا دين جَدِّهِمُ الذي ... به أصْدَرُوا في العالمين وأوردوا

انتهى ما سنح لي ذكره من «درر السمط» وهو كتاب غاية في بابه، ولم أُورد منه غير ما ذكرته؛ لأنَّ في الباقي ما تُشَمّ منه رائحة التشيّع، واللّه سبحانه يسامحه بمنّه وكرمه ولطفه[7].

---

(١) درر السمط (الورقة ٣٧).
(٢) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٣٥٧)، وتقدم في الجزء الخامس.
(٣) في درر السمط: «بسيد في الدنيا».
(٤) الحلة السيراء: كتاب لابن الأبار، وهو مطبوع في جزءين.
(٥) اسمه في درر السمط: «معاوية».
(٦) لا يُصَرَّدُ: لا يقلّل. لسان العرب (صرد).
(٧) كلمة «ولطفه» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٠٦).

رجع إلى ما كنا بصدده[1]، فنقول: قد ذكرنا في الباب الثاني رسالة[2] أبي المطرف ابن عميرة إلى أبي جعفر بن أمية، وهي مشتملة على التلهّف على الجزيرة الأندلسية، حين أخذ العدوّ بَلَنْسِيَة، وظهرت له مخايل الاستيلاء على ما بقي من الأندلس، فراجِعْها فيما سبق، وإن كان التناسب التام في ذكرها هنا فالمناسبة هناك حاصلة أيضًا، والله سبحانه الموفق.

وذكرنا هنالك أيضًا جملة غيرها من كلامه ـ رحمه الله تعالى! ـ تتعلّق بهذا المعنى وغيره، فلتراجع ثَمَّةَ.

ورأيت أن أُثبت هنا ما رأيته بخطّ الأديب الكاتب الحافظ المؤرخ أبي عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي نزيل تلمسان رحمه الله تعالى ما صورته[3]: حدّثني الفقيه العدل سيدي حسن بن القائد الزعيم الأفضل سيدي إبراهيم العراف أنه حضر مرة لإنزال الطِّلّسْم المعروف بفروج الرواح من العلية بالقصبة القديمة من غَرْنَاطة بسبب البناء والإصلاح، وأنه عاينه من سبعة معادن مكتوبًا فيه: [البسيط]

إيوانُ غرناطةَ الغَرَّاء معتبرٌ ... طِلَّسْمُه بولاةِ الحالِ دوّارُ
وفارسٌ رُوحُهُ ريحٌ تدبّرُهُ ... من الجماد، ولكنْ فيه أسرار
فسوف يبقى قليلاً ثم تطرقُهُ ... دَهْياءُ[4] يخربُ منها الملكُ والدار

وقد صدق قائل هذه الأبيات، فإنه طرقت الدهياء ذلك القطر الذي ليس له في الحسن مثال، ونَسَلَ الخطبُ إليه من كل حَدَب وانْثال[5]، وكل ذلك من اختلاف رؤسائه وكبرائه، ومُقَدَّميه وقضاته وأمرائه ووزرائه، فكلٌّ يرومُ الرياسة لنفسه، ويجرّ نارَها لقرصه، والنصارى ـ لعنهم الله تعالى! ـ يضربون بينهم بالخداع والمكر والكيد، ويضربون عَمْرًا منهم بزَيْد،

---

(١) في طبعة دار صادر: «بسبيله».
(٢) انظر رسالة ابن عميرة إلى أبي جعفر بن أمية مصدرة بعشرة أبيات دالية في الجزء الأول (ص ٢٨٩ وما بعدها).
(٣) الخبر والشعر في أزهار الرياض (جـ٣ ص ٣١٤).
(٤) الدهياء: الداهية الشديدة. لسان العرب (دها).
(٥) نسل الخطب إليه: سارع إليه. انثال: تواتر وتوارد. لسان العرب (نسل) و(ثول).

حتى تمكّنوا من أخذ البلاد، والاستيلاء على الطارف والتلاد[1]. قال الرئيس القاضي العلامة الكاتب الوزير أبو يحيىٰ ابن عاصم رحمه اللَّه تعالى في كتابه «جنة الرضا، في التسليم لما قدر اللَّه تعالى وقضى» ما صورة محلّ الحاجة منه[2]: ومَن استقرأ التواريخ المنصوصة، وأخبارَ الملوك المقصوصة، علم أنَّ النصارى ـ دمّرهم اللَّه تعالى! ـ لم يدركوا في المسلمين ثارًا، ولم يرحضوا[3] عن أنفسهم عارًا، ولم يخربوا من الجزيرة منازل وديارًا، ولم يستولوا عليها بلادًا جامعة وأمصارًا، إلَّا بعد تمكينهم لأسباب الخلاف، واجتهادهم في وقوع الافتراق بين المسلمين والاختلاف، وتضريبهم بالمكر والخديعة بين ملوك الجزيرة، وتحريشهم بالكيد والخِلابة بين حُماتها في الفتن المُبيرة[4]، ومهما كانت الكلمة مؤتلفة، والآراء لا مفترقة ولا مختلفة، والعلماء بمعاناة اتفاق القلوب إلى اللَّه مزدلفة، فالحرب إذ ذاك سِجَال[5]، وللَّه تعالى في إقامة الجهاد في سبيله رجال، وللممانعة في غرض المدافعة ميدان رَحْب ومَجَال، وروية وارتجال.

إلى أن قال: وتطاولت الأيام ما بين مُهادنة ومقاطعة، ومضاربة ومقارعة، ومنازلة ومنازعة، وموافقة وممانعة، ومحاربة وموادعة، ولا أمَل للطاغية إلَّا في التمرّس بالإسلام والمسلمين، وإعمال الحيلة على المؤمنين، وإضمار المكيدة للموحِّدِين، واستبطان الخديعة للمجاهدين، وهو يُظهر أنه ساعٍ للوطن في العاقبة الحسنى، وأنه مُنْطَوٍ لأهله على المقصد الأسنى، ومهتمٌّ بمراعاة أمورهم، وناظر بنظر المصلحة لخاصّتهم وجُمْهُورهم، وهو يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغائه[6]، ويُعْمل الحيلة في التماس هُلْك الوطن وابتغائه، فتبًّا لعقول تقبل مثل هذا المحال، وتصدق هذا الكذب بوَجْهٍ أو بحال، وليت المغرور الذي يقبل هذا لو فكّر في نفسه، وعرض هذا المسموع على مدركات حِسِّه، وراجع أوَّلِيَّاتِ عقله وتجريبات حَدْسِه، وقاس عدوّه الذي لا ترجى مودّته على أبناء جنسه، فأنا أُناشده اللَّه هل بات قطُّ بمصالح

---

(١) الطارف: المستحدث. التلاد: القديم. لسان العرب (طرف) و (تلد).

(٢) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٥٠ ـ ٥٥).

(٣) لم يرحضوا: لم يغسلوا العار عن أنفسهم. لسان العرب (رحض).

(٤) المبيرة: المهلكة. محيط المحيط (بور).

(٥) الحرب بينهم سجال: أي حينًا على هذا الفريق وحينًا على الآخر. لسان العرب (سجل).

(٦) «يُسِرُّ حَسْوًا في ارتغاء» مثل يضرب لمن يريك أنه يُعينك وهو يجرُّ النَّفْعَ إلى نفسه. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٤١٧).

النصارى وسلطانهم مهتمًّا، وأصبح من خطبٍ طَرَقَهم مغتمًّا، ونظر لهم نظر المفكر في العاقبة الحسنة، أو قصد لهم قصد المدبّر في المعيشة المستحسنة، أو خطر على قلبه أن يحفظ في سبيل القربة أربابهم وصُلْبانهم، أو عمر ضميره من تمكين عزّهم بما ترضاه أحبارهم ورُهْبَانهم، فإن لم يكن مِمَّنْ يدين بدينهم الخبيث، ولم يُشْرَبْ قلبُه حُبَّ التثليث، ويكون صادق اللهجة، منصفًا عند قيام الحجّة، فسيعترف أنّ ذلك لم يخطر له قطُّ على خاطر ولا مَرَّ له ببال، وأنّ عكس ذلك هو الذي كان به ذا اغتباط وبفعله ذا اهتبال[1]، وإن نسب لذلك المعنى فهو عليه أثقل من الجبال، وأشدّ على قلبه من وقع النبال، هذا وعقده التوحيد، وصلاته التحميد، وملّته الغرّاء، وشريعته البيضاء، ودينه الحنيف القويم، ونبيُّه الرؤوف الرحيم، وكتابه القرآن الحكيم، ومطلوبه بالهداية الصراط المستقيم، فكيف نعتقد هذه المريبة الكبرى، والمنقبة الشهرى، لمن عقده التثليث، ودينه المليث، ومعبوده الصليب، و تسميته التصليب، وملّته المنسوخة، وقضيته المفسوخة، وختانه التغطيس، وغافر ذنبه القِسِّيس، وربّه عيسى المسيح، ورأيه[2] ليس البَيِّن ولا الصحيح، وأنّ ذلك الربّ قد ضُرِّجَ بالدماء، وسقى الخلَّ عوض الماء، وأنَّ اليهود قتلته مصلوبًا، وأدركته مطلوبًا، وقهرته مغلوبًا، وأنه جزع من الموت وخاف، إلى سوى ذلك مِمّا يناسب هذه الأقاويل السِّخاف، فكيف يرجى من هؤلاء الكفرة، من الخير مقدار الذَّرَّة، أو يُطمع منهم في جلب المنفعةِ أو دفع المضرّة؟ اللهمّ احْفَظْ علينا العقل والدين، واسلك بنا سبيل المهتدين.

ثم قال بعد كلام ما صورته: كانت خزانة هذه الدار النَّصْريَّة مشتملةً على كل نفيسة من الياقوت، ويتيمة من الجوهر، وفريدة من الزمرّد، وثمينة من الفيروزج، وعلى كل واقٍ من الدروع، وحامٍ من العُدَّة، وماضٍ من الأسلحة، وفاخر من الآلة، ونادر من الأمتعة، فمن عقود فذّة، وسلوك جمّة، وأقراط تفضل على قُرْطَيْ مارِيَةَ نفاسةً فائقة وحسنًا رائقًا، ومن سيوف شواذ في الإبداع غرائب في الإعجاب، منسوبات الصفائح في الطبع، خالصات الحلي من التبر، ومن دروع مقدّرة السَّرْد، متلاحمة النسج، واقية للناس في يوم الحرب،

---

(١) الاهتبال: الخدعة والاحتيال. لسان العرب (هبل).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٠٩): «ونظره».

مشهورة النسبة إلى داود نبي اللَّه(١)، ومن جَـوَاشِنَ(٢) سابغـة اللبسة، ذهبيـة الحلية، هنـدية الضـرب، ديباجيـة الثوب، ومن بيضات عسجدية الطُّرق، جـوهريـة التنضيـد، زبـرجـديـة التقسيم، ياقوتية المركز، ومن مناطق لُجَيْنية الصَّوْغ، عريضة الشكل، مزجّجة الصفح، ومن دَرَق(٣) لمطية، مصمتة المسام، لينـة المجسة، معـروفة المنعـة، صافيـة الأديم، ومن قِسِيٍّ ناصعة الصبغة، هلالية الخِلْقة، منعطفة الجـوانب، زارية بـالحواجب، إلى آلات فـاخرة من أتوار(٤) نحاسيّة، ومنابر بلوريّة، وطيافير(٥) دمشقية، وسبحات زجاجية، وصحاف صينية، وأكواب عراقية، وأقداح طباشيرية، وسوى ذلك مِمّا لا يحيط به الوصف، ولا يستوفيه العَدّ، وكلُّ ذلك التهبه شُواط الفتنة، والتقمه تيّار الخلاف والفرقة، فرزئت الدار منه بما يتعذّر إتيان الـدهور بمثله، وتقصـر ديار الملوك المؤثلة النعمـة عن بعضه فضـلاً عن كلّه؛ انتهى كلامـه رحمه اللَّه تعالى.

رجع ـ ولَمَّا أُخذت قواعد الأندلس مثل قرطبة وإشبيلية وطُلَيطلة ومُرْسِية وغيرهـا انحاز أهلُ الإسلام إلى غَرْناطة وألمريـة ومالقـة ونحوهـا، وضاق الملك بعـد اتّساعـه، وصار تنين العدوّ يلتقم كلّ وقت بلدًا أو حصنًـا، ويهصر من دَوْحِ تلك البـلاد غُصْنًا، وملك هـذا النزرَ اليسيرَ الباقيَ من الجزيرة ملوكُ بني الأحمر، فلم يزالوا مع العدوّ في تعب وممارسة كما ذكره ابن عاصم قريبًا، وربما أثخنوا في الكفار كما عُلم في أخبارهم، وانتصـروا بملوك فاس بني مَرِين، في بعض الأحايين.

ولَمَّا قصد ملوك الإفرنج السَّبعة في المائة الثامنة غَرْنَاطة ليأخذوهـا اتّفق أهلُها على أن يبعثوا لصاحِب المغرب من بني مريـن يستنجدونه، وعيّنوا للرسالة الشيخَ أبـا إسحٰق بن أبي العاصي والشيخ أبا عبد اللَّه الطنجالي والشيخ ابن الزيات البلشي نفع اللَّه تعالى بهم! ثم

---

(١) ينسب إلى داود النبي، عليه السلام، عمل الدروع، إذ كان قد صنع دِرْعَيْن مَسْرُودَتَين وردتا في قول أبي ذؤيب الهُذلي: [الكامل]

وعـليهـمـا مَسْـرُودتـانِ قـضـاهـمـا ... داودُ، أو صَـنَـعُ الـسَّـوابـغِ تُـبَّـعُ

لسان العرب ومحيط المحيط (قضي).

(٢) الجواشن: جمع جوشن وهو الدرع. لسان العرب (جوشن).

(٣) الدرق: جمع درقة وهي الترس. لسان العرب (درق).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٠٤): «أوتار». والأتوار: جمع تَوْرٌ وهو إناء يُشرب فيه. لسان العرب (تور).

(٥) الطيافير: أطباق مستديرة عميقة قاعها مستوٍ وحافاتها مرتفعة.

بعد سفرهم نازل الإفرنج غَرْنَاطة بخمسة وثلاثين ألف فارس ونحو مائة ألف راجل مقاتل، ولم يوافقهم سلطانُ المغرب، فقضى اللّٰه تعالى ببركة المشايخ الثلاثة أنْ كُسِرَ النصارى في الساعة التي كسر خواطِرَهُم فيها صاحبُ المغرب، وظهرت في ذلك كرامة لسيدي أبي عبد اللّٰه الطنجالي رحمه اللّٰه تعالى!.

ثم إنَّ بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء الكفّار على الجل كانوا في جهاد وجِلاد في غالب أوقاتهم، ولم يزل ذلك شأنهم حتى أدرك دولَتَهُم الهرمُ الذي يلحق الدول، فلمّا كان زمانُ السلطان أبي الحسن علي بن سعد النَّصْرِي الغالبي الأحمري، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد اللّٰه محمد بن سعد المدعوّ بالزَّغَل قد بويع بمالقة، بعد أن جاء به بعض[1] القوّاد من عند النصارى وبقي بمالقة برهة من الزمان، ثم ذهب إلى أخيه، وبقي مَنْ بمالقة من القوّاد والرؤساء فَوْضَى، وآل الحالُ إلى أن قامت مالقة بدعوة السلطان أبي الحسن، وانقضت الفتنة، واستقلَّ السلطانُ أبو الحسن بملك ما بقي بيد المسلمين من بلاد الأندلس، وجاهد المشركين، وافتتح عدّة أماكن، ولاحت له بارقة الكرة على العدوّ الكافر، وخافوه، وطلبوا هُدْنته، وكثرت جيوشه، فأجمع على عرضها كلِّها بين يديه، وأعدَّ لذلك مجلسًا أُقيم له بناؤه خارج الحمراء قلعة غَرْناطة، وكان ابتداء هذا العرض يوم الثلاثاء تاسع عشر الحجّة عام اثنين وثمانين وثمانمائة، ولم تزل الجنود تُعرض عليه كل يوم إلى الثاني والعشرين من محرم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض، وكان معظم المتنزهين والمتفرجين بالسبيكة وما قارب ذلك، فبعث اللّٰه تعالى سَيلاً عَرِمًا على وادي حَدَرُّة بحجارة وماء غزير كأفواه القِرب، عقابًا من اللّٰه سبحانه وتأديبًا لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر، واحتمل الوادي ما على حافتيه من المدينة من حوانيت ودور ومعاصر وفنادق وأسواق وقناطر وحدائق، وبلغ تيّار السيل إلى رحبة الجامع الأعظم، ولم يسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد، وكان بين رؤساء الإفرنج في ذلك الوقت اختلاف، فبعضهم استقلَّ بملك قرطبة، وبعض بإشبيلية، وبعض بشَرِيش، وعلى ذلك كان صاحب غَرْنَاطة السلطان أبو الحسن[2] قد استرسل في اللذات، وركن إلى الراحات، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورَفَضَ الجهاد والنظر في الملك، ليقضي اللّٰه

(١) كلمة «بعض» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١١).

(٢) هو علي بن سعد النصري.

تعالى ما شاء، وكثرت المظالم والمغارم[1]، فأنكر الخاصّة والعامّة ذلك منه، وكان أيضًا قد قتل كبار القوّاد وهو يظنّ أنّ النصارى لا يغزون بَعْدُ البلاد، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد، واتّفق أنّ صاحب قَشْتَالة تغلّب على بلادها بعد حروب، وانقاد له رؤساء الشّرك المخالفون، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد، وذلك أنه كان للسلطان أبي الحسن ولدان محمد ويوسف، وهما من بنت عمّه السلطانِ أبي عبد اللّه الأيسر، وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لها منه بعض ذريّة، وكانت حَظِيّة عنده مقدّمة في كل قضيّة، فخيف أن يقدم أولاد الرومية، على أولاد بنت عمّه السنية، وحَدَثَ بين خدّام الدولة التنافرُ والتعصّب، لميل بعضهم إلى أولاد الحرة، وبعض إلى أولاد الرومية، وكان النصارى أيام الفتنة بينهم هادنوا السلطان لأمدٍ حَدَّدوه[2] وضربوه، ولَمَّا تمّ أمدُ الصلح وافق وقته هذا الشأن بين أولياء الدولة بسبب الأولاد، وتشكى الناسُ مع ذلك بالوزراء[3] والعمال لسوء ما عاملوا به الناسَ من الحيف والجور، فلم يُصْغ إليهم، وكثر الخلاف واشتدّ الخطب، وطلب الناسُ تأخير الوزير، وتفاقم الأمر، وصحّ عند النصارى - لعنهم اللّه تعالى! - ضَعْفُ الدولة واختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامة[4] فأخذوها غدرًا آخر أيام الصلح على يد صاحب قادس سنة سبع وثمانين وثمانمائة، وغدوا للقلعة، وتحصّنوا بها، ثم شرعوا في أخذ البلد، فملأوا الطرق خَيلًا ورجالًا، وبذلوا السيف فيمن ظهر من المسلمين، ونهبوا الحريم، والناسُ في غفلة نيام من غير استعداد كالسكارى، فقُتل من قضى اللّه تعالى بتمام أجله، وهرب البعض، وترك أولادهُ وحريمه، واحتوى العدوّ على البلد بما فيه، وخرج العامة والخاصة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه، وإذا بالسَّرَعان[5] من أهل غَرْنَاطة وصلوا، فرجع العدو إلى البلد، فحاصرهم المسلمون، وشدّدوا في ذلك، ثم تكاثر المسلمون خيلًا ورجالًا من جميع بلاد الأندلس، ونازلوا الحامة، وطمعوا في منع الماء

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٢): «المغارم والمظالم».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٠٧): «حدّوه».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٢): «بالوزير».

(٤) الحامة: بالإسبانية Alhama، وهي مدينة من مدن غرناطة تقع غربيَّ غرناطة إلى الجنوب من مدينة لوشة.

(٥) سَرَعانُ الناس: أوائلهم المُسْتَبِقُونَ إلى الأمر. محيط المحيط (سرع).

عن العـدوّ، وتبيّن للعامـة أن الجند لم ينصحـوا، فأطلقـوا ألسنتهم بأقبـح الكـلام فيهم وفي الوزير، وبينما هم كذلك وإذا[1] بالنذير جاء أنَّ النصارى أقبلوا في جمع[2] عظيم لإغاثة مَنْ بالحامة من النصارى، فأقلع جندُ المسلمين من الحـامة، وقصـدوا ملاقـاة الواردين من بـلاد العـدوّ، ولَمّا علم بهم العـدوّ وَلّـوا الأدبـار من غيـر مـلاقـاة محتجّين بقلّتهم، وكـان رئيسهم صاحب قرطبة.

ثم إنَّ صاحب إشبيلية جمع جندًا عظيمًا من جيش النصارى الفرسـان والرجّـالة، وأتى لنصرة مَنْ في الحامة من النصارى، وعند ما صحَّ هذا عنـد العسكر اجتمعـوا، وأشاعـوا عند النـاس أنهم خرجـوا بغير زاد ولا استعـداد، والصلاحُ الـرجوعُ إلى غَـرْناطـة ليستعـدّ النـاس ويـأخذوا مـا يحتاج إليـه الحصار من العـدة والعدد، فعنـدمـا أقلع المسلمـون عنهـا دخلتهـا النصارى الواردون، وتشاوروا في إخلائها أو سكناها، واتّفقوا على الإقامة بهـا، وحصّنوهـا، وجعلوا فيهـا جميع مـا يحتاج إليـه، وانصرف صـاحب إشبيلية، وتـرك أجنـاده، وفـرّق فيهم الأموال، ثم عاد المسلمـون لحصارهـا، وضيّقوا عليهـا، وطمعوا فيهـا من جهة مـوضع كـان النصـارى في غفلة عنه، ودخـل على النصـارى جملة وافـرة من المسلمين، وخـاب السعـد بـذلـك بـأن شَعَـرَ بهم النصـارى، فعـادوا عليهم، وتـردّى بعضُهم من أعلى الجبـل، وقُتِـل أكثرهم، وكانوا من أهل بَسْطة ووادي آش، فانقطع أملُ الناس من الحامة، ووقع الإياس من ردّها.

وفي جمـادى الأولى من السنة تـواترت الأخبـارُ أنَّ صـاحب قَشْتَـالـة أتى في جنـود لا تُحْصَى ولا تحصر، فاجتمع الناسُ بغَرْنَاطة، وتكلّموا في ذلك، وإذا به قد قصد لوشة ونازلها قصـدًا أن يضيفها إلى الحـامـة، وجـاء بـالعـدة والعـدد، وأغـارت على النصـارى جملة من المسلمين، فقتلوا مَنْ لحقوه، وأخذوا جملة من المدافع الكبار، ثم جاءت جماعة أخرى من أهل غَرْنَاطة، ونـاوشوا النصـارى، فألجـأوهم إلى الخروج عن الخيـام، وأخذوهـا وغيرهـا، فهرب النصارى، وتـركوا طعـامًا كثيـرًا وآلة ثقيلة، وذلـك في السابـع والعشرين من جمـادى الأولى من السنة المذكورة.

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٣): «إذا».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٠٨): «جميع».

وفي هذا اليوم بعينه هرب الأميران أبو عبد اللَّه محمد وأبو الحجاج يوسف خوفًا من أبيهما أن يفتك بهما بإشارة حَظِيته الرومية ثُرَيَّا، واستقرّا بوادي آش، وقامت بدعوتهما، ثم بايعتهما تلك البلاد ألمريةُ وبَسْطة وغَرْناطة، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة.

وفي صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة اجتمع جميعُ رؤساء النصارى، وقصدوا قرى مالقة وبلش، في نحو الثمانية آلاف، وفيهم صاحب إشبيلية وصاحب شَريش وصاحب إستجة وصاحب أنتقيرة وغيرهم، فلم يتمكّنوا من أخذ حصن، ونشبوا في أوعار[1] ومضايق وخنادق وجبال، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة، وصار المسلمون ينالون منهم في كل محلّ، حتى بلغوا مالقة، ففرّ كبيرهم، ومَنْ بقي أُسر أو قُتل، وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرّك لنواحي المنكّب، وبقي أخوه أبو عبد اللَّه بمالقة ومعه بعض الجند، وقُتل من النصارى في هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف، وأُسر نحو ألفين من جملتها خالُ السلطان وصاحب إشبيلية وصاحب شريش وصاحب أنتقيرة وغيرهم، وهم نحو الثلاثين من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفِضّة، وبعقب ذلك سافر أهل مالقة لبلاد النصارى، فكسروا هنالك كسرة شنيعة قُتل فيها أكثر قواد غرب الأندلس.

ولَمَّا استقرَّ السلطان أبو عبد اللَّه ابن السلطان أبي الحسن بغَرْنَاطة وطاعت له البلاد غير مالقة والغربية تحرّك السلطان أبو الحسن على المنكّب ونواحيها، وأتى ابنُه السلطانُ أبو عبد اللَّه في جند غَرْنَاطة والجهة الشرقية، والتقوا في موضع يُعْرف بالدب، فَكُسِرَ السلطانُ أبو عبد اللَّه.

ولَمَّا سمع السلطان أبو عبد اللَّه صاحب غرناطة بأنَّ عمَّه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غَرْنَاطة والشرقية، وذلك في ربيع الأول من السنة، إلى أن بلغ نواحي لشانة، وقتل وأسر وغنم، فتجمّعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعه كبير قَبْرة، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار، فانكسر الجند، وأُسر من الناس كثير وقُتل آخرون، وكان في جملة من أُسر السلطان أبو عبد اللَّه، ولم يُعْرف، ثم علم به صاحب لشانة، وأراد صاحب قَبْرة أن يأخذه منه، فهرب به ليلاً، وبلغه إلى صاحب قَشْتَالة،

---

(١) الأوعار: جمع وعر وهو ضدُّ السهل. محيط المحيط (وعر).

ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد، وتفاءل به، فقلما توجّه لجهة أو بعث سَرِيَّةً إلاّ وبعثه فيها.

ولَمَّا أُسر السلطان أبو عبد اللَّه اجتمع كبراء غرناطة وأعيان الأندلس، وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن، وذهبوا به لغرناطة، وبايعوه، مع أنه كان أصابه مثل الصَّرْع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر، ولَمَّا تعذّر أمره قدّم أخاه أبا عبد اللَّه، وخلع له نفسه، ونزل بالمنكَّب، فأقام بها إلى أن مات، واستقلّ أخوه أبو عبد اللَّه المعروف بالزَّغَلِ بالمُلْك بعده.

وأَمَّا أبو عبد اللَّه ابن السلطان أبي الحسن فهو في أسْرِ العدوّ.

وفي شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو في قوة إلى نواحي مالقة، بعد أن كان في السنة قبلها استولى على حصون، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون، وقصد ذكوان، فهدَّ أسوارها، وكان بها جملة من أهل الغربية ورُنْدَة، ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة، فأظفر اللَّه تعالى بهم أهلَ ذكوان، فقتلوهم جميعًا، ثم طلبوا الأمان وخرجوا.

ثم انتقل في جمادى الأولى إلى رُنْدَة وحاصرها، وكان أهلها خرجوا إلى نصرة ذكوان وسواها، فحاصر رُنْدة وهَدَّ أسوارَها، وخرج أهلها على الأمان، وطاعت له جميع تلك البلاد، ولم يبق بغربي مالقة إلاَّ مَنْ دخل في طاعة الكافر وتحت ذِمّته، وضيق بمالقة، وفرّق حصصه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة، وعاد إلى بلاده.

وفي تاسع عشر شعبان من العام سافر صاحبُ غرناطة لتحصين بعض البلاد، وبينما هو كذلك إذا بالخبر جاءه أنَّ محلّة العدو خارجة لذلك الحصن.

وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنودُ النصارى على الحصن، كانوا قد سَرَوا إليه ليلاً، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين، فقاتلهم المسلمون من غير تعبية[1]، فاختلَّ نظامُ المسلمين، ووصل النصارى إلى خباء السلطان، ثم التحم القتال واشتدّ، وقَوَّى اللَّه تعالى المسلمين فهزموا النصارى شرَّ هزيمة، وقُتِل منهم خلائق، وقصر المسلمون خوفًا من محلّة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه، ولَمَّا رجعت إليهم الفُلُول[2] رجعوا القَهْقَرى، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات، وجعلوا ذلك كلَّه

(١) أي من غير تعبئة، وتعبئة الجيش: إعداده وتنظيمه. لسان العرب (عبأ).

(٢) الفلول: جمع فلّ وهو المنهزم. لسان العرب (فلل).

بـالحصن، ولم يحدث شيء بعـد إلى رمضان، فتـوجّه الكـافـر لحصن قنبيـل ونـازلـه وهـدَّ أسواره، ولَمَّا رأى المسلمون أنَّ الحصن قد دُخِلَ طلبوا الأمان، وخرجـوا بأمـوالهم وأولادهم مؤمَّنين، وفَرَّ الناس من تلك المواضع من البراجلة هاربين، واستولى العدوّ على عدّة حصون مثـل مشاقـر وحصن اللوز[1]، وضيّق العدوّ بجميـع بلاد المسلمين، ولم يتـوجّه لنـاحيـة إلاَّ استأصلها، ولا قَصَدَ جهة إلاَّ أطاعته وحصَّلها، ثم إنَّ العدوّ دَبَّـر الحيلة مع مـا هو عليـه من القـوة، فبعث إلى السلطان أبي عبد اللّه الـذي تحت أسره وكسـاه ووعـده بكـلّ مـا يتمنّـاه، وصـرفـه لشـرقي بَسْـطة، وأعـطاه المـال والـرجـال، ووعـده أنَّ مَنْ دخـل تحت حكمـه من المسلمين وبـايعه من أهـل البـلاد فـإنـه في الهـدنـة والصلح والعهـد والميثـاق الـواقـع بين السـلاطين[2]، وخرج لبلش فـأطاعـه أهلها، ودخلت بلش في طـاعته، ونـودي بـالصلح في الأسواق، وصرخت به في تلك البلاد الشيـاطين، وسرى هـذا الأمر حتى بلغ أرض البيـازين من غَرْنَاطة، وكانـوا من التعصّب وحميّة الجـاهلية والجهـل بالمقـام الذي لا يخفى، وتبعهم بعضُ المفسـدين المحبين تفريقَ[3] كلمـة المسلمين، ومِمَّن مال إلى الصلح عـامة غـرناطـة لضعف الـدولة، ووسـوس للناس شيـاطين الفتنة وسمـاسرتهـا بتقبيحٍ وتحسينٍ، إلى أن قـام رَبَضُ البيازين بدعـوة السلطان الذي كـان مأسـورًا عند المشـركين، ووقعت فتنة عـظيمة في غـرناطـة نفسها بين المسلمين لمـا أراده اللّه تعـالى من استيـلاء العـدوّ على تلك الأقـطار، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة، وعظم الخطْب، وكانت الثـورة ثالث شهـر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة، ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام، وبلغ الخبر أنَّ السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على لوشة ودخلها على وجه رجاء الصلح بينـه وبين عمِّه الزَّغَل صاحب قلعة غرناطة، بأنَّ العمّ يكون له الملك، وابن أخيه تحت إيالته بلوشة أو بـأي المواضع أحبّ، ويكـونون يـدًا واحدة على عـدوّ الدين، وبينمـا هم كذلـك[4] إذا بصاحب قَشْتَالة قد خرج بجند عظيم ومحلّة قوية وعَدَد وعُدَد، ونازل لوشة حيث السلطان أبو عبد اللّه الذي كان أسيرًا، وضيق عليها[5] الحصـار، وقد كـان دخلها جمـاعة من أهـل البيازين بنيّـة

---

(١) حصن اللوز: بالإسبانية Iznalloz، وهو من مدن غرناطة.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٦): «السلطانين» وهو ما لا يوافق السجعة.

(٣) في طبعة دار صادر (ص ٥١٧): «في تفريق».

(٤) في الطبعة نفسها: «هم في هذا..».

(٥) في الطبعة نفسها: «بها الحصار».

الجهاد ولمعاضدة وليهم، وخاف أهلُ غرناطة وسواها من أن يكون ذلك حيلة، فلم يأت لنصرتهم غير البيازين، واشتدَّ عليهم الحصار، وكثرت الأقاويل، وصرحت الألسن بأنَّ ذلك باتّفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، ودخل على أهل لوشة في رَبَضهم، وخافوا من الاستئصال، فطلبوا الأمان في أموالهم وأنفسهم وأهليهم، فوفى لهم صاحبُ قشتالة بذلك، وأخذ البلد في السادس والعشرين لجمادى الأولى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة. وهي ـ أعني لوشة ـ كانت بلد سلف الوزير لسان الدين ابن الخطيب، كما ذكرناه مستوفى في غير هذا الموضع. وهاجر أهلُ لوشة إلى غرناطة، وبقي السلطان أبو عبد اللّه الذي كان مأسورًا مع النصراني بلوشة، فصرّح عند ذلك أهلُ غرناطة بأنه ما جاء للوشة إلَّا ليُدْخِلَ إليها العدوُّ الكافر، ويجعلها فداء له، وقيل: إنه سَرَّحَ له حينئذ ابنه إذ كان مرهونًا في الفداء، وكثر القيل والقال بينهم وبين أهل البيازين في ذلك، وظهر بذلك ما كان كامنًا في القلوب، ثم رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور.

وفي نصف جمادى الثانية خرج إلى إلبيرة فهدَّ بعض الأسوار، وتوعّد الناس، فأعطاه أهلُه الحصنَ على الأمان، فخرجوا وقدموا على غرناطة، ثم فعل بحصن التلين[1] مثل ذلك، وقاتلوا قتالاً شديدًا، ولَمَّا ضاقوا ذَرْعًا أعطوه بالمقادة على الأمان، فخرجوا إلى غرناطة وأطاع أهل قلنبيرة من غير قتال، فخرجوا إلى غرناطة ثم وصل العدو إلى مُنْتَ فريد، فرمى عليهم بالمحرقات وغيرها، وأحرق دار العدة، فطلبوا الأمان، وخرجوا إلى غرناطة، وانتقل للصخرة فأخذها، وحصَّن هذه الحصون كلَّها، وشحنها بالرجال والعدّة، ورتّب فيها الخيل لمحاصرة غَرْنَاطة، ثم عاد الكافر لبلاده، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأنَّ من دخل في حكمه وتحت أمره فهو في الأمان التام، وأشاعوا أنَّ ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية، فخرج لبلش وأطاعته، ثم بعث لمن والاه من البلاد أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق، وأنَّ مَنْ دخل تحت أمره أمن من حركة النصارى عليه، وأنَّ معه وثائق بخطوط السلاطين، فلم يقبل الناس ذلك، إلَّا القليل منهم مثل أهل البيازين، فلهجوا بهذا الصلح، وأقاموا على صحته الدلائل، وتكلّموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح، مع تمكّن الفتنة والعداوة في القلوب، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج لتلك الجهات اتّبعه الناس، وقاموا بدعوته من غير التباس، فأتى على حين غفلة، ولم يكن يظنّ إتيانه

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٨): «المتلين».

بنفسه، فأتى البيازين ودخلها ونادى في أسواقها بالصلح التام الصحيح، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة، وقالوا: ما بعهد لوشة من قِدَم، ودَخَل رَبَضَ البيازين بالرجال[1] سادس شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة، وعمّه بالحمراء، وانتقل للقلعة، واشتدّ أمر الفتنة، ثم إنَّ صاحب قشتالة أَمَدَّ صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها، واشتدَّ أمره بذلك، وعظمت أسباب الفتنة، وفشا في الناس القتل والنهب، ولم يزل الأمر كذلك إلى السابع والعشرين من محرم سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، فعزم أهل غرناطة مع سلطانهم على الدخول على البيازين عَنْوَة، وتكلّم أهل العلم[2] فيمن انتصر بالنصارى ووجوب مدافعته، ومن أطاعه عصى اللّٰه ورسوله، ودخلوا على أهل البيازين دخول فَشَل، ثم إنَّ صاحب غرناطة بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة ووادي آش وألمرية والمنكَّب وبلّش ومالقة وجميع الأقطار، وتجمّعوا بغرناطة، وتعاهدوا، وتحالفوا على أنَّ يدهم واحدة على أعداء الدين، ونصرة من قصده العدوّ من المسلمين، وخاف صاحب البيازين فبعث لصاحب قشتالة في ذلك فخرج بمحلّته قاصدًا نواحي بلش، وكان صاحب البيازين بعث وزيره إلى ناحية مالقة وإلى حصن المنشأة يذكر ويخوف، ومعه النسخة من عقود الصلح، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته، ودخلوا في إيالته خوفًا من صاحب قشتالة وصَولته، وطمعًا في الصلح وصحّته، ثم اجتمع كبار مالقة مع أهل بلّش وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة، والسبب الحامل لهم على ذلك، فلم يرجع أهل بلّش عمّا عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهود والمواثيق.

وخرج صاحب قشتالة قاصدًا بلّش مالقة، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة وحاصرها، ولمّا صحّ عند صاحب غرناطة ذلك اجتمع بالناس، فأشاروا بالمسير لإغاثة بلّش للعهد الذي عقدوه، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرّات[3]، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة، ووصل بلّش، فوجد العدوّ نازلاً عليها برًّا وبحرًا، فنزل بجبل هنالك، وكثر لغط[4] الناس، وحملوا على النصارى

---

(١) كلمة «بالرجال» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥١٨).

(٢) يريد أنهم استفتوا العلماء فأفتوهم بتحريم التعاون مع النصارى ووجوب محاربتهم كما هو في الشرع.

(٣) البُشُرّات: بالإسبانية Alpujarras، وهي المنطقة الجبلية الواقعة جنوب سفوح جبل شلير، على مقربة من البحر المتوسط. الإحاطة (جـ ٣ ص ١٦٨، حاشية ٢).

(٤) اللغط: الجلبة والضجة. لسان العرب (لغط).

من غير تعبية، وحين حَرَكَتِهم للحملة بلغ الزَّغَل أنّ غرناطة بايعت صاحب البيازين، فالتقوا مع النصارى فشلين وقبل الالتحام انهزموا، وتبدّدت جموعهم مع كون النصارى خائفين وَجِلين منهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله، فرجعوا منهزمين، وقد شاع عند الخواصّ ثورة غرناطة على السلطان، فقصدوا وادي آش، وعاد النصارى إلى بلّش بعد أن كانوا رتّبوا جيوشهم للقاء السلطان وأهل غرناطة، فلمّا عادوا إلى بلّش دخلوا عَنْوَةً ربضها، وضيّقوا بها، وكانت ثورة غرناطة خامس جمادى الأولى.

ولَمّا رأى أهل بلّش تكالبَ العدوّ عليهم وإدبار جيوش المسلمين عنهم طلبوا الأمان، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة، وأطاعت النصارى جميعُ البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش.

ثم انتقل العدوّ إلى حصار مالقة، وكان أهل مالقة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين، وأتى إليها النصارى بالمِيرة[1]، ولَمّا نزل بلش بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين وقائد شريش الذي كان مأسورًا عندهم، فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة لقيام جبل فاره وهو حصن مالقة بدعوة صاحب وادي آش، وارتحل صاحب قشتالة إلى مالقة، ونازلها برًّا وبحرًا، وقاتله أهلها قتالاً عظيمًا بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورَجْلهم[2]، وطال الحصار حتى أداروا على مالقة من البرّ الخنادق والسور والأجفان من البحر، ومنع الداخل إليها، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار، وحاربوا حربًا شديدًا، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض، وضيّقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعدوتين وهم طامعون في الإغاثة فلم يأت إليهم أحد، وأثر فيهم الجوع، وفشا في أهل نجدتهم القتل، ولم يُظهروا مع ذلك هَلَعًا ولا ضعفًا، إلى أن ضعف حالهم، ويئسوا من ناصر أو مغيث من البرّ والبحر، فتكلّموا مع النصارى في الأمان كما وقع مِمَّنْ سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم وما وقع من الجفاء، وقيل لهم لما تحقّق العدوّ التجاءهم: تؤمَّنونَ من الموت، وتعطون مفتاح القلعة والحصن، والسلطان ما يعاملكم إلاّ بالخير إذا فعلتم، وهذا خداع من الكفّار، فلمّا تمكّن العدو منهم أخذهم أسْرَى، وذلك أواخر شعبان سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، ولم يبق في تلك النواحي موضع إلاّ وملكه النصارى.

(١) المِيْرَةُ: الزاد والطعام. محيط المحيط (مير).

(٢) الرَّجل: جمع راجل وهو المقاتل وليس لديه فرس. لسان العرب (رجل).

وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ الكافر إلى الشرقية وبلّش التي كانت في الصلح، فاستولى عليها، واحتجّوا بالصلح، فلم يلتفتْ إليهم، وأخذ تلك البلاد كلَّها صلحًا، ثم رجع لبلاده.

وفي عام أربعة وتسعين وثمانمائة خرج لبعض حصون بسطة فأخذها بعد حرب، واستولى على ما هنالك من الحصون، ثم نازل بسطة، وكان صاحبُ وادي آش لَمَّا تعيّن العدوّ بمحلّته بعث جميعَ جنده وقوّاده، وحَشَدَ أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش وألمرية والمُنَكّب والبشرات، فلمّا نزل العدوّ بسطة أتت الحشودُ المذكورة، ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة حتى تقهقر العدوّ عن قرب بسطة، ولم يقدر على منع الداخل والخارج، وبقي الأمر كذلك رجبًا وشعبانَ ورمضانَ ومحلاتُ المسلمين نازلةٌ خارج البلد، ثم إنَّ العدوّ شدّ الحصار وجَدَّ في القتال، وقرّب المدافع والآلات من الأسوار حتى منع الداخل والخارج بعضَ منعٍ، واشتدّ الحال في ذي[1] القعدة وذي الحجة وقلَّ الطَّعام، وفي آخر ذي[2] الحجة اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلاَّ القليل، وكانوا طامعين في إقلاع العدوّ عند دخول فصل الشتاء، وإذا بالعدوّ بنى وعزم على الإقامة، وقويَ اليأس على المسلمين، فتكلّموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن، وظنَّ العدوّ أنَّ الطعام لم يبق منه شيء، وأنَّ ذلك هو الملجىء لهم للكلام، وفهموا عنه ذلك، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام بالأسواق، وأبدوا للعدوّ القوّةَ مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلّم معهم وهو عَين ليرى ما عليه البلد وما صفة الناس، وعند تحقّقهم بقاء الطعام والقوّة أعطوهم الأمان على أنفسهم دون مَنْ أعانهم من أهل وادي آش والمنكّب وألمرية والبشرّات، فإن دفعوا هؤلاء عنهم صحّ لهم الأمان، وإلاَّ فلا، فلم يوافق أهلُ البلد على هذا، وطال الكلام، وخاف أهل البلد من كشف الستر، فاتّفقوا على أن تكون العقدة على بسطة ووادي آش وألمرية والمنكّب والبشرّات، ففعلوا ذلك، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدوّ على شروط شرطوها وأمور أظهروا بعضها للناس وبعضها مكتوم، وقبض الخواصّ مالاً، وحصلت لهم فوائد.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣١٨): «في القعدة والحجة».
(٢) كلمة «ذي» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

وفي يوم الجمعة عاشر محرم سنة خمس وتسعين وثمانمائة دخل النصارى قلعة بسطة، وملكوها، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام، وقالوا لهم: مَنْ بقي بموضعه فهو آمن، ومن انصرف خرج بماله وسلاحه سالمًا، ثم أخرج العدوّ المسلمين من البلد، وأسكنهم بالرَّبَض خوفَ الثورة، ثم ارتحل العدوّ للمرية، وأطاعته جميعُ تلك البلاد، ونزل صاحبُ وادي آش للمرية ليلقاه بها، فلقيه وأخذ الحصون والقلاع والبروج، وبايع له السلطان أبو عبد اللّه على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحبّ، فوعده بذلك، وانصرف معه إلى وادي آش، ومكّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور، وأطاعته جميعُ البلاد، ولم يبق غير غرناطة وقراها، وجميعُ ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طَرْفة عين، وجعل في كلّ قلعة قائدًا نصرانيًا، وكان قائد من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم الكفار مالاً من عند صاحب قشتالة إكرامًا منه لهم بزعمهم فَتًّا لعقولهم، وما ذلك منه إلاّ توفير لرجاله وعُدَّته ودفع بالتي هي أحسن، ثم أخذ برج الملاحة وغيره، وبناه وحصّنه، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة، وأظهر الصحبة والصلح مع صاحب وادي آش، وأباح الكلام بالسوء في حقّ صاحب غرناطة مكرًا منه وخداعًا ودهاء، ثم بعث في السنة نفسها رسلاً لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكّنه عمّه من القلاع والحصون، ويكون تحت إيالته، ويعطيه مالاً جزيلاً على ذلك، وأي بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه، قالوا: وأطمعه صاحبُ غرناطة في ذلك، فخرج العدو في محلّاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة، وهذا في سرّ بين السلطانين، فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة وأخبرهم بما طلب منه العدو، وأنَّ عمّه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه، وليس لنا إلاّ إحدى خصلتين: الدخول في طاعته[1]، أو القتال، فاتّفق الرأي على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح، وخرج بمحلّته. ثم إنَّ صاحب قشتالة نزل على مرج غرناطة، وطلب من أهل غرناطة الدخول في طاعته، وإلاّ أفسد عليهم زروعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع، وذلك في رجب سنة خمس وتسعين وثمانمائة، ووقعت بين المسلمين والعدو حروب كثيرة، ثم ارتحل العدو عند الإياس[2] منهم ذلك

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٣): «الدخول تحته».

(٢) الإياس: اليأس. محيط المحيط (أيس).

الوقت، وهدم بعض حصون، وأصلح برج همدان والملاحة، وشحنهما بما ينبغي، ثم رجع إلى بلاده، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة بمن معه إلى بعض الحصون التي في يد النصارى ففتحها عَنْوة، وقتل مَنْ فيها من النصارى، وأسكنها المسلمين، ورجع لغرناطة، ثم أعمل الرحلة إلى البشرّات في رجب المذكور، فأخذ بعض القرى، وهرب مَنْ بها من النصارى والمرتدين أصحابهم، ثم أتى حصن أندرش فتمكّن منه، وأطاعته البشرّات، وقامت دعوة الإسلام بها، وخرجوا عن ذمة النصارى، وهنالك عمّه أبو عبد الله محمد بن سعد بجملة وافرة، فقصدهم في شعبان من غَرْنَاطة، واستقرّ عمّه بألمرية، وأطاعت صاحبَ غرناطة جميعُ البشرّات إلى بَرْجَة، ثم تحرّكَ عمّه مع النصارى إلى أندرش فأخذها لرمضان، وخرج صاحب غرناطة لقرية هَمْدان[1]، وكان برجها العظيم مشحونًا بالرجال والعدّة والطعام، فحاصره أهل غرناطة، ونصبوا عليه أنواعًا من الحرب، ومات فيه خلق كثير منهم، ونقبوا البرج الأول والثاني والثالث، وألجأوهم للبرج الكبير، وهو القلعة، فنقبوها ثم أسروا من كان بها، وهم ثمانون ومائة، واحتووا على ما هنالك من عدة وآلات حرب.

وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المنكَّب، فلمّا وصل حصن شلوبانية[2] نزله، وأخذه عَنْوة بعد حصاره، وامتنعت القلعة، وجاءتهم الأمداد من مالقة بحرًا فلم تقدر على شيء، وضيّقوا بالقلعة، فوصلهم الخبر أنّ صاحب قشتالة خرج بمحلّته لمرج غرناطة، فارتحل صاحب غرناطة عن قلعة شلوبانية، وجاء غرناطة ثالث شوال، وبعد وصولهم غرناطة وصل العدو إلى المرج ومعه المرتدون والمدجنون، وبعد ثمانية أيام ارتحل العدو لبلاده بعد هدم برج الملاحة وإخلائه وبرج آخر، وتوجّه إلى وادي آش، فأخرج المسلمين منها، ولم يبق بها مسلم في المدينة ولا الرَّبَض، وهدم قلعه أندرش، وحاف[3] على البلاد، ولمّا رأى ذلك السلطان الزَّغَل وهو أبو عبد الله محمد بن سعد عمّ سلطان غرناطة همَّ بالجواز لبرّ العدوة فجَاز لِوَهْرَان، ثم لتلمسان، واستقرّ بها، وبها نسله إلى الآن يُعرفون ببني سلطان

---

(١) هَمْدان: بالإسبانية Alhendin، سميت بذلك نسبة إلى قبيلة همدان لأنها نزلت بها. نصوص عن الأندلس (ص ٩٠) والمغرب (جـ ٢ ص ١٢٧).

(٢) شلوبانية: بالإسبانية Salobreña، وتكتب أيضًا: شلوبينية. وقد اختلفوا في رسم اسمها وفي ما إذا كانت مدينة أم بلدة أم قرية أم حصنًا. نصوص عن الأندلس (ص ٩٠) ونخبة الدهر (ص ٣٤٣) والروض المعطار (ص ٣٤٣) والمغرب (جـ ٢ ص ١٢٩) وتقويم البلدان (ص ١٧٧).

(٣) حاف على البلاد: ظلم أهلها. لسان العرب (حيف).

الأنـدلس، ودخل صـاحبُ قشتالـة لأقاصي مملكتـه بسبب فتنة بينـه وبين الإفرنـج ثم تحرّك صاحب غرناطة على برشانة وحاصرها وأخذها، وأسر من كان بها من النصارى وأرادت فتيانه القيام على النصارى، فجاء صاحب وادي آش ففتك فيهم.

وفي ذي القعـدة من السنة رفـع صاحب غـرناطـة من السنـد وخلت تلك الأوطـان من الأنس.

وفي ثاني عشري جمادى الآخرة سنة ست وتسعين وثمانمائة خرج العدوّ بمحـلّاته إلى مـرج غرنـاطة، وأفسـد الزرع، ودوّخ الأرض، وهـدم القرى، وأمـر ببنـاء مـوضـع بـالسـور والحفير، وأحكم بناءه، وكانوا يـذكرون أنـه عزم على الانصـراف فإذا بـه صَرَفَ الهمّـة إلى الحصـار والإقامـة، وصار يُضَيق على غَـرْناطـة كل يـوم، ودام القتـال سبعـة أشهـر، واشتـدّ الحصـار بالمسلمين، غيـر أنَّ النصارى على بعـد، والطريق بين غـرناطـة والبشـرّات متّصلة بالمرافق والطعام من ناحية جبـل شلير، إلى أن تمكّن فصـل الشتاء، وكلب البـرد[1]، ونزل الثلج، فانسدّ باب المرافق، وانقطع[2] الجالب، وقلّ الطعام، واشتدّ الغلاء، وعظم البلاء، واستـولى العدوّ على أكثـر الأمـاكن خـارج البلد، ومنـع المسلمين من الحـرث والسبب[3]، وضاق الحال، وبانَ الاختلال، وعـظم الخطب، وذلـك أول عام سبعـة وتسعين وثمانمـائة، وطمع العدوّ في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب، ففرّ ناس كثيرون من الجوع إلى البشرّات، ثم اشتدّ الأمر في شهر صفر من السنـة، وقلّ الـطعام، وتفـاقم[4] الخطب، فاجتمع ناس مع مَنْ يشار إليه من أهل العلم، وقالوا: انظروا في أنفسكم وتكلّموا مع سلطانكم، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة، وتكلّموا في هذا المعنى، وأنّ العدوّ يزداد مَدَده كلَّ يوم، ونحن لا مَدَدَ لنا، وكان ظَنُّنا أنه يُقلع عنّا في فصل الشتاء، فخاب الـظنّ، وبنى وأسّس، وأقام، وقـرب منّا، فـانـظروا لأنفسكم وأولادكم، فـاتّفق الـرأي على ارتكاب أخفّ الضررين، وشاع أنَّ الكلام وقـع بين النصارى ورؤسـاء الأجناد قبـل ذلك في إسـلام البلد خوفًـا على نفوسهم وعلى النـاس، ثم عدّدوا مـطالب وشروطًـا أرادوها، وزادوا

---

(١) كلب البرد والشتاء: اشتدّ. لسان العرب (كلب).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٥): «وقطع».

(٣) السبب: طلب الرزق والعمل لتحصيله. لسان العرب (سبب).

(٤) في طبعة دار صادر: «ثم تفاقم».

أشياء على ما كان في صلح وادي آش: منها أنَّ صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا مكنوه[1] من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلّم الناس في ذلك، وذكروا أنَّ رؤساء أجناد المسلمين لَمَّا خرجوا للكلام في ذلك امْتَنَّ عليهم النصارى بمال جزيل وذخائر، ثم عُقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

وفي ثاني ربيع الأول من السنة ـ أعني سنة سبع وتسعين وثمانمائة ـ استولى النصارى على الحمراء ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنًا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين منها؛ تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورِباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت ولا يحكم على[2] أحد منهم إلَّا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدًا، وأن لا يولى على المسلمين نصراني أو يهودي مِمَّنْ يتولّى عليهم من قِبَل سلطانهم قبل، وأن يفتكَّ جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومَنْ أراد الجواز للعُدْوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان لا يلزمهم إلَّا الكراء، ثم بعد تلك المدة يُعْطُون عُشْرَ ما لهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يُقْهر مَنْ أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن من تنصّر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قتل نصرانيًا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع[3] على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من

---

(١) في الطبعة نفسها: «أمكنوه».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٦): «ولا يحكم أحد عليهم إلَّا . .».

(٣) يتطلّع: ينظر. لسان العرب (طلع).

مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مُصَلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم[1] يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحبُ رومة ويضع خطّ يده، وأمثال هذا مِمّا تركنا ذكره.

وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة جعلوا قائدًا بالحمراء وحكامًا ومُقَدَّمين بالبلد، ولمّا علم ذلك أهل البشرّات دخلوا في هذا الصلح، وشملهم حكمه على هذه الشروط، ثم أمر العدوّ الكافر ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء وتحصينها، وتجديد بناء قصورها وإصلاح سورها، وصار الطاغية يختلف إلى الحمراء نهارًا ويبيت بمحلّته ليلاً إلى أن اطمأنّ من خوف الغدر، فدخل المدينة، وتطوّف بها، وأحاط خبرًا بما يرومه، ثم أمر سلطان المسلمين أن ينتقل لسكنى البشرّات وأنها تكون له في سكناه[2] بأندرش، فانصرف إليها وأخرج الأجناد منها، ثم احتال في ارتحاله لبرّ العُدْوة، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور، فكتب لصاحب ألمرية أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد اللّه من السفر حيث أراد من برّ العدوة، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه ويقف معه وفاء بما عهد له، فانصرف في الحين بنصّ هذا الكتاب، وركب البحر، ونزل بمليلة، واستوطن فاسًا، وكان قَبْلُ طَلَبَ الجواز لناحية مراكش، فلم يسعف بذلك وحين جوازه لبرّ العدوة لقي شدة وغلاء وبلاء[3].

ثم إن النصارى نكثوا العهد، ونقضوا الشروط عروة عروة[4]، إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا: إنَّ القسيسين كَتَبُوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرًا للكفر، ففعلوا ذلك، وتكلّم الناس ولا جهد لهم ولا قوة، ثم تعدوا إلى أمر آخر، وهو أن يقولوا للرجل المسلم: إن جدك كان نصرانيًا فأسلم فترجع نصرانيًا، ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم، وهذا كان السبب للتنصّر، قالوا: لأن الحكم خرج

---

(١) في طبعة دار صادر: «منه».
(٢) في الطبعة نفسها (ص ٥٢٧): «وسكناه».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٧): «ووباء».
(٤) نقضوا الشروط عروة عروة: أي نقضوها شرطًا شرطًا.

من السلطان أن مَنْ قام على الحاكم فليس إلاَّ الموت إلاَّ أن يتنصّر فينجو من الموت، وبالجملة فإنهم تنصّروا عن آخرهم بادية وحاضرة، وامتنع قوم من التنصّر، واعتزلوا النصارى[1]، فلم ينفعهم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسبيًا، إلاَّ ما كان من جبل بللنقة فإنّ اللَّه تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة مات فيها صاحب قرطبة، وأُخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خفّ من أموالهم[2] دون الذخائر، ثم بعد هذا كله كان مَنْ أظهر التنصّر من المسلمين يعبد اللَّه في خفية ويصلّي، فشدّد عليهم النصارى في البحث، حتى إنهم أحرقوا منهم كثيرًا بسبب ذلك، ومنعوهم من حمل السكين الصغيرة فضلاً عن غيرها من الحديد، وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارًا ولم يقيض اللَّه لهم ناصرًا، إلى أن كان إخراج النصارى إياهم بهذا العصر القريب أعوام سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أُخر بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلّط عليهم الأعراب ومَنْ لا يخشى اللَّه تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليلُ من هذه المَعَرّة[3]، وأما الذين خرجوا بنواحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمروا قراها الخالية وبلادها، وكذلك بتطاوين[4] وسَلاَ وفيجة[5] الجزائر. ولمّا استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرًا جرارًا وسكنوا سَلاَ كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصّنوا قلعة سَلاَ، وبَنَوا بها القصور والحمامات والدور[6] وهم الآن بهذا الحال، ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، واللَّه وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

والسلطان المذكور الذي أُخذت على يده غَرْنَاطة هو أبو عبد اللَّه محمد الذي انقرضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس، ومحيت رسومها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمد الغني باللَّه واسطة

(١) في طبعة دار صادر: «الناس».

(٢) في الطبعة نفسها: «من مالهم».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٢٧): «المضرة».

(٤) في الطبعة نفسها: «بتطاون». وتطاوين هي المعروفة الآن باسم «تطوان».

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٨): «ومتيجة».

(٦) في الطبعة نفسها: «والدور والحمامات».

عقدهم، ومشيد مبانيهم الأنيقة، وسلطان دولتهم على الحقيقة، وهو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس، العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس، وهو سلطان لسان الدين ابن الخطيب، وقد ذكرنا جملة من أخباره في غير هذا الموضع، ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن السلطان إسماعيل قاتل سلطان النصارى دون بطرة بمرج غرناطة ابن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نَصْر بن قيس، الأنصاري، الخزرجي، رحمهم اللّٰه تعالى جميعًا!.

وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بمليلة إلى مدينة فاس بأهله وأولاده معتذرًا عَمّا أسلفه، متلهّفًا على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه اللّٰه تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودفن بإزاء المصلّى خارج باب الشريعة، وخلّف ولدين اسم أحدهما يوسف والآخر أحمد، وعَقِبُ هذا السلطان إلى الآن بفاس[1]، وعهدي بذريته بفاس [إلى الآن][2] سنة ١٠٣٧[3]، يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويُعَدُّون من جملة الشحاذين، ولا حول ولا قوة إلّا باللّٰه العلي العظيم.

وقد رأيت أن أذكر هنا الرسالة[4] التي كتب بها المخلوع المذكور إلى سلطان فاس الشيخ الوطاسي، وهي من إنشاء الكاتب المجيد البارع البليغ أبي عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه العربي العُقَيلي رحمه اللّٰه تعالى وسماها بـ «الروض العاطر الأنفاس، في التوسل إلى المولى الإمام سلطان فاس» ونصُّها بعد الافتتاح: [البسيط]

مولى الملوكِ ملوكِ العُرْبِ والعَجَمِ ... رَعْيًا لما مثْله يُرْعَى من الذِّمَمِ
بكَ استجرْنا ونعم الجار أنت لمن ... جار الزمانُ عليه جَورَ منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبًا ... وأفظعُ الخطب[5] ما يأتي على الرغم
حكمٌ من اللّٰه حتمٌ لا مردَّ له ... وهل مردٌّ لحكم منه منحتم
وهي الليالي وقاكَ اللّٰه صَولَتها ... تصولُ حتى على الآساد في الأجَمِ[6]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٢٩): «بفاس إلى الآن».
(٢) ما بين قوسين، ساقط من طبعة دار صادر.
(٣) في طبعة دار صادر: «١٠٢٧».
(٤) رسالة المخلوع إلى سلطان فاس في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٧٢ ـ ١٠٢).
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٢٨): «الخط».
(٦) الأجَمُ: جمع أجمة وهي عرين الأسد. لسان العرب (أجم).

كُـنَّـا مـلوكًـا لـنـا فـي أرضـنـا دولٌ نـمنـا بـهـا تحـت أفـنـان مـن الـنـعـم
فَـأَيْـقَـظَتْـنـا سـهـامٌ لـلردى صبـبٌ[1] يُـرمـى بـأفجـع حَـتْفٍ مَـنْ بهـنّ رُمِي
فـلا تَـنَمْ تـحت ظـلّ الـملك نـومتنـا وأيّ مـلك بـظلّ الـمـلك لـم يـنـم
يبكي عليـه الـذي قـد كـان يـعـرفـه بـأدمُـع مُـزِجَـتْ أمـواهُـهـا بِـدَمِ
كـذلـك الـدَّهْـرُ لم يـبـرحْ كما زعمـوا يُـشِمُّ بـوّ الـصَّـغـار الأنْـفَ ذا الـشّمم
وصِـلْ أواصِرَ قـد كـانت لنـا اشتبكت فـالملكُ بـين مـلوكِ الأرض كـالـرحم
وابسطْ لنـا الخُلقَ الـمـرجـوَّ بـاسـطُهُ واعـطفْ ولا تـنحـرفْ واعـذرْ ولا تـلم
لا تـأخـذونـا بـأقـوال الـوشـاة ولـم نُـذنب ولـو كثـرت أقـوال ذي الـوخم[2]
فـمـا أطـقـنـا دفـاعًـا لـلقـضـاء، ولا أرادَتَ أنـفُـسُـنَـا مـا حـلَّ مـن نِـقـمِ
ولا ركـوبًـا بـإزعـاج لـسـابـحـةٍ فـي زاخـر بـأكـفِّ الـمـوج مـلتـطم
والـمـرء مـا لم يُـعِنْـه الـلّه أضيـعُ من طـفـلٍ تشكّى بـفقـدِ الأُمّ فـي الـيتـم
وكـلّ مـا كـان غـيـر الـلّه يـحـرسـه فـإنّ مـحـروسَـهُ لحـمٌ عـلى وَضَـم[3]
كنْ كـالسمـوأل إذ سـار الهُـمـامُ لـه في جَحْـفَـلٍ كسـوادِ الليـل مـرتكمٍ[4]
فـلم يـبـح أدْرُعَ الـكـنـدي وهـو يـرى أنّ ابنـه البـرّ قـد أشفى عـلى الـرجم
أو كـالـمعـلّى مـع الضُّـلّيـل الأروع إذ أجـارهُ مـن أعـاريب ومـن عَـجَـمِ
وصـارَ يـشكـرُه شـكـرًا يكـافـىء مـا أسـدى إلـيـه مـن الآلاء والـنّـعَـم
ولا تـعـاتبْ عـلى أشيـاء قـد قُـدرت وخُطَّ مسـطورهـا في الـلوحِ بـالـقـلم
وَعَـدِّ عَـمّـا مـضى إذ لا ارتـجـاع لـه وعُـدَّ أحـرارنـا فـي جـمـلة الـخـدَم

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٣٠): «صُيُبٌ».

(٢) في الطبعة نفسها: «لا تأخذنّا بأقوال..». وقد أخذ معنى البيت من قول كعب بن زهير في لاميته التي مدح بها الرسول الكريم: [البسيط]

لا تـأخـذنّي بـأقـوال الـوشـاةِ ولم أذْنِبْ ولـو كَثُـرَتْ فـيَّ الأقـاويـلُ

الشعر والشعراء (ص ٩٠).

(٣) الوَضَمُ، بالفتح: خشبة الجزّار يقطع عليها اللحم. محيط المحيط (وضم).

(٤) أخذه من قول الأعشى: [البسيط]

كُنْ كـالسمـوألِ إذ طـافَ الهُـمـامُ بـه في جَحْـفَـلٍ كهـزيـعِ الـليـلِ جـرّارِ

الشعر والشعراء (ص ١٨٣).

إيــهٍ حنــانيــكَ يــا ابنَ الأكــرمين على «ضيفٍ أَلَمَّ بفــاسٍ غَيــرَ مُحْتَشِــمِ»[1]
فــأنــت أنت، ولــولا أنــت مــا نهضــت بنــا إليهــا خُــطَا الــوَخَّـادة[2] الــرُّسُمِ
رحمــاكَ يــا راحمًــا ينمى إلى رُحَمَــا[3] في النـفس والأهــل والأتبــاع والـحشـم
فكم مــواقِفِ صِــدْقٍ في الـجهــاد لنــا والـخيــلُ عــالـكــةُ الأشــداقِ لـلُّجُـمِ
والسيفُ يخضب بــالمحمــرِّ من عَـلَقٍ[4] مــا آبيضَّ من سُبُــلٍ وآســودَّ من لـمم
ولا تــرى صَــدْرَ غضْبٍ غيــر منقصف ولا تــرى مَتْنَ لَــدْن غيــر منــحـطم
حتى دُهينــا بــدهيــا لا اقتــدار بهــا سـوى على الصون لــلأطفـال والحُــرَم
فـقــال من لــم يشــاهــدهــا فــربَّتمــا يـخــالُ جــامحهــا يقتــادُ بــالخـطَم
هيهــات لــو زَبَنَتْــه الحــربُ كــان بهــا أعيى يَــدًا من يــدٍ جــالتْ عــلى رَجِم[5]
تــاللَّه مــا أضمــرتْ غشًّــا ضمــائــرنــا ولا طَــوَتْ صحَّــةً منهــا عــلى سَقَمِ
لـكن طـلبنــا مـن الأمــر الــذي طـلبتْ وُلاتُــنــا قبـلنــا فـي الأَعْـصُــرِ الــدُّهُم
فخــاننــا عنــده الجَــدُّ[6] الخؤون، ومن تـقعــدْ بــه نَـكَبــاتُ الــدهــر لـم يَقُـم
فــاسودَّ مــا اخضــرَّ من عيش دهتــه عِدًا بــالأسمــر اللَّدْنِ أو بــالأبـيض الخـذِمِ
وشَــتَّتَ الـبيــنُ شمــلاً كــان مـنتــظمًــا والبيــنُ أقــطع للمــوصــول مـن جَلَم[7]
فــربَّ مبــنــى شــديــد قــد أنــاخ بــه ركـب البــلا فــقــرتــه أدمــعُ الــديم
قـمْنــا لــديــه أُصيــلانًــا نُســائِـلُهُ أعيــا جــوابًــا ومــا بــالــربــع من إرم[8]

(١) اقتبس عجز البيت من قول المتنبي: [البسيط]

ضَيْفٌ أَلَمَّ بــرأسي غيــرَ مُحْتَشِـمِ السَّيْفُ أحسنُ فِعْـلاً منــه بــاللِّمَـمِ

ديوان المتنبي (ص ٣٠).

(٢) الوَخّادة: الناقة السريعة؛ يقال: وَخَدَ البعير يَخِدُ إذا أسرع. محيط المحيط (وخد).

(٣) رُحَمَا: أصلها «رحماء» جمع رحيم، وقد قصره للضرورة الشعرية.

(٤) العَلَقُ، بالفتح: الدم. محيط المحيط (علق).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ٦ص ٣٣٠): «على رخم» بالخاء المعجمة. زَبَنَتْهُ الحربُ: صَدَمَتْه. لسان العرب (زبن). ومعنى عجز البيت أخذه من المثل: «أذَلُّ من يَـدٍ في رَحِمٍ»، يريـد الضعف والهوان. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٨٣).

(٦) الجَدُّ، بفتح الجيم: الحظّ. لسان العرب (جدد).

(٧) الجَلَم، بالفتح: المقصّ. لسان العرب (جلم).

(٨) أخذ معنى البيت من قول النابغة الذبياني: [البسيط]

وقـفـت فـيـهــا أُصَيــلانًــا أُســائـلُهــا عَيَّتْ جــوابًــا، ومــا بــالــربــع من أحـدِ

ديوان النابغة الذبياني (ص ١٩).

ومـا ظَـنَـنَّـا بـأن نـبـقـى إلـى زمـن نـرى بـه غُـرَرَ الأحـبـاب كـالحـمـم
لكن رِضًا بـالقضـا الجـاري وإن طـويتْ منّـا الـضـلوع عـلى بَـرْحٍ مـن الألـم
لَبَّيْـكَ يـا من دعـانـا نحـو حضـرتِـهِ دعـاء إبـراهـمَ الحُـجَّـاج لـلحَـرَم
واعطِ الأمـان الـذي رُصَّـتْ قـواعـدُهُ عـلى أسـاس وفـاء غـيـر مـنـهـدمِ
خـليفـة اللّه وافـاك الـعـبيـدُ فـكـنْ في كـلّ فضـل وطَـولٍ عـند ظنهـم
وبـين أسـلافِـنـا مـا قـد عـلمتَ بـه من اعتـقـاد بحـكـمِ الإرثِ مقـتـسـم
وأنـتَ منـهم كـأصـلٍ مُـطْلِع غُصُـنًـا أو كـالـشـراكِ الـذي قـد قُـدَّ مـن أدم
وقـد خَـطَوتَ خُـطاهم في مـآثـرهـم فـلم يـذمـوا إذن فـيـهـا ولـم تـذم
وصِيتُ مـولى الورى الشيخ الإمـام غَـدَا في النـاس أشْـهَـرَ من نـارٍ عـلى عَـلَم
سـلالـةُ الأمـراء الـجـلّةِ الـكـبـرا ءِ الـعليـةِ الـطهـراء[1] الـقـادة البـهـمِ
بـنـو مَـرين لـيـوثٌ فـي عـريـن أبـوا رؤيـا قـرين لهـم في البـأس والكـرم
الـنـازلين من الـبـيـضـاء وسط حِـمًـى أحـمـى مـن الأبـلق الـسـامـي ومـن إرم
والجـائسين بـدُهْمِ الخيـلِ كـلّ ذرا والـداعـسين بسُمْـرِ الخَطِّ كـلّ كـمي
يـريـكَ فـارسُـهـم إن هَـزَّ عـامـلَهُ فـي مـارق بلَظَى الـهيـجـاء مضـطرمِ
لَـيثًـا عـلى أجـدلٍ عـارٍ مِنَ آجـنحَـةٍ يـسـطو بـأرقـم لـدّاغ بـغـيـرِ فَـم
فـي الـلاّم يـدغمُ مـن عَسَّـالِـهِ أَلِـفًـا ولـم نـجـد أَلِـفًـا أصـلاً بِـمُـدَغَّـمِ
أهـلُ الحفيـظةِ يـوم الـروعِ يحفـظهمْ مِنْ عصمـةِ اللّه مـا يُـرْبِي على العصم
يـا مـن تـطيـرُ شـرار منـه محـرقـةٌ لـكـلّ مـدّرعٍ بـالـحـزم مـحـتـزم
هُـمُ بـطـائفـةِ الـتـثـليـثِ قـد فَتَكُـوا كمثـل مـا يفتـك السرحـانُ بـالغنم[2]
وإن يـلثـمـهـمُ يـوم الـوغـى رهـجٌ أنـسـوكَ مـا ذكـروه عـن ذوي الـلثـم
تـضـيء آراؤهـم فـي كـلٍّ مـعـضـلـةٍ إضـاءةَ الـسُّـرج في داجٍ مِنَ الـظُّلَمِ
هـذا ولـو مِنْ حـيـاءٍ ذاب مـحـتـشـمٌ لـذاب منـهـم حيـاءً كـلُّ محـتشـمِ
طـابتْ مـدائجهم إذ طـابـتَ آنفسهـمْ فـاشتقّت النسمـاتُ آسـمًـا من الـنسم
لـلّه دَرُّهُـمُ والـسُّـحـبُ بـاخـلـةٌ بـدرِّهـن عـلى الأنـعـام والـنَّـعَـمِ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٣٢): «الظهراء» بالظاء المعجمة.

(٢) طائفة التثليث: النصارى. السرحان: الذئب.

بحيث الأُفقُ يُـرَى من لـونِ حمـرتِـهِ كـالشيب يخضبُ بـالـحنّـاء والـكَتَمِ
هنـاك تنهــلُّ أيـديهـم بصـوتِ حَيًـا يحيي بـالاجـداث[1] مـا فيهـا من الـرِّمَمِ
وأنَّ بَـيتَـي زيـادٍ[2] طـالـمـا ذُكـرا إذا أَلَـمَّـتْ أحـاديـث بـذكـرهـم
أحـلامُ عـادٍ وأجـسـامٌ مُـطَهَّـرَةٌ مِـنَ الـمَـعَـقَّـةِ والآفـاتِ والأثـم
يـرون حَـقًـا عـليـهم حـفظ جـارهـم فـلم يُضَـرْ نـازلٌ فيـهم ولـم يُـضَمِ
فـروعهم[3] بـالـدواهي لا يـراع، ولا يـغمُّ منـهـا بـمـا يعـرو من الـغمم
هُـمُ البحـار سمـاحًـا غيـر أنَّ بـهـا مـا قـد أنـاف على الأطـواد مِنْ هِـمم
وليس يسلم مـن حـتفٍ محـاربـهـمْ حـتى يكـون إلـيهـمْ مُـلْقِيَ الـسَّلَمِ
كم فيهمُ من أميـرٍ أوحـد نَـدُسٍ[4] يُقَـرْطِسُ الغـرض المقصـود بـالفَهَمِ
ولا كـسبط أبي حسـون[5] مـن حَسُنَتْ أمـداحُـهُ حُسْنَ مـا فيـه من الـشيـم
هـذا كم ابن أبي ذكـرى الهمـام فَقُـلْ في أصله الـمنتقى من مـجـده العـمم
خليفـة الـلّهِ حـقًّـا فـي خليـقتـه كنـائبٍ نـابَ في حكمٍ عن الـحكم
مـهـمـا تُـنِـرْ قَسَمَـاتٌ منـه نَـيِّـرَةٌ تَـنَـلْ بنـازلـه مـا جـلَّ مـن نـعـم
فَـوَجْهُـهُ بِـدُجًى أو كَـفُّـه بِـجَـدًى[6] أبهى مـن الـزهـر أو أنـدى من الـديم
وفضلُهُ ولـه الـفضـل المبـينُ جـرى كـجـري الأمثـال في الأقـطار والأمـم
وجـودُهُ الـمـتـوالـي لـلبـريّـةِ مـا وجـوده بـينـهـا طُـرًّا بـمـنـهـدمِ
إذا ابـتغتْ نِعَـمًـا منـه العُـفـاة[7] لـه لـم يسمعـوا كِلْمَـةً منـه سـوى نَعَمِ
وإن يـعـبِّسْ زمـانٌ فـي وجـوهِـهِـم لـم يبصـروا غيـر وجـهٍ منـه مبتسم
وجـه تبيـن سِمَـاتُ الـمكـرمـات بـه كمـا تبين سمـاتُ الصـدق في الكـلم

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٣٢): «بالاحداث».
(٢) هو النابغة الذبياني زياد بن معاوية بن ضباب.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٣٣): «فروعه».
(٤) النَّدُس: الفطن الذكي.
(٥) أبو حسون: هو أبو الحسن علي بن محمد الشيخ بن أبي زكريا يحيى الوطاسي، ويعرف بالبادسي، ثالث ملوك بني وطاس في فاس، وآخرهم. بويع سنة ٩٣٢ هـ، وتوفي سنة ٩٦١ هـ. الأعلام (جـ ٥ ص ١١).
(٦) الجَدَى: العطاء. لسان العرب (جدا).
(٧) العُفاة: جمع عافٍ وهو طالب المعروف. لسان العرب (عفي).

وراحـةٌ لـم تـزلْ فـي كـلّ آونـةٍ في نَيلِهـا راحـةُ الشـاكي من الـعَـدَم
لـلّه مـا الـتَـزَمَـتْـه مِـنْ نـوافِـلِهِ أيـامَ لا فَـرْضُ مـفـروضٍ بـمـلتـزم
أنسى الـخـلائفَ في حلم وفي شـرفٍ وفي سـخـاءٍ وفـي عـلمٍ وفـي فـهـم
فـجـاز معـتـمـدًا مـنـهـمْ ومـعـتـضـدًا وامتـاز عـن واثـقٍ منـهـمْ ومـعـتـصـم
ونـاصر الـدين في الإقبال فَـاقَ، وفي مـحبّـةِ الـعلْمِ أزرى بـابنـه الـحَكَـم
أفـعـالُ أعـدائـه مُـعْـتَـلَّةٌ أبـدًا متى يَـرُمْ جـزمهـا بـالحـذف تنجـزم
فـويـل أهـل القِلَى(١) مـن حيّـة ذكـرٍ لـلمُـتْـلَئِبِّ الـلهـام الـمجـر مـلتـقـمِ
رامـوا عَـداوةَ مَـنْ إنْ شـاء غـادرهـمْ مثـلَ الأحـاديث عـن عـاد وعـن إرَم
فـسـوف يـأكلهـمْ من جـيشـه لَجِبٌ بـكـلِّ قَـرمٍ إلى لـحمـانـهـم قَـرِمٍ (٢)
وإنَّ الاعـراب إذ سـاروا لـغـايـتـه لـسـائـرونَ إلـى لـقـمٍ عـلـى لـقـم
وهُمْ كمـا قـالـه مـاضٍ «أرى قـدمي بسعيـه نحـو حـتفي قـد أراق دمي»(٣)
فـقـلْ إذن لـلمُـنَـاوي الـنـاوِ لأنَ أذًى يـا غـرَّ غـرّك مـا أبصـرت في الـحلم
لـه صـوارمُ(٤) لـو نـاجتـك ألسنُهـا لَـبَشَّـرَتْـكَ بعـمـرٍ مـنـك مـنـصـرم
وأنَّ روحـك عـن قـربٍ سيـقـبـضـه قَـبْضَ المسـلّم مـا قـد حـاز من سَلَمِ
فـهـو الـذي مـا لـه نـدٌّ يُـشـابِـهُـهُ من كـلّ متـصفٍ بـالـدهي مُـتَّسِمِ
يـدبّـرُ الأمـرَ تـدبـيـرًا يـخـلّصـه مِـمّـا عسى أن يـرى فيـه من الـوهـم
ويبصـرُ الـغيـبَ لحظُ الـذهـنِ منـه إذا تعمـى عنِ آدراكـه ألـحـاظُ كـلّ عمي
ويـنـعـمُ الـنـظر الـمـفـضي بنـاظـره لِصَـوب وجـه صـواب واضـح اللقـم
ذو منـطقٍ لـم تـزل تـجلو نـتـائجـه عن مبـطل بخصـام المبـطل الـخصـم
ومَـسْمَـع لـيس يُـصْغِي لـلوشـاة فـلم ينفـق لـديـه الـذي عنهم إلـيـه نمـي
فـعـقـلُه لا تـوازيـه الـعـقـولُ، وهـل يـوازن الـطودَ مـا قـد طـال من أكم
إيـهِ جميـعَ الـورى من بـدو أو حضـر نِـداء مُـرْتَبط بـالـنـصـرِ مُـرْتَـسَـم

(١) القِلى: البغض والكراهية. لسان العرب (قلا).
(٢) اللَّجِبُ: الكثير الضجة. القَرِمُ: الشديد الشهوة للحم. لسان العرب (لجب) و(قرم).
(٣) إشارة إلى قول الشاعر: [المتقارب]

أرى قـدمـي أراق دمـي

والـبـيـت مـن أبـيـات الـجـنـاس.
(٤) الصوارم: جمع صارم وهو السيف. لسان العرب (صرم).

شـدوا وجـدّوا ولا تـعـنـوا ولا تـهـنـوا قـد لفّهـا الليلُ بـالسَّـوَّاقَـةِ الحُـطَمِ[1]
هـذا الإمـامُ الْـمَـرِيني السعـيـد لـه سـعـدٌ يـؤيّـده فـي كـلّ مـصـطدم
قـد أقسمت أنـه المنصـور ألـسـنَـةٌ مـن نخبـةِ الأولـيـا مبـرورة القـسـم
فـشـيّـعـوه ووالـوه تَـرَوا عَـجَـبًـا وتَـظْفَـروا مـعـه بـالأجـرِ والغـنـم
والـحـمـدُ لـلّه إذ أبـقـى خـلافـتـه كَـهْفًـا لـنـا مَنْ يُـخَيِّـمْ فيـه لـم يُـرَمِ
حِـرز حـريـزٌ وعـزٌّ قـائـمٌ ونَـدًى غـمـرٌ دِرَاكٌ بـلا مـنٍّ ولا سـأم
دامت ودام لـهـا سـعـدٌ يـسـاعـدُهـا فـي كـل مـبـتـدإ مـنـه ومُـخْـتَـتَـم
فـالـلّه عَـزَّ اسمُـهُ قـد زانَـهـا بـحُـلًى من غُـرٍّ أمـداحـه كـالـدُّرِّ في النـظم
الـواهـب الألف بـعـد الألف مـن ذَهَـبٍ كـالجمـر يلمـعُ في مستوقـد الضَّـرَمِ
والفـاعـلُ الفعـل لم يَـهْمُـمْ بـه أحـدٌ والقـائـلُ القـول فيـه حكمـة الحـكم
ذاكم هـو الشيـخ فـاعجبْ إنـه هَـرِمٌ جـودًا وحـاشـاه أن يُعْـزى إلى هـرمِ[2]
وحَـسْبُـنـا أنَّ أيـديـنـا بـه اعـتـصـمتْ مـن حـبله بـوثـيـقٍ غيـر مُـنْـفَـصِـمِ
فـمـا محـالـفـه يـومًـا بـمضـطهَـدٍ ولا مـؤالِـفُـه يـومًـا بـمـهـتـضَـمِ
ولا مـوافـيـه فـي جَـهْـدٍ بـمُـطَّرَحٍ ولا مـصـافـيـه فـي وُدٍّ بـمـتَّـهَـمِ
ولا مُـحَـيًّـا مُـحِـبِّـيـه بِـمُـنْـكَـسِفٍ ولا رجـاءُ مُـرَجِّـيـه بِـمُـنْـخَـرِمِ
ومـا تَـكَـرُّمُـه سِـرًّا بـمـنـكـشـف ولا تَـنَـكُّـرُهُ جَـهْـرًا بـمـكـتـتـم
ولـيـس لامـحُ مـرآه بـمـكـتـئـبٍ ولـيـس راضـعُ جَـدْواهُ بـمـنـفـطـم
ولا مُـقَـبِّـلُ يـمـنـاه الـكـريـمـةِ فـي مـحـلٍّ ممتـهـنٍ بـل دَسْت محـتـرم
ومـا وسيلتـنـا العـظـمى إليـه سـوى مـا ليس يُنْكـرُ مـا فيـهـا من العـظم
وإنـمـا هـيْ ومـا أدراكَ مـا هـيَ مِـنْ وسـيـلةٍ رَدُّهَـا أدهـى مـن الـوَخَـمِ
نبيُّنَـا المصطفى الهـادي بخيـرِ هـدًى مـحـمـدٌ خـيـرُ خلقِ الـلّهِ كـلِّهِـمِ
داعي الـورى من أولي خِيم وأهـل قِـرى إلـى طـريـقٍ رشـادٍ لاحِـبٍ أَمَـمِ[3]

---

(١) الحُطَمُ: الراعي الظلوم للماشية يهشم بعضها ببعض. وقد أخذ معنى عجز البيت من قول الحُطَم القيسي: [المنسرح]

قـد لَـفَّـهـا الـلـيـلُ بِـسَـوّاقٍ حُـطَمْ

لسان العرب (حطم).

(٢) هرم: هو هرم بن سنان، ممدوح زهير بن أبي سلمى.

(٣) اللاحب: الطريق الواضح. الأَمَمُ: القريب. لسان العرب (لحب) و(أمم).

عــليــه مِـنَّــا صــلاةُ الــلّه مــا ذُكــرتْ (أمِنْ تـذكُّـرِ جيـرانٍ بـذي سَـلَمِ)[1]
ومــا تَـشَفَّـعَ فيـهـا بـالـشـفـيـع لــه دخـيــل حــرمتــه الـعليــاء فـي الحــرم

ربّنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرْ لنا وترحمنا لنكوننّ من الخاسرين، أنت وليُّنا فاغفرْ لنا وارحمْنا وأنت خير الغافرين، ربّنا عليك توكَّلْنا، وإليكَ أنبْنا، وإليك المصير، ذلك بأنّ اللّه مَولَى الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مَولى لهم، نِعْمَ المولى ونعم النصير.

أَمَّا بَعْدَ حمدِ اللّه الذي لا يُحْمَـدُ على السرّاء والضـرّاء سواه، والصـلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد الذي طلع طلوع الفجـر بل البـدر فلاح، يـدعو إلى سبيـل كلِّ فـلاح، أُولي قلوب غافلة ونفوس سَواه، والرضـا عن آله وأصحـابه وعِتْـرَته الأكـرمين وأحزابـه الذين تلقّوا بالقبول ما أورده عليهم من أوامر ونَواه[2] وعـزّروه ونصروه في حـال قربـه ونَواه[3]، فيـا مولانا الـذي أولانا مِنَ النِّعَم مـا أولانا لا حَطَّ اللّه تعـالى لكم من العزّة أرواقًـا[4]، ولا أذوى لـدوحة دولتكم أغصـاناً ولا أوراقًـا، ولا زالت مخضرّة العـود، مبتسمةً عن زهـرات البشـائـر متحفة بثمرات السعود، ممطورة بسحائب البركات المتداركات دون بَروق[5] ولا رُعُـود، هذا مقـام العـائـذ بمقـامكم، المتعلّق بـأسبـاب ذِمـامكم، المتـرجِّي لعـواطف قلوبكم وعـوارف إنعامكم، المقبِّل الأرض تحت أقدامكم، المتلجلج اللسان عنـد محاولـة مفاتحـة كلامكم، ومـا الذي يقـول مَنْ وَجْهُه خَجِـل، وفؤاده وَجِل، وقضيّتـه المقضيـة عن التنصّـل والاعتـذار تَجلّ، بَيدَ أني أقول لكم ما أقوله لربي واجترائي عليـه أكثر، واحتـرامي إليه أكبـر: اللهمّ لا بـريء فأعتـذر، ولا قوي فـأنتصر، لكني مستقيـل، مستنيل مستعتب مستغفـر ﴿ ومـا أُبَـرِّىءُ نَفْسـي إنَّ النَّفْسَ لأَمّارَةٌ بالسُّوءِ ﴾[6]، هذا على طريق التنزّل والإنصاف، بما تقتضيه الحال

---

(١) ضمّن هذا البيت صدر مطلع قصيدة شرف الدين محمـد بن سعيد البـوصيري، وهي القصيـدة المعروفـة بالبردة، ومطلع القصيدة هو: [البسيط]
أمِـنْ تَـذَكُّـرِ جـيــرانٍ بـذي سَـلَمِ مَـزَجْتَ دمعًـا جـرى من مُـقْلَةٍ بـدمِ
ديوان البوصيري (ص ١٩٠) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٣٦٨).
(٢) النواهي: جمع نهي. لسان العرب (نهى).
(٣) النَّوَى: البعد. لسان العرب (نوا).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٣٦): «رواقًا».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٣٦): «برق».
(٦) سورة يوسف ١٢، الآية ٥٣.

مِمَّنْ يتحيّز إلى حيز الإنصاف، وأمّا على جهة التحقيق، فأقول ما قالته الأم ابنة الصِّدِّيق[1]: واللّه إني لأعلم أني إن أقررت بما يقوله الناس واللّه يعلم أني منه بريئة لأقول ما لم يكن، ولئن أنكرت ما تقولون لا تصدقوني، فأقول ما قاله أبو يوسف[2]: صبرٌ جميلٌ واللّهُ المُسْتعانُ على ما تَصِفُون»[3]. على أني لا أنكر عيوبي فأنا معدن العيوب، ولا أجحد ذنوبي فأنا جَبَلُ الذنوب، إلى اللّه أشكو عُجَري وبُجَري، وسقطاتي وغلطاتي، نَعَمْ كل شيء ولا ما يقوله المتقول، المشنِّع المهوِّل، الناطق بفم الشيطان المُسَوِّل، ومن أمثالهم «سُبَّني واصْدُقْ، ولا تَفْتَرِ ولا تخلق» أفمثلي كان يفعل أمثالها، ويحتمل من الأوزار المضاعفة أحمالها؟ ويهلك نفسه ويحبط أعمالها، عياذًا باللّه من خسران الدين، وإيثار الجاحدين والمعتدين، قد ضللت إذًا وما أنا من المهتدين، وايْمُ اللّه لو علمت شعرة في فؤدَيَّ تميل إلى تلك الجهة لقَطَعتها، بل لقطفت ما تحت عمامتي من هامتي وقَطَّعتها، غير أنّ الرَّعاع[4] في كلِّ وقت وأوان، للملك أعداء وعليه أحزاب وأعوان، كان أحمق أو أجهل من أبي ثَرْوَان[5]، أو أعقَلَ أو أعلم من أشَجِّ[6] بني مروان، رُبَّ مُتَّهم بري، ومُسَرْبَلٍ بسربال وهو منه عَرِي، وفي الأحاديث صحيح وسقيم، ومن التراكيب المنطقية مُنْتج وعَقيم، ولكن ثَمَّ ميزانُ عقل، تُعتبر به أوزان النقل، وعلى الراجح الاعتماد، ثم إشاعة الأحماد، المتّصل المتماد، وللمرجوح الاطِّراح، ثم التزام الصراح، بعد النَّفْض من الراح، وأكثر ما تسمعه الكذب، وطبع جمهور الخلق إلّا من عصمهُ اللّه تعالى إليه منجذب، ولقد قُذِفْنَا من الأباطيل بأحجار، ورُمِينا بما لا يُرْمى به الكفّار، فضلاً عن الفجّار، وجرى من الأمر المنقول على لسان زيد وعمرو، ما لديكم منه حفظ الجار، وإذا عظم الإنكاء، فعلى تكاءة التجلّد الاتكاء، أكثر المكثرون، وجهد في تعثيرنا المتعثّرون، ورَمَونا عن قوس واحدة، ونظمونا في سلك الملاحِدَة، أكفرًا أيضًا كفرًا، غفرًا اللهمّ غفرًا، أعد نظرًا يا عبد قيس، فليس الأمر على ما خُيِّلَ لك ليس،

---

(١) ابنة الصديق: هي أم المؤمنين عائشة ابنة الصِّدِّيق أبي بكر. والنص في إمتاع الأسماع (ص ٢٠٩) وفيه بعض الاختلاف عمّا هنا.

(٢) أبو يوسف: هو يعقوب عليه السلام.

(٣) قال اللّه تعالى في سورة يوسف ١٢، الآية ١٨: ﴿ وجاءُوا على قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قالَ بَلْ سَوَّلَتْ لكمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جميلٌ واللّه المُسْتَعانُ على ما تَصِفُونَ ﴾.

(٤) الرَّعاع، بالفتح: أوغاد الناس، واحده رَعاعة. محيط المحيط (رعع).

(٥) أبو ثروان: هو هبنقة القيسي، مضرب المثل في الحمق.

(٦) أشجُّ بني مروان: هو الخليفة عمر بن عبد العزيز.

وهل زدنا على أن طلبنا حقّنا، مِمَّنْ رام مَحْقَه ومَحْقَنا، فطاردنا في سبيله عُدَاة كانوا لنا غائظين، فانفتق علينا فتق، لم يمكنّا له رتق ﴿ وما كُنَّا لِلْغَيبِ حافِظِينَ ﴾ [1] ، وبعد فاسأل أهل الحلّ والعقد، والتمييز والنقد، فعند جُهَينَتِهم تلقى الخبر يقينًا[2]، وقد رضينا بحكمهم يؤثمنا فيوبقنا أو يبرئنا فَيَقِينا، إيه يا من اشرأبَّ إلى مَلامنا، وقدح حتى في إسلامنا، رويدًا رويدًا، فقد وجدت قوة وأيْدًا[3]، ويحك إنما طال لسانُكَ علينا، وامتدَّ بالسوء إلينا؛ لأنَّ الزمان لنا مصغر ولك مكبر، والأمر عليك مُقْبِل وعنّا مُدْبر، كما قال كاتب الحجاج المُوبر، وعلى الجملة فهبنا صرنا إلى تسليم مقالك جدلاً، وذهبنا فأقررنا بالخطإ في كلِّ وِرْد وصَدَر، فللّه دَرّ القائل[4]: [الرجز]

إن كُنْتُ أخْطَأتُ فما أخطا القدرْ

وكأنَّا بمعتسف إذا وصل إلى هنا، وعدمُ إنصافه يَعْلَمه إلٰهنا، قد ازورَّ مُتَجَانِفًا، ثم افترَّ متهانفًا، وجعل يتمثّل بقولهم: إذا عُيِّروا قالوا مقادير قدرت، وبقولهم: المرء يعجزه المحال، فيعارض الحقّ بالباطل، والحاليَ بالعاطل، ومنزع بقول القائل: رُبَّ مسمعٍ هائل، وليس تحته من طائل، وقد فرغنا أول أمس من جوابه، وتركنا الضغن يلصق حرارة الجوى به. وسنلِّم الآن بما يوسعه تسكيتًا، ويقطعه تبكيتًا، فنقول له: ناشدناك اللّه تعالى، هل اتّفق لك قطُّ وعرض، خروج أمر ما عن القصد منك فيه والغرض؟ مع اجتهادك أثناءه في إصدارك وإيرادك، في وقوعه على وفق اقتراحك ومُرادك، أو جميعُ ما تزاوله بإدارتك، لا يقع إلَّا مطابقًا لإرادتك، أو كلّ ما تقصده وتنويه، تُحْرِزه كما تشاء وتحويه؟ فلا بُدَّ أن يقرّ اضطرارًا، بأنّ مطلوبه يشذُّ عنه مرارًا، بل كثيرًا ما يفلت صَيدُه من أشراكه، ويطلبه فيعجز عن إدراكه، فنقول: ومسألتُنا من هذا القبيل، أيها النبيهُ النبيل، ثم نسرد له من الأحاديث النبوية ما شِينَا[5]، مِمَّا يُسَايرنا في غرضنا منه ويماشينا، كقوله ﷺ: «كلّ شيء بقضاء وقدر،

---

(١) سورة يوسف ١٢، الآية ٨١.

(٢) أخذه من المثل: «عند جُهَيْنَةَ الخَبَرُ اليقينُ». ويضرب في معرفة الشيء حقيقة. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٣).

(٣) الأَيْدُ: القوة. لسان العرب (أيد).

(٤) شطر البيت لأبي العتاهية وهو في ديوانه، تحقيق الدكتور شكري فيصل (ص ٤٤٩).

(٥) ما شينا: أصل القول: ما شئنا، وقد قلب الهمزة ياء لسكونها وانكسار ما قبلها، وذلك مراعاة للسجع.

حتى العجز والكيس»، وقوله أيضًا: «لو اجتمع أهل السموات والأرض على أن ينفعوك بشيء لم يقضه اللّه لك لم يقدروا عليه، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يقضه اللّه عليك[1] لم يقدروا عليه» أو كما قال، ﷺ، فأخْلِقْ به أن يلوذ بأكناف الإحجام، ويزمَّ على نفثة فيه كأنما أُلجم بلجام، حينئذ نقول له والحقّ قد أبان وجهه وجلاه، وقهره بحجّته وعلاه: ليس لك من الأمر شيء قُلْ إنَّ الأمر كلّه للّه، وفي مُحَاجَّة آدم وموسى ما يقطع لسان الخَصْم، ويَرْحَضُ[2] عن أثواب أعراضنا ما عسى أن يعلق بها من دَرَن الوَصْم، وكيفما كانت الحال، وإن ساء الرأيُ والانتحال، ووقعنا في أوجال وأوحال، فثُلَّ عرشنا، وطُويت فُرُشُنا، ونكس لِوَانا، ومُلِك مثوانا، فنحن أمثل من سوانا، وفي الشَّرِّ خيار، ويد اللطائف تكسر من صولة الأغيار، فحتى الآن لم نفقد من اللطيف تعالى لطفًا، ولا عدمنا أدوات أدعية تعطف بلا مهلة على جملتنا المقطوعة جمل النعم الموصولة عَطْفًا، وإلاَّ فتلك بغداد دار السلام، ومُتَبَوَّأ الإسلام، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام، مَثَابة الخلافة العباسية، ومقرّ العلماء والفضلاء أُولي السِّيَر الأوَيْسِيَّة[3]، والعقول الإياسية[4]، قد نوزلت بالجيوش ونزلت، وزوولت بالزحوف وزلزلت، وتحيَّف جوانبَها الحَيف[5]، ودخلها كُفّار التَّتار عَنْوَةً بالسيف، ولا تَسَلْ إذ ذاك عن كيف[6]، أيام تجلَّت عروس المنية كاشفة عن ساقها مبدية، وجَرَتِ الدماء في الشوارع والطرق كالأنهار والأودية، وقِيدَ الأئمة والقضاة تحت ظلال السيوف المُنتضاة بالعمائم في رقابهم والأردية، وللنجيع[7] سيول، تخوضها الخيول، فتخضبها إلى أرساغها، وتهم ظماؤها بِوِرْدها فتنكل عن تجرعها ومَساغها، فطاح عاصمها ومستعصمها، وراح ولم يَعُدْ[8] ظالمها ومتظلّمها، وخرجت مساجدها وديارها، واصطُلم بالحسام أشرارها وخيارها، فلم يبق من جمهور أهلها عين تطرف، حسبما عرفت أو حسبما تعرف، فلاتك متشكّكًا متوقّفًا، فحديث تلك الواقعة الشنعاء أشهر عند المؤرخين من

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٣٨): «لك».

(٢) يرحض: يغسل. لسان العرب (رحض).

(٣) الأويسية: نسبة إلى أويس القرني الزاهد.

(٤) الإياسية: نسبة إلى إياس بن معاوية، الذي يضرب به المثل في الفطنة.

(٥) تَحَيَّفَهُ: تنقّصه من حِيَفه أي من نواحيه. والحَيْفُ: الجَوْر. محيط المحيط (حيف).

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤٠): «عن كيفية».

(٧) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «يغد» بالغين المعجمة.

قِفَـا[1]، فأين تلك الجحـافل، والآراء المُدَارة في المحـافـل؟ حين أراد اللَّه تعـالى بـإدالـة الكفـر، لم تُجْدِ ولا قُـلَامة ظفـر، إذن فَمَنْ سَلِمَتْ له نفسُـه التي هي رأسُ مـالـه، وعيـالُـه وأطفاله اللذان همـا من أعظم آمـاله، وكـلّ أو جُلّ أو أقَـلّ رياشـه، وأسبابُ معـاشه الكفيلة بانتهاضه وانتعاشه، ثم وَجَدَ مـع ذلك سبيـلاً إلى الخلاص، في حـال مياسـرة ومساهلة دون تصعب واعتياص[2]، بعد ما ظنّ كلّ الظن أن لا مَحِيد ولا مَناص، فما أحَقّـه حينئذ وأولاه، أن يحمد خالقه ورازقه ومولاه، على ما أسداه إليه من رِفْـدِهِ وخيره، ومعـافاتـه مِمّا ابتُلِيَ بـه كثير من غيره، ويرضى بكلٍّ إيراد وإصدار، تتصرّف فيهما الأحكام الإلّهية والأقدار، فالـدهر غدّار، والدنيا دار مشحونـة بالأكـدار، والقضاء لا يُـرَدُّ، ولا يُصَدُّ، ولا يُغـالَبُ، ولا يُطالَبُ، والـدارات تدور، ولا بُـدَّ من نقص وكمال للبـدور، والعبد مُـطِيع لا مُـطاع، وليس يطاع إلاَّ المستطاع، وللخالق القدير جلَّت قدرته في خليقته علم غيبٍ للأذهان عن مَداه انقطاع.

ومـا لي والتكلّف لما لا أحتـاج إليه من هـذا القول، بين يـدي ذي الجلال والمَجـادة والفضل والطَّول[3]؟ فله من العقـل الأرجح، ومن الخلق الأسجـح، ما لا تلتـاط معه تهمتي بصفره[4]، ولا تنفق عنده وشاية الواشي لا عُدَّ مِن نَفَره، ولا فاز قِدْحُه بظَفَره، والمولى يعلم أنَّ الدنيا تلعب باللاعب، وتجرّ براحتها إلى المتاعب، وقديمًا للأكياس من النـاس خَدَعَت، وانحرفت عن وصالهم أعقل ما كانوا وقطعت، وفعلت بهم ما فعلت بيَسـار[5] الكواعب تلك التي جَبَّتْ وجَـدَعَتْ[6]، ولئن رهصت وهصـرت، فقـد نبّهـت وبَصَّـرَت، ولئـن قـرعت ومعضت[7]، لقد أرشدت ووعظت، ويا ويلنا من تنكّـرها لنـا بمرة، ورميهـا لنا في غمـرةٍ أيِّ

(١) أراد أشهر من قول امرىء القيس في مطلع معلقته: [الطويل]

قِـفَـا نَبْـكِ مـن ذكـرى حبيبٍ ومَـنْـزِلِ　　　بِسِقْطِ اللِّوَى بيـن الـدَّخُـولِ وحَـوْمَـلِ

ديوان امرىء القيس (ص ٨).

(٢) الاعتياص: التصعّب؛ يقال: اعتاص الأمرُ اعتياصًا إذا اشتدَّ وصعب. لسان العرب (عيص).

(٣) الطَّوْلُ، بفتح الطاء: القوة. لسان العرب (طول).

(٤) لا تلتاط معه تهمتي بصفره: لا تعلق بقلبه وتلصق. محيط المحيط (لوط).

(٥) يسار: هو اسم عبد كان يتعرّض لبنات مولاه فَجَبَبْنَ مذاكيره، وقد أشـار إلى ذلك الفـرزدق وهو يخـاطب جريرًا: [الطويل]

وإنـي لأَخْشَـى، إن خَـطَبْتَ إلـيـهـمُ،　　　عليـك الـذي لاقى يَسـارُ الكـواعبِ

لسان العرب (يسر).

(٦) جَبَّت وجدعت: قطعت. لسان العرب (جبب) و(جدع).

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٠): «وأمعضت».

غمرة، أيام قلبت لنا ظهر المِجَنّ، وغيم أفقها المصحي وأدجن، فسرعان ما عاينًا حبالها مُنْبَتَّة، ورأينا منها ما لم نحتسب كما تقوم الساعة بَغْتَة، فمن استعاذ من شيء فليستعذ مِمّا صرْنا إليه من الحَور بعد الكَور، وانحطاط من النجد إلى الغور[1]: [الطويل]

فبينا نَسُوسُ الناسَ والأمرُ أَمْرُنا ... إذا نحن فيهم سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ[2]

فأُفٍّ[3] لدنيا لا يدوم نعيمها ... تَقَلَّبُ تارات بنا وتصرَّفُ

وأبيها لقد أرهقتنا إرهاقًا، وجرعتنا من صاب الأوصاب كأسًا دِهَاقًا[4]، ولم نفزع إلى غير بابكم المنيع الجَنَاب، المنفتح حين سُدَّت الأبواب، ولم نلبس غير لباس نعمائكم حين خلعنا ما ألبسنا الملك من الأثواب، وإلى أمه يلجأ الطفل لجأ اللهْفان، وعند الشدائد تمتاز السيوف من الأجفان[5]، ووَجْهُ اللّه تعالى يبقى وكُلُّ مَنْ عليها فان، وإلى هنا ينتهي القائل ثم يقول: حسبي هذا وكفان.

ولا ريب في اشتمال العلم الكريم، على ما تعارفته الملوك بينها في الحديث والقديم، من الأخذ باليد عند زَلَّة القَدَم، وقَرْعِ الأسنان وعضّ البَنان[6] من الندم، دينًا تدينت حتى مع اختلاف الأديان، وعادة اطَّردت فيهم على تعاقب الأزمان والأحيان.

ولقد عرض علينا صاحب قَشْتَالة مواضعَ معتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكّد فيه خطه بأيمانه ما يقنع النفوس ويكفيها، فلم نَرَ ونحن من سلالة الأحمر مجاورة الصُّفْر، ولا سوّغ لنا الإيمان الإقامة بين ظَهْرَاني الكفر، ما وجدنا عن ذلك مَنْدُوحة ولو شاسعة، وأمَّنا من لمطالب المشاغب حُمَةَ[7] شرٍّ لنا لاسِعَة، وادَّكَرْنا أيَّ ادّكار، قولَ اللّه تعالى المنكِر لذلك غاية الإنكار ﴿ ألم تكنْ أَرْضُ اللّه واسِعَةً ﴾[8] وقول الرسول، عليه الصلاة والسلام، المبالغ

---

(١) تقدم البيت الأول في الجزء الرابع .

(٢) نتنصَّف: نسأل أن ينصفنا الناس. لسان العرب (نصف).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤١): «فتبًّا لدينا».

(٤) الصاب: شجر مرّ. الأوصاب: جمع وصب وهو المرض. الدِّهاق: الملآن. لسان العرب (صوب) و (وصب) و (دهق).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤١): «السيوف في الأجفان من الأجفان».

(٦) عضّ البنان: كناية عن شدّة الندم.

(٧) الحُمَةُ، بضمِّ الحاء وفتح الميم: إبرة الحيّة والعقرب وغيرهما. لسان العرب (حمى).

(٨) سورة النساء ٤، الآية ٩٧.

في ذلك بأبلغ الكلام «أنا بريء من مؤمن مع كافر لا تتراءى ناراهما» وقول الشاعر الحاثّ على حثّ المطيّة، المتثاقلة عن السير في طريق مَنْجاتها البَطِيَّة: [الوافر]

وما أنا والتلدُّدَ[1] نحو نجدٍ ... وقد غَصَّتْ تهامةُ بالرجالِ

ووصلَتْ أيضًا من الشرق إلينا، كتبٌ كريمة المقاصد لدينا، تستدعي الانحياز إلى تلك الجَنَبات، وتتضمّن ما لا مزيد عليه من الرغبات، فلم نختر إلاّ دارنا التي كانت دار آبائنا من قبلنا، ولم نرتضِ الانضواءَ إلاّ لمن بحَبْله وَصَلَ حبلنا، وبريش نبله رِيشَ نَبْلُنا، إدلالاً على محلٍّ إخاء متوارثٍ لا عن كَلالة[2]، وامتثالاً لوَصاة أجداد لأنظارهم وأقدارهم أصالةٌ وجلالة، إذ قد روينا عَمَّن سلف من أسلافنا، في الإيصاء لمن يخلف بعدهم من أخلافنا، أن لا يبتغوا إذا دَهَمَهم داهم بالحضرة المرينية بَدلاً، ولا يجدوا عن طريقها في التوجّه إلى فريقها مَعْدلاً، فاخترقنا إلى الرياض الأريضة[3] الفِجاج، وركبنا إلى البحر الفُرات[4] ظهرَ البحر الأُجاج[5]، فلا غَرْوَ أن نردَ منه على ما يقرّ العين، ويشفي النفسَ الشاكية من ألم البَين، ومن توصل هذا التوصل، وتوسل بمثل ذلك التوسل، تطارحًا على سدة أمير المؤمنين، المحارب للمحاربين، والمؤمِّنِ للمستأمنين، فهو الخليق الحقيق بأن يسوّغ أصفى مشاربه، ويبلغ أوفى مآربه، عل توالي الأيام والشهور والسنين، ويخلص من الثبور إلى الحبور، ويخرج من الظلمات إلى النور، خروجَ الجنين، ولعل شعاع سعادته يفيض علينا، ونفحة قبول إقباله تسري إلينا، فتخامرنا أريحية تحملنا على أن نبادر، لإنشاد قول الشريف الرضي في الخليفة القادر[6]: [الكامل]

عَطْفًا أميرَ المؤمنين فإنّنا ... في دَوحَةِ العلياءِ[7] لا نَتَفَرَّقُ
ما بيننا يومَ الفخارِ تفاوتٌ ... أبدًا، كلانا في المعالي مُعْرِقُ
إلاَّ الخلافة مَيَّزَتْكَ، فإنني ... أنا عاطلٌ منها وأنتَ مُطَوَّقُ

---

(١) التلدّد: التلبّث في حيرة وتلفت. لسان العرب (لدد).
(٢) الكَلالة: من القرابة ما خلا الوالد والولد. لسان العرب (كلل).
(٣) الأريضة: الكثيرة العشب. لسان العرب (أرض).
(٤) البحر الفرات: العذب، وأراد الملك الذي نزل بساحته.
(٥) البحر الأجاج: الشديد الملوحة.
(٦) ديوان الشريف الرضي (جـ ٢ ص ٤٢).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤٣): «العليا»، وهكذا ينكسر الوزن.

لا بل الأحرى بنا والأحجى، والأنجح لسعينا والأرْجى، أن نعدل عن هذا المنهاج، ويقوم وافدنا بين يدي علاه مقام الخاضع المتواضع الضعيف المحتاج، وينشد ما قال في الشيرازي ابنُ حَجَّاج[1]: [مخلع البسيط]

النـاسُ يَفْـدُونَـكَ اضـطرارًا | منهمْ، وَأفْـدِيكَ بـاختيـاري
وبَـعْضُـهُـمْ فـي جـوارِ بـعضٍ | وأنـتَ حـتـى أمـوتَ جـاري
فَعِشْ لخـبـزي وعِشْ لمـائـي | وعِشْ لـداري وأهـلِ داري

ونستوهب من الوهاب تعالى جَلَّتْ أسماؤه، وتعاظمتْ نَعْماؤه، رحمةً تجعل في يد الهداية أعِنَّتَنا، وعصمةً تكون في مواقف المخاوف جُنَّتَنا، وقبولاً يعطف علينا نوافر القلوب، وصنعًا يُسَنِّي[2] لنا كُلَّ مرغوب ومطلوب، ونسأله وطالما بَلَّغَ السائلَ سؤلاً ومأمولاً، مَتَابًا صادقًا على موضوع الندم محمولاً، ثم عَزاء حسنًا وصبرًا جميلاً، عن أرض أورثها مَنْ شاء من عباده معقبًا لهم ومُديلاً، وسادِلاً عليهم من ستور الإملاء الطويلة سُدُولاً، ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ التي قد خَلَتْ مِنْ قَبْلُ ولنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تبديلاً ﴾[3] فلْيَطِرْ طائر الوسواس المرفرف مَطِيرًا، كان ذلك في الكتاب مسطورًا، لم نستطع عن مورده صدورًا، وكان أمر اللَّه قَدَرًا مقدورًا. ألَا وإنَّ للَّه سبحانه، في مقامكم العليِّ الذي أيّده وأعانه، سرًّا من النصر يترجم عنه لسان من النصل، وترجع فروع البشائر الصادقة، بالفتوحات المتلاحقة، من قاعدته المتأصّلة، إلى أصْل، فبمثله يجب اللِّياذ[4]، والعياذ، ولشبهه يحقّ الالتجاء، والارتجاء، ولأمرٍ مّا آثرناه واخترناه، بعد أن استرشدنا اللَّه سبحانه واستخرناه، ومنه جلَّ جلاله نرغب أن يَخِير لنا ولجميع المسلمين، ويؤب[5] بنا من حمايته ووقايته إلى معقل منيع وجناب رفيع أمين[6]، آمين آمين، ونرجو أن يكون ربّنا، الذي هو في جميع الأمور حَسْبُنا، قد خار لنا حيث أرشدنا وهدانا، وساقنا توفيقه وحَدانا، إلى الاستجارة بملك حَفي، كريم وَفِي، أعزّ جارًا من

(١) الأبيات لأبي عبد اللَّه الحسن بن أحمد بن الحجاج قالها في أبي الفضل الشيرازي، وهي في يتيمة الدهر (جـ ٣ ص ٤٥).
(٢) سَنَّاه يُسنِّيه تسنيةً: سهّله وفتحه. محيط المحيط (سنى).
(٣) سورة الفتح ٤٨، الآية ٢٣.
(٤) اللياذ: مصدر لاذ به: أي التجأ إليه. لسان العرب (لوذ).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٣): «ويؤوينا من حمايته».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤٤): «رفيع آمين آمين آمين».

أبي دُوَاد[١]، وأحمى أنفًا من الحارث بن عُبَاد[٢]، يشهد بذلك الداني والقاصي والحاضر والباد، إن أغاث ملهوفًا فما الأسود بن قنان يُذْكر، وإن أنعش حُشاشَةَ هالكٍ فما كعبُ بن مامة[٣] على فعله وحده يشكر، جليسهُ كجليس القعقاع بن شور[٤]، ومُذاكره كمذاكر سفيان المتتسب من الرِّباب إلى ثور[٥]، إلى التحلّي بأمهات الفضائل، التي أضْدادها أمهات الرذائل، وهي الثلاث: الحكمة والعدل والعفة التي تشملها الثلاثة الأقوال والأفعال والشمائل، وينشأ منها ما شئت من عزم وحزم، وعلم وحلم، وتيقّظ، وتحفّظ، واتّقاء، وارتقاء، وصَول، وطَول، وسماح ونائل، فبنور حلاه المُشْرِق، يفتخر المغربُ على المَشْرِق، وبمحتده[٦] السامي خطره في الأخطار، وبيته الذي ذكرُهُ في النباهة والنجابة قد طار، يباهي جميع ملوك الجهات والأقطار، وكيف لا وهو الرفيع المُنْتَمَى والنِّجار[٧]، الراضع من الطهارة صَفْوَ ألبان، الناشىء من السراوة وسط أحجار، في ضِئْضِىء[٨] المجد وبحبوح الكرم، وسَراوة أُسرة المملكة التي أكنافها حرم، وذؤابة الشرف التي مجاذبتها لم تُرَم، من معشر أيِّ معشر بخلوا إن وهبوا ما دون أعمارهم، وَجَبُنوا إن لم يحموا سوى

---

(١) هو أبو دواد الإيادي، ويضرب به المثل بجاره لأنه حماه أعظم حماية. الشعر والشعراء (ص ١٦١ - ١٦٣).

(٢) الحارث بن عُباد: هو فارس النعامة، وقد اعتزل حرب البسوس، ثم دخلها بقوة لمّا قتل المهلهل ابنه. الأعلام (جـ ٢ ص ١٥٦) ومصادر حاشيته.

(٣) كعب بن مامة الإيادي مضرب المثل في الإيثار؛ لأنه آثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري فمات عطشًا. الشعر والشعراء (ص ١٦١).

(٤) هو القعقاع بن شور الربعي الذهلي الكوفي، مضرب المثل في حسن المجالسة. وفيه يقول بعض الكوفيين: [الوافر]

وكنت جليس قعقاعِ بن شور ... ولا يشقى بقعقاع جليسُ

معجم الشعراء (ص ٣٣٠).

(٥) سفيان: المراد سفيان الثوري. والرباب: مجموعة قبائل فيها ثَور وعَوْف وضَبَّة. جمهرة أنساب العرب (ص ١٩٨، ٤٨٠).

(٦) المَحْتِدُ: الأصل. لسان العرب (حتد).

(٧) النِّجار: الأصل. لسان العرب (نجر).

(٨) الضِّئضىء: الأصل. لسان العرب (ضأضأ).

ذِمارهم، بنو مَرين، وما أدراك ما بَنُو مرين[1]: [الكامل]

سُمُّ العُداة وآفةُ الجُزُرِ   النازلون بكلِّ معتركٍ
والطيبون معاقد الأُزُرِ

لهم من الهفوات انتفاء، وعندهم من السِّيَر النبوية اكتفاء، انتسبوا إلى بر بن قيس، فخرجوا في البِرِّ عن القَيْس[2]، مالهم القديم المعروف، قد نفد في سبيل المعروف، وحديثهم الذي نقلته رجال الزحوف، من طريق[3] القنا والسيوف، على الْحَسَن من المقاصد موقوف، تَحْمَدُ من صغيرهم وكبيرهم ذابِلَهم ولَدْنَهم، فللّه آباء أنجبوهم وأمهات ولَدْنَهم[4]: [الكامل]

شُمُّ الأنوفِ من الطراز الأولِ

إليهم في الشدائد الاستناد وعليهم في الأزمات المعوَّل، ولهم في الوفاء والصفاء والاحتفاء والعناية والحماية والرعاية الخَطْو الواسع والباع الأطول، كأنما عناهم بقوله جَرْوَل[5]: [الطويل]

أولئك قومٌ إن بَنَوا أَحْسَنوا البِنَا   وإن عاهَدُوا أوفَوا وإن عَقَدوا شَدُّوا
وإن كانت النعماء فيهم جَزَوا بها   وإن أَنْعَمُوا لا كَدَّروها ولا كَدُّوا
وتَعْذلني أبناء سَعْدٍ عليهمُ   وما قلتُ إلَّا بالتي علمتْ سَعْدُ

وبقوله الوثيق مبناه، البليغ معناه[6]: [البسيط]

قَومٌ إذا عَقَدُوا عَقْدًا لجارِهِمُ   شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فوقه الكَرَبَا[7]

(١) الشعر للخِرْنِق بنت بدر، الشاعرة الجاهلية، أخت طرفة بن العبد لأمّه، قالته من قصيدة ترثي فيها قومها وكانوا قد قتلوا يوم كلاب.

(٢) القَيْسُ: المقايسة. لسان العرب (قيس).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٥): «من طرق».

(٤) هو عجز بيت لحسان بن ثابت الأنصاري، وصدره هو:
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابهم

(٥) جَرْول: هو الحطيئة، وأبياته في ديوانه (ص ٤١).

(٦) ديوان الحطيئة (ص ١٦).

(٧) العِناج: حبل يُشدُّ في أسفل الدلو العظيمة ثم يُشَدُّ إلى العراقي. الكَرَبُ، بالفتح: الحبل يُشَدُّ في وسط العراقي ليليَ الماء فلا يعفن الحبل الكبير. يقول: إذا عقدوا عَقْدًا أوفوا وكان عَقْدهم وثيقًا. محيط المحيط (عنج) و (كرب). وجاء في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤٦): «قومٌ إذ عقدوا».

يزيحون عن النزيل كل نازح قاصم، وليس له منهم عائب ولا واصم، فهم[1] أحقّ بما قاله في منقر قيسُ بن عاصم[2]: [الكامل]

لا يَفْطَنُونَ لعَيبِ جارِهِمُ وهُمُ لِحفْظِ جِوارهم[3] فُطْنُ

حُلاهم هذه الغريزة التي ليست باستكراه ولا جَعْل، وأمير المؤمنين دام نصره قسيمهم فيها حذو النعل بالنعل، ثم هو عليهم وعلى من سواهم بالأوصاف الملوكية مستعل، ارْفَضّ مُزْنُهم منه عن غيث مُلِثٍّ يمحو آثار اللَّزْبَة[4]، وانشقّ غِيلهم منه عن ليث ضارٍ متقبض على براثنه للوَثْبَة، فقل لسكان الفلا: لا تغرنكم أعدادكم وأمدادكم، فلا يبالي السرحان المواشي سواء مشى إليها النَّقَرَى أو الجفَلى[5]، بل يصدمهم صدمة تحطم منهم كل عِرْنِين[6]، ثم يبتلع بعد أشلاءهم المعفَّرة ابتلاع التنين، فهو هو كما عرفوه، وعهدوه وألفوه، أخو المنايا، وابن جَلاَ وَطَلَّاع الثنايا[7]، مجتمع أشدُّه، قد احتنكت سنّه وبان رُشْده، جاد مُجِدّ، محتزم بحزام الحزم مشمّر عن ساعد الجد[8]: [البسيط]

لا يشربُ الماءَ إلاَّ مِنْ قَليبِ دَمٍ ولا يَبيتُ له جَارٌ على وَجَلِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «فهو».

(٢) البيت في عيون الأخبار (جـ ١ ص ٤٠١) والعقد الفريد (جـ ٢ ص ٢٧٧) قاله قيس بن عاصم المِنْقري حين بلغه أن ابن أخيه قتل ابنه.

(٣) في عيون الأخبار والعقد الفريد: «جواره».

(٤) اللَّزْبَة: الشدّة والقحط. محيط المحيط (لزب).

(٥) النَّقَرَى: الدعوة الخاصة. الجَفَلَى: العامّة. والمراد: وحده أو مع جماعة. محيط المحيط (نقر) و (جفل).

(٦) العِرْنين: الأنف كلُّه. محيط المحيط (عرن).

(٧) هذا من قول سحيم بن وثيل الرياحي: [الوافر]

أنا ابنُ جلا وطَلاّع الثنايا متى أَضَعِ العمامَةَ تَعْرفوني

وفيات الأعيان (جـ ١ ص ١٦٥) و (جـ ٢ ص ٣٣) و(جـ ٦ ص ٨٧).

(٨) البيت لأبي سعيد المخزومي، قاله من جملة قصيدة من ١٨ بيتًا. الأمالي في لغة العرب (جـ ١ ص ٢٦٣).

أسَدِيُّ القلبِ آدَمِيُّ الرواء، لابس جلد النمر يزوي العناد والنواء[1]: [الطويل]

وليس بشاويٍّ عليه دَمامَةٌ إذا ما سعى يسعى بقوسٍ وأسْهُمِ[2]
ولكنه يسعى عليه مُفاضَةٌ دِلاصٌ كأعيانِ الجرادِ المُنَظَّمِ[3]

فالنجاء النجاء سامعين له طائعين، والوجل[4] الوجل لاحقين به خاضعين، قبل أن تساقوا إليه مُقَرَّنين في الأصفاد، ويَعْيا الفداء بنفائس النفوس والأموال على الفاد، حينئذ يعض ذو الجهل والفَدامة، على يديه حَسْرَة ونَدامة، إذا رأى أبطال الجنود، تحت خوافق الرايات والبُنُود، قد لفحتهم نار ليست بذات خمود، وأخذتهم صاعقة مثل صاعقة الذين من قبلهم عادٍ وثمود، زعقات تؤزّ الكتائب أزًّا، وهمزًا محققًا للخيل بعد المدّ المشبع للأعنّة همزًا، وسَلاًّ للهندية سلاًّ وهَزًّا للخَطِّيّة هزًّا، حتى يقول النسر للذئب: ﴿ هل تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾[5] ثق خليفَةَ اللّٰه بذاك، في كل مَنْ رام أذى رعيّتك أو أذاك، فتلك عادة اللّٰه سبحانه وتعالى في ذوي الشقاق والنفاق، الذين يشقُّون عصا المسلمين ويقطعون طريق الرفاق، وينصبون حبائل البغي والفساد في جميع النواحي والآفاق، فلن يجعلهم اللّٰه عَزَّ وجَلَّ من الآمنين، أنّى وكيف وقد أفسدوا وخانوا وهو سبحانه لا يُصلح عمل المفسدين، ولا يهدي كيد الخائنين، وها نحن قد وَجَّهنا إلى كعبة مجدكم وجوهَ صَلَوات التقديس والتعظيم، بعد ما زينّا معاطفها باستعطافكم بدُرِّ ثناء أبهى من دُرِّ العِقْد النظيم، منتظمين في سلك أوليائكم، متشرفين بخدمة عليائكم، ولا فَقَدَ عزّة ولا عدمها، مَنْ قصد مَثابتكم[6] العزيزة وخدمها، وإن المترامي على سَنائكم، لجدير بحرمتكم واعتنائكم، وكل ملهوف تبوّأ من كنفكم حصنًا حَصِينًا، عاش بقيةَ عمره محروسًا من الضَّيْم مصونًا، وقد قيل في بعض الكلام: من قعدت به نكاية الأيام، أقامته إغاثة الكرام، ومولانا أيّده اللّٰه تعالى وليُّ ما يزفّه إلينا من مَكْرُمة بِكْر، ويصنعه لنا من صنيع حافل يخلد في صحائف حسن الذكر،

---

(١) البيتان ليزيد بن عبد المدان، وهما في لسان العرب (عين) و (شوه).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٤٧): «وليس بشاريٍّ». وفي لسان العرب (مادة: شوه): «ولست بشاويٍّ . . إذا ما غدا يغدو بقوسٍ . . ». والشاويُّ: صاحب الشاء. لسان العرب (شوه).

(٣) في لسان العرب (مادة: عين): «ولكنني أغدو، عليَّ مفاضَةٌ . . ».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٦): «والوحى الوحى».

(٥) سورة مريم ١٩، الآية ٩٨.

(٦) المثابة: المكان الذي يرجع إليه، والمراد هنا: المستقرّ. لسان العرب (ثوب).

ويروي معنعن حديث حمده وشكره طرس عن قلم عن بنان عن لسان عن فكر، وغيره مَنْ ينام عن ذلك فيوقَظُ، ويسترسل مع الغفلة حتى يُذكر ويوعظ، وما عُهِد منذ وُجِد إلاّ سريعًا إلى داعي الندى والتكرّم، بريئًا من الضجر بالمطالبة(١) والتبرم، حافظًا للجار الذي أوصى النبيّ ﷺ، بحفظه، مستفرغًا وسعه في رَعْيه المستمر ولَحْظه، آخذًا من حسن الثناء في جميع الأوقات والآناء بحظّه: [الخفيف]

فَهْوَ مِنْ دَوْحَةِ السّنا فرعُ عِزٍّ ... ليس يحتاجُ مجتنيهِ لِهَزِّ
كَفُّهُ في الأمحالِ(٢) أغزرُ وبْلٍ ... وذَراه في الخوف أمنع حرز
حلمه يُسْفر اسْمُهُ لكَ عنه ... فَتَفَهَّمْ يا مُدَّعي الفهمِ لُغْزي
لا تَسَلْهُ شَيْئًا ولا تستنلْه ... نظرة منه فيك تغني وتُجْزِي(٣)
فنداهُ هو الفُراتُ الذي قد ... عام فيه الأنامُ عَومَ الإوَزِّ
وحِماه هو المنيعُ الذي تَرْ ... جعُ عنه الخطوب مرجع عجز
فدعوا ذِهْنَه يزاول قولي ... فهو أدرى بما تَضَمَّنَ رَمْزِي
دام يحيىٰ بكل صنع ومنٍّ ... ويعافى من كلِّ بؤسٍ ورجزِ

وكأنًا به قد عمل على شاكلة جلاله، من مدّ ظلاله، وتمهيد خلاله، وتلقى ورودنا بحسن تهلّله واستهلاله، وتأنيسنا بجميل قبوله وإقباله، وإيرادنا على حوض كوثره الْمُتْرَع بزُلاَله، واللّه سبحانه يسعد مقامه العلي ويسعدنا به في حلّه وارتحاله، ومآله وحاله، ويؤيد جنده المظفَّر ويؤيدنا بتأيده(٤) على نزال عدوه واستنزاله، وهَزِّ الذَّوَابل لإطفاء ذُبَالِهِ، وهو سبحانه وتعالى المسؤول أن يريه قرّة العين في نفسه وأهله وخدامه وأمواله، وأنظاره وأعماله، وكافة شؤونه وأحواله، وأحقّ ما نصل بالسلام وأولى، على المقام الجليل مقام الخليفة المولى، أزكى الصلاة والسلام على خاتمة أنبيائه وأرساله، سيدنا ومولانا محمد، ﷺ وعلى جميع أصحابه وآله، صلاةً وسلامًا دائمين أبدًا موصولين بدوام الأبد

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٧): «بالمطال».
(٢) الأمحال: جمع محل وهو الجدب. لسان العرب (محل).
(٣) تستنله: تطلب نواله. تجزي: أصلها: تجزيء، بالهمزة، فقلبت الهمزة ياء لضرورة القافية.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٨): «بتأييده».

واتِّصاله، ضامنين لمجددهما ومرددهمـا صلاح فسـاد[1] أعمالـه، وبلوغ غايـة آمالـه، وذلك بمشيئة اللّٰه تعالى وإذنه وفضله وإفضاله؛ انتهى.

وكاتب هذه الرسالة على لسان السلطان المخلوع، قال الوادي آشي في حقّه: إنه إمام هذه[2] الصناعة، وفارس حَلْبة القرطاس والْيَرَاعة[3]، وواسطة عقد البلاغـة والبراعـة، الذي قطف الكمال لمـا نوّر، ورَتَّب محـاسن البديـع في درر فِقَرِه وطوّر، وغرف من بحـر عجاج، واقتطف من خاطر وَهَّاج، أبو عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه العربي العقيلي[4]، وما أحسن قوله فيمن قد ظفر به المسلمون: [الطويل]

أَلَا رُبَّ مَـغْـرُورٍ تَـنَـصَّـرَ ضِـلَّةً ... فـحـاقَ بِـه شـؤمُ الـضـلالِ وشَـرُّهُ
فـإن يـرتفـع عنـد النصـارى بـالابتـدا ... فكم عنـدنـا من حـرف حبلٍ يجـرُّهُ

وقال الوادي آشي أيضًا في موضع آخر ما نصُّه: ولشاعر العصر، ومالك زمامَيْ النـظم والنثر، والفقيه العـالم المتقن المتفنن العارف الأوحـد النبيه النبيـل، سيدي محمـد العربي وصل اللّٰه تعالى رفعة قدره، وحرس من غِيَرِ الأيام أشعة بَدْرِه[5]: [السريع]

الـحـبُّ فـي جُـمْـهُـورِ أنـوارهِ ... فـأيـن الاخـوانُ والاحـبـابُ
وأيـنَ أيـنَ الاجـتـمـاعـات، قـد ... تَـهَـيَّـأَتْ لـهـنَّ الاسـبـابُ
وأيـن بنت الجبـن؟ لـمـا[6] بَـدَتْ ... طـارت إلـيـهـا شـوقًـا آلـبـاب
وأيـن الالـبـانُ لأكـوابـهـا ... فـي بُـرَمٍ الأرزِّ تـسـكـاب
والـلحمُ بـالـبسـبـاسِ قـد ألـفَـتْ ... لـطبـخـه فـي الـقِـدْرِ الاحـطاب
والـعـودُ ذو دنـدنـةٍ يَـطَّبِـي ... آثـارهـا لـلطّار دبـداب
ومُـلَحِ الأصـواتِ قـد طـورحـتْ ... وجـاء مـعـبـدُ وزريـابُ
وفُضَّ لِـلَّهْـوِ خـتـامٌ ولـم ... يُـسـدَّ فـي وجـهِ الـهـوى بـاب

---

(١) في الطبعة نفسها: «فاسد».
(٢) كلمة «هذه» ساقطة من طبعة دار صادر (ص ٥٤٩).
(٣) اليراعة: القلم. لسان العرب (يرع).
(٤) ترجمة أبي عبد اللّٰه محمد بن عبد اللّٰه العربي العقيلي في أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٠٣).
(٥) هذه القصيدة أقرب إلى الشعر الملحون منه إلى الشعر المعرب.
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٤٩): «مهما بَدَتْ».

وقِيلَ للوقار قُمْ قبل أن تُسْلَبَ عنكَ الآنَ الاثواب
وكلُّ إنسانٍ وما يشتهي ليس على مُناه حُجَّابُ
مسترسلاً ليس له عُذَّلُ كلَّا ولا عليه رُقَّابُ
في راحةٍ خلعتْ أرسانها لمثلها تُعْصَرُ الاعنابُ
فكلُّ بستانٍ قد استأسدتْ فيه النواويرُ والاعشاب
وأطلعَ الترابُ أدواحَهُ كأنها العُرُبُ الاتراب[1]
لَمَّا تحلّت بحلى زهرها داخَلَها بالحسن الاعجاب
عرائسٌ ليس لها في سوى مائهِ إذ ينبه خطّاب[2]
أيام تبدي ثمرات بدا في جَنَباتهنَّ الارطاب
كأنه في العَينِ ياقوتٌ أو كأنه في الفم جُلّابُ
هيهات هيهات أمانٍ لها خُلَّبُ برقٍ لكَ خلّاب
ما حوتِ الرؤوسُ أمثالَها فكيف تحويهنَّ الاذناب
قد عاقَ عن ذلك دهرٌ به تُعْدَمُ الافراح والاطراب
يرومُ الانسان غِلاَبًا لَهُ والدَّهْرُ للإنسان غلّاب

وقال رحمه اللّٰه تعالى لَمَّا نزل النصارى لمحاصرة غَرْناطة: [المجتث]

بالطبلِ في كلِّ يومٍ وبالنفيرِ نُراعُ
وليس من بعد هذا وذاك إلَّا القِراعُ
يا ربِّ جَبْرَك يرجو مَنْ هِيضَ منه الذراعُ
لا تسلبنِّيَ صَبْرًا منه لقلبي ادِّراع

وله رحمه اللّٰه تعالى في الموشحات اليدُ الطولى، فمن ذلك قوله:

بَدْرَ أهلِ الزمان الرفيع القدر
لا تزل في أمان من كسوف البدر

---

(١) العُرُب، بالضم: جمع عروب وهي المرأة المتحببة إلى زوجها. الأتراب: جمع ترب وهو المساوي في السّنّ. لسان العرب (عرب) و (ترب).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٥٠): «ماية أو يُنْبَةَ خَطّابُ».

وله من أخرى:

هل يصح الأمانْ من شبيه البدرِ
وهو مثل الزمانْ منتمٍ للغدرِ
لم يغرَّ الأغرَّ غيرَ غمْرٍ جاهل
عيشُهُ الحلو مُرٌّ وهو فيه ناهل
والصِّبا الغضّ مَرّ وهو عنه ذاهل
مرشفُ البهرمان فوق ثغر الدُّرّ
مطمعٌ للأمان باقتراب الدَّرّ

وعارض رحمه اللّٰه تعالى بهاتين الموشحتين الموشحة المشهورة[1]:

ضاحكٌ عن جُمَانْ سافِرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ وحَواه صَدْري

ومِمَّن عارض هذه الموشحة ابن أرقم إذ قال:

مبسمُ البهرمان في المحيّا الدُّرِّي
صادَ قلبي وبان وأنا لم أدْرِ

والإنصاف أنَّ معارضة العربي أحسن من هذه.

وله أيضًا معارضتان غير ما تقدَّم: الأولى قوله:

بانَ لي ثمّ بان ذا خدودٍ حُمْرِ
ينثني مثلَ بَان في ثيابٍ خضرِ

والثانية قوله:

هل لمِرْآك ثان في سَناه الدُّرِّي
أو لحوباي[2] ثان عن هواها العُذْرِي

(١) الموشحة للأعمى التطيلي وهي في ديوانه (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ودار الطراز (ص ٥٧ ـ ٥٨) وجيش التوشيح (ص ١٦ ـ ١٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤). وتقدم مطلعها هذا في الجزء الرابع وسيرد في الجزء التاسع.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٦ ص ٣٥٢): «لحوبائي».

يـا مـليـحًـا جـلا عـن مُحَـيّـا جـمـيـل
هِـمْـتُ فـيـه ولا هـيـمـان جـمـيـل
مِـلْ قـليـلاً إلـى مَـنْ إلـيـكَ يـمـيـل
عـاشـقٌ فـيـكَ فـانْ كـاتـم لـلسِّـرّ
لـكَ مـنـه مـكـانْ فـي صـمـيـم الـصـدر

ومن نظم العربي المذكور لَمّا عرض عليه السلطانُ رياسةَ كُتّابه من قصيدة: [السريع]

أوَجْـهُ سـعـدي انـحطَّ عـنـه الـلثـامْ أم بـدرُ أُفْـقِي فُضَّ عـنـه الـغـمـامْ
أم أنـا فـي حـالـيَ لا عـقـلَ لـي أم حـلمٌ قـد لاح لـي فـي الـمـنـامْ
يـا لـكَ مَـرْأى مَـنْ رأى حـسـنـه هـاج لـقـلـبـه[1] غـرامًـا فـهـامْ
كـأنـمـا أقـبس نـور الـبَـهـا مـن وجـه مـولانـا الإمـام الـهـمـام
ابـن أبـي الـحـسـن الأسـرى الـذي قـد كـان لـلأمـلاكِ مِسْـكَ الخِتـام
ضـرغـام قـد أنـجـبَ شِـبْـهًـا لـه فـي صـدقِ بـأسٍ ومَـضَـاء اعـتـزام
حـامـى وسـامـى فـأفـاعـيـلُه تَـنْـقُـلُهـا أبـنـاءُ سـامٍ وحـام
دام لـه الـنـصـرُ الـذي جـاءه والـسـيـف من طُـلَى أعـاديـه دام[2]
فـيـا أمـيـر الـمـؤمـنـيـن الـذي لـه بـعـروة الـيـقـيـن اعـتـصـام
أبـشـر بـجـدّ مُـقْـبـلٍ لـم يـؤل إلـى انـصـرافٍ لا ولا لانـصـرام
وعـزة لـم يُـفْضِ بـنـيـانـهـا إلـى انـهـداد لا ولا لانـهـدام
لـلّه مـنـكَ مَـلِكٌ جُـنْـدُهُ زُهْـرُ الـنجـومِ وهـو بَـدْرُ الـتـمـام

ومـنـها:

يـطرب من مـادِحِـهِ مـثـل مـا يـطربُ قلب الصَّبِّ سجعُ الحمامْ
فـيـفـعـل الـشـعـر بـأعـطافِـهِ مـا لـيس تفعـل بـهـنَّ الـمُـدامْ
وإن حكى فـي مـدحـه يـوسفًـا فَحُسْـنُـهُ يُشْبِـهُ زَهْـرَ الكِـمـامْ[3]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٥٢): «للقلب».
(٢) دام: ملوّث بالدم.
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٤ ص ٥٥٣): «في مدحه يوسفًا، فَمَدْحُهُ يُشْبه..».

ومنـــها:

فـدارُهُ لـيسـتْ ببـغـدادهـمْ   مَـعْ أنهـا تُـدعى بـدار السـلامْ

ومنـها:

أسـألـه الإعـفـاء مـن كـلِّ مـا   أعْـجِـزُ عن حـمـلٍ لـه والتـزامْ

ومنـها:

مُسْتَشْفِعًـا لـه بخيـرِ الـورى   محمـد عليـه أزكى السـلامْ

ومنـها:

وكـلُّ إنـسـانٍ ومـا اخـتـاره   ورُبَّ ذي عـذرٍ قـد أضـحى يُـلاَمْ

وآخـرها:

فـالـحـمـدُ لـلَّه عـلى أنْ غَـدَا   للشَّمْـلِ بعد الانصـداعِ التئامْ

ولنختم هذه الترجمة بقوله(١): [المنسرح]

جُـزْ بـالبسـاتين والـريـاض فما   أبْـهَـجَ مَـرْئِـيَّـهـا وأحْـلاهُ
واعجب بهـا للنبـات ولتـكُ في   أسـفـلـه نـاظـرًا وأعـلاهُ
وقَـدِّسِ الـلَّه عـنـد ذاك وقُـلْ   سـبـحـانَـهُ لا إلَـه إلاَّ هـو

سبحان وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين
والحمد للَّه رب العالمين.

تَمّ الجزء السادس من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وبه تم القسم الأول من الكتاب ويليه الجزء السابع مفتتحًا بالقسم الثاني من الكتاب في التعريف بلسان الدين ابن الخطيب.

---

(١) الأبيات في أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٠٣).

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٢ ـ أخبار وتراجم أندلسية مستخرجة من معجم السفر للسلفي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٣ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

٤ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٥ ـ الأعلام للزِّرِكْلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٦ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب (القسم الثاني). تحقيق الأستاذ إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٧ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٨ ـ الأمالي في لغة العرب لأبي علي القالي (١ ـ ٢). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨.

٩ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع لتقي الدين المقريزي (الجزء الأول). تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر. ط. القاهرة، ١٩٤١.

١٠ ـ بدائع البدائه لعلي بن ظافر الأزدي (على هامش معاهد التنصيص ١ ـ ٢). طبعة القاهرة، ١٣١٦ هـ.
١١ ـ بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضَّبِّي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.
١٢ ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ ـ ٤). تحقيق ج. س. كولان وإ. ليڤي بروڤنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.
١٣ ـ تاريخ ابن خلدون (العبر وديوان المبتدإ والخبر)، ثمانية مجلدات في أربعة عشر جزءًا. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.
١٤ ـ تأريخ قضاة الأندلس أو المَرْقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا للنباهي. تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار الكاتب المصري، القاهرة، ١٩٤٨.
١٥ ـ تقويم البلدان لأبي الفداء. تحقيق رينود وماك كوكين دي سلان. باريس، ١٨٥٠.
١٦ ـ التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (١ ـ ٢). طبعة مصر، ويشار إليها بأرقام الصفحات، وإذا أشير إلى رقم الترجمة كان الاعتماد على طبعة مجريط من المكتبة الأندلسية.
١٧ ـ تكملة المعاجم العربية لرينهارت دوزي. نقله إلى العربية الدكتور محمد سليم النعيمي. وزارة الثقافة والفنون بالعراق.
١٨ ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميري. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.
١٩ ـ جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.
٢٠ ـ جيش التوشيح لابن الخطيب. تحقيق الأستاذ هلال ناجي. مطبعة المنار بتونس.
٢١ ـ الحلّة السِّيَراء لابن الأبار (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.
٢٢ ـ الحلل المَوْشِيَّة في ذكر الأخبار المراكشية لابن الخطيب. مطبعة التقدم الإسلامية بتونس، سنة ١٣٢٩ هـ. وهناك طبعة الرباط (١٩٣٦) بتحقيق الأستاذ علوش، مصدَّرة بعبارة «مجهول المؤلّف» وهي عبارة صحيحة لأنه لا يَصِحُّ أن يُنْسب هذا الكتاب إلى ابن الخطيب لأسباب عدة منها الصياغة والمضمون. ونحن اعتمدنا طبعة تونس لعدم توفّر الطبعة الثانية.
٢٣ ـ دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك. تحقيق الدكتور جودت الركابي. دار الفكر بدمشق، ١٩٨٠.
٢٤ ـ درر السمط في خبر السبط لابن الأبار القضاعي. مخطوطة الخزانة الكتانية رقم ٢٠٨١.

٢٥ ـ ديوان ابن حمديس. صححه وقدّم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.
٢٦ ـ ديوان ابن خاتمة الأنصاري الأندلسي. تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية. مطبعة محمد هاشم الكتبي، دمشق، ١٩٧٢.
٢٧ ـ ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر. بيروت، ١٩٨٠.
٢٨ ـ ديوان ابن خفاجة. تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي. دار المعارف بمصر، ١٩٦٠
٢٩ ـ ديوان ابن الدمينة. تحقيق الأستاذ أحمد راتب النفاخ. ط. القاهرة، ١٩٥٩.
٣٠ ـ ديوان ابن رشيق القيرواني. جمعه ورتّبه الدكتور عبد الرحمن ياغي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٩.
٣١ ـ ديوان ابن الزقاق البلنسي، تحقيق السيدة عفيفة ديراني. دار الثقافة، بيروت.
٣٢ ـ ديوان ابن زيدون. شرح وتحقيق الأستاذ كرم البستاني. دار بيروت، بيروت، ١٩٧٩.
٣٣ ـ ديوان ابن زيدون. تحقيق الأستاذ علي عبد العظيم. ط. مصر، ١٩٥٧.
٣٤ ـ ديوان ابن عبد ربّه. حققه وجمعه الدكتور محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.
٣٥ ـ ديوان أبي إسحٰق الإلبيري. تحقيق الأستاذ إميليو غرسية غومس. ط. مدريد ـ غرناطة، سنة ١٩٤٤.
٣٦ ـ ديوان أبي فراس الحمداني (شرح ديوان أبي فراس الحمداني). دار مكتبة الحياة، بيروت.
٣٧ ـ ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.
٣٨ ـ ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.
٣٩ ـ ديوان البوصيري. تحقيق الأستاذ محمد سيد كيلاني. القاهرة.
٤٠ ـ ديوان جميل بثينة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٤.
٤١ ـ ديوان الحطيئة. دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.
٤٢ ـ ديوان الشريف الرضي (١ ـ ٢). دار صادر ودار بيروت، بيروت.
٤٣ ـ ديوان القطامي. تحقيق الأستاذ إبراهيم السامرائي. بيروت، ١٩٦٠.
٤٤ ـ ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب) للشيخ ناصيف اليازجي. دار القلم ببيروت.
٤٥ ـ ديوان مجنون ليلى، تحقيق الأستاذ عبد الستار أحمد فراج. ط. مكتبة مصر، القاهرة.

٤٦ ـ ديوان المعتمد بن عباد. تحقيق الأستاذين أحمد بدوي وحامد عبد المجيد. القاهرة، ١٩٥١.
٤٧ ـ ديوان النابغة الذبياني. حققه وقدم له الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.
٤٨ ـ الذخيرة السنيّة في تاريخ الدولة المرينية. تحقيق الأستاذ محمد بن أبي شنب. ط. الجزائر، ١٩٢٠.
٤٩ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشَّنْتَريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.
٥٠ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.
٥١ ـ رسائل ابن حزم الأندلسي (١ ـ ٤). تحقيق الدكتور إحسان عباس. المؤسسة العربية للدارسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠ ـ ١٩٨٣.
٥٢ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.
٥٣ ـ السفن الإسلامية على حروف المعجم للأستاذ درويش النخيلي. الإسكندرية، ١٩٧٤.
٥٤ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.
٥٥ ـ الصلة لابن بشكوال (١ ـ ٣). تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب المصري بالقاهرة، دار الكتاب اللبناني ببيروت، ١٩٨٩.
٥٦ ـ طبقات الأمم للقاضي صاعد الأندلسي. نشر الأب لويس شيخو. ط. المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩١٢.
٥٧ ـ العقد الفريد لابن عبد ربه (١ ـ ٧). شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.
٥٨ ـ عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية لأبي العباس الغبريني. الطبعة الأولى، الجزائر، ١٩١٠.
٥٩ ـ عيون الأخبار لابن قتيبة (١ ـ ٢). شرح وضبط الدكتور يوسف طويل؛ (٣ ـ ٤) شرح وضبط الدكتور مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.
٦٠ ـ فجر الأندلس (دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية) للدكتور حسين مؤنس. القاهرة، ١٩٥٩.
٦١ ـ الفصل في الملل والنحل لابن حزم الظاهري (١ ـ ٥). ط. المطبعة الأدبية، مصر، ١٣١٧ ـ ١٣٢١ هـ.
٦٢ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.


٦٣ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.
٦٤ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.
٦٥ ـ الكامل في التاريخ لابن الأثير (١ ـ ١٣). دار صادر، بيروت، ١٩٨٢.
٦٦ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.
٦٧ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، ١٩٥٥.
٦٨ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.
٦٩ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.
٧٠ ـ مذكرات الأمير عبد اللّٰه آخر ملوك بني زيري بغرناطة. نشر وتحقيق إ. ليڤي بروڤنسال. دار المعارف بمصر، ١٩٥٥.
٧١ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (١ ـ ٤). دار الأندلس، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨١.
٧٢ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.
٧٣ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.
٧٤ ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي. تحقيق الأستاذ محمد سعيد العريان. ط. القاهرة، ١٩٦٣.
٧٥ ـ معجم البلدان لياقوت الحموي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.
٧٦ ـ معجم الشعراء للمرزباني، ومعه المؤتلف والمختلف للآمدي. تصحيح الدكتور ف. كرنكو. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.
٧٧ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.
٧٨ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.
٧٩ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.
٨٠ ـ ملء العيبة في ما جمع في الرحلة بطول الغيبة (رحلة ابن رشيد السبتي). مخطوطة الإسكوريال (١ ـ ٥). رقم ١٧٣٩ . . . . الخ.
٨١ ـ ملحق المعاجم العربية للمستشرق رينهارت دوزي (١ ـ ٢). ط. ١٩٢٧.

٨٢ ـ نخبة الدهر في عجائب البَرِّ والبحر لشيخ الربوة. طبع بمدينة بطرسبورغ في مطبعة الأكاديمية الإمبراطورية، سنة ١٨٦٥.
٨٣ ـ الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ١٧). فيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.
٨٤ ـ وفيات الأعيان لابن خَلِّكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.
٨٥ ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٤). دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩.

* * *

فهرس الجزء السادس من كتاب
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقري

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٨٣٨١٥١-٨٣١٧٠٢ - بيروت - لبنان



Bibliotheca Alexandrina
0581043